



الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

مشروع بحث لنيل درجة الماجستير في
تاريخ العرب الحديث والمعاصر

بغنوان

بلاد الشام في العصر العثماني من خلال الرحلات
المغربية " ١٦٠٠ - ١٩٠٠ "

إشراف الدكتورة بشرى خير بك

إعداد الطالب ربيع يوسف عثمان

(١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)

محتويات البحث

- مقدمة : حول أهمية البحث ، وأسباب اختياره ، وإشكاليته وأهدافه ومنهجيته وأهم مصادره (٧ — ١٢)
- تمهيد : حول أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ (١٣ — ١٦)

الفصل الأول

دراسة موجزة لتاريخ الوطن العربي في العصر العثماني (١٧ — ٨٥)

- أولاً — الوضع الدولي في مطلع القرن السادس عشر ١٧
- ثانياً — السيطرة العثمانية على المنطقة العربية ٢٠
- ١ — السيطرة العثمانية على بلاد الشام ومصر ٢١
- ٢ — السيطرة العثمانية على العراق ٢٤
- ٣ — السيطرة العثمانية على الحجاز واليمن ٢٧
- ٤ — السيطرة العثمانية على المغرب العربي ٢٩
- ثالثاً — مرحلة القوة العثمانية في القرن السادس عشر ٣٦
- رابعاً — مرحلة الضعف العثماني في القرن السابع عشر ٤٢
- ١ — ثورات العساكر ٤٢
- ٢ — ثورات الأمراء ٤٥
- خامساً — مرحلة سيطرة القوى المحلية في الولايات العربية ٥٠

- ١- بلاد الشام ٥٠
- ٢- العراق ٥٦
- ٣ - مصر ٦٠
- ٤ - المغرب العربي ٦٩
- سادساً - مرحلة مركزية الحكم العثمانيّ وازدياد التدخّل الغربيّ ٧٧

الفصل الثاني

بلاد الشام من خلال الرّحلات المغاربية في القرن السابع عشر..... (٨٦-١٣٧)

- أولاً - لمحة عن الرّحلات المغاربية إلى بلاد الشام قبل العصر العثمانيّ ٨٦
- ثانياً - أبو العباس أحمد المقرئ (٩٨٦-١٠٤١هـ / ١٥٧٨-١٦٣٢م) ٩١
- ١- المولد والنشأة ٩٢
- ٢- مؤلفاته ٩٥
- ٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه المقرئ ٩٨
- ٤- بلاد الشام في رحلة المقرئ ١٠٠
- أ - القدس في كتابات المقرئ ١٠١
- ب - دمشق في كتابات المقرئ ١٠٢

ثالثاً - عبد الله بن محمد العياشي (١٠٣٧-١٠٩٠هـ / ١٦٢٨-١٦٧٩م) "الرحلة العياشيّة"

- ١- المولد والنشأة ١٠٧
- ٢- مؤلفاته ١٠٨
- ٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه العياشي ١٠٨

- ٤ — بلاد الشام في الرحلة العياشية ١١٥
- أ — الجوانب السياسية ١١٦
- ب — الجوانب الاقتصادية ١١٧
- ج — الجوانب الاجتماعية ١١٨
- د — الجوانب الثقافية ١١٩
- هـ — الجوانب العمرانية ١٢٣
- رابعاً — مقارنة بين كتابات الرحالة المغاربة وكتابات بعض الرحالة العرب المشاركة والأوروبيين الذين زاروا بلاد الشام في القرن السابع عشر ١٢٥
- خامساً — استنتاجات ١٣٦

الفصل الثالث

بلاد الشام من خلال الرحلات المغربية في القرن الثامن عشر..... (١٣٨-١٩٧)

أولاً — محمد بن عبد الوهاب المكناسي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته — ١٢١٣هـ / ١٧٩٩) " رحلة المكناسي " :

- ١ — المولد والنشأة ١٣٩
- ٢ — مؤلفاته ١٤٢
- ٣ — الطريق الجغرافي الذي سلكه المكناسي ١٤٥
- ٤ — بلاد الشام في رحلة المكناسي ١٥٦
- أ — الجوانب السياسية ١٥٦
- ب — الجوانب الاقتصادية ١٥٩
- ج — الجوانب الاجتماعية ١٦٠

د — الجوانب الثقافية ١٦٦

هـ — الجوانب العمرانية ١٦٧

ثانياً — أبو القاسم الزياني (١١٤٦ — ١٢٤٨ هـ / ١٧٣٤ — ١٨٣٣ م) " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً "

١ — المولد والنشأة ١٧١

٢ — مؤلفاته ١٧٣

٣ — الطريق الجغرافي الذي سلكه أبو القاسم الزياني ١٧٥

٤ — بلاد الشام في رحلة الزياني ١٨٠

أ — الجوانب السياسية ١٨٠

ب — الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ١٨١

ج — الجوانب الثقافية ١٨٣

د — الجوانب العمرانية ١٨٤

ثالثاً — مقارنة بين كتابات الرحالة المغاربة وكتابات بعض الرحالة العرب المشاركة والأوروبيين الذين زاروا بلاد الشام في القرن الثامن عشر..... ١٨٩

رابعاً — استنتاجات ١٩٦

الفصل الرابع

بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن التاسع عشر.... (١٩٨ — ٢٥٩)

أولاً — الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٢٢ — ١٣٠٠ هـ / ١٨٠٧ — ١٨٨٣ م)

١ — المولد والنشأة ١٩٩

٢ — مؤلفاته ٢٠٤

- ٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه الأمير عبد القادر الجزائري ٢٠٥
- ٤- بلاد الشام في مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري ٢٠٩
- ثانياً - محمد بيرم الخامس (١٢٥٦-١٣٠٧هـ/١٨٤٠ - ١٨٨٩م) " صفوة الاعتبار
بمستودع الأمصار والأقطار "

- ١- المولد والنشأة ٢١٠
- ٢- مؤلفاته ٢١٣
- ٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه محمد بيرم الخامس ٢١٥
- ٤ - بلاد الشام في " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " .. ٢١٩
- أ - الجوانب السياسية ٢١٩
- ب - الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ٢٢١
- ج - الجوانب الثقافية ٢٢١
- د - الجوانب العمرانية ٢٢٤

ثالثاً - محمد السنوسي (١٢٦٧-١٣١٨هـ/١٨٥٠-١٩٠٠م) " الرحلة الحجازية "

- ١- المولد والنشأة ٢٢٥
- ٢- مؤلفاته ٢٢٨
- ٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه محمد السنوسي ٢٢٩
- ٤- بلاد الشام في الرحلة الحجازية ٢٣٤
- أ - الجوانب السياسية ٢٣٨
- ب - الجوانب الاقتصادية ٢٣٩
- ج - الجوانب الاجتماعية ٢٤٠
- د - الجوانب الثقافية ٢٤٢

هـ — الجوانب العمرانية ٢٤٤

رابعاً — مقارنة بين كتابات الرّحالة المغاربة وكتابات بعض الرّحالة العرب المشاركة
والأوروبيين الذين زاروا بلاد الشّام في القرن التاسع عشر..... ٢٤٥

خامساً — استنتاجات ٢٥٩

— الخاتمة.....(٢٦٠ — ٢٦٢)

— الملاحق.....(٢٦٣ — ٢٨٩)

— قائمة المصادر والمراجع.....(٢٩٠ — ٣٠٠)

— مقدمة : حول أهمية البحث ، وأسباب اختياره ، وإشكاليته وأهدافه ومنهجيته وأهم مصادره.

ارتبط تاريخ المغرب العربي مع المشرق العربي منذ القديم بروابط عدة ، وازداد هذا الارتباط قوة ومتانة بعد انتشار الدعوة الإسلامية ، وكان للإشعاع الحضاري والفكري والروحي لهذه الدعوة الأثر الكبير في استمرار هذا الارتباط الذي انتظمت فيه العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الشطرين المشرقي والمغربي ، ويضاف إلى العامل الديني — في هذا الارتباط — الوحدة الجغرافية التي تمتعت بها المنطقة العربية ، حيث شكّل الوطن العربي عبر التاريخ وحدة متكاملة سمحت لقاطنيه بالتنقل من محيطه إلى خليجه دون أي عائق يُذكر — سوى قناة السويس التي افتُتحت سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، ثم قيام الكيان الصهيوني في فلسطين سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م — وقد أثّرت هذه التنقلات والأسفار عن رحلات مهمة ترجمت لنا الواقع الذي عاشه الرحّالة أثناء ترحالهم ، فاستقطب المشرق العربي ، الرحالة العرب القادمين من المغرب إلى المشرق ، لأداء فريضة الحج ، وزيارة الأماكن المقدسة ، والمزارات الإسلامية الكبرى التي لها مكانتها الكبيرة في نفوس وقلوب جميع المسلمين في العالم .

وقد حظيت بلاد الشام باهتمام كبير من قبل الرحّالة المغاربة الذين كانوا حريصين على زيارة بعض مدنها كالقدس التي تضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومسجد قبة الصخرة المباركة ، إضافة إلى عدد كبير من مزارات الأنبياء والأولياء ، ومدينة دمشق وجامعها الأموي ومزارات الأولياء والصالحين المدفونين في هذه المدينة ، فضلاً عن كونها أحد أهم مراكز العلم في المشرق العربي. ومن الرحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشام في العصور الوسطى نذكر الإدريسي في القرن الثاني عشر، والعبدري في القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة ، والبلوي في القرن الرابع عشر، وتابع الرحالة المغاربة هذا النهج في القرون اللاحقة حيث زار أبو العباس أحمد المقرئ ، وعبدالله بن محمد العياشي بلاد الشام في القرن السابع عشر، ومحمد بن عبد الوهاب المكناسي ، وأبو القاسم الزياني في القرن الثامن عشر ، وعبد القادر الجزائري ومحمد بيرم ومحمد السنوسي في القرن التاسع عشر.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تتعلق أهمية البحث من العنوان نفسه ، أي من أهمية بلاد الشام في العصر العثماني ، وأهمية كتب الرحلات في دراسة التاريخ . وفيما يتعلّق بأهمية بلاد الشام ، فقد احتلت هذه

المنطقة مكانة كبيرة في جميع مراحل التاريخ القديمة والوسطى والحديثة ، وكانت منطقة تجاذب بين القوى الكبرى التي سعت للسيطرة عليها ، لما تملكه من مزايا تتعلّق بالنواحي السياسية والاقتصادية والإستراتيجية والدينية ، وازدادت أهمية بلاد الشام في الفترة العثمانية لأسباب عدّة منها وقوع بلاد الشام في قلب الدولة العثمانية ، وتحكمها بطرق المواصلات البرية للدولة العثمانية مع ولاياتها العربية ، وخاصة المؤدّية إلى الحجاز حيث الأماكن المقدسة ، وأيضاً قُرب هذه المنطقة من العاصمة العثمانية ، مما منحها أهمية خاصة لدى سلاطين آل عثمان ، فاستقرارها يعني استقرار العاصمة استانبول ، والعكس صحيح . وفيما يتعلّق بأهمية كتب الرّحلات في دراسة التاريخ ، فهذا النوع من الكتابات يقدّم للباحثين معلومات غنية ووفيرة تخدم جميع فروع المعرفة ، لأنّ الرّحالة يسجّلون معلوماته بناءً على مشاهداتهم المباشرة على أرض الواقع ، وعلى اتصالهم المباشر بالناس ورجال السياسة والعلم والدين . أمّا أسباب اختيار البحث فتعود إلى عدم وجود أيّ دراسة لبلاد الشام من خلال كتب الرّحلات فقط ، رغم تعدد الدراسات التي تناولت مدينة ما ، أو منطقة ما من خلال رحلة معينة ، أو عدد من الرّحلات دون تحديد هُويّتها ، وهذا ما دفعنا لضرورة دراسة تاريخ بلاد الشام من خلال الرّحلات المغاربية ، ومقارنة هذه الرّحلات مع ما ذكره الرّحالة العرب المشاركة ، والرّحالة الغربيون الذين زاروا بلاد الشام في الفترة نفسها .

إشكالية البحث وأهدافه ومنهجيّته :

تعدّدت الرّحلات التي رصدت جوانب عديدة في تاريخ بلاد الشام ، وتعدّدت هُويّة مؤلّفيها فمنهم المشاركة ، ومنهم المغاربة ، إضافة إلى رّحالة غربيين وعثمانيين غير أنّ خصوصيّة المرحلة العثمانية في بلدان المغرب العربي - عدا المغرب الأقصى - قد أعطت خصوصيّة للرّحالة المغاربة الذين قاموا برحلاتهم إلى المشرق ، وقد طُبعت رحلاتهم بهذه الخصوصيّة من حيث إشارتهم لبعض المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وذكرهم للعادات والتقاليد في بلاد الشام ، وحرصهم على لقاء كبار العلماء والفقهاء المعروفين في المدن الشاميّة . ولهذا فإنّ البحث يهدف إلى دراسة بلاد الشام في العهد العثماني من خلال كتب الرّحالة المغاربية ، والتركيز على المعلومات الثقافية والاجتماعية التي حظيت باهتمام الرّحالة ، والتي لا نجد ذكراً لها في المصادر التاريخية الأخرى ، إضافة إلى دراسة بلدانيّة بلاد الشام ، وكذلك دراسة طريق السفر الذي سلكه كلّ رّحالة ، لما له من دلالات سياسية واقتصادية واجتماعية ، وما حدث من تغيّرات على هذا الطريق في العهد العثماني .

وقد تمّ استخدام بعض الرموز في البحث خلال التوثيق للإشارة إلى المصادر والمراجع التي لم يردّ فيها بعض التفاصيل المتعلقة بدار النشر ومكان النشر وسنة النشر ، فالرمز (د.ن) يشير إلى عدم ذكر دار النشر ، والرمز (د.م) يشير إلى عدم ذكر مكان النشر ، والرمز (د.ت) يشير إلى عدم ذكر تاريخ النشر .

وقد اعتمد البحث على دراسة سبّع رحلاتٍ لرحالةٍ مغاربة زاروا بلاد الشام خلال العهد العثماني وهي :

— أبو العباس أحمد المقرئ (٩٨٦-١٠٤٠هـ/١٥٧٨-١٦٣١م) وهو من أشهر رجال العلم والفقّه في عصره ، قام برحلته " رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق " إلى المشرق سنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م ، وقد حَقَّق هذه الرحلة محمد بن معمر ، وتمّ نشرها من قبل مكتبة الرشاد في الجزائر سنة ٢٠٠٤م .

— عبد الله بن محمد العياشي (١٠٣٧-١٠٩٠هـ/١٦٢٨-١٦٧٩م) وهو رجل دين ، وقام برحلته " الرحلة العياشية ١٦٦١ - ١٦٦٣ " إلى المشرق ما بين سنتي (١٠٧١-١٠٧٣هـ/١٦٦١-١٦٦٣م) ، وقد حَقَّق هذه الرحلة سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ، وتمّ نشرها من قبل دار السويدي في أبو ظبي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت سنة ٢٠٠٦م ، وهي جزءان .

— محمد بن عبد الوهاب المكناسي (*) ^(١) (١٢١٣هـ/١٧٩٩م) وهو من أشهر رجال السياسية في البلاط المغربي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وقام برحلته " إحرار المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب ١٧٨٥ " إلى المشرق في سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م ، وقد حَقَّق هذه الرحلة محمد بوكبوت ، وتمّ نشرها من قبل دار السويدي في أبو ظبي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت سنة ٢٠٠٣م .

— أبو القاسم الزياني (١١٤٦-١٢٤٨هـ/١٧٣٤-١٨٣٣م) وهو كبار أحد رجالات البلاط المغربي في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، قام برحلته " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً " إلى المشرق سنة ١٢٠٨ هـ ١٧٩٣م ، وقد حَقَّق هذه الرحلة ونشرها عبد الكريم الفيلاي في الرباط سنة ١٩٩١م .

(١) لا يوجد تاريخ دقيق لولادته

— عبد القادر الجزائري (١٢٢٢ — ١٣٠٠هـ / ١٨٠٧ — ١٨٨٣م) أحد أهم شخصيات القرن التاسع عشر ، وقد كتب مذكراته في منفاه في فرنسا " مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري " قام الأمير عبد القادر الجزائري برحلة إلى المشرق رفقة والده محيي الدين سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م ، وزار خلالها دمشق والقدس وبغداد ، وضمن الأمير أخبار تلك الرحلة وقد حقق هذه الرحلة محمد الصغير بناتي ومحفوظ سماتي ومحمد صالح ألجون ، وتم نشرها من قبل دار الأمة في الجزائر سنة ٢٠٠٧م .

— محمد بيرم الخامس (١٢٥٦ — ١٣٠٦هـ/ ١٨٤٠ — ١٨٨٩م) أحد أهم رجال الفكر والسياسية في تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قام برحلته " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " وزار خلالها مدينة بيروت بعد عودته من الحجاز إلى العاصمة العثمانية في سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م ، وتتألف هذه الرحلة من خمسة أجزاء ، وتم نشرها من قبل دار صادر في بيروت .

— محمد السنوسي (١٢٦٧ — ١٣١٨هـ/ ١٨٥٠ — ١٩٠٠م) أحد أبرز رجال العلم والسياسة في تونس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد قام برحلته " الرحلة الحجازية " إلى المشرق سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، وتتألف الرحلة من ثلاثة أجزاء ، وقد حقق هذه الرحلة علي الشنوفي ، وتم نشرها من قبل الشركة التونسية للتوزيع في تونس سنة ١٩٨١م .

كما تم دراسة عدد من كتابات الرحالة العرب المشاركة والأوربيين الذين زاروا بلاد الشام في فترة قريبة من زيارة الرحالة المغاربة ، بهدف مقارنة المعلومات وإغناء البحث ، وخصوصاً في الجوانب التي أغفل الرحالة المغاربة الحديث عنها ، كالجوانب الاقتصادية وأوضاع بعض المناطق التي لم يزورها الرحالة المغاربة ، ومن أهم تلك المصادر .

— ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، ٣ أجزاء ، (د.ن) ، بغداد ، ١٩٨١ .

— محمد عبد الجواد القاياتي : نفحة البشام في رحلة الشام ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١ .

— نعمان أفندي القساطلي : الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية ، جزءان ، مكتبة الأسد ، دمشق ، الجزء الأول برقم ٤٩١٩ ، الجزء الثاني برقم ٤٩٢٠ .

- Browne , W, G, **Travels in Africa ,Egypt, and Syria from years 1792 to 1798** , London , T . Cadell Junior and W. Davies, 1799 .

- Maundrell , Henry , **A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697**, Beirut, Khayats , 1963 .

- volney . M.C. F. **Travels though Syria , Egypt in the years 1783 – 1784 and 1785**, two Volumes, London , 1972.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ المعلومات التي وردت في كتب الرّحالة من حيث الكم والكيف فرضت مخطط البحث ، فتمّ تقسيم البحث إلى مقدّمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة ، فتناولت المقدّمة أهميّة البحث ، وأسباب اختياره ، وإشكاليّته وأهدافه ومنهجيّته وأهمّ مصادره . بينما ناقش التمهيد أهميّة كتب الرّحلات في تدوين التاريخ . أما بالنسبة للفصول فقد قدّم الفصل الأول دراسة موجزة لتاريخ الوطن العربي في العصر العثماني فدرس الوضع الدولي في مطلع القرن السادس عشر ، والدخول العثماني إلى المنطقة العربية ، ومرحلة القوة العثمانية في القرن السادس عشر ، ومرحلة الضعف العثماني في القرن السابع عشر ، ومرحلة سيطرة القوى المحلية في الولايات العربية ، ومركزية الحكم العثماني وازدياد التدخل الغربي .

بينما تناول الفصل الثاني والثالث والرابع بلاد الشام من خلال كتابات الرّحالة المغاربة في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، حيث تمّ تخصيص الفصل الثاني لدراسة بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن السابع عشر " رحلتي المقرّي والعياشي " ، والفصل الثالث لدراسة بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن الثامن عشر " رحلتي المكناسي والزياني " ، والفصل الرابع لدراسة بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن التاسع عشر " رحلات الأمير عبد القادر ومحمد بيرم الخامس والسنوسي " ، ويعالج كلّ فصل نقاطاً عدّة ، منها حياة كلّ رحالة ، ومؤلفاته ، ودراسة الطريق الجغرافي الذي سلكه الرحالة في رحلته إلى بلاد الشام ذهاباً وإياباً حيث تمّت دراسة أحوال هذا الطريق من نواح عدّة ، وتمّ التعريف بأسماء الكثير من المدن والقرى التي مرّ بها الرحالة ، كما أرفقت كلّ رحلة بخريطة توضح مسار الطريق الذي سلكه الرحالة ذهاباً وإياباً ^(١) ، كما تعرّض البحث أيضاً لدراسة أوضاع بلاد الشام من خلال ما دونه هؤلاء الرّحالة من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، وتمّ مقارنة ما تم استخلاصه من هذه الرحلات مع بعض ما دونه بعض الرّحالة العرب والأوربيين الذين زاروا بلاد الشام في فترات قريبة من زيارة الرّحالة المغاربة لهذه المنطقة بهدف مقارنة المعلومات ، والتطرّق إلى بعض النواحي التي أغفل الرحالة المغاربة الحديث عنها ، خصوصاً الاقتصادية منها . وفي الخاتمة تمّ عرض النتائج التي توصل إليها البحث من النواحي الجغرافية المتعلّقة بالطرق التي سلكها

(١) يرجى الإطلاع على تلك الخرائط في الملاحق ص . ٢٨٥ – ٢٩١ .

الرحالة المغاربة إلى بلاد الشام ، والنواحي المتعلقة بأوضاع بلاد الشام السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، فتمكنا من خلال دراسة الناحية الجغرافية للطريق الذي سلكه الرحالة من التعرف على التغيرات والتطورات التي طرأت على طرق المواصلات بين المشرق العربي والمغرب العربي بفعل العوامل الأمنية والتطورات العلمية التي شهدتها العالم كتحسن صناعة السفن وافتتاح قناة السويس .

كما قدّم الرحالة المغاربة بعض المعلومات عن الأوضاع السياسية في بلاد الشام في المرحلة العثمانية ، كحديثهم عن فقدان الأمن وانتشار اللصوص وقطاع الطرق وكثرة اعتداءات البدو على المدن والقرى القريبة منهم ، وخاصة في فلسطين ، وإشارتهم إلى ضعف السلطة المركزية للدولة العثمانية في بعض المناطق ، مقابل ازدياد النفوذ المحلي فيها ، وتعريفنا بأسماء بعض الولاة والحكام والمفتيين والقضاة الذين كانوا يتولون إدارة أمور الحكم في بعض المناطق من بلاد الشام كوالي عكا أحمد باشا الجزار ، وحديثهم عن الظلم الكبير الذي يتعرض له السكان المحليين من قبل حكامهم ، وإشارتهم إلى الفساد المستشري بكثرة بين الحكام والقضاة في بلاد الشام . أما من الناحية الاقتصادية ، فساهمت كتابات الرحالة المغاربة في تعريفنا على بعض الزراعات والصناعات المنتشرة في بعض المناطق الشامية ، كزراعة الزيتون في منطقتي جسر الشغور، وقرية الرّمة في فلسطين ، وزراعة القطن والمشمش الحموي في حماه ، وزراعة الحبوب في القدس ، ونسج الحرير الطبيعي في حمص ، إضافة إلى ما ذكره الرحالة المغاربة من الناحية التجارية عن الفوائد المادية الكبيرة التي يجنيها سكان بلاد الشام من خلال مرور قوافل الحج المتجهة إلى الحجاز في مناطقهم .

أما فيما يتعلق بالناحية الاجتماعية والثقافية ، فعرفنا الرحالة المغاربة على عدد كبير من المزارات الموجودة في مختلف المدن الشامية ، كما ساهمت كتاباتهم بتعريفنا بأسماء عدد من العلماء والفقهاء الذين اجتمعوا بهم ، إضافة إلى رصدتهم لبعض العادات والتقاليد السائدة في بلاد الشام ، كالكرم وحسن استقبال الغرباء ، وغلاء المهر في بعض المناطق كمنطقة حوران كما قدّم الرحالة المغاربة الكثير من المعلومات المتعلقة بالجوانب العمرانية الدينية منها كالمساجد والجوامع ، فوصفوا بعضها كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة والجامع الأموي ، والمدنية منها كعمران بعض المدن كدمشق وأنطاكية والقدس وبيروت ، لترسم لنا تلك الكتابات صورة واضحة عن تطور وتأخر الأوضاع العمرانية لتلك . وفي الختام لابدّ من توجيه الشكر والامتنان إلى الدكتورة بشرى خير بك على الجهود الكبيرة التي بذلتها لإخراج هذا البحث بالشكل الأمثل ، وإلى لجنة التحكيم الموقرة على الجهود التي بذلتها في قراءة البحث وتقييمه .

تمهيد

— أهمية كتب الرحلات في تدوين التاريخ :

لو أردنا تعريف كلمة الرحلة من الناحية اللغوية لوجدنا أنّ هذه الكلمة مشتقة من الترحال والارتحال ، فالرحلة تعني السير في الأرض ، وكذلك جاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان إلى آخر ، وجاءت أيضاً بمعنى الجهة التي يقصدها المسافر^(١). ومما سبق يمكن القول إنّ الرحلة تعني الانتقال من مكان إلى آخر، وتختلف أغراض الرحلات ودوافعها باختلاف الأغراض الإنسانية^(٢) ، إلا أنها في الغالب لا تخرج عن أنّ تكون لدوافع دينية ، كأن يرتحل الإنسان من أجل القيام بزيارة الأماكن المقدسة رغبة منه في أداء واجبه الديني ، أو لدوافع علمية بهدف طلب العلم ، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف " اطلب العلم ولو في الصين"^(٣)، أو لدوافع سياسية ، كالوفود والسفارات التي تجري بين الدول، وذلك لتبادل الرأي ووجهات النظر وتوطيد العلاقات ومناقشة القضايا والمسائل المشتركة فيما بينها ، أو لدوافع اقتصادية بقصد التجارة ، أو لدوافع صحية كالسفر للعلاج من بعض الأمراض ، أو لدوافع سياحية رغبة في تغيير الأجواء ، والتعرف على مناطق جديدة وعلى حضارات الشعوب وتاريخها.

لقد قام الكثير من الرحالة بتدوين أخبار أسفارهم ورحلاتهم ، وإن اختلفوا في الأسباب التي دفعتهم للقيام بذلك ، فالبعض قام بتدوين أخبار رحلته تنفيذاً لرغبة الحاكم ، أو بطلب من الأصدقاء ، أو برغبة الرحالة أنفسهم في إفادة الناس حيث تكون تلك الرحلة دليلاً يساعد المسافرين في التعرف على الطرق ، كالطريق إلى الديار المقدسة ، وكيفية الوصول إليها والتجول فيها ، وكذلك لإبراز تاريخ البلدان وحضارتها وشعوبها، والتعريف بالبلدان الغريبة ، وإبراز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها.

وبرز العديد من الرحالة العرب الذين قاموا برحلات كثيرة ، لم تقتصر على زيارة البلدان الإسلامية فحسب ، بل شملت بقاع عديدة كالرحالة العربي الشهير " ابن فضلان " الذي قام برحلة إلى بلاد البلغار بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة ٣٠٩هـ /

(١) أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي ، جدة ، (د.ت) ، ص ٧ .

(٢) معن زيادة : الرحلات العربية والرحالات ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد ٥١ ، السنة التاسعة ، ١٩٨٨ ، ص ٤.

(٣) المرجع السابق ، ص ٥ .

٩٢١م^(١) ، و" ابن بطوطة " الذي يُعدُّ من أشهر الرّحالة في العالم حيث زار الكثير من البلدان كبلاد العرب، والهند، وجزيرة سيلان، والصين، والقسطنطينية، وعدداً من البلدان الإفريقية ، وتحدّث عن ثقافتها وعاداتها وطبيعتها ، و" المقدسي " الذي طاف في أنحاء الممالك الإسلامية من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، ومن القسطنطينية إلى جنوب الجزيرة العربية ، و" ياقوت الحموي " صاحب موسوعة "معجم البلدان " التي احتوت على الكثير من المعلومات التي تتعلّق بأعلام البلدان، وإحداثيات المدن، وتاريخها ، والرّحالة المراكشي " الحسن بن محمد الوزاني " الشهير " بليون الإفريقي " الذي وصف إفريقيا وصفاً دقيقاً في كتابه " وصف إفريقيا " ، هذا بالإضافة إلى أسماء أخرى " كالإدريسي ، والبيروني ، والبلوي ، والعبدري " وغيرهم .

ومما لا شكّ فيه أنّ كتب الرّحلات غنية بموضوعاتها ، لأنّ الرّحالة تحمّلوا الكثير من الصّعاب والمشاقّ أثناء سفرهم ، فالرّحلة هي تعبير صادق عمّا شاهده الرّحالة ، أو ذكره خلال رحلته من حوادث ومشاهد وقصص ، ويكون هذا التعبير عادةً مطبوعاً بشعوره وأحاسيسه وتأمّلاته وآرائه تجاه ما لقيه من أشخاص ، وما حظي به من معاملة ، أو ما شاهده من ظواهر، وغالباً ما تنعكس اهتمامات الرّحالة على كتاباته ، فتأتي تلك الكتابات متأثرة بثقافته ومجال اهتمامه ، فنجد الرّحالة الجغرافيّ والرّحالة الأدبيّ والرّحالة الفقيه والرّحالة الشاعر والرّحالة الصوفي ، فتأتي الرّحلة مزيجاً من إنتاجه العلمي مطبوعاً بالجانب الأدبي الذي يستخدمه في التعبير عن مشاهداته ، وبصورة عامة فالرّحالة يهتم بمعرفة كل ما يتعلّق بالبلاد التي زارها بما ينسجم مع اهتماماته ، فنظرة الرّحالة للبلدان التي يمرّون بها تختلف عن نظرة أبنائها إليها ، وفي العموم تكون كتابات الرّحالة محايدة ، لكن لا بدّ لنا من الاعتراف بأنّ الرّحلة تتأثر بشخصية كاتبها الذي لا يهدف فقط إلى عرض مجريات رحلته ، بل التأثير في المُطلّع عليها .

ويتميّز أدب الرّحلة عند العرب بظهور شخصيات الرّحالة فيها ، فهم لا يكتفون بوصف مراحل الطريق ، بل يذكرون جميع المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في البلدان التي يمرّون بها^(٢) ، ومن الطبيعي أنّ الرّحلات ليست جميعها في مستوى جيد ، وذلك لأنّ الرّحالة يختلفون في دقة ملاحظتهم وتركيزهم ، ودرجة اهتماماتهم ،

(١) محمود حسين حسني: أدب الرحلة عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ١٢ .

(٢) محمد حسن زكي : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، شركة نوايغ الفكر ، القاهرة ، ٢٠٠٨م ، ص ١٧٩ .

وفي نوع هذه الاهتمامات ، وكذلك يختلفون في درجة صدقهم وأمانتهم وقدرتهم على فهم الأمور^(١).

وقد حظيت مؤلفات هؤلاء الرّحالة في وقتنا الراهن بكثير من الاهتمام من حيث دراستها والبحث فيها ونشرها بسبب ما تضمّنته من مادة غنيّة ، وما أضافته من إضاءاتٍ لجميع فروع العلم والمعرفة ، كالجغرافيا والتاريخ والأدب والاقتصاد والاجتماع والسياسية ، هذا فضلاً عن التشويق الذي يتمتع به هذا النوع من الكتابات ، لأنّ الرّحالة أثناء ترحاله يسجّل كلّ ما يسمعه ويراه ، وكثيراً ما يُبالغ لإضفاء التشويق على كتاباته^(٢) . وقد اختلف الباحثون حول تصنيف الرّحلات بأي جانبٍ من العلوم تقع فهل هي جغرافية ؟ أم تاريخية ؟ أم أدبية ؟ أم اجتماعية ؟ أم سياسية ؟ أم هي وعاء جامع بين تلك العلوم .

يمكن القول إنّ الرّحلة على علاقة مباشرة بجميع تلك العلوم ، لأنّ المعلومات الوفيرة والغنية التي تتضمّنها كُتِبَ الرّحلات تهمُّ المؤرّخ والجغرافيّ وعلماء الأدب والاقتصاد والاجتماع والسياسية والفن والأديان والأساطير على السواء^(٣) ، ذلك لأنّ الرّحالة سجّلوا معلوماتهم بناءً على الملاحظة المباشرة والمعاناة القريبة للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية للبلدان التي زاروها أو مرّوا بها ، هذا بالإضافة إلى أنّ من بين الرّحالة نجد المؤرّخ والجغرافيّ ورجل الدين ، وكذلك نجد من بينهم أشخاصاً عشقوا السفرَ وحبّ المغامرة الأمر الذي دفعهم إلى الغوص في المجهول ، والتعرّف على شعوب وأمم غريبة عنهم^(٤).

فكتابات الرّحالة عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في البلدان التي مرّوا فيها ساعدت الدّارسين والمختصّين في تلك المجالات مساعدة كبيرة ، فمن الناحية السياسية أسهمت تلك الكتابات في تعريف الباحثين على الأوضاع السياسية في تلك البلدان ، ومن الناحية الاقتصادية أشار الرّحالة إلى الزّراعات والصناعات المنتشرة في تلك البلدان ، وتحدّثوا عن الطرق التجاريّة ، وأنماط التعاملات والنقود ، كما قدّم الرّحالة الكثير من المعلومات عن الجوانب الثقافيّة والعلميّة والعمرانيّة في المناطق التي مرّوا بها ، فتحدّثوا

(١) حسني : أدب الرحلة ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤) محمد فهيم حسين : أدب الرحلات ، سلسلة مجلة عالم المعرفة ، العدد ١٣٨ ، الكويت ، ١٩٨٩م ، ص ١١ .

عن أهمّ المصادر التي استفادوا منها معلوماتهم ، وأشاروا إلى النشاط العلمي في المناطق التي زاروها والعلماء الذين التقوا بهم ، ووصفوا أحوال المدن من النواحي العمرانية.

وهكذا نجد أنّ لكتابات الرحالة قيمةً علميةً كبيرةً ، وخاصةً لدارسي التاريخ بسبب ما تقدّمه من معلوماتٍ مفيدةٍ تساعدُ في إلقاء الأضواء على الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية للفترة التي تتحدّث عنها ، خصوصاً أنّ كتاب تلك الرحلات كانوا ممّن عاصروا تلك الأحداث ، ودوّنوها بناءً على مشاهداتهم المباشرة على أرض الواقع وعلى احتكاكهم المباشر بالناس ورجال العلم والسياسة ، مع الاعتراف بأنّ هؤلاء الرحالة يتفاوتون في دقّة ملاحظتهم وتركيزهم ، لذلك لابدّ من دراسة تلك المدونات ، والتأكّد من المعلومات الواردة فيها ، ومقارنتها مع المصادر العائدة للفترة نفسها.

الفصل الأول

دراسة مُوجزة لتاريخ الوطن العربي في العصر العثماني

أولاً - الوضع الدولي في مطلع القرن السادس عشر

شهدَ العالمُ مع بدايات القرن السادس عشر تغيراتٍ كبيرةٍ وخطيرةٍ تمتلّت ببروزِ قوىٍ جديدةٍ على الساحة الدولية كالبرتغاليين والأسبان والعثمانيين ، وتراجعِ قوىٍ أخرى كالجمهوريات الإيطالية مثل جمهورية البندقية والمماليك المسيطرين على بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن ، الأمر الذي انعكس سلباً على الوطن العربي الذي دفع الثمن الأكبر نتيجة تلك التغيّرات ، ففي منطقة المشرق العربي الإسلامي كان يوجد ثلاثَ قوىٍ كبرى متنافسة فيما بينها ، وهذه القوى كانت مُمثّلة بالدولة العثمانية والسلطنة المملوكية والدولة الصفوية ، وكان وقوع الصدام بين هذه القوى أمراً حتمياً نتيجة الصراع على النفوذ ، فالدولة الصفوية تطلعت للسيطرة على العراق نظراً لما يحتويه من مزاراتٍ وعتباتٍ مقدّسةٍ لها مكانتها الكبيرة عند الشيعة ، هذا فضلاً عن الأهمية الكبيرة التي يحتلّها العراق من النواحي السياسية والاستراتيجية والاقتصادية ، ولذلك قام الشاه إسماعيل الصفوي بمهاجمة العراق ، حيث تمكّن من فرض السيطرة الصفوية عليه ، وذلك في سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م^(١).

أدّى نجاح الصفويين في فرضِ سيطرتهم على العراق إلى تنبيه الدولة العثمانية إلى الخطر الكبير القائم على حدودها الشرقية ، وتبعاً لذلك طرأت تغيراتٍ كبيرةٍ على السياسة التوسعية للدولة العثمانية التي كانت مُركّزة منذ منتصف القرن الرابع عشر على الفتح والتوسع في البلقان وحوض نهر الدانوب ، لكنّها تغيّرت بعد نجاح الصفويين في الاستيلاء على العراق سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، كما أنّ الصراع القائم بين الدولتين لفرض السيطرة والنفوذ على الإمارات التركمانية القائمة على الحدود بينهما زاد الأمور تعقيداً ، وخاصةً أنّ سكّان تلك المناطق كانوا خليطاً من عناصرٍ مختلفةٍ من عربٍ وأكرادٍ وتركّمان ، لذلك كان ولاؤهم متأرجحاً بين الصفويين والعثمانيين ، فكانت مشكلة الحدود من العوامل التي ساعدت على وقوع الصدام بين الدولتين^(٢) .

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله إلى العربية جعفر الخياط ، الطبعة الخامسة ، دار الرافدين ، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص ١٣ .

(٢) إسماعيل أحمد ياغي : العالم العربي في التاريخ الحديث ، الطبعة الأولى ، مكتبة العبيكات ، الرياض ، ١٩٩٧م ، ص ١٥ .

أعلن السلطان العثماني سليم الأول الحرب على الصفريين مدفوعاً بأسباب عدّة كان من أهمها تحويل بلاد فارس إلى ملجأ للفارسيين والمناوئين لحكم السلاطين العثمانيين ، وقيام الشاه إسماعيل الصفوي بتقديم المساعدة للأمير أحمد أثناء ثورته على والده بايزيد الثاني ، ومن بعده على أخيه سليم الأول^(١)، وأيضاً بسبب محاولة الصفويين نشر مذهبهم الشيعي في الأناضول ، لذلك سارع السلطان سليم الأول لإيقاف حروبه في أوروبا ، فعقد الصلح هناك ، وانتقلت إلى الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين^(٢).

وقع الصدام بين العثمانيين والصفويين في ١٢ جمادى الثانية ٩٢٠هـ/ ١٣ آب سنة ١٥١٤م في منطقة تدعى تشالديران " جالديران " ، وتقع في الشمال الشرقي لبحيرة فان، حيث تمكن العثمانيون من تحقيق نصر كبير على الصفويين ، ونجحوا في احتلال عاصمتهم تبريز^(٣) ، لكنّ العثمانيين لم يتابعوا — بعد ذلك النصر — التوغل شرقاً في الأراضي الصفوية لأسباب متعدّدة ، منها تمرّد الإنكشاريّة على السلطان سليم ، كذلك صعوبة اختراق الهضبة الفارسية ، والقحط الشديد الذي أصاب تلك المنطقة ، بسبب سياسة الأرض المحروقة التي اتّبعها الشاه الصفوي بعد انسحابه من عاصمته ، حيث عمّد إلى إتلاف كلّ ما يمكن أن يستفيد منه العدو^(٤) ، وعلى الرّغم من ذلك نجح العثمانيون في ضمّ مناطق عدّة في القسم الشرقي من الأناضول إلى الدولة العثمانية ، بعد تمكّنهم من احتلال ديار بكر ومرعش في عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م^(٥).

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العليّة العثمانية ، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت ، ١٩٨١م، ص ١٨٩.

(٢) فاضل بيات : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء المصادر والوثائق العثمانية ، الطبعة الأولى ، دار المدى الإسلامي ، بيروت ، ٢٠٠٣م ، ص ١٧.

- M . A . Cook , A History of the Ottoman Empire to 1730 , London , New York , Melbourne , 1976 , p.p 80-102.

(٣) روبري مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، جزآن ، الطبعة الأولى، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٩٣م، الجزء الأول ، ص ٢١١.

(٤) لا بد من الإشارة إلى أن السبب الرئيسي ، والأهم الذي جعل العثمانيين يعزفون عن التوغل في الأراضي الصفوية رغبتهم في عدم إشغال قواتهم في فتوحات غير ضرورية من الناحية الاستراتيجية والسياسية ، وخوفهم من أن يستغل المماليك تقدم الجيوش العثمانية في الدولة الصفوية ، فيعمدون إلى مهاجمة مؤخرة الجيش العثماني ، ولذلك فإن الدولة العثمانية بعدما نجحت في القضاء على الخطر الصفوي ، ركزت اهتمامها على بلاد الشام لما تمتلكه هذه المنطقة من مزايا استراتيجية وسياسية واقتصادية . للتفصيل عبد الكريم رافق : المشرق العربي في العهد العثماني ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، ٢٠٠٢ — ٢٠٠٣م ، ص ٤٣.

(٥) للتفصيل حول هذه الأحداث يرجى العودة إلى :

- Halil Inalcik , The Ottoman Empire the Classical age 1300-1600 , Weldenfeld and Nicoloson , London , 1973, P 33.

أمّا القوة الثالثة التي كانت متواجدة في منطقة المشرق العربي الإسلامي فهي الدولة المملوكيّة في مصر وبلاد الشام وصاحبة السيادة في الحجاز واليمن ، وكانت هذه الدولة منذ أن تولّت الحكم في أواسط القرن الثالث عشر تقريباً تعيش في حالة رخاء وازدهار بسبب ما كانت تجنيه من موارد مالية كبيرة من الرسوم الجمركية التي تفرضها على السلع القادمة من الشرق الأقصى والهند إلى أوروبا والتي لا بدّ أن تمرّ في الأراضي التابعة لهذه الدولة (١). وفي الوقت نفسه بدأت تظهر عوامل التقدم في أوروبا بشكل مستمر، وعلى المستويات كافة وخاصة الاقتصادية منها ، ونمت برجوازية أوربية تجارية طمحت إلى فرض هيمنتها على التجارة الدولية ، وذلك للتخلص من الهيمنة العربية ، فتوصّل الأسبان إلى اكتشاف أمريكا سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ، وتوصّل البرتغاليون إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م ، ووصلوا إلى الهند سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م ، ففي ٧ أيار من ذلك العام رست سفينة الملاح البرتغالي فاسكو داغاما على شواطئ الهند ، وعاد في شهر آب إلى لشبونة ومعه شحنة من التوابل، وهكذا ربطت تلك الرحلة أوروبا الغربية مباشرة بالهند عن طريق الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، وأقام البرتغاليون قواعد لهم في الهند ، وشرعوا بمهاجمة ، السفن العربية ونهبها، واحتلوا سوقطرة وسيطروا على باب المندب ودمّروا عدن ونهبوا مسقط ، وذلك في سعيهم لاستبعاد العرب عن الوساطة التجارية واحتكار التجارة مع الهند والشرق الأقصى (٢) .

وجّه البرتغاليون بنجاحهم في اكتشاف رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند ضربة قوية للمماليك الذين سعوا لإنقاذ اقتصادهم من الانهيار عن طريق إعادة طرق التجارة الدولية ما بين الشرق والغرب إلى الطرق القديمة الواقعة ضمن الدولة المملوكيّة (٣) ، فبذل السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/١٥٠١ - ١٥١٦م) جهوداً جبّارة بمساعدة البندقية لإعداد

(١) كانت السلع الشرقية القادمة من الهند والشرق الأقصى ، وعلى رأسها التوابل تسلك طرق عدّة إلى أوروبا في العصور الوسطى، فكان قسم ضئيل منها ينتقل براً من الشرق الأقصى عبر آسيا إلى الأستانة ومنها إلى أوروبا ، لكن القسم الأعظم من هذه السلع كان يسلك طريقين آخرين أحدهما بحراً إلى الخليج العربي ، ومنها إلى البصرة حيث يتم نقل تلك البضائع براً عبر العراق وبادية الشام إلى الموانئ الشامية الموجودة على ساحل البحر المتوسط ومنها إلى أوروبا. أما الطريق الثاني فكان طريق البحر الأحمر وصولاً إلى السويس ، ومنها إلى الإسكندرية حيث يتم نقلها إلى أوروبا بواسطة سفن الجمهوريات الإيطالية ، وخصوصاً البندقية. للتفصيل عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢م، دار النهضة العربية ، بيروت، (د.ت)، ص ٢٤.

(٢) ياغي : العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص ٢٠.

(٣) للتعرف على الخسائر الكبيرة التي لحقت بدولة المماليك يكفي أن نذكر أن السفن التابعة لحكومة البندقية البالغ عددها ثلاث عشرة سفينة ، فضلاً عن السفن المملوكة من قبل العامة ، كانت تأتي جميعها إلى سواحل مصر وبلاد الشام مرتين في السنة ، وتعود إلى بلادها محملة بالتوابل ، لم تعد ترد إلى سواحل مصر والشام بعد تمكن البرتغاليين من اكتشاف رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند سوى مرة واحدة كل سنتين ، ولم يتجاوز عدد السفن الثلاث . للتفصيل ياغي : العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص ٢١.

حملة بحرية وإرسالها إلى الهند ومواجهة البرتغاليين هناك ، لكن تلك الحملة فشلت حيث تمكن البرتغاليون من تحقيق النصر وتحطيم الأسطول المملوكي في معركة ديو البحرية سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م ، الأمر الذي أدى إلى خروج طرق التجارة الدولية نهائياً من أيدي العرب واحتكارها من قبل البرتغاليين الذين أقاموا لهم قواعد ومحطات على طول الطريق إلى الهند ، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى محاولة التسلل إلى الخليج العربي والبحر الأحمر .

أما المغرب العربي فنال هو الآخر نصيبه من تلك التغيرات ، ففي أواخر القرن الخامس عشر تمكن الإسبان من تحقيق وحدتهم السياسية باتحاد مملكتي أرغونة وقشتالة ، ثم تمكنوا من السيطرة على آخر معاقل العرب في الأندلس " غرناطة " في سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى مهاجمة السواحل المغربية مع البرتغاليين الذين برزوا كقوة بحرية كبيرة منذ أواخر القرن الثالث عشر ، وخاصة في عهد أمير البرتغال هنري الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠م) ، فقاموا بمهاجمة سواحل مراكش ونجحوا في فرض سيطرتهم عليها ^(١) . أما الإسبان فوجهوا نشاطهم ضد سواحل الجزائر وتونس وليبيا من أجل انتزاع السيطرة على مياه البحر المتوسط من أيدي العرب ، واحتلال الموانئ الموجودة على سواحل المغرب العربي ^(٢) .

أدت التغيرات الكبيرة التي شهدتها العالم مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر إلى خسارة العرب لسيطرتهم على طرق التجارة الدولية ، مما انعكس سلباً على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، حيث سعى المماليك للحفاظ على حالة الغنى والرخاء التي كانوا يعيشون فيها أيام سيطرتهم على طرق التجارة الدولية عن طريق فرض الضرائب الباهظة على السكان ، الذين عانوا الكثير جرّاء تلك السياسة ، وهذا الأمر ذاته ينطبق على المغرب العربي الذي كان يواجه الكثير من الصعوبات والمشاكل نتيجة الهجمات الإسبانية والبرتغالية على السواحل ، وهكذا نجد أنّ الظروف الصعبة التي مرّ بها الوطن العربي في تلك المرحلة مهّدت للعثمانيين الطريق لفرض سيطرتهم على مناطقه في مراحل متعاقبة خلال القرن السادس عشر .

ثانياً - السيطرة العثمانية على المنطقة العربية :

اختلفت الآراء والتفسيرات حول الأسباب والدوافع التي جعلت العثمانيين يوجهون أنظارهم إلى الوطن العربي ، ففريق من المؤرخين يفسّر تحوّل العثمانيين نحو الشرق بالقول

(١) محمد خير فارس : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، (د.ت) ، ص ١٥ .

(٢) ياغي : العالم العربي ، ص ٢٤ .

بأن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة الشيع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، ولذلك كان عليها أن تبحث عن ميادين جديدة لهذا التوسع ، إلا أن هذا التفسير يرفضه الكثير من الباحثين وحجتهم في ذلك أن السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ - ٩٧٣هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) قد تابع الفتوحات العثمانية على الجبهة الغربية ووصل إلى بلغراد وسهول المجر وأسوار فيينا (١). أما وجهة النظر الثانية فيربط أصحابها التحول العثماني نحو الشرق بالأحداث التي قامت على الحدود الشرقية للدولة العثمانية والتي تمثلت بقيام الصفويين بالاستيلاء على العراق سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م ، ومحاولتهم نشر المذهب الشيعي ، مما أرغم العثمانيين على التدخل لحماية آسيا الصغرى عامة والعالم السني خاصة من الزحف الشيعي (٢)، وهناك فريق ثالث يربط التوجّه العثماني نحو الوطن العربي بالأحداث الخطيرة التي وقعت على حدوده الغربية والشرقية والتي تمثلت بزحف الاستعمار الأوروبي على الوطن العربي، مما حرّك الروح الإسلامية عند العثمانيين ، فتصدّوا لمهمة الدفاع عن المسلمين عن طريق توحيدهم تحت راية واحدة ، خصوصاً بعد عجز المماليك عن الوقوف في وجه البرتغاليين الذين سيطروا على السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، مما جعلهم قريبين من الأماكن المقدسة في الحجاز، فخشي العثمانيون من قيام البرتغاليين بمهاجمة الديار المقدسة ، ولذلك قام السلطان سليم الأول بالقضاء على دولة المماليك ، وضمّ أراضيها إلى الدولة العثمانية (٣).

يمكننا القول إنّ وجهات النظر السابقة جميعها صحيحة ، فالعثمانيون بلغوا بتوسعاتهم على الجبهة الغربية أقصى الحدود التي يمكن أن يصلوا إليها ، كما أدى الخطر الصفوي دوراً مؤثراً في توجيه العثمانيين نحو الشرق ، كذلك أسهم الخطر الأوروبي المُحدّق بالأماكن المقدسة في تحويل اهتمام العثمانيين نحو الوطن العربي ، يضاف إلى ذلك رغبة العثمانيين في فرض سيطرتهم على الأماكن المقدسة رغبةً منهم في الحصول على لقب حامي الحرمين الشريفين ، لكسب المزيد من الشرف والسمعة في العالم الإسلامي .

١ - السيطرة العثمانية على بلاد الشام ومصر:

اتخذت العلاقات العثمانية المملوكية أشكالاً متعددة ، فتارة ساد تلك العلاقات التعاون والودّ والدعم ، فأعلنت القاهرة عن ابتهاجها وسرورها بانتصارات العثمانيين في أوروبا ،

(١) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) ياغي : العالم العربي ، ص ٢٩ .

(٣) علي حسون : العرب والدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، دار الرؤية ، دمشق ، ٢٠٠٥م ، ص ٣٩ - ٤٠ .

وتقوم بإرسال الوفود إلى العاصمة العثمانية حاملة التهاني بهذه الانتصارات الكبيرة باعتبارها انتصاراً للمسلمين ، مثلما حدث عندما نجح السلطان العثماني محمد الثاني بفتح القسطنطينية حيث تمّ تزيين القاهرة لعدة أيام ^(١) ، وتارةً أخرى ساد النزاع والتوتر بين العثمانيين والمماليك بسبب الصراع للسيطرة على المناطق المتاخمة للحدود بين الدولتين ، وظهر ذلك واضحاً من خلال الصراع على النفوذ حول إمارة البستان ^(٢) ، بالإضافة إلى أسباب أخرى أدت إلى تأزّم العلاقة بين الطرفين ، كقيام المماليك بإيواء الثائرين على السلاطين العثمانيين مثل الأمير جم ابن السلطان محمد الثاني الذي ثار على أخيه بايزيد حين خلف الأخير والده في الحكم ، فلجأ جم إلى المماليك ، وقدم له السلطان قيتباي المساعدة ، لكن بايزيد انتصر على أخيه الذي فرّ إلى أوروبا حيث توفي هناك سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م ^(٣) ، وعدم قيام المماليك بدعم العثمانيين في حربهم مع الصفويين ^(٤) حيث ذكرت بعض المصادر أن المماليك حاولوا النفاهم مع الصفويين خلال حربهم مع العثمانيين ، كما اتهم العثمانيون المماليك بالتعرّض لقوافل المؤن العثمانية المتجهة إلى الجبهة الصفوية ، وبدورهم اشتكى المماليك من قيام العثمانيين بالتعرّض لتجار المماليك الذين كانوا يأتون بالمماليك الشراكسة إلى الدولة المملوكية الذين كانوا يشكلون عماد القوة العسكرية المملوكية ، ومما زاد الأمر سوءاً رفض المماليك تسليم ابن أخ السلطان سليم الذي ثار على عمه ، وهرب أولاً إلى الصفويين ، ثم لجأ إلى المماليك.

أسهمت تلك الأسباب مجتمعة في وقوع الصدام بين الدولتين المملوكية والعثمانية في معركة مرج دابق قرب حلب بموضع يعرف بتل الغار أو مرج الطبقة ^(٥) في ١٤ رجب سنة ٩٢٢هـ / ٢٣ آب سنة ١٥١٦م التي انتصر فيها العثمانيون ، وقُتل قانصوه الغوري سلطان المماليك ^(٦) . بعد ذلك النصر الكبير توجه السلطان سليم الأول إلى حلب برفقة الخليفة

(١) ليلي الصباغ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٨٩.

(٢) هي واحدة من عدة إمارات تركمانية مثل الحمل الأبيض والحمل الأسود ، نشأت في منطقة الثغور التي تجمع التركمان فيها ، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها ، كما دُعيت بإمارة ذي القدر أو القدرية ، على اسم أسرة تركمانية حكمتها في الفترة الممتدة من (١٣١٣-١٥٢٢م) عندما احتلها العثمانيون ، وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الإمارة العازلة بين الأراضي التابعة لهما ، فأيدت كل دولة أمير تركمانياً ومارست النفوذ من خلاله . للتفصيل رافق : المشرق العربي ، ص ٤٤.

(٣) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٩٩٣م ، ص ٥٩.

(٤) نيقولاوي إيفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤ ، نقله إلى العربية يوسف عطا الله ، الطبعة الثانية ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص ٧٣.

(٥) ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، جزءان ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، الجزء الثاني ، ص ٢٣.

(٦) ترجع أسباب انتصار العثمانيين على المماليك إلى استخدامهم الأسلحة النارية كالبنادق والمدافع والتي لم يستخدمها المماليك ، وكذلك خيانة عدد من قادة المماليك مثل خاير بك نائب حلب الذي كان يتبادل المراسلات سراً مع السلطان سليم الأول ، وكذلك جان بردي الغزالي نائب حماء الذين انحاز إلى جانب العثمانيين . للتفصيل عبد الكريم رافق : تاريخ بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨م) ، الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٩٦٨م ، ص ٩٦-١٠١.

العباسي المتوكل على الله ، الذي كان برفقة السلطان قانصوه الغوري ، وانضم بعد نهاية المعركة إلى السلطان "سليم الأول" الذي دخل مدينة حلب دون أية مقاومة تذكر، ومرد ذلك إلى الكره الكبير للمماليك من قبل أهالي مدينة حلب بسبب الظلم الكبير الذي لحق بهم أيام دولة المماليك ، وتم ذكر اسم السلطان سليم الأول في خطبة يوم الجمعة ٨ شعبان ٩٢٢ هـ/ ٣ أيلول ١٥١٦ م ، ولُقّب بخادم الحرمين الشريفين^(١)، وتم تعيين حاكم عثماني على مدينة حلب هو قره شاه أحمد باشا^(٢) ، ثم تابع العثمانيون تقدّمهم جنوباً ، وسيطروا على حماه وحمص ودمشق حيث نزل السلطان سليم في القصر الأبلق ، وخطب باسمه في الجامع الأموي ، وأثناء إقامته في دمشق وفد إليه عدد كبير من أمراء بلاد الشام وحكامها ، وخاصة من جبل لبنان يقدّمون فروض الطاعة والولاء ، فأقرهم في إقطاعاتهم ومناصبهم ، ووزع المال على العلماء والصوفيّة وأهل دمشق ، وقام بتزيين المحمل الشريف الذي يرافق قافلة الحج إلى الحجاز محاولاً كسب التأييد الشعبي إلى جانبه ، وخاصة أن الخطر المملوكي كان ما يزال قائماً في مصر^(٣) .

في تلك الأثناء كان السلطان سليم الأول مقتنعاً بما حقّقه من مكاسب ، ولم يكن مهتماً بفرض سيطرته على مصر، وخصوصاً أنه قد حقّق ما يريد من القضاء على التحالف الصفوي المملوكي ، وتمكّن من السيطرة على بلاد الشام ، وحصل على لقب حامي الحرمين الشريفين ، فضلاً عن سيطرة قواته على جميع مدن فلسطين الهامة ، كصفد وطبرية ونابلس والقدس ، ثم خشيته من الأخطار الكبيرة التي يمكن أن يتعرض لها جيشه أثناء اجتيازه صحراء سيناء ، وبخاصة هجمات البدو ، واحتمال قيام الصفويين باستغلال اتجاهه إلى مصر وقيامهم بتهديد المناطق العثمانية المجاورة لهم ، هذا بالإضافة إلى الاستعدادات الكبيرة التي كان يقوم بها المماليك برئاسة طومان باي ، ولهذا الأسباب مجتمعة عرض السلطان سليم الأول ، وهو في دمشق على طومان باي بقاءه حاكماً على مصر، شريطة أن يُذكر اسم السلطان العثماني في الخطبة وعلى السكّة ، لكنّ طومان باي رفض ذلك^(٤). توجه السلطان سليم الأول أمام رفض طومان "باي إلى مصر، وهزم المماليك في معركة الريدانية ٢٩ ذي

(١) الصباغ : تاريخ العرب ، ص ٩١ .

(٢) بيات : دراسات في تاريخ العرب ، ص ٦٤ .

(٣) ابن طولون : مفاهيمه الخلاص ، الجزء الثاني ، ص ٢٩ .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، ص ٤٤٨ .

الحجة ٩٢٢هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧م^(١) ، ولجأ طومان باي إلى حسن مرعي شيخ عربان البحيرة ، فسلمه الأخير إلى السلطان سليم الأول الذي أمر بشنقه على باب زويلة بالقاهرة في ١٣ نيسان ١٥١٣م^(٢). وقد لعب البدو المنتشرون في المناطق الاستراتيجية على الطريق بين بلاد الشام ، وفي الدلتا والصعيد دوراً مؤثراً في انتصار العثمانيين حيث وقفوا إلى جانبهم ، كما شارك عدد من أمراء البدو في القتال مع العثمانيين ضد المماليك^(٣).

عاد السلطان سليم الأول إلى دمشق حيث عمل على القيام ببعض التنظيمات المالية كإصداره أوامر بحصر البيوت ، وكتابة أسماء أصحابها ، فتم فرض ضريبة جماعية على سكان مدينة دمشق ، لكن تم مراعاة الوضع المالي للسكان حيث وزعت عليهم تلك الضريبة بشكل تراثبي ، أي حسب درجاتهم في سلم الفقر والغنى ، وتم فرض ضريبة أخرى من القمح على كل حارة من حارات دمشق ، كما ألزم سكان دمشق باستقبال العثمانيين في بيوتهم في ذلك الشتاء^(٤). قرر السلطان سليم الأول مغادرة دمشق ، بسبب تهديد الصفويين للعثمانيين على حدودهم الشرقية ، وقبل مغادرته دمشق عين جانبردي الغزالي حاكماً عليها مكافأة له على خيانتة للمماليك ، وفي المناطق الأخرى التابعة لبلاد الشام ، عمد العثمانيون على إبقاء الأمراء المحليين الذين وقفوا إلى جانبهم ، وقاموا بإبعاد كل من وقف إلى جانب المماليك مثل التتوخييين أمراء جبل لبنان ، وعينوا مكانهم المعنيين الذين انفصلوا عن المماليك ، وأعلن أميرهم " فخر الدين المعني " الأول الولاء للسلطان سليم الأول ، فمنحه إمارة جبل لبنان ، وفي الوقت نفسه قام العثمانيون بطرد أمير البقاع البدوي ناصر الدين بن الحنش ، وذلك بسبب ازدياد قوته وتحكمه بمنطقة البقاع الغنية ، وبالتالي سيطرته على الطريق الرئيسية التي تربط بين دمشق وبيروت ، وعين مكانه الأمير محمد بن قرقماس الشركسي^(٥).

٢- السيطرة العثمانية على العراق :

تطلعت الدولة العثمانية بعد نجاحها في فرض سيطرتها على بلاد الشام ومصر للسيطرة على العراق ، وكان العثمانيون في أعقاب انتصارهم على الصفويين في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ، قد فرضوا نفوذهم على الموصل وديار بكر وماردين ، وعينوا حكاماً من

(١) للتفصيل حول معركة الريدانية ابن إياس: بدائع الزهور ووقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ٥ أجزاء ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م ، الجزء الخامس ، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) Stanford . Shaw , *History of The Ottoman Empire and Modern Turkey*, London New York
Melbourne ,1978, Vol 1, p 84.

(٣) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٦٤.

(٤) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، الجزء الثاني ، ص ٧٣.

(٥) رافق : المشرق العربي ، ص ٤٩.

قبلهم على هذه المناطق ، في الوقت الذي أسرع فيه حكام بعض المناطق المجاورة كجزيرة ابن عمر إلى تقديم الطاعة للعثمانيين ، وأقيمت حامية عثمانية في منطقة وان . أما مناطق العراق الأوسط ، فبقيت بيد الصفويين ، ومن بينها بغداد ، إلا أن الحكم الصفوي بدأ بالضعف تدريجياً ، وخاصة بعد وفاة الشاه إسماعيل الصفوي سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م ، فاستغل ذلك زعيم إحدى القبائل الكردية في منطقة الكهر في أطراف لورستان ، ويدعى ذو الفقار فرصة وفاة الشاه إسماعيل الصفوي ، ففرض سيطرته على بغداد بعد أن قام بقتل حاكمها الصفوي . أدرك ذو الفقار عدم قدرته على مواجهة الدولة الصفوية ، ولهذا لجأ إلى الدولة العثمانية محاولاً الحصول على دعمها ، فأعلن تأييده للسلطان سليمان القانوني^(١).

خلف الشاه " طهماسب " (٩٣١-٩٨٤هـ/١٥٢٥-١٥٧٦م) والده الشاه إسماعيل ، وحاول إعادة فرض السيطرة الصفوية على بغداد نظراً للغنى الكبير الذي تتمتع به ، بالإضافة إلى أهميتها الدينية عند الشيعة ، فجهز حملة كبيرة لاستعادتها سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م ، ونجح في تحقيق ذلك ، وبذلك أعيدت سيطرة الحكومة الصفوية على بغداد^(٢) ، وهكذا توترت العلاقات مجدداً بين الصفويين والعثمانيين ، ومما زاد هذا التوتر الصراع الدائر بين الدولتين للسيطرة على المناطق الكردية المتاخمة لحدود الطرفين ، وقيام الصفويين بتحريض قبائل "القرلباش" في الأناضول ، مما دفع بهذه القبائل إلى إعلان ثورتها على العثمانيين سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م ، وكذلك استياء العثمانيين من العلاقات الحسنة التي ربطت بين الشاه طهماسب والإمبراطور شارلكان العدو الأكبر للعثمانيين^(٣) ، فضلاً عن قيام أهل بغداد السنة بالاستتجاد بالسلطان العثماني ، وكذلك التمرد الذي قام في الأناضول في منطقتي قونية ومرعش ، والذي وصل عدد أتباعه إلى ثلاثين ألفاً من الشيعة ، وكان الصفويين وراء حدوث ذلك التمرد سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م^(٤).

دفعت الأسباب السابقة العثمانيين إلى إعادة فرض سيطرتهم على بغداد ، ولهذا كلف السلطان سليمان القانوني الصدر الأعظم إبراهيم باشا بقيادة الجيوش العثمانية لاستعادة بغداد حيث غادر استانبول في أواخر سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٣م ، وقضى فصل الشتاء في حلب ، ثم اتجه إلى ديار بكر ، واستطاع إخضاع جميع الأمراء في مناطق الحدود ، ثم احتل تبريز في ٢٢ ذو الحجة ٩٤٠هـ/١٣ تموز سنة ١٥٣٤م ، وقدم له الأمراء المحليون فيها خضوعهم ،

(١) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٩٢

(٢) بيات : دراسات في تاريخ العرب ، ص ٣٢ .

(٣) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٦٦ .

(٤) حسون : العرب والدولة العثمانية ، ص ٥٢ .

وكان من بينهم أحد المقربيين من الشاه طهماسب ، ويدعى محمد خان بن ذي القدر ^(١) ، وبقي إبراهيم باشا في تبريز إلى أن لحق به السلطان سليمان القانوني ، وبعد وصول الأخير اتجه الاثنان نحو بغداد على طريق همذان ، بهدف السيطرة على الطريق الذي يربطها ببغداد بالشمال والشرق ، للحيلولة دون وصول أيّ نجدات صفويّة إلى بغداد . أما الشاه طهماسب ، فلم يحاول القيام بأي عمل للتصدي للهجوم العثمانيّ ، مما دفع بمحمد خان حاكم بغداد الصفويّ إلى الهرب بعد أن قام بجمع أمتعته وأثاث بيته ، وعبر إلى الضفة اليمنى من نهر دجلة ، ثم وصل إلى الأراضي الفارسية بعد التفاف طويل ^(٢).

دخل الصدر الأعظم إبراهيم باشا بغداد في ١٥ جمادى الثانية ٩٤١هـ/ ٣١ كانون الأول ١٥٣٤م دون قتال وكان عدد قواته أربعين ألفاً ^(٣) ، وبعد يومين دخلها السلطان سليمان القانوني ، وبذلك استطاعت الدولة العثمانية فرض سيطرتها على الأجزاء الشمالية والوسطى من العراق . أما في الجنوب ، فكان ميناء البصرة الذي كان يخضع لسلطة أحد الشيوخ العرب ، ويدعى راشد بن مغامس الذي أعلن خضوعه للدولة العثمانية ، وأرسل ابنه مانع إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٣٨م ، ليعلن خضوعه للدولة العثمانية ، فأبقاه السلطان سليمان في مكانه ، وبذلك أصبحت البصرة خاضعة للعثمانيين الذين ترتب عليهم مسؤوليات دفاعية جديدة ضد البرتغاليين المتواجدين في الخليج العربي ^(٤) .

أقام السلطان سليمان القانوني في بغداد عدة شهور، بقصد منح جيشه بعض الراحة وتنظيم أمور هذه الولاية التي كانت بحاجة إلى نوع خاص من الحكم نظراً للحساسية الدينية بين سكانها السنة والشيعة حيث عمل على إرضاء الطرفين ، فقام بزيارة بعض المزارات الشيعية في النجف وكربلاء ، مثل زيارته لضريح عبد القادر الكيلاني ، وقبة موسى الكاظم، كما أصدر أوامره ببناء وصيانة عدد من المنشآت الدينية ^(٥) ، كان من بينها إكمال بناء الجامع الذي بدأ فيه الشاه إسماعيل ، وبنى سداً في كربلاء عُرف بسد السليمانية بهدف حماية المزارات من أخطار الفيضانات ، وفي الوقت نفسه بذل جهداً كبيراً في البحث عن قبر الإمام أبي حنيفة ، وأمر ببناء قبة عنده ^(٦) ، كذلك قام السلطان سليمان القانوني بتعيين سليمان باشا

(١) رافق : المشرق العربي ، ص ٥١.

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٣٧.

(٣) عباس العزاوي : موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ مجلدات ، الدار العربية للموسوعات ، (د.م) ، (د.ت) ، المجلد الرابع ، ص ٣٥.

(٤) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٩٣.

(٥) العزاوي : موسوعة تاريخ العراق ، المجلد الرابع ، ص ٣٨ - ٥١.

(٦) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٣٩.

حاكم ديار بكر والياً على بغداد التي غادرها — بعد أن ترك فيها حوالي ألفي جندي — باتجاه أذربيجان ، واحتل الكثير من القلاع الاستراتيجية في منطقة كركوك لحماية المناطق التي فتحها ، وتابع طريقه إلى تبريز التي استطاع السيطرة عليها بسهولة ، نتيجة هروب الشاه الصفوي باتجاه المناطق الشرقية للهضبة الفارسية ، ولذلك قرر السلطان سليمان العودة إلى العاصمة استانبول التي وصلها في جمادى الثانية ٩٤٢هـ/كانون الأول ١٥٣٥م^(١)، وعلى الرغم من تمكن العثمانيين من السيطرة على العراق ، إلا أن النزاع مع الصفويين للسيطرة على هذا البلد ، لم ينته حيث استمر طيلة القرن السادس عشر، فقد سعى الصفويون لاسترداد العراق من العثمانيين ، ونجحوا في الاستيلاء على بغداد سنة ١٠١٠هـ/١٦٠٢م ، إلا أن العثمانيين استطاعوا إعادة سيطرتهم على العراق مرة أخرى في عهد مراد الرابع (١٠٤١-١٠٥٠هـ/١٦٣٢-١٦٤٠م) ، ومنذ ذلك التاريخ بقي العراق ولاية عثمانية حتى الحرب العالمية الأولى^(٢).

٣- السيطرة العثمانية على الحجاز واليمن :

بعد نجاح العثمانيين في القضاء على دولة المماليك في بلاد الشام ومصر، وأثناء تواجد السلطان العثماني سليم الأول في مصر، استقبل سفارة شريف مكة بركات بن يحيى الذي أرسل نيابة عنه ابنه أبا نمي ، ليقدم فروض الطاعة والولاء للسلطان العثماني ، ويسلمه مفاتيح الكعبة الشريفة ، فأقره السلطان سليم في مكانه ، وبذلك أصبح الحجاز خاضعاً لسلطة الدولة العثمانية ، بعدما كان خاضعاً لسلطة المماليك^(٣) ، وهكذا تمكن العثمانيون من السيطرة على الحجاز سلمياً ، وقد اعترف العثمانيون بالوضع الخاص للحجاز، وبالحقوق الموروثة للأسر الهاشمية^(٤)، فحافظوا على نظام الشرافة كما كان أيام الدولة المملوكية ، لكنهم أوجدوا صنق جدة ، وجعلوا عليه والياً تركيا ليكون ممثلاً للسلطان العثماني في الحجاز ، وتم تعيين حسين الرومي حاكماً عليها ، وكان مرتبطاً بحاكم مصر خاير بك^(٥) ، وبذلك أصبح العثمانيون المسؤولين المباشرين عن حماية الأماكن المقدسة من الخطر البرتغالي القادم من المحيط الهندي .

(١) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ص ٢٢٤

(٢) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٩٤.

(٣) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٧٠.

(٤) إيفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص ٩٣ .

(٥) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٩٧ .

أمّا فيما يتعلق بالسيطرة العثمانية على اليمن ، فبعد إعلان شريف مكة بركات بن يحيى ولاءه للدولة العثمانية ، قام بقتل الحاكم المملوكي في جدة حسين الكردي ، فهربت قواته من الحجاز إلى زبيد في اليمن حيث يوجد الأمير برسباي المملوكي ، وكان يتزعم القوات المملوكية في اليمن الأمير برسباي والأمير اسكندر والأمير رمضان ، وكان الأخير قائدًا للوندي ، وعلى الرغم من وصول الأخبار بزوال دولة المماليك ، فقد تابع الأمير برسباي مخطّطه للسيطرة على اليمن ، لكن ما لبث أن قُتل في كمين نصبه له بعض العربان ، فخلفه الأمير اسكندر قائدًا على القوات المملوكية ، إلّا أن قيام الأمير رمضان وقواته الرومية الأصل العثمانية بإعلان ولائها للعثمانيين أجبر الأمير اسكندر على إعلان ولائه للعثمانيين أيضاً ، وعندما علم السلطان سليم الأول بذلك ثبته في مكانه والياً على اليمن ، وتمّ ذكر اسم السلطان سليم الأول في الخطبة ، ومن بعده ابنه سليمان (١).

ظلت السيطرة العثمانية على اليمن اسمية في الفترة الواقعة بين (١٥١٨ — ١٥٣٨م) ، ويرجع ذلك إلى اضطراب أوضاع اليمن نتيجة للصراع بين عدة قوى ، فبالإضافة إلى الولاة المحليين الذين قبلوا بالخضوع للعثمانيين ، كان هناك الأئمة الزيديون والعربان وبقايا الأسرة الطاهرية الحاكمة في عدن ، ومما زاد الأمور صعوبة التهديد البرتغالي للسواحل ، وارتباك أحوال مصر في الفترة التي أعقبت خضوعها للسيطرة العثمانية (٢). وفي سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م صدرت أوامر من السلطان العثماني سليمان القانوني لواليه في مصر سليمان باشا الخادم بتجهيز حملة كبيرة إلى الهند لمقاومة البرتغاليين ، وتقديم المساعدة للقوى الإسلامية الموجودة هناك ، وكلف واليه سليمان باشا بالتعريض على اليمن ، والقضاء على الفوضى وفرض الحكم العثماني فيها (٣).

خرج سليمان باشا في ١٣ حزيران ١٥٣٨م على رأس حملة كبيرة إلى الهند ، وفي الطريق توقف في عدن حيث استولى عليها من حاكمها عامر بن داود ، وهو من بقايا بني طاهر ، ثم تابع طريقه باتجاه الهند ، لكنه ما لبث أن عاد منها ، بسبب توتر العلاقة بينه وبين الحكام المسلمين المحليين (٤)، وأثناء عودته توقف في اليمن للسيطرة على السواحل اليمنية ، ونجح في ذلك ، ثم تابع طريق العودة إلى مصر. وعلى الرغم من التواجد العثماني الكبير في اليمن ، فقد استمر الأئمة الزيديون ، وعلى رأسهم شرف الدين وابنه مطهر بسيطرتهم على

(١) رافق : المشرق العربي ، ص ٥٤.

(٢) حسون : العرب والدولة العثمانية ، ص ٥٦.

(٣) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٧١.

(٤) إيفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص ١٥٩ .

جزء كبير من اليمن ، وخاصة منطقة الجبال كوكبان وعدن ، وتحصّنوا في مدينة تعز ، وعندما شعرت الدولة العثمانية بخطورة الموقف في اليمن قررت إرسال حملة كبيرة بقيادة سنان باشا ، وتحركت الحملة في شهر كانون الثاني سنة ١٥٦٩م من السويس قاصدة ينبع حيث أنزل سنان باشا معظم أفراد الحملة ، ومن الحجاز تابعت الحملة تقدمها باتجاه اليمن براً فأخضعت في طريقها جيزان ، ثم استولت على تعز وقلعتها الحصينة ، وفرضت حصاراً برياً وبحرياً على عدن ، ممّا أدى إلى سقوطها بيد العثمانيين ، وفي النهاية تمكن العثمانيون من السيطرة على صنعاء بعد قتال مرير ، فانسحب الإمام المطهر ابن شرف الدين إلى الجبال ، ومن هناك أخذ يوجه ضربات قوية إلى القوات العثمانية ، مما أجبر "سنان باشا" على قبول الصلح معه ، خاصة بعد اضطراره إلى توزيع قواته على عدة مناطق ، وقد نصّ هذا الصلح على اعتراف الإمام بالسيادة العثمانية ، وقيامه بذكر اسم السلطان في الخطبة ، وعلى السكة لقاء اعتراف الدولة العثمانية بزعامته على بعض المناطق الواقعة تحت سيطرته ، هذا بالإضافة إلى قبوله بوجود حامية عثمانية رمزية في صعدة ، وبذلك استعادت الدولة العثمانية سيطرتها على اليمن ، وسمي هذا بالفتح العثماني الثاني لليمن^(١).

٤- السيطرة العثمانية على المغرب العربي :

لم تكن السيطرة على المغرب العربي من اهتمامات الدولة العثمانية ، لأسباب كثيرة ، كان من بينها أنّ هذه الدولة منذ قيامها كانت دولة بريّة اعتمدت في فتوحاتها على قواتها البرية ، ولم يكن للأسطول دور بارز في هذه الفتوحات ، يُضاف إلى ذلك تَوَزّع اهتمامات الدولة العثمانية بين عدة جبهات في شرقي أوروبا والدولة الصفوية والمشرق العربي وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي^(٢) ، ولكنّ بعد نجاح العثمانيين في القضاء على دولة المماليك ، وضَمّ ممتلكاتهم في بلاد الشام ومصر والحجاز ، وتحملّهم مسؤولية حماية سواحل الجزيرة العربية من هجمات البرتغاليين ، وخاصة الأماكن المقدسة في الحجاز ، فأصبحوا بذلك الدولة الإسلامية الأكثر قوة وعظمة ، ممّا جعل جميع المسلمين يتطلعون لهذه الدولة لحمايتهم من الأخطار المُحدّقة ، وخاصة المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية الذين كانوا يعانون من الاضطهاد والتهجير الإجباري ، ولهذا وجب على الدولة العثمانية الدفاع عنهم ، باعتبار أنّ سلاطين هذه الدولة حملوا لقب خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين .

(١) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص . ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) فارس : تاريخ المغرب ، ص ١٠٦ .

كان التدخل العثماني في مناطق الشمال الإفريقي بناءً على طلب المساعدة من قبل سُكَّان الجزائر، والأخوين عروج وخير الدين بربروسا في مواجهة الهجمات الإسبانية والبرتغالية في البحر المتوسط حيث لعب الأخوة بربروسا دوراً كبيراً في الدفاع عن المسلمين في مناطق الشمال الإفريقي ، فلقد اتجه الأخوان عروج وخير الدين إلى الجهاد منذ الصَّغر، وفي البداية ركَّزوا نشاطهم في شرقي المتوسط ، ولكن مع بداية القرن السادس عشر، ونتيجةً لاشتداد الصراع بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحوض الغربي للمتوسط فقد نقلوا نشاطهم إلى تلك المنطقة حيث تمكنوا من تحقيق بعض الانتصارات ، على الرغم من أنَّ عدد السفن التي كانت بحوزة عروج لا تتجاوز عشرَ سفن^(١).

استطاع عروج بما يمتلكه من حنكة وقوة أن يستقطبَ أنظار المسلمين في مناطق الشمال الإفريقي ، وخاصةً بعد مساعدته الأندلسيين الهاربين من الظلم والاضطهاد الذي تعرَّضوا له ، وكذلك قيامه بمساندة العديد من الحُكَّام المحليين الذين شعروا بخطر الهجمات الإسبانية ، وعلى الرغم من فشله في تحرير بجاية من السيطرة الإسبانية سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ، فقد عوّض عن ذلك بسيطرته على ميناء جيجل الواقع شرقي الجزائر سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ، وجعله قاعدة لأسطوله البحري^(٢).

ازدادت أهمية عروج بعد موت الملك الإسباني فرديناند سنة ١٥١٦م ، ومحاولة الجزائريين استغلال ذلك للتخلّص من النفوذ الإسباني المستقر في القلعة المواجهة للجزائر، التي كانت تعيق حركة القرصنة ، ولا تسمح باستقبال السفن الإسلامية في ميناء الجزائر ، ممَّا خلفَ أضراراً كبيرةً بالمدينة ، وهذا ما دفع بحاكمها سالم التومي إلى الاستنجاد بعروج لكي يُحرِّرَ القلعة ، فلبَّى عروج هذا الطلب ، وفي البداية وجَّه عروج أنظاره إلى شرشال التي كانت بيد حاكم تركي يدعى قره حسن ، وقد حاول "عروج" إدخاله في طاعته ، لكن قره حسن رفض ذلك ، فسيطر عروج على شرشال ، وقام بقطع رأس قره حسن^(٣)، لكنّه فشل في تحرير القلعة من السيطرة الإسبانية^(٤) . أخذ عروج يوطد نفوذه في مدينة الجزائر، خاصةً بعد نجاحه في ضمِّ عدد من المناطق مثل مليانة والمدينة وتينيس ، وبدأ بالتخطيط

(١) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ٣ أجزاء ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م ، الجزء الثالث ، ص ٢٢.
- John.B. Wolf , *The Barbary Cost- Algeria under The Turks* , New York, London , 1979, p.7-17.

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ٥ أجزاء ، الطبعة السادسة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، الجزء الثالث ، ص ٣٧.

(٣) مبارك بن محمد الهلالي الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ٣ أجزاء ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، (د.ت)، الجزء الثالث ، ص ٤٤.

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤.

للسيطرة على تلمسان متذرعاً بحمايتها من الخطر الإسباني المُحدِّق بها ، ونجح في تحقيق ذلك ، ممّا زاد قلق الإسبان من قُوّة عروج المتنامية ، فعملوا على القضاء عليه حيث صدرت الأوامر إلى حاكم وهران الإسباني بتوجيه حملة نحو تلمسان ، وتمكّنت تلك الحملة من محاصرة عروج في القلعة ، وعلى الرّغم من تمكّنه من الهرب إلى قلعة المشور، إلّا أنّ الإسبان تمكنوا من القضاء عليه سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م^(١).

تولّى خير الدين بربروسا حكم مدينة الجزائر بعد أخيه عروج ، وكان عليه مواجهة أزماتٍ عدّة ، أهمها نقص عدد قواته ، وإعلان بعض القبائل عصيانها، إضافة إلى تحرك الإسبان لطرد الأتراك من الجزائر، لذلك قرّر خير الدين طلب المساعدة من الدولة العثمانية ، وإعلان التبعية لها، مدركاً أنّ ذلك سوف يحقّق له فوائدٍ عظيمة في مواجهة أعدائه من حكام تلمسان وتونس وفاس ، فضلاً عن الإسبان^(٢). قبلَ السلطان العثماني سليم الأول بعرض خير الدين الذي يضع تحت تصرفه شواطئ البحر المتوسط الغربية دون قتال أو أية كلفة مادية ، فقام بمنح خير الدين لقب بلربي ، وكان هذا اللقب من أكبر الألقاب في الدولة العثمانية ولم يكن يتمتع به في ذلك الوقت سوى ثمانية أشخاص ، وأرسل له فرمان بذلك مع إشارة الاستحقاق وهي السيف والصولجان والطلب^(٣)، كما أرسل إليه قوة مؤلفة من ٢٠٠٠ إنكشاري مزوّدین بالمدفعية ، وسمح له بتجنيد أعدادٍ كبيرة من المتطوعين ، ومنحهم امتيازات الإنكشارية ، كما أعلنت الدولة العثمانية عن تأمين مصاريف الطريق للراغبين بالذهاب للجزائر، ووعدتهم بالحصول على الامتيازات التي تتمتع بها الإنكشارية^(٤).

استطاع خير الدين بفضل القوة الكبيرة التي أمدّته بها الدولة العثمانية التصدي لجميع الصعوبات التي واجهته ، فأحبط المؤامرة التي دبّرها سكّان مدينة الجزائر مع رجال القبائل والتي هدفت إلى حرق الأسطول وقتل الأتراك ، كما تمكّن من إلحاق الهزيمة بالقوات الإسبانية التي نزلت قرب مدينة الجزائر عند مصب نهر الحراش سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م ،

(١) للتفصيل حول استشهاد عروج يرجى العودة إلى فارس : تاريخ المغرب ، ص . ١١٠-١١١.

(٢) عزيز سامح التر : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمود علي عامر ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٩م، ص ٧١.

— فارس : تاريخ المغرب ، ص ١١٢.

(٣) إيفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص ١٢٩.

(٤) التر : الأتراك العثمانيون ، ص ٧٣.

وكانت بقيادة هوجود مونكاد نائب الملك الإسباني في صقلية ، لكنّ خير الدين ما لبث أن تعرض لهزيمة كبيرة أمام الحفصيين حُكَّام تونس أدّت إلى خروجه من الجزائر إلى جيجل^(١).

بدأ خير الدين في إعادة تنظيم نفسه في جيجل ، فأنشأ داراً لصناعة السفن ، وعاد إلى ممارسة نشاطه القديم كقرصان بهدف تأمين الموارد التي يحتاجها لإعادة بناء قواته ، واستطاع خلال السنوات الواقعة بين (١٥٢٠ - ١٥٢٥م) استعادة قوّته دون أن يتلقّى أيّة مساعدة من الدولة العثمانية ، وعندما شعر خير الدين باكتمال قوّته قرر استعادة الجزائر، وتمكّن من هزيمة ابن القاضي الذي فرّ من المعركة ، وانتهت حياته على يد رجاله الذين قطعوا رأس زعيمهم ، وقدموها هدية لخير الدين الذي دخل الجزائر سنة ١٥٢٥م ، وتمكّن ما بين سنتي (١٥٢٦ - ١٥٢٧م) من القضاء على ثورات شرشال وتنس وقسنطينة^(٢).

قرّر خير الدين بعد تمكّنه من فرض الأمن والاستقرار في الجزائر التخلّص من الخطر الإسباني الموجود عند مدخل مدينة الجزائر في قلعة البينيون^(٣) لكي يؤمّن حماية سفنه وميناء الجزائر من الهجمات الإسبانية التي كانت تنطلق من تلك القلعة المواجهة لمدينة الجزائر، فأنذر القائد الإسباني في القلعة دون مارتان دي قارقاس لتسليمها من دون قتال، لكن الأخير رفض ذلك ، وأرسل إلى إسبانيا من أجل إمداده بالرجال والعتاد^(٤)، فقام خير الدين بقصفها بالمدفعية لمدة عشرين يوماً إلى أن تمكّن من السيطرة عليها ، واستخدم أنقاضها في بناء مرسئٍ يصل الصخرة التي كانت تقوم عليها القلعة بالمدينة ، فأوجد بذلك ميناء لمدينة الجزائر، وملجأ لأسطوله الذي أصبح بإمكانه من خلال هذا الموقع الاستراتيجي بين المضيق الصقلي ، وبين مضيق جبل طارق أن يراقب حركة السفن في الحوض الغربي للمتوسط^(٥).

بعد أن تمكّن خير الدين من تأكيد سيطرته على الجزائر ، وجّه اهتمامه لفرض سيطرته على تونس ، وقد دفعته إلى ذلك أسبابٌ عديدةٌ ، كان من بينها الضعف الكبير الذي أصاب

(١) كان السلطان الحفصي غير راضٍ عن السيطرة العثمانية على الجزائر التي يعدها جزءاً من دولته ، ولهذا اتفق سراً مع أحمد بن القاضي سلطان كوكو على التعاون ضد خير الدين الذي اعتقد أنه باستطاعته كسب بن القاضي إلى جانبه في مواجهة أعدائه الحفصيين وحلفائهم الإسبان إذا ما أعطاه حكم نصف الجزائر، لكن ابن القاضي انقلب على خير الدين أثناء المعركة مع الحفصيين، ممّا أدّى إلى هزيمة خير الدين الذي نجا مع عدد قليل من جنوده ، والتجأ إلى جيجل . للتفصيل فارس : تاريخ المغرب ، ص ١١٢.

(٢) التز : الأتراك العثمانيون ، ص ٨٣.

— فارس : تاريخ المغرب ، ص ١١٤.

(٣) أنشأ هذه القلعة الأسباني " بيدرو دو نافارو " بالقرب من مدينة الجزائر . للتفصيل الجيالي : تاريخ الجزائر ، الجزء الثالث ، ص ٥٠.

(٤) الملي : تاريخ الجزائر ، الجزء الثالث ، ص ٥٦.

(٥) فارس : تاريخ المغرب ، ص ١١٤.

الأسرة الحفصية نتيجة الخلافات بين أفرادها ، وكذلك موقع تونس الاستراتيجي المُشرف على المضيق الصقليّ الذي يسمح لخير الدين في حال نجاحه في السيطرة عليه من التحكم بطرق المواصلات البحرية بين الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط ، كما أنّه يؤمّن طريقاً برياً للاتصال بين الدولة العثمانية والجزائر، وكذلك فقد أراد خير الدين أن يستغل نجاحاته في الجزائر، ليصفي حسابه القديم مع السلطان الحفصي في تونس ، نظراً لمواقفه العدائية التي انتهجها الأخير ضد خير الدين^(١).

وافق السلطان العثمانيّ سليمان القانوني على مشروع خير الدين ، وقدم له بعض المساعدات حيث زوّده بـ (٨٠٠٠) إنكشاري ، ومبلغ كبير من المال قدر (٨٠٠٠) قطعة ذهبية^(٢) ، ولم يلقَ خير الدين أيّ صعوبة في السيطرة على تونس ، فدخلها سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م ، وأعلن نهاية حكم الأسرة الحفصية وتبعيتها للدولة العثمانية ، فهرب السلطان الحفصي مولاي الحسن إلى الإمبراطور شارلكان في محاولة منه للحصول على مساعدة الإسبان في استعادة عرشه الضائع ، فوافق الإمبراطور شارلكان على طلبه حيث أثار نجاح الأتراك في فرض سيطرتهم على الجزائر، ومن ثم على تونس حفيظة الإسبان ، الذين تخوّفوا من أن يؤدّي ذلك إلى فقدانهم لمراكز تواجدهم في مناطق الشمال الإفريقي .

نجح الإسبان في مساعدهم في استعادة تونس ، وطرد الأتراك منها ، فأعادوا تنصيب مولاي الحسن حاكماً عليها من جديد ، بعد أن أعلن ولاءه للإمبراطور الإسباني^(٣)، وبعودة مولاي الحسن إلى الحكم مجدداً عادت الفوضى والاضطرابات إلى تونس^(٤) ، فضاق الأهالي ذرعاً بتصرفات الأسرة الحفصية ، وأخذوا بالبحث عن وسيلة للتخلص منه ، فتوجّهوا بأنظارهم إلى القوات العثمانية المتواجدة في الجزائر، وطلبوا منها المساعدة ، ونجحوا في الحصول على ذلك سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٩م ، عندما تلقّى قلع علي أمراً سلطانياً بالتوجّه من الجزائر إلى تونس ، وتخليصها من أيدي حاكمها حميدة بن مولاي الحسن ، وحلفائه الإسبان ، وإحاقها بالدولة العثمانية ، وذلك بسبب الموقع الاستراتيجي المميّز الذي تشغله حيث تشكل

(١) الميلي : تاريخ الجزائر ، الجزء الثالث ، ص ٥٨ .

— فارس : تاريخ المغرب ، ص ١١٦ .

(٢) التر : الأتراك العثمانيون ، ص ١١٠ .

(٣) فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٣٣ .

(٤) فشل مولاي الحسن في إدارة البلاد ، ومارس الظلم على الأهالي ، وأرهقهم بالضرائب ، وفوق ذلك ثار عليه ولده حميدة ، ونجح في السيطرة على مقاليد السلطة في تونس ، بعد طرد والده الذي لجأ إلى الإسبان ، فزودوه بقوة كبيرة لاستعادة سلطنته بقيادة لاجورد ، وأثناء المعركة مع ابنه حميدة قتل الأهالي لاجورد ، ووقع مولاي الحسن أسيراً بيد ابنه حميدة الذي قام باقتلاع عيني والده ، وتسلم حكم تونس ، غير أن سياسة حميدة لم تختلف عن سياسة أبيه مولاي الحسن ، فمارس الظلم ، وفرض الضرائب. للتفصيل التر : الأتراك العثمانيون ، ص ٢٢٨ .

مع نابولي وصقلية ومالطا الحدود الفاصلة بين شرقي المتوسط وغربه ، كذلك فإن تونس كانت تفصل بين الممتلكات العثمانية في الجزائر وطرابلس الغرب ، كما هدف العثمانيون إلى السيطرة على القلعة الإسبانية الموجودة في تونس التي تتيح لهم التحكم في الطرق البحرية في غرب المتوسط^(١). كانت الظروف في ذلك الوقت أفضل بكثير مما كانت عليه أيام محاولة خير الدين الأولى سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٤م ، فقد نجح الرئيس طرغوت الذي بدأ العمل لحسابه الخاص ، ثم ارتبط بالدولة العثمانية في الاستيلاء على طرابلس وعُين والياً عليها سنة ٩٥٨هـ/١٥٥٥م ، وبدأ بالتوسع في الأراضي التونسية على حساب الدولة الحفصية المنهارة ، كما أن الدولة الحفصية كانت تعاني من مشاكل داخلية كثيرة ، دفعت بالوزير أبي الطيب الخضار إلى الاتصال بقلج علي وتحريضه على غزو تونس نتيجة خلافه مع السلطان الحفصي أبي العباس أحمد . أمّا الإسبان حلفاء الحفصيين ، فكانوا يواجهون صعوبات داخلية كثيرة نتيجة ثورة المسلمين في غرناطة ، وثورة هولندة، فاستغل قلج علي ذلك ، وهاجم تونس وحقق الانتصار على الحفصيين ، ودخل مدينة تونس في نهاية سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٧٤م^(٢).

أدى نجاح العثمانيين في السيطرة على تونس إلى إثارة الذعر في أوروبا ، وخاصة في إيطاليا وإسبانيا حيث أصبح بإمكان العثمانيين التحكم في المضيق الصقلي ، وتهديد إيطاليا وموصلاتها مع إسبانيا ، وترافق ذلك مع هجوم العثمانيين على قبرص وطرّد البنادقة منها ، وهذا ما دفع بالبندقية وإسبانيا إلى التحالف لمواجهة هذه التطورات الخطيرة على الرغم من حالة العداء الكبيرة بينهما ، وقد تمّ ذلك بمساعي البابا في روما ، وكان الإمبراطور فيليب الثاني يرغب في توجيه هذا التحالف لاستعادة تونس ، لكنّ البندقية والبابا أصرّوا في البداية على استرداد قبرص من العثمانيين ، وتمكّنت الدول الأوروبية من الانتصار على العثمانيين في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م التي أدّت إلى تحطيم الأسطول العثماني^(٣). بعد هذا النصر انهار التحالف الأوروبي نتيجة انسحاب البندقية ، أمّا فيليب فقد ظل متطلعاً لاستعادة تونس ، وأعد حملة كبيرة بقيادة أخيه دون جون الذي تحرك في أيلول سنة ١٥٧٣م من صقلية إلى تونس ، ونجح في السيطرة عليها ولم يستطع حاكمها العثماني رمضان باشا الصمود ، فانسحب إلى القيروان ، وكان دون جون يطمع في إقامة مملكة خاصة به في تونس ، لكن الملك فيليب أمره بمغادرة تونس ، وترك حامية عسكرية إسبانية ، وحاكم إسباني يساعد السلطان محمد

(١) نيكولاي إيلنش بروشين : تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين ، ترجمة وتقديم عماد حاتم ، الطبعة الثانية ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٩٩م ، ص ٢٨.

(٢) فارس : تاريخ المغرب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) إيفانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ، ص ٢٨٨.

الحفصي في إدارة تونس^(١). عملت الدولة العثمانية على تلافي آثار الهزيمة الكبيرة التي لحقت بهم في معركة ليبانتو، فكلفت قلع علي بإعادة بناء الأسطول^(٢)، وفور اكتمال عملية بناء الأسطول قرّرت الدولة العثمانية استعادة تونس، ففي سنة ٩٨٢هـ/١٥٧٤م توجهت قوات عثمانية من طرابلس والجزائر والقيروان، بالإضافة إلى القوات التي قدّمت من استانبول، بقيادة قلع علي وسان باشا، واستطاعت تلك القوات دخول تونس، وإنهاء حكم الأسرة الحفصية، وطرد الإسبان منها، وضمّها إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي^(٣).

أمّا طرابلس الغرب التي عانى أهلها الكثير من الصّعاب في النصف الأول من القرن السادس عشر^(٤)، وخاصة بعد أن منح الإمبراطور شارل الخامس حكم هذه المدينة إلى فرسان مالطا الذين أذاقوا أهلها الكثير من الظلم والقهر، فقد تطلّعوا إلى الدولة العثمانية لإنقاذهم من معاناتهم، وأرسلوا وفداً إلى العاصمة العثمانية، وقابلوا السلطان وطلبوا المساعدة منه، فوافق السلطان على طلبهم ووعدهم بالمساعدة^(٥)، وكان أحد رجال خير الدين بربروسا، ويُدعى مراد أغا، قد تمركز في تاجوراء، وتولّى قتال الفرسان، وطردهم من مدينة طرابلس، بالاتفاق مع طرغوت باشا أحد أشهر القراصنة الأتراك في الشمال الإفريقي^(٦). وفي سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م أصدر السلطان أوامره لسان باشا بتجهيز الأسطول والتوجّه إلى طرابلس، وطرد فرسان مالطا، وانضم طرغوت باشا، وصالح باشا حاكم رودس إلى قوات سنان باشا، واتجهوا في البداية باتجاه جزيرة مالطا بقصد السيطرة عليها، ولكنهم فشلوا في ذلك بسبب متانة حصونها وضخامتها، فتابعوا طريقهم إلى طرابلس،

(١) فارس: تاريخ المغرب، ص ١٢٥.

(٢) التر: الأتراك العثمانيون، ص ٢٣٣.

(٣) فارس: تاريخ المغرب، ص ١٢٦.

(٤) تمكّن الإسبان من السيطرة على مدينة طرابلس في ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م، وتم إلحاقها بحكومة نائب الملك في صقلية، وفي سنة ١٥١٣م عين الملك الإسباني نائبه في صقلية "دون هوجو دي مونكادا" حاكماً على طرابلس مدى الحياة، وخصّص له ميزانية سنوية لتأمين ما يحتاج إليه من نفقات لإدارة هذه المدينة، لكن الإسبان ما لبثوا أن تنازلوا عن هذه المدينة لفرسان مالطا الذين كانوا قد طردوا من جزيرة قبرص على يد السلطان العثماني سليمان القانوني سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، فلجؤوا إلى الإمبراطور شارل الخامس، وطلبوا منه منحهم جزيرة مالطا لتكون قاعدة لهم في البحر المتوسط، فوافق الإمبراطور شارل على ذلك بشرط أن يتولوا مهمة الدفاع عن مدينة طرابلس، قبل الفرسان بعرض شارل الخامس، وتولوا إدارة مدينة طرابلس سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م وقد اقتضت سيطرة فرسان مالطا - شأنهم شأن الإسبان - على الساحل، أما بقية المناطق، فبقيت بيد العرب، وفي مدينة تاجوراء التي تقع على بعد اثني عشر كيلو متراً شرقي طرابلس، تركزت فيها مقاومة العرب، والقراصنة الأتراك الذين تطلّعوا إلى استعادة طرابلس، وأخذوا يثيرون المشاكل للحامية الموجودة في المدينة. للتفصيل أنثوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١، ترجمة وتقديم خليفة محمد التبليسي، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، (د.م)، ١٩٩١، ص ١٩٦.

(٥) ابن غلبون: تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ولي ملك طرابلس ومن كان بها من الأخبار، نشره وعلق عليه الطاهر الزاوي، (د.ن)، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص ٩٣.

(٦) بروشين: تاريخ ليبيا، ص ٢٧.

وفرضوا الحصار عليها ، وفي تلك الأثناء وصل السفير الفرنسي "دارمونت" الذي كان متجهاً إلى العاصمة العثمانية ، وتوقف في مالطا فرجاء زعيم الفرسان بالتدخل لإقناع سنان باشا بالتخلي عن حصار طرابلس ، لكن الأخير رفض ذلك متذرعاً بتنفيذ أوامر السلطان^(١) ، فلم يستطع الفرسان الصمود ، ولذلك قرروا التخلي عن المدينة ، بشرط تعهد سنان باشا بالمحافظة على حياة أفراد الحامية ، وبنقلهم إلى جزيرة مالطا أو صقلية ، فقبل سنان باشا بعرض الفرسان ، وهكذا تمكن الأتراك من السيطرة على طرابلس في شعبان ٩٥٨هـ/آب سنة ١٥٥١م ، وبدءاً من ذلك التاريخ أصبحت طرابلس الغرب تابعة للدولة العثمانية .

ثالثاً - مرحلة القوة العثمانية في القرن السادس عشر :

تميز الحكم العثماني في الولايات العربية في القرن السادس عشر بالهدوء والاستقرار ، لكن ذلك لم يمنع من حدوث بعض الاضطرابات كالثورات التي قامت بها بعض العناصر المملوكية التي عملت على إعادة الحكم المملوكي ، أو قوى عثمانية ناقمة على الإدارة في الآستانة ، أو قوى بدوية ومحلية حاولت الحفاظ على نفوذها ، لكن الدولة العثمانية استطاعت القضاء على جميع تلك الثورات ، وأعادت الهدوء والاستقرار إلى ولاياتها حيث استمر ذلك الهدوء قرابة نصف قرن .

كانت أولى ثورات المماليك ضد العثمانيين ثورة جان بردي الغزالي الذي استغل وفاة السلطان سليم الأول في ٢٢ أيلول ١٥٢٠م ، فحاصر قلعة دمشق ، وتمكن من احتلالها ، ومنع الخطباء من ذكر اسم السلطان سليمان في المساجد ، كذلك عمل على جمع المؤيدين حوله^(٢) ، لكن العثمانيين استطاعوا القضاء على ثورة الغزالي في المعركة التي جرت بين الطرفين في برزة خارج دمشق في ١٧ صفر ٩٢٧هـ/٥ شباط ١٥٢١م ، وانتهت تلك المعركة بمقتله ، ونجح العثمانيون باحتلال دمشق مجدداً بقيادة فرهاد باشا^(٣) .

(١) روسي : ليبيا ، ص ٢٠٩ .

(٢) أعاد الغزالي أسرة آل الحنش إلى حكم منطقة البقاع ، وانضم إليه عدد كبير من شباب الزعر الذين كانوا يمثلون شباب الحارات ، وبشكل خاص الشاغور والصالحية ، فضلاً عن بقايا المماليك ، ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وخطب باسمه في الجامع الأموي في ١٣ صفر ٩٢٧هـ/١ شباط ١٥٢١م ، وقام بسلسلة من الإجراءات بهدف استكمال سيطرته على بلاد الشام ، فعين ولداً على طرابلس وحلب ، وعلى بقية الصناجق التابعة لولاية دمشق . للتفصيل رافق : المشرق العربي ، ص ٥٩ .

(٣) للتفصيل حول ثورة الغزالي يرجى العودة إلى ابن طولون : أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ٢٤٤ .

- رافق : تاريخ بلاد الشام ، ص ١١٥ .

كان لثورة الغزالي نتائج كبيرة وخطيرة ، خصوصاً على دمشق التي كانت تُعدُّ المركز التي بدأت فيه هذه الثورة ، فلقد عمدت الدولة العثمانية بعد القضاء على ثورة الغزالي إلى إبعاد المماليك عن المناصب العليا في الولاية ، وذلك بسبب الخوف من طموحهم في استعادة قوتهم ودولتهم ، كما تمَّ تقليصُ مساحةِ ولايةِ دمشق والتي كانت تمتد من معرة النعمان إلى العريش ، قبل قيام هذه الثورة إلى المنطقة الممتدة ما بين دمشق والعريش ، وقد هدفت الدولة العثمانية من وراء هذا التقسيم الجديد إلى الحدِّ من قُوَّةِ هذه الولاية ، خصوصاً من ناحية اتساعها ومواردها الضخمة^(١) .

استطاع الولاة العثمانيون الذين حكموا دمشق في الفترة التي أعقبت القضاء على ثورة الغزالي فرض الأمن والاستقرار في الولاية ، فالسكان المحليون مالوا إلى الهدوء والاستقرار خصوصاً بعدما شاهدوا القوة العسكرية الكبيرة التي يملكها العثمانيون ، عندما قضوا على ثورة الغزالي ، كما أنَّ الانتصارات التي كان حققها العثمانيون في أوروبا الشرقية ومظاهر الاحتفال والبهجة التي كانت تعم الولايات التابعة للدولة العثمانية أظهرت قوة الدولة العثمانية . ويضاف إلى جانب نجاحهم في فرض الأمن قضاءهم على اللصوص وقطاع الطرق وحمائيتهم لقوافل الحج من هجمات البدو التي كانت تُعدُّ من أكبر المشاكل التي كانت تواجه حكام بلاد الشام . وقد خلف حُكَّام هذه المرحلة الكثير من الأبنية والمنشآت الهامة ، مثلما فعل السلطان سليم الأول حين أصدر أوامره ببناء تكية وجامع قرب ضريح محي الدين بن عربي ، وكذلك فعل السلطان سليمان القانوني عندما أمر ببناء التكية السلمانية في دمشق سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥م والتي أنجز بناؤها سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م ، ممَّا يدلُّ على اهتمام هذه الدولة بالتصوُّف والمتصوِّفة ، وكذلك فإنَّ الولاة عملوا على بناء عدد من المنشآت التي تخلد أسماءهم ، كما فعل الوزير " لالا مصطفى باشا " الذي حكم دمشق ما بين (١٥٦٣-١٥٦٩م) عندما بنى الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق ، وقيام الوالي درويش باشا الذي حكم دمشق (١٥٧١-١٥٧٢م) ببناء جامع عُرف باسمه ، وهو جامع الدرويشية الذي يقع قرب باب الجابية ، والأمر ذاته حدث في حلب عندما قام واليها محمد باشا دوقة عين ببناء عددٍ من الخانات فيها ، كالخان المعروف اليوم باسم خان القرابين وخان النحاسين والخان المشهور بخان العلبية^(٢) .

(١) للتفصيل حول هذا التقسيم يرجى العودة إلى أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية،

بيروت ، ١٩٧٠م ، ص ١١١ .

(٢) رافق : المشرق العربي ، ص ٧٦ .

أمّا في مصر فإنّ السلطان سليم ، قام قبل مغادرته البلاد بتعيين الأمير خاير بك أحد أمراء السلطان المملوكي قانصوه الغوري والياً عليها ، بعد أن أثبت إخلاصه للسلطان العثماني^(١) ، ولقبه بملك الأمراء ، ونجح خاير بك خلال ولايته على مصر في فرض الأمن والاستقرار ، وبعد وفاته عام ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م تعاقب على حكم مصر عدد من الولاة كان من بينهم مصطفى باشا زوج أخت سليمان القانوني ، وفي عهده حدث أول تمرد مملوكي ضدّ الوجود العثماني في مصر ، بقيادة إينال وجانم السيفي^(٢) ، إلا أنّ القوات العثمانية التي يقودها مصطفى باشا تمكّنت من هزيمة المماليك في المعركة التي وقعت بين الطرفين في منطقة الشرقية ، وانتهت تلك المعركة بمقتل جانم ، أما شريكه في التمرد إينال ، فقد تمكّن من الفرار باتجاه غزة ، ولم يُعرف مصيره بعد تلك المعركة.

لم يكد يمضي عام على القضاء على ثورة جانم وإينال السيفي حتى قامت ثورة أخرى في مصر بزعامه واليها أحمد باشا الخائن^(٣) الذي قام بمهاجمة القلعة ، وتمكّن من السيطرة عليها ، وأعلن نفسه سلطاناً في ١٢ شباط ١٥٢٤م ، وذكر اسمُه في الخطبة ، وعلى السكّة . أمّا بالنسبة لموقف الدولة العثمانية ، فلم يكن في وسعها الوقوف موقف المتفرج إزاء ما يحدث في مصر ، خصوصاً أنها تُعدّ من أهمّ ولاياتها العربية ، لذلك عندما فشلت في استعمال القوة ، لجأت إلى استخدام سلاحٍ خطيرٍ يضاهي الأسلحة النارية المُستخدمة في الحروب حيث أشاعت بين الناس ، أنّ أحمد باشا قد أقام علاقة تحالف مع الصفويين الذين يحكمون بلاد فارس

(١) سيد محمد السيد: مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٩٠.
(٢) توافرت عدة دوافع لقيام المماليك بهذه الثورة ، كان من بينها أن أمراء المماليك بالرغم من انهيار سلطتهم عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، فإنهم ظلوا يتطلعون للعودة إلى السلطة ، والدليل على ذلك انضمام عدد كبير منهم إلى الثورة التي قادها جانبردي الغزالي في بلاد الشام ، وكان معظم هؤلاء من المماليك الناقمين على خاير بك ، والدافع الثاني كان شعور المماليك بأنهم فقدوا امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها ، لكنّ أهم تلك الدوافع تمثّل في أن زعماء التمرد كانوا من المخلصين لآخر سلاطين المماليك طومان باي حتى بعد إعدامه ، إذ عمد إينال السيفي إلى قتل الشيخ حسن بن مرعي وأخيه شكر ، الذين قاموا بتسليم السلطان طومان باي للعثمانيين الذين قاموا بإعدامه . للتفصيل حول الأحداث ومقتل السلطان طومان باي يرجى العودة إلى ابن إياس : بدائع الزهور ، الجزء الخامس ، ص ٢٩٥.

— السيد: مصر في العصر العثماني ، ص ١١٣.

(٣) حدثت هذه الثورة في سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م ، فبعد عزل مصطفى باشا عن ولاية مصر ، حل مكانه قاسم جزل باشا الذي بقي في منصبه مدة عام ، خلفه بعدها أحمد باشا في عام ٩٣٠هـ / ١٥٣٣م الذي كان قد أسهم إسهاماً كبيراً في الفتوحات العثمانية في أوروبا ، وخاصة في البلقان ، وكان يتطلع لمنصب الصدر الأعظم ، غير أن منافسه على هذا المنصب إبراهيم باشا نجح في الحصول عليه ، مما دفع بأحمد باشا إلى المطالبة بتعيينه والياً على مصر التي تتمتع بموقع ممتاز بين الولايات العثمانية ، ولم يتردد الصدر الأعظم إبراهيم باشا في تنفيذ تلك الرغبة حيث وجد فيها فرصة ذهبية لإبعاد أحمد باشا عن العاصمة ، وتمّ الأمر بعد موافقة السلطان على هذا القرار ، وغادر أحمد باشا الأستانة إلى مصر لتسلم منصبه الجديد ، لكنه لم ينس ما فعله الصدر الأعظم ، وصمم على الانتقام لنفسه منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى مصر سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٣م . للتفصيل حول هذه الثورة يرجى العودة إلى السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١١٧.

ويعتقدون المذهب الشيعي ، وأنه بتشجيع من ظهير الدين الأردبيلي تحوّل عن المذهب السني وأصبح من أتباع الشاه إسماعيل الصفوي ، ولهذا تمّ تلقب أحمد باشا بالخائن. كانت نتائج هذه الشائعة كارثية على أحمد باشا ، إذ أدّت إلى انهيار قوته وتراجعته ، وتمّ تدبير مؤامرة لاغتياله وهو في أحد الحامّات خارج القلعة ، إلاّ أنّه نجح في الهرب إلى قلعة الجبل^(١) ، لكنّ الدولة العثمانية تمكنت من القضاء عليه في المعركة التي قامت بين الطرفين في ٢٠ ربيع الثاني ٩٣٠هـ/٦ آذار ١٥٢٤م^(٢).

كان نظام الحكم العثماني في مصر في أعقاب فرض السيطرة غير مباشر، فقد ضمّ خليطاً متنوعاً من العناصر العثمانية والمملوكية والتي رغم هزيمتها في مرج دابق والريدانية فقد ظلّت محتفظة ببعض الصلاحيات ، ولكنّ بعد القضاء على حركات التمرد التي قام بها هؤلاء المماليك شعرت الدولة العثمانية بضرورة بقائهم في السلطة ، ولذلك عملت على إجراء تعديلات في نظام الحكم في مصر خشية أن يتمكّن المماليك من السيطرة عليها وإخراج العثمانيين منها ، فقامت الدولة العثمانية بإرسال جيشاً بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كلّفته بإيجاد نظام جديد بغية تنظيم أمور البلاد^(٣) ، فقام بإصدار "قانون نامه مصر" سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م الذي نظم أمور البلاد الإدارية والعسكرية^(٤).

شهدت مصر مثل بلاد الشام بعد القضاء على الثورات فترة من الهدوء والاستقرار حيث تولّى الحكم فيها عددٌ من الولاة الأقوياء مثل حسين باشا الخادم (١٥٧٥-١٥٨٠م) الذي قضى على اللصوص وقطاع الطرق ، وسان باشا الذي حكم مصر مرتين (١٥٦٧-١٥٦٨م)

(١) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٢١.

(٢) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٨٦.

(٣) السيد : مصر في العصر العثماني ، ص ١٢٥.

(٤) تم تقسيم القوات العسكرية بموجب هذا القانون إلى سِت فرق سُميت بالأوجاقات وهي أوجاق الإنكشارية "المستحفظان" : وكانت مهمتهم حراسة القاهرة ، أوجاق الجنليان : وهم المتطوعون ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسبب استخدامهم الجمال ، وأوجاق الشراكسة : وهم من بقايا النظام المملوكي ، وكانت مهمتهم توطيد الأمن في الأقاليم ، أوجاق التفنكيجان : وهؤلاء كانوا من الفرسان ، ويستخدمون البنادق ، أوجاق الغربان : كانوا من المشاة مثل الإنكشارية ، وكانت مهماتهم مشابهة لمهام الإنكشارية ، إلاّ أن رواتبهم أقل من الإنكشارية ، أوجاق الجاوشان " الجاوشية " : كانت مهمتهم تبليغ الأوامر الصادرة عن الوالي، وتمّ تكليفهم بجباية الضرائب ، وقد سيطر المماليك على هذا الأوجاق في القرن الثامن عشر، وتمّ إضافة أوجاق آخر سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م أطلق عليه اسم المتفرقة وهو من الحرس الخاص بالوالي ، ويُعتمد عليهم في حماية الحُجّاج العائدين من الحج ، وتمكّن المماليك من السيطرة على هذا الأوجاق في القرن الثامن عشر . أمّا فيما يتعلق بالأمور الإدارية ، فقد أوجد هذا القانون على رأس الإدارة والقيم في القاهرة ، وهو ممثّل السلطان العثماني في الولاية ، ويحمل لقب باشا ، ويتمّ تعيينه من قبل الديوان السلطاني في استانبول من بين كبار رجال الدولة ، كما تمّ إيجاد الديوان إلى جانب سلطة الوالي للحدّ من سلطته وتفردّه في القرار، ويساعد الوالي في الحكم عدة موظفين من بينهم الكيخيا " الكتخدا " ، الدفتر دار، والقاضي الحنفي . للتفصيل حول هذا القانون يرجى العودة إلى رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٩٩.

و(١٥٧١-١٥٧٤م) الذي قام بحملة على اليمن ، وحارب البرتغاليين في المحيط الهندي ، وما يميّز ولاية هذه المرحلة طول فترة ولايتهم على مصر مقارنة بالعصور اللاحقة ، وهذا مرّد إلى الهدوء والاستقرار اللذين استطاع فرضه هؤلاء الولاة ، ومثلما فعل ولاية الشام في إنشاء الأبنية والمساجد والخانات والأسواق ، كذلك فعل ولاية مصر ، فقد بنى سنان باشا على سبيل المثال عدة جوامع وتكايا ، وكذلك فعل الوالي مسيح باشا الذي بنى مدرسة حملت اسمه^(١).

تعرّض العثمانيون في العراق في أعقاب الفتح لخطر كبير تمثّل في الثورات التي قام بها البدو، خصوصاً في البصرة التي تمتعت بأهمية كبيرة لدى العثمانيين لكونها تُشكّل قاعدةً للعمليات البحرية ضدّ البرتغاليين المتواجدين في الخليج العربي والمحيط الهندي^(٢)، وكان ميناء البصرة في تلك الفترة خاضعاً لسلطة أحد الشيوخ العرب ، ويدعى راشد بن مغامس الذي أعلن تأييده للسلطان سليمان القانوني ، فأقرّه في مكانه ، غير أنّ قيام الشيخ راشد بإعلان تأييده لثورة أحد شيوخ العرب ، دفع بالدولة العثمانية إلى فرض سيطرتها المباشرة على البصرة ، لكنّ هذه السيطرة ظلت محدودة ، فقد احتفظ آل عليان بنفوذهم ، وظلّوا على صراع مع الدولة التي كلّفت والي بغداد اسكندر باشا بقتالهم حيث حقّق عدّة انتصاراتٍ دفعت بابن عليان إلى طلب الصلح ، مقابل تعهّده بأن يدفع كلّ سنة لخزانة البصرة ١٥ ألف دينار ذهبي ، وأنّ يقدّم الرهائن . أمّا في بغداد فقد تميّزت الفترة التي أعقبت السيطرة العثمانية على هذه الولاية بالهدوء والاستقرار ، بسبب وجود الولاة الأقوياء الذين استطاعوا فرض الأمن ، كما تمكّنوا من صدّ الهجمات الصفوية ، وخلفوا الكثير من المنشآت المعمارية ذات النفع العام كالجوامع والخانات والأسواق ، لكنّ أكثر ما يميّز هذه الفترة النشاط التجاري الكبير في العراق ، فقد أصبحت بغداد مركزاً تجارياً كبيراً مستفيدةً من موقعها الجغرافي الذي يربطها بالجزيرة العربية وبلاد فارس والدولة العثمانية ، ممّا زاد من عدد التجار فيها ، وخاصةً من الأجانب . وفيما يتعلّق في المناطق الشمالية ، فعلى الرُغم من محاولة الدولة العثمانية فرض سلطتها المباشرة ، إلّا أنّ الأمراء الأكراد ظلّوا محافظين على نفوذهم المحلي^(٣).

(١) رافق : المشرق العربي ، ص ٧٨.

(٢) كان البرتغاليون قد وصلوا إلى الهند في أوائل القرن السادس عشر، ثم جذبتهم مصائد اللؤلؤ في الخليج العربي ، فضلاً عن أطماعهم في السيطرة على تجارة العراق وفارس ، فتقدّموا في الخليج حتى وصلوا جزر البحرين ، وأسسوا قلعة حصينة عند هرمز سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م . للتفصيل حسين مؤنس : الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٣٨م ، ص ٣٣٠.

(٣) رافق : المشرق العربي ، ص ٦٣ - ٦٤.

أما ولايات الشمال الإفريقي فقد تميز عهد البكر بكي " أمير الأمراء " الذي أعقب السيطرة العثمانية في الجزائر وليبيا وتونس بالهدوء والاستقرار حيث حافظت الدولة العثمانية على هيبتها وقوتها ، كما اتّصف هذا العهد بوجود الولاة الأقوياء الذين كان معظمهم من رجال البحر حيث نجحوا في إقرار الأمن والنظام في ولاياتهم ، وأقاموا المنشآت ذات النفع العام ، وألزموا الإنكشارية والزعامات المحلية بالطاعة ، ففي الجزائر التي نجح العثمانيون في السيطرة عليها بواسطة رجال البحر الذين تعاقبوا على حكمها أكثر من نصف قرن وطبعوا تاريخها بطابعهم ، فإنها تمتعت الجزائر طيلة فترة حكمهم بقوة بحرية كبيرة في المتوسط ، وشكّلت هذه القوة المصدر الرئيسي للثروة في هذه الولاية ، وكان من أشهر الرجال الذين تولّوا حكم الجزائر في عهد البكر بكي بعد خير الدين ابنه حسن باشا الذي حظي بثقة واحترام الأهالي لكون أمه جزائرية^(١) ، وقد تولّى هذا المنصب مرتين ما بين (١٥٤٤-١٥٦٧م) تخلل ذلك حكم صالح ريس (١٥٥١-١٥٥٥م) الذي قام باسترجاع بجاية من الإسبان سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، وقلج علي الذي يُعدّ من أشهر رجال البحر الذين عرفتهم مناطق الشمال الإفريقي على الإطلاق ، كما امتازت هذه المرحلة بمتانة الروابط التي جمعت مناطق الولاية بمركزها ، ومردّ ذلك إلى قوة شخصيات حُكّام هذه المرحلة الذين كان معظمهم من رجال البحر أصحاب الفضل الحقيقي في إلحاق هذه المناطق بالدولة العثمانية^(٢).

أما تونس فلم تشهد كغيرها من ولايات الشمال الإفريقي عصر البكر بكي بسبب وفاة معظم رجال البحر الأقوياء ، وتأخر العثمانيين في فرض سيطرتهم عليها ، وقد عدّت تونس في بداية السيطرة العثمانية عليها بكوية تابعة للجزائر، لكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث وضعت الدولة العثمانية إدارة هذه الولاية بيد الباشوات العثمانيين الذين كان يتم تعيينهم من قبل الدولة العثمانية^(٣).

وفيما يتعلق بطرابلس الغرب ، فقد قام سنان باشا بعد إتمام السيطرة العثمانية بتعيين مراد آغا والياً على طرابلس^(٤)، وقد اعتمدت هذه الولاية بسبب ضعف إمكانياتها الاقتصادية على

(١) الجبالي : تاريخ الجزائر ، الجزء الثالث ، ص ٩٠.

(٢) عبد الحميد الأرقش وآخرون : المغرب العربي الحديث من خلال مصادره ، مركز النشر الجامعي ميدياكوم ، (د.م) ، ٢٠٠٣م، ص ٤١.

(٣) يحيى : المغرب الكبير ، الجزء الثالث ، ص ٥٤.

(٤) تمّ تعيين مراد باشا والياً على طرابلس الغرب على الرغم من الوعد الذي كان قد حصل عليه طرغوت باشا من السلطان بأن يكون حاكم هذه الولاية بعد فتحها ، لكن ذلك الوعد لم يُنفذ نتيجة مؤامرة دُبّرت في القصر السلطاني من قبل الصدر الأعظم الذي كان يكره طرغوت باشا ، فعمل على إصدار قرار بتعيين مراد باشا ، وقد هدف من ذلك إبعاد طرغوت باشا عن ذلك المنصب . للتفصيل يرجى العودة إلى شارل فيرو : الحوليات اللببية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، نقلها وحققها محمد عبد الكريم الوافي ، الطبعة الثانية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ١٩٨٣م ، ص ١١٧.

الأعمال البحرية بشكل كبير في تأمين مواردها المالية ، هذا بالإضافة إلى ما تدرّهُ عليها التجارة القادمة عبر الصحراء ، وقافلة الحجّ المغربية من عوائد مالية^(١)، وكان من أشهر الولاة الذين حكموا ليبيا في هذه المرحلة الرئيس طرغوت الذي ألحق هزيمة كبيرة بالإسبان قبالة شواطئ طرابلس سنة ٩٦٧هـ/١٥٦٠م ، وقام بجملة من الإصلاحات الداخلية في طرابلس الغرب^(٢) . لكنّ الأمر تغيّر في المراحل اللاحقة حيث عمّت الاضطرابات والفوضى في ولايات الشمال الإفريقي وازدادت الصراعات بين الفرق العسكرية وعانى السكّان الكثير من المآسي نتيجة تلك الصراعات ، فأهملت الزراعة وتراجعت الأعمال البحرية ، وأصبح قادة الإنكشارية هم أصحاب الكلمة العليا ، ولم يبق للباشا المعين من قبل الدولة العثمانية إلا السلطة الاسمية.

رابعاً – مرحلة الضعف العثماني في القرن السابع عشر :

بلغت الدولة العثمانية أقصى توسّعها في عهد السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني ، فامتدّت سلطتها على مساحات واسعة في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، ولكن منذ عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤م) بدأت علامات الضعف العثماني تظهر بوضوح ، فتجمّدت حدود الإمبراطورية ، وبدأت حركات التمرد على الحكم العثماني بالظهور ، وكان العساكر هم أول من قام بالتمرد ، ثم انتشر بين الأمراء المحليين.

١- ثورات العساكر:

بدأت ثورات العساكر في مناطق الأطراف كاليمين وشمال إفريقيا ، ثم امتدت إلى مصر وبغداد حيث استغلّ العساكر ضعف السلطة في تلك المناطق ، فقاموا بالتمرد على الدولة العثمانية ، أما في بلاد الشام فكان تمرد العسكر محدوداً واقتصر على الابتزاز الاقتصادي للسكّان . لكنّ هذا الأمر اختلف في العراق حيث شهدت بغداد في الربع الأول من القرن السابع عشر ثورات خطيرة من قبل الإنكشارية الذين استغلّوا ضعف الولاة ، وتمكّنوا من السيطرة على الحكم في مناسبتين : الأولى كانت سنة ١٠١١هـ/١٦٠٣م ، عندما ظهر قائد إنكشاري يدعى محمد بن أحمد الطويل ، وكان برتبة بلوك باشي وسيطر على بغداد ، لكنّ حكمه لم يدوم طويلاً حيث كلف السلطان نصوح باشا والي ديار بكر بقتاله ، ونجح الأخير بتدبير مؤامرة أدّت إلى اغتيال أحمد الطويل . أمّا الثانية فكانت بقيادة بكر الصوباشي ، وهو من الإنكشارية المتواجدين في بغداد ووصل إلى رتبة صوباشي ، ثم ما لبث أن أصبح أحد

(١) الصباغ : تاريخ العرب ، ص ١٥٥ .

(٢) فيرو : الحوليات الليبية ، ص ١٢٢-١٢٣ .

أكبر قادة الإنكشارية في بغداد^(١) ، وجمع حوله عدداً كبيراً من الأعوان والأتباع حتى أضحي سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٩م الرجل الأقوى في بغداد^(٢)، حيث فاقت قوته قوة الوالي يوسف باشا الذي أخذ يخطط للتخلص منه ، لكن بكر الصوباشي تمكن من قتل الوالي العثماني ، وعندما فشل في الحصول على موافقة السلطان على تعيينه والياً على بغداد ، استتجد بالشاه الصفوي عباس الأول (١٥٧٨-١٦٢٩م) ، وطلب منه المساعدة ضد القوات العثمانية التي يقودها حافظ باشا حاكم ديار بكر المكلف بالقضاء عليه ، ووعدوه بتسليمه بغداد ، وعندما وصلت أخبار هذا الاتفاق إلى حافظ أحمد باشا ، فكّ الحصار عن بغداد ، وعقد صلحاً مع بكر الصوباشي ، تمّ بموجبه تعيين الأخير والياً على بغداد بموافقة السلطان ، لكن الشاه عباس تابع تقدّمه باتجاه بغداد على الرغم من محاولة بكر الصوباشي ثني الشاه عن متابعة تقدّمه^(٣)، وعندما وصل الشاه إلى بغداد قام بحصارها حيث تمكن من السيطرة عليها سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٣م ، وألقى القبض على بكر الصوباشي وقتله ، وفرّض السيطرة الصفوية على هذه الولاية ، لكن العثمانيين تمكنوا من استعادتها في سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨^(٤).

كما قام العساكر في مصر بخمس ثورات ما بين (١٥٨٩ - ١٦٠٩م) ، وهاجموا الأسواق وبيوت الأعيان ، وترجّع أسباب تلك الثورات إلى محاولات الولاة وضع حدّ لطغيان العساكر الذين كانوا يقومون بفرض مبالغ من المال على الفلاحين وأصحاب الأملاك في الأرياف وهي غير مقرّرة شرعاً ، كما هدف العساكر من تلك الثورات وضع حدّ لتسرّب العناصر المحلية إلى صفوف القوات العسكرية العثمانية الموجودة في مصر. لكن يجب علينا ألاّ نهمل العوامل الاقتصادية التي كانت السبب الرئيس وراء تلك الثورات ، فقد عانت مصر كغيرها من الولايات العثمانية من التضخم النقديّ الناجم عن تدفق الفضة من أمريكا ، وانخفاض قيمة النقد الفضيّ ، فارتفعت تكاليف الحياة ، كما يجب ألاّ ننسى ضعف السلطة المركزية ، ممّا شجّع الإنكشارية على الثورة ، كذلك يجب ألاّ نغفل دور المماليك الطامعين في استعادة سلطتهم ودورهم في تلك الأحداث^(٥) .

كانت أسباب الثورات التي قام بها العساكر في اليمن في النصف الأول من القرن السادس عشر مشابهة لأسباب ثورات العساكر في مصر حيث انخفضت القيمة الشرائية للعملة

(١) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٧٢.

(٢) العزاوي : موسوعة تاريخ العراق ، المجلد الرابع ، ص ٢٠٣.

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٥.

(٤) للتفصيل حول مقتل بكر الصوباشي يرجى العودة إلى عمر: تاريخ المشرق العربي ، ص ١٨٨ - ١٨٩.

— العزاوي : موسوعة تاريخ العراق ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٥) الصباغ : تاريخ العرب ، ص ١٥٢.

الفضيَّة في اليمن ، بسبب خَلَطِها بالنحاس وذلك بالنسبة لقيمة الدينار الذهبي العثماني الذي تُدْفَعُ الرواتبُ على أساسه ، فعانى العساكر من جَرَاءِ ذلك ، لكونهم يتقاضون المرتبَّات وليس الإقطاعيات كما هو الحال في عددٍ كبيرٍ من الولايات العثمانيَّة ، فهاجم العساكر الأسواق وابتزوا السكَّان المحليين ، وعمد الكثير منهم إلى الالتجاء إلى الإمام مطهر الزيدي الذي استغلَّ الموقف لصالحه وأعلن الثورة على العثمانيين^(١).

أمَّا في المغرب العربي ، فقد استغلَّ العساكر ضَعْفَ السلطة المركزية في ولايات الشمال الإفريقي ، وبُعْدَ تلك المناطق عن العاصمة العثمانية ، ففرضوا نفوذهم في تلك الولايات متجاهلين الولاة العثمانيين المرسلين من قِبَل الدولة ، ففي الجزائر انتهى عصرُ رجالِ البحر أو كما يُسمَّى عهد البكربايات (١٥١٨ - ١٥٨٧م) أصحاب الفضل الحقيقي في إلحاق تلك المناطق بالدولة العثمانيَّة ، ليحلَّ مكانه عهد الباشوات (١٥٨٧ - ١٦٥٩م) المعينين من قِبَل الدولة والذي كان من أهمِّ سماته ازدياد نفوذ الإنكشاريَّة حيث أصبح ديوانهم الذي تمَّ تأسيسه سنة ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م مُمسكاً بكافة السلطات حتى بتعيين الموظفين ، وعندما حاول الباشوات التخلُّص من نفوذ الإنكشاريَّة جرُّدوا من جميع سلطاتهم ، لينتهي عهد الباشوات سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م ، ويحلَّ محله عهدُ الآغوات (١٦٥٩ - ١٦٧١م) الذي ازداد فيه نفوذُ الإنكشاريَّة بشكلٍ واضحٍ حيث أصبحوا حُكَّام البلاد من دون منازع^(٢).

ومثلما حصل في الجزائر فقد ازدادت سطوة الإنكشاريَّة في تونس حيث أخذ الإنكشاريون ينافسون الباشوات العثمانيين على النفوذ في هذه الولاية ، وتمكَّنوا في النهاية من حسم الصراع لصالحهم حيث انتهى عهدُ الباشوات (١٥٧٤ - ١٥٩٠م) ، ليحلَّ مكانه عهد الدايات (١٥٩٠ - ١٦٣١م) الذي أصبح فيه الإنكشاريون حُكَّام تونس بلا منازع ، وممَّا ساعدهم على ذلك بُعْدُ تونس عن استانبول وضعف السلطة المركزية التي بدأت مع أواخر القرن السادس عشر وتعرَّزت في القرن السابع عشر ، واستطاع أحدهم ، ويدعى مراد بك إبقاء السلطة في يده وجعلها وراثيَّة في أسرته ليبدأ عهدُ البايات (١٦٣١ - ١٧٠٥م) الذي استمر أربعاً وسبعين سنة إلى أن تمكَّن أحدُ الضباط ويدعى حسين بن علي من السيطرة على دَفَّةِ الأمور في هذه الولاية ويؤسس أسرة حاكمية عُرِفَتْ بالأسرة الحسينيَّة التي استمرت في حُكم تونس حتى سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

(١) رافق : المشرق العربي ، ص ٩٠.

(٢) للتفصيل حول أوضاع الجزائر في هذه الفترات يرجى العودة إلى فارس: تاريخ المغرب ، ص. ص ١٣٤ - ١٥٠ .

لم يختلف حال ليبيا عن حال بقية ولايات الشمال الإفريقي ، فبعد انتهاء عهد رجال البحر سيطر العساكر على الحكم في هذه الولاية ليبدأ عهد الدايات (١٦٠٦ - ١٧١١) ، وكان من أهم سمات هذه المرحلة الصراعات الكبيرة بين قادة الجند للوصول إلى السلطة ، مما أدى إلى تراجع الزراعة والصناعة وانعدام النشاط البحري ، وعانى الأهالي الكثير من الصعاب جرّاء ذلك ، واستمرت الأمور على هذا المنوال إلى أن تمكن أحمد القرماني من السيطرة على الحكم في هذه الولاية حيث أسس أسرة حاكمة استمرت في حكم ليبيا إلى سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م ، والتي شهدت عودة السلطة المركزية العثمانية إلى ليبيا بعد القضاء على حكم الأسرة القرمانية^(١).

٢- ثورات الأمراء :

أعقب العساكر في الثورة على العثمانيين عدداً من الأمراء المحليين في بلاد الشام وغيرها من الولايات العربية ، وذلك منذ أواخر القرن السادس عشر ، وقد استفاد هؤلاء الأمراء من طبيعة المناطق التي وجدوا فيها مثل جبل لبنان ، ففي بلاد الشام ثار في الربع الأول من القرن السابع عشر زعيمان محليّان هما علي باشا جنبلط الزعيم الكردي في منطقة كلس الواقعة قرب حلب ، والأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف في جبل لبنان . كانت أسباب ثورة علي باشا جنبلط رغبته في الانتقام لمقتل عمه حسين باشا على يد الدولة العثمانية ، فأعلن ثورته في سنة ١٠١٤هـ/١٦٠٥م ، وسيطر على حلب وامتنع عن دفع الضرائب ، واتجه إلى دمشق لاحتلالها بحجة الثأر من حكامها الذين قاموا بقتل عمه ، وتحالف علي باشا جنبلط مع الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف حيث جمع بينهما العداء المشترك ليوسف باشا سيفا والي طرابلس الذي هرب إلى دمشق ، وحاصر الحليفان دمشق في سنة ١٠١٥هـ/١٦٠٦م ، لكنهما تراجعاً عنها بعد أن علما بمغادرة يوسف باشا سيفا وقيامهما بأخذ مبلغ كبير من المال لقاء تراجعهما عن دمشق . لكن الدولة العثمانية تمكنت من هزيمة علي باشا في منطقة مرعش في سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٧م ، ثم قتلت في سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م ، فلجأ بعض أفراد أسرته إلى الحليف القديم لعلّي باشا الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف ، واشتهروا فيما بعد في تاريخ جبل لبنان .

أمّا الأمير فخر الدين المعني الثاني^(٢) حفيد الأمير فخر الدين المعني الأول أمير الشوف الذي وقف إلى جانب العثمانيين ضد المماليك في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م ،

(١) للتفصيل حول أوضاع ليبيا في تلك المرحلة يرجى العودة إلى روسي : ليبيا ، ص . ص ٤٢١ - ٤٩٣ .

(٢) للتفصيل حول كل ما يتعلق بفخر الدين المعني الثاني يرجى العودة إلى أحمد الخالدي الصفدي : لبنان في عهد فخر الدين المعني الثاني ، تحقيق أسد رستم و فؤاد أفرام البستاني ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ص . ص ٤٥ - ١٢١ .

فَعَيْتَهُ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الْأَوَّلُ أَمِيرًا عَلَى جَبَلِ لُبْنَانَ ، مَقَابِلَ اعْتِرَافِهِ بِالسِّيَادَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، وَدَفَعَ أَمْوَالَ الْمِيرِيِّ الْمُرْتَبَةَ عَلَيْهِ ، وَعِنْدَمَا شَعُرَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ بِازْدِيَادِ نَفُوذِهِ ، دَبَّرَتْ مَوَاطِنًا لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِ فِي سَنَةِ ٩٥١هـ/١٥٤٤م ، وَخَلَفَهُ فِي الْإِمَارَةِ ابْنُهُ قَرْقَمَازُ الَّذِي تَابَعَ سِيَاسِيَةً وَالِدَهُ ، لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ قُتِلَ نَتِيجَةَ مَوَاطِنَةٍ تَمَّ تَدْبِيرُهَا مِنْ قِبَلِ يَوْسُفِ سَيْفَا حَيْثُ تَمَّ اتِّهَامُهُ بِمُهَاجَمَةِ قَافِلَةِ الْخَزَانَةِ الْمَصْرِيَّةِ الْمَتَّجِهَةِ إِلَى الْأَسْتَانَةِ سَنَةِ ٩٩٢هـ/١٥٨٤م ، مِمَّا أَجْبَرَ الْأَمِيرَ قَرْقَمَازَ عَلَى الْهَرُوبِ إِلَى مَغَارَةِ تَيْرُونَ فِي جَزِينِ ، حَيْثُ تَوَفَّى فِيهَا^(١) ، فَلَجَأَتْ زَوْجَتُهُ وَابْنُهُ فَخْرُ الدِّينِ الْمَعْنِيُّ الثَّانِي إِلَى أَسْرَةِ آلِ الْخَازَنِ الْمَارُونِيَّةِ فِي مَنَاطِقِ كَسْرَوَانَ ، وَأَقَامَتْ عِنْدَهُمْ مَدَّةَ سِتِّ سَنَوَاتٍ إِلَى أَنْ كَبَّرَ فَخْرُ الدِّينِ ، وَعَادَ إِلَى إِمَارَةِ أَبِيهِ ، وَعَرَفَانًا بِفَضْلِ أَسْرَةِ آلِ الْخَازَنِ عَلَيْهِ قَامَ بِتَعْيِينِ أَحَدِ أَفْرَادِهَا مُسْتَشَارًا لَهُ .

عَمَلَ فَخْرُ الدِّينِ الْمَعْنِيُّ الثَّانِي بَعْدَ تَسَلُّمِهِ حُكْمَ الْإِمَارَةِ إِلَى اسْتِعَادَةِ نَفُوذِ أَسْرَتِهِ فِي الشُّوْفِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى جَبَلِ لُبْنَانَ وَالْمَنَاطِقِ الْمَجَاوِرَةِ ، فَقَامَ بِسُلْسَلَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ عَلَى الصُّعْدِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ الَّتِي مَكَّنَتْهُ مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ^(٢) ، وَفِي سَنَةِ ١٠١١هـ/١٦٠٣م تَحَالَفَ الْأَمِيرُ فَخْرُ الدِّينِ مَعَ عَلِيِّ بَاشَا جَنْبِلَاطِ^(٣) الْكُرْدِيِّ أَمِيرِ مَنَاطِقِ كَلَسَ ، وَقَامَا بِمُهَاجَمَةِ وَلايَةِ طَرَابُلُسَ لِلْقَضَاءِ عَلَى يَوْسُفِ سَيْفَا الْعَدُوِّ الْمُشْتَرَكِ لِهَمَا ، وَنَجَحَا فِي ذَلِكَ حَيْثُ فَرَّ يَوْسُفُ إِلَى الْوَالِيِّ الْعُثْمَانِيِّ فِي دِمَشْقِ الَّذِي كَانَ يَسْتَعِدُّ لِقِتَالِهِمْ ، وَعِنْدَمَا وَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ ، تَمَكَّنَ الْحَلْفِيَانِ مِنْ تَحْقِيقِ النُّصْرَةِ ، إِلَّا أَنَّهُمَا تَقَاعَسَا عَنْ دُخُولِ مَدِينَةِ دِمَشْقِ^(٤).

(١) طُنُوسُ الشَّدِيْق : أَخْبَارُ الْأَعْيَانِ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ ، تَحْقِيقُ مَارُونِ رَعْدَ ، جُزْءَانِ ، دَارُ نَظِيرِ عِبُودَ ، (د.م) ، ١٩٩٥م ، الْجُزْءُ الثَّانِي ، ص ٤٩ .

(٢) عَقْدُ سُلْسَلَةٍ مِنَ التَّحَالِفَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، فَقَوَّى عِلَاقَتَهُ بِالشَّهَابِيِّينَ وَكَسَبَ آلَ أَرْسَلَانَ إِلَى صَفِّهِ عَنْ طَرِيقِ الْمَصَاهِرَةِ ، وَقَامَ بِعَقْدِ الْمَعَاهِدَاتِ مَعَ حُكَّامِ إِمَارَةِ تَسْكَانِيَا الْإِيطَالِيَّةِ لِنَتِشِطِ التَّجَارَةِ مَعَهُمْ ، وَخَاصَّةً تِجَارَةِ الْحَرِيرِ ، كَمَا حَرَصَ فَخْرُ الدِّينِ فِي بَدَايَةِ تَسَلُّمِهِ الْحُكْمَ عَلَى إِظْهَارِ الْوَلَاءِ لِلدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، وَذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ إِرْسَالِ الْهَدَايَا وَتَقْدِيمِ أَمْوَالِ الْمِيرِيَّةِ بِشَكْلِ مُنْتَظَمٍ ، كَمَا قَوَّى صِلَاتِهِ بِبَعْضِ الْقَادَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي دِمَشْقَ وَعَلَى رَأْسِهِمْ كَيَوَانَ ، وَعَمِدَ إِلَى زَرْعِ عِيُونٍ لَهُ فِي الْأَسْتَانَةِ عِنْدَ كِبَارِ الزَّعَمَاءِ وَالْقَادَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ عَلَى اطِّلَاعٍ عَلَى دَقَائِقِ الْأُمُورِ ، لَكِي يَسْتَطِيعَ تَدْبِيرَ الْمَوَاطِنِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَلِمَعْرِفَةِ مَا يُحَاكِ ضَدَّهُ ، كَذَلِكَ لِحَاجَةٍ إِلَى وَضْعِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْجَوَاسِيسِ فِي بِلَاطِ أَعْدَائِهِ ، لَكِنَّهُ فَشَلَ فِي الْقَضَاءِ عَلَى يَوْسُفِ سَيْفَا وَالِيِ طَرَابُلُسَ الْعَدُوِّ الْقَدِيمِ لِأَسْرَتِهِ ، وَالَّذِي كَانَ يَرَاقِبُ تَحَرُّكَاتِ الْأَمِيرِ فَخْرِ الدِّينِ عَنْ قَرَبٍ حَيْثُ خَشِيَ مِنْ اِزْدِيَادِ نَفُوذِهِ ، فَاصْطَدَمَ مَعَهُ فِي مَوْقِعَةِ نَهْرِ الْكَلْبِ سَنَةِ ١٠٠٦هـ/١٥٩٨م ، إِلَّا أَنَّ الْأَمِيرَ فَخْرَ الدِّينِ تَمَكَّنَ مِنَ الْإِنْتِصَارِ عَلَيْهِ ، وَفَرَضَ سَيْطَرَتَهُ عَلَى مَنَاطِقِ كَسْرَوَانَ وَبَيْرُوتَ ، كَمَا عَمَلَ عَلَى التَّوَسُّعِ فِي الْمَرْتَفَعَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ إِمَارَتِهِ ، وَخَاصَّةً حُورَانَ وَنَابْلُسَ وَعَجْلُونَ . لِلتَّفَصِيلِ حَوْلَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ يَرْجَى الْعُودَةُ إِلَى الشَّدِيْق : أَخْبَارُ الْأَعْيَانِ ، الْجُزْءُ الثَّانِي ، ص ٤٩ .

(٣) بَرُوكْلَمَان : تَارِيخُ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، ص ٥١٣ .

(٤) عَمْرُ : تَارِيخُ الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ ، ص ١٦٦ .

وفي تلك الأثناء كانت الدولة العثمانية مشغولة بحربها مع النمسا ، وعند انتهاء هذه الحرب ، وتوقيع معاهدة "سيفتاتوروك" سنة ١٠١٥هـ/١٦٠٦م ، جهزت جيشاً كبيراً بقيادة الصدر الأعظم مراد باشا ، وكلفته بالقضاء على علي باشا جنبلط واستعادة حلب ، ونجح في تحقيق ذلك^(١)، كما أوعزت إلى والي دمشق الجديد أحمد باشا الحافظ (١٦٠٩ - ١٦١٤م) بالقضاء على فخر الدين المعني الثاني الذي أدرك عدم قدرته على مواجهة الجيش العثماني ، خصوصاً بعد اشتداد الحصار على قلعة الشقيف التي كان قد حصّنها تحصيناً جيداً الأمر الذي اضطره للهروب إلى إيطاليا في ٩ شعبان ١٠٢٢هـ/٢٣ أيلول ١٦١٣م ، فاستطاع الأمير فخر الدين بهذا التصرف إبقاء الإمارة في عائلته حيث تمّ الاعتراف بابنه علي أميراً ، وساعده في تدبير أمور الإمارة عمه الأمير يونس ، أما والي أحمد باشا الحافظ ، فعاد مع قواته إلى دمشق ، بعد أن أخذ بعض الرهائن من المعنيين ، وفرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال ، وبالنسبة للأمير فخر الدين فقد بقي في إيطاليا مدة خمس سنوات (١٦١٣ - ١٦١٨م) ضيفاً عند حلفائه من آل مدينتشي حكام تسكانيا الذين كانت تربطهم به علاقات تجارية^(٢) ، واطّلع خلال تلك الفترة على ما توصل إليه الأوروبيون من معارف تساعده في تشكيل الدولة الحديثة التي كان يطمح إليها . وفي سنة ١٠٢٧هـ/١٦١٨م عاد الأمير فخر الدين إلى إمارته بعد صدور قرارٍ بالعمو عنه ، وكانت أمّه " نسب " تدير أمور الحكم في الإمارة باسم حفيدها علي^(٣)، وفور عودته باشر القيام بالأعمال التي تمكّنه من إنشاء دولة قوية وعصرية على النمط الأوروبي، مستفيداً مما شاهده في إيطاليا^(٤).

وعندما شعر فخر الدين باكتمال قوّته ، بدأ بالتوسّع في المناطق المجاورة لإمارته ، فاصطدم بعدوّه القديم يوسف باشا سيفاً ، وأجبره على الخضوع لسلطته وتقديم الأموال له ، واستطاع مدّ نفوذه شمالاً حتى أنطاكية ، وفي جنوب الشوف وشرقه استطاع فرض سيطرته

(١) الشدياق : أخبار الأعيان ، الجزء الثاني ، ص ٥٠.

(٢) فيليب حتي، إدورد جرجي ، جبرائيل جبور: تاريخ العرب ، الطبعة الثانية عشرة ، دار الكشاف، بيروت ، (د.ت)، ص ٨٢٨.

(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٥١٤.

(٤) اهتم فخر الدين بالاقتصاد وخاصة بالزراعة ، فشجع زراعة الزيتون والتوت ، وعمل على تنشيط التجارة ، فأصلح الموانئ ، ووطّد الأمن ، واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا لتمويل بناء جيشه ، كذلك سمح للتجار الفرنسيين والبنادقة الذين كانوا يتاجرون تحت العلم الفرنسي بافتتاح مراكز تجارية وقصليات في بيروت وصيدا وجميع الموانئ التابعة لإمارته ، وكان هؤلاء التجار يستوردون من المناطق التابعة لإمارة فخر الدين الحرير والمنتجات الزراعية ومادة القلى المستخدمة في صناعة الزجاج والصابون ، وبخاصة في البندقية ومرسلياً ، وبالمقابل كان يصدرون إلى الإمارة المنسوجات بصورة رئيسية ، وغدت بذلك بيروت أكبر ميناء تجاري في شرقي المتوسط ، كما اهتم بالتعليم والصحة ، وعمل على بناء جيش قوي على النمط الأوروبي الحديث . للتفصيل رافق : المشرق العربي ، ص ١١٩.

مجدداً على مناطق صفد ونابلس وعجلون ، كذلك نجح في الاستيلاء على مركز قب إلباس الاستراتيجي الذي كان يسيطر على طريق دمشق بيروت ، ووصلت نجاحاته إلى الذروة بعد انتصاره على والي دمشق في معركة عنجر سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٣م، حيث وقع الوالي أسيراً بيده ، لكنه أطلق سراحه .

اضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف بسلطة الأمير فخر الدين بسبب انشغالها بحروبها مع الصفويين ، فأصدر السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠م) فرماناً اعترف بموجبه بسلطة الأمير على بلاد " عربستان " الممتدة من حلب إلى العريش ، شريطة أن يقدم الأمير فخر الدين أموال الميري للخرينة ، وأن يحافظ على الأمن في منطقته ، فاستغل فخر الدين ذلك وعمل على تعزيز دفاعاته وقواته ، فبنى الحصون والقلاع ، لأنه كان يدرك أن اعتراف الدولة العثمانية بسلطته ما كان ليتم لولا انشغالها بحروبها مع الصفويين ، وأنها سوف تستأنف القتال معه فور انتهاء حربها مع الصفويين ، وهذا ما حدث فعلاً ، عندما أصدر السلطان العثماني مراد الرابع سنة ١٠٤٢هـ/١٦٣٣م أوامره إلى واليه في دمشق أحمد باشا " كجك أحمد " بالتوجه لقتال فخر الدين ، ووضع تحت تصرفه جيشاً كبيراً ، وكذلك أصدر أوامره للأسطول العثماني بمهاجمة الموانئ والحصون الساحلية التابعة للأمير فخر الدين ، وفرض الحصار عليها .

تمكن كجك أحمد باشا من الانتصار على الأمير علي بن فخر الدين في البقاع سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٤م ، وقتل معظم قواته ، وتم محاصرة الأمير فخر الدين في قلعة جزين ، وعندما أدرك عدم جدوى القتال استسلم إلى كجك أحمد باشا في ٢٦ شوال ١٠٤٤هـ/١٣ نيسان ١٦٣٥م ، هو وثلاثة من أبنائه ، فقام كجك أحمد باعتقالهم ، ثم أرسلهم إلى الآستانة ، وعندما اجتمع الأمير فخر الدين بالسلطان مراد تحدث عن الظلم الكبير الذي لحق به قائلاً : " إني مظلوم ، ولم ابن القلاع إلا حماية من الأعداء ، ولم أحارب إلا من كان عاصياً للدولة ، وقد مشيت طريق الحج ، ومنعت العربان عن التعدي وأديت الأموال الأميرية " (١)، فغفا السلطان عنه ، وأصبح الأمير فخر الدين من أقرب المقربين للسلطان ، مما أدى إلى إثارة الحسد في قلوب عدد من رجال البلاط الذين خشوا من أن يحل الأمير مكانهم ، فأخذوا يدبرون المكائد حتى نجحوا في إقناع المفتي، بإصدار فتوى بأن الأمير فخر الدين مرتد عن

(١) الشدياق : أخبار الأعيان ، الجزء الثاني ، ص ١١٣ .

الإسلام الأمر الذي دفع السلطان إلى إصدار أمر بإعدام الأمير فخر الدين وأبنائه الثلاثة في سنة ١٠٤٤هـ / ١٦٣٥م^(١).

وعلى غرار ثورات الأمراء في بلاد الشام ثار أمراء محليّون في منطقة البصرة ، وكان من أبرزهم السيد مبارك وآل أفراسياب ، فقد ثار السيد مبارك حاكم الحويّزه في منطقة البصرة في سنة ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م مستغلاً ضعف الدولة ، وأيّده بعض البدو والفرس المقيمين في منطقته ، وامتد نفوذُه على أنحاء البصرة وسواحل الإحساء بما في ذلك الموانئ التجارية ، إلا أن سلطته بدأت بالضعف تدريجياً مع ظهور زعيم آخر على مسرح الأحداث في البصرة ، وهو أفراسياب الذي قضى على نفوذ السيد مبارك وحل مكانه ، وقد وافقت الدولة العثمانية على إبقاء حكم البصرة بيد آل أفراسياب ، لأنهم اعترفوا بخضوعهم للدولة العثمانية ، كما أنهم قدّموا المساعدة للدولة العثمانية في حربها مع الصفويين ، يُضاف إلى ذلك نجاح أفراد هذه الأسرة في ضبط الأمن وحماية مداخل الخليج من هجمات البرتغاليين والأمراء المحليين ، وبذلك أمنوا سلامة التجارة فيه ، وبعد وفاة علي باشا ابن أفراسياب ، وحلول ابنه حسين مكانه سنة ١٠٦١هـ / ١٦٥١م ، بدأ النزاع يشتعل داخل هذه الأسرة ، وصادف ذلك وصول آل كوبريلي إلى الصدارة العظمى في استانبول ، فأعادوا للدولة هيبتها في كثير من الولايات التابعة لها، وكان من بينها البصرة حيث قضوا على حكم أسرة أفراسياب ، وأعادوا فرض سيطرتهم المباشرة عليها^(٢) .

أمّا فيما يتعلق بثورات الأمراء في مصر فقد اختلفت عن ثورات الأمراء في بلاد الشام والعراق الذين كانوا يمثلون عناصرَ محلية تقوم سلطتها على أسس إقطاعية أو بدوية ، فالثورات التي قامت في مصر في القرن السابع عشر كانت معظمها مملوكية حيث استطاع المماليك فرض نفوذهم في مصر بشكل كبير وأصبحوا الحكام الفعليين لهذه الولاية ، وكان من أبرز سمات هذه المرحلة الصراع الكبير بين البيوت المملوكية ، وخاصة الفقارية والقاسمية حيث استمر هذا الصراع بين هذين البيتين لمدة قرن كامل إلى أن استطاع علي بك الكبير القضاء على جميع منافسيه والانفراد بحكم هذه الولاية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر^(٣) . أما في اليمن فقد باع جميع محاولات الدولة العثمانية في القضاء على حكم الزيديين بالفشل ، واستمر هؤلاء الحكام في إدارة أغلب المناطق اليمنية حتى منتصف القرن

(١) فيليب حتي : تاريخ لبنان منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر ، ترجمة أنيس فريحة ونقولا زيادة ، أشرف على تنقيح الطبعة وتحريرها جبرائيل جبور ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ٤٦٧ .

(٢) رافق : المشرق العربي ، ص . ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٣) الصباغ : تاريخ العرب ، ص . ص ١٥٢ - ١٥٣ .

التاسع عشرَ عندما نجحتِ الدولةُ العثمانيةُ في فرضِ سيطرتها المباشرة على بعض المدن الرئيسية في اليمن^(١).

خامساً — مرحلة سيطرة القوى المحلية في الولايات العربية :

أدى الضعفُ العثمانيُّ المتزايدُ مع بدايات القرنِ الثامن عشرَ، وعجزِ الدولةِ العثمانيةِ عن حماية حدودها إلى تناقصِ هيبة السلطة المركزية في الولايات ، وظهور قوى محلية قامت سلطتها على أساسٍ إقطاعيٍّ أو دينيٍّ أو مملوكيٍّ عسكريٍّ ، واعترفتُ بها الدولةُ العثمانية لعجزها عن تحقيق الأمن ، في حين نجحتُ تلك القوى في تحقيق ذلك ، ففي بلاد الشام ظهرت أسرةُ آلِ العظم وظاهر العمر وأحمد باشا الجزار ، وفي العراق سيطر المماليكُ على ولاية بغداد فترة من الزمن قاربت القرن (١٧٤٧ — ١٨٣١م) ، وفي مصر ظهر علي بك الكبير ، وفي ليبيا الأسرة القرمانلية ، وفي تونس الأسرة الحسينية .

١ — بلاد الشام :

اهتمتِ الدولةُ العثمانيةُ بتنظيم أمور بلاد الشام اهتماماً بالغاً ، بسبب أهمية موقعها في قلب الدولة العثمانية ، ولذلك حرصت على استقرار وأمن هذه المنطقة ، فقامت بالقضاء على جميع الثورات التي قامت فيها بدءاً من ثورة جان بردي الغزالي ، ولكن في فترة ضعفِ الدولة العثمانية عمتِ الاضطراباتُ والفوضى في بلاد الشام نتيجةً لتصارُع القواتِ العثمانية فيما بينها ، بالإضافة إلى محاولة بعض الأسرِ المحلية زيادة نفوذها ، مستغلة حالة الضعفِ التي تمرُّ بها الدولة العثمانية ، وفي خضمِّ تلك الأحداث برزت أسرةُ آلِ العظم التي تولّى عددٌ من أفرادها حكمَ بعض الولايات في بلاد الشام حيث استطاعوا إثبات جدارتهم ومقدرتهم في فرض الأمن والاستقرار في المنطقة ، وكذلك نجاحهم في حماية طرق الحجّ من اعتداءات البدو ، وهذا ما كانت تريده الدولة العثمانية .

يُشير عددٌ من المصادر إلى أنَّ أصولَ آلِ العظم تعود إلى أسرةٍ كردية اشتهرت في منطقة معرة النعمان القريبة من حماه ، وكان أولُ ولايةٍ آلِ العظم في بلاد الشام إسماعيل باشا العظم^(٢) الذي عُيِّنَ حاكماً على معرة النعمان وحماه سنة ١١٣٢هـ/١٧٢٠م ، ثم عُيِّنَ بعد خمس سنواتٍ والياً على دمشق ، وقد حرص منذ البداية على إظهار قُوَّته أمامَ الدمشقيين الذين

(١) رافق : المشرق العربي ، ص ١٣٣.

(٢) ميخائيل بريك الدمشقي : تاريخ الشام ١٧٢٠ — ١٧٨٢م ، تقديم وتحقيق أحمد سبانو ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٢م ، ص ٢١.

كانوا قد ثاروا على والي دمشق السابق عثمان باشا أبو طوق ، معتمداً على قواته من المرتزقة المغاربة ^(١).

كما اشتهر من بين أفراد هذه الأسرة أيضاً سليمان باشا العظم الذي عُيِّنَ حاكماً على بعض الولايات كطرابلس وأورفة وصيدا ، قبل أن يتمَّ سجنُ أفراد أسرة آل العظم في سنة ١١٤٢هـ/١٧٣٠م ، ولكنَّ بعد إطلاق سراحهم تمَّ تعيين سليمان باشا حاكماً على ولاية طرابلس حتى كانون الثاني ١٧٣٤م تاريخ تعيينه والياً على دمشق حيث وصفه بريك بالحاكم العادل ^(٢) ، وقد بدأ حكمه بالتقرب من الدمشقيين في محاولة منه كسب ودِّهم ، كما عمل على توطيد الأمن ، وقضى على اللصوص وقطاع الطرق ، وأمن طرق الحج من اعتداءات البدو عليها ^(٣) ، وتشدد مع سكان الريف بقصد ابتزاز المال منهم ، وكانت حجتة في ذلك إخضاعهم لسلطة الدولة ، كما نفى عدداً من الإنكشارية ، وقام بحملة عسكرية في أواخر سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م ضدَّ الأمير ملحم الشهابي أمير جبل لبنان ^(٤) ، كما قاد حملة أخرى ضدَّ ظاهر العمر الزيداني الذي قوَّى نفوذه بشكل كبير ، وتمكَّن من أسر شقيق ظاهر وأعدمه في دمشق ^(٥) ، ومن الأعمال الأخرى التي قام بها سليمان باشا بناء عددٍ من المشاريع المعمارية في دمشق كالقيساريات والحمامات ، وكذلك ترميم وبناء بعض الأبنية على نهر قنوات ، كما بنى قصراً كبيراً ليقم به هو وعائلته ^(٦).

(١) استطاع إسماعيل باشا تأمين قافلة الحج الشامي من اعتداءات البدو باستثناء السنوات الأخيرة من حكمه حين شنت قبيلة حرب في الحجاز هجوماً على قافلة الحج الشامي ، وقامت بنهبها ، كما استطاع كسب الرأي العام الدمشقي إلى جانبه من خلال حمايته للدمشقيين الذين كان والي السابق عثمان باشا أبو طوق قد نفاهم إلى استانبول ، فتحطم مركبهم قرب طرابلس ، وقام حاكمها سليمان باشا العظم بإنقاذهم بناءً على أوامر أخيه إسماعيل باشا ، وقام أيضاً ببناء مدرسة وحمام بسوق الخياطين . للتفصيل رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٢٣٨.

(٢) بريك الدمشقي : تاريخ الشام ، ص ٢٤.

(٣) أحمد البديري الحلاق : حوادث دمشق اليومية ، تحقيق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص ٣٦.

(٤) كانت الأسباب الرئيسة للقيام بتلك الحملة قيام أتباع الأمير ملحم الشهابي بالهجوم على منطقة البقاع التابعة لولاية دمشق ، لكن حملته فشلت بسبب خلافه مع والي صيدا الذي اشترك فيها بناءً على أوامر السلطان العثماني ، وتمت المصالحة بين سليمان باشا وبين الأمير ملحم بوساطة القنصل الفرنسي في صيدا ، حيث تعهَّد الأمير ملحم بدفع مبلغ من المال قدر بمائة وخمسين ألف قرش لسليمان باشا ، مقابل تخلي الأخير عن متابعة الحملة ضد الأمير ملحم الذي تعهَّد بوضع عدد من الرهائن لدى القنصل الفرنسي حتى يتم دفع المال . للتفصيل حول تلك الحملة يرجى العودة إلى :

— Abdul Karim Rafeq , The Province of Damascus 1723 _ 1783 , Beirut Khayats .1966 , p.p 77- 133

(٥) الحلاق : حوادث دمشق ، ص ٤٢.

(٦) ليندا شيلشر: دمشق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ترجمة عمرو الملاح ودينا الملاح ، مراجعة عفاف مارديني ، الطبعة الأولى ، دار الجمهورية ، دمشق ، ١٩٩٨م ، ص ٤٥.

خَلَفَ سليمان باشا ابن أخيه أسعد باشا العظم الذي استمرّ في حكم ولاية دمشق من سنة ١٧٤٣م إلى سنة ١٧٥٧م ، وعندما استلم أمور الولاية كان لا يتجاوز من العُمْرِ التاسعة والثلاثين ، وقد واجه أسعد باشا في بداية حكمه تحدياً كبيراً من اليرلية التي كان يتزعمها فتحي الدفترى الذي تمّ تعيينه دفتردار لدمشق في سنة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م ، واستطاع جمع ثروة كبيرة ، وكان على علاقة قوية باليرلية ، لكنّ أسعد باشا تمكّن من القضاء على فتحي الدفترى^(١) ، كما حدّد من سلطة اليرلية ، وذلك في سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م ، معتمداً على قوّاته من المرتزقة الدالاتية ، فنجح في احتلال قلعة دمشق من اليرلية ، وسيطر على المركز الرئيس لهم في الميدان ، كذلك عمل على إعادة " القابي قول " إلى دمشق ليوازن بهم قوة اليرلية وإبقائهم خاضعين لسلطته ، أمّا فتحي الدفترى فقد نجح أسعد باشا في التخلّص منه عن طريق قتله في ٥ تموز ١٧٤٦م ، وكان فتحي قد ضعّف كثيراً بعد القضاء على اليرلية ، كما أنّ قوته في استانبول تراجعت بعد موت حاميه الكزار آغا ، هذا بالإضافة إلى أنّ الصدر الأعظم حسن باشا كان يكره فتحي بسبب وجود عداوة شخصية بينهما ، وهذا ما ساعد أسعد باشا في الحصول على موافقة السلطان في التخلّص من فتحي ، مقابل دفع ألف كيس من ثروة فتحي للسلطان ، إذا ما نجح في قتله^(٢).

ساعدت الأوضاع الاقتصادية المزدهرة في بلاد الشام^(٣) أسعد باشا العظم على القيام بمشروعات عمرانية ضخمة ، كان من بينها الخان المعروف بخان أسعد باشا في البرورية في دمشق ، بالإضافة إلى بنائه عدد من المدارس والجوامع والخانات ، لكن أشهر مشاريعه العمرانية كانت بناءه القصر المعروف باسمه والذي أنفق في بنائه الكثير من الأموال حيث ذكر البديري في كتابه "حوادث دمشق اليومية " في تلك الأيام أخذ أسعد باشا دار معاوية رضي الله عنه وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمهم ، وشرع في عمارة داره السرايا المشهورة التي هي قبلى الجامع الأموي ، وجدّ واجتهد في عمارتها ليلاً ونهاراً وقطع لها جملةً من الخشب ألف خشبة ، وذلك ما عدا الذي أرسلوه أكابر البلد والأعيان من

(١) بريك الدمشقي : تاريخ الشام ، ص ٣٠.

(٢) الحلاق : حوادث دمشق ، ص ٧٦.

(٣) كان ذلك نتيجة الأمن الذي استطاع أسعد باشا فرضه في ولايته ، ممّا أدّى إلى نمو المبادلات التجارية بين التجار الدمشقيين ، وبين التجار الفرنسيين المتمركزين على الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، هذا بالإضافة إلى تأمين أسعد باشا العظم لسلامة طرق الحج من اعتداءات البدو طوال فترة حكمه ساهم في تشجيع الحجّاج على الذهاب إلى الحجاز بأعداد كبيرة ، وبالتالي ازداد عدد التجار المرافقين للحجّاج ، ممّا انعكس إيجابياً على ازدهار الأوضاع الاقتصادية في ولاية دمشق بشكل عام . للتفصيل رافق : تاريخ بلاد الشام ، ص ٣٣٩.

الأخشاب وغيرها " (١)، وانتهى من بنائه في سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٠م ، ويعدُّ هذا القصر من أعظم الأبنية التي تمَّ إنشاؤها في بلاد الشام في العهد العثماني .

وفي عهد أسعد باشا العظم بلغ نفوذ هذه الأسرة الذروة حيث عُيِّن أخوه إبراهيم باشا والياً على ولاية صيدا حتى وفاته في سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م ، وحكم أخوه سعد الدين باشا ولاية طرابلس حتى سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٠م ، ثم عُيِّن بعدها والياً على حلب ، أمّا أخوه الثالث مصطفى باشا فعُيِّن والياً على ولاية صيدا سنة ١١٦٨هـ/١٧٥٥م . وهكذا استطاع أفراد هذه الأسرة حُكْم معظم ولاية بلاد الشام في آنٍ واحدٍ ، لكنَّ التطورات التي حدثت في العاصمة العثمانية بعد موت السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤م) ، واستلام أخيه عثمان الثالث (١٧٥٤ - ١٧٥٧م) أثَّرت كثيراً على نفوذ آل العظم (٢)، حيث تمَّ تعيين راجب باشا في منصب الصدارة العظمى ، وكان الأخير على عداءٍ كبيرٍ مع أسعد باشا ، وبالتالي ازدادت النقمة على أسرة آل العظم في العاصمة العثمانية حيث أصبح كلُّ من الصدر الأعظم والكلزار آغا على عداءٍ كبيرٍ مع أسعد باشا ، ممَّا أدَّى إلى مقتله ١٤ نيسان ١٧٥٨م في الأناضول على يد الدولة العثمانية ، بعد اتهامه بأنَّه كان المُحرِّضَ الرئيس للبدو للقيام بمهاجمة قافلة الحج في ٥ أيلول ١٧٥٧م ، وتمَّت مصادرة جميع أمواله (٣) ، وبعد مقتله تمَّ عزل أخوته مصطفى وسعد الدين من مناصبهم ، لكنَّ نفوذ هذه الأسرة لم ينتهِ حيث تمكَّن أحدُ أفرادها، وهو مُحَمَّد باشا العظم من الوصول إلى حُكْم ولاية دمشق سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م ، ودام حُكْمه ما يقارب عشر سنوات .

واشتهر كذلك في بلاد الشام في القرن الثامن عشرَ ظاهر العمر الزيداني الذي ينتمي إلى قبيلة الزيادنة العربية (٤) التي هاجرت من الحجاز إلى بلاد الشام في النصف الأول من القرن السابع عشر، واستقرت في مناطق صفد وطبرية ، واستطاع جده زيدان الحصول على التزام منطقة طبرية من والي صيدا ، وخلفه ابنه عمر الذي أصبح شيخاً على منطقة صفد سنة ١١٠٩هـ/١٦٩٨م . وفي سنة ١١١٤هـ/١٧٠٣م توفي الشيخ عمر تاركاً وراءه

(١) الحلاق : حوادث دمشق ، ص ١٤١.

(٢) تمثَّلت تلك التطورات بازدياد نفوذ الكلزار آغا أحمد أبو طوق الذي كان على عداوة شخصية مع أسعد باشا بسبب عدم قيام الأخير بالاكتراث بأحمد أبو طوق عند مروره في دمشق خلال رحلته إلى الحج سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٤م ، فصدرت الأوامر بعزل أسعد باشا عن ولاية دمشق وتعيينه والياً على حلب في ٢١ كانون الثاني ١٧٥٧م . للتفصيل بريك الدمشقي : تاريخ الشام ، ص ٤٩.

(٣) رافق : تاريخ بلاد الشام ، ص . ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد ، نشره وعلَّق عليه قسطنطين باشا المخلصي ، مطبعة القديس بولس ، حريصا ، (د.ت) ، ص ١٥.

أربعة أبناء ، وكان ظاهر أصغرهم سناً حيث رفض أخوته أن يتحملوا مسؤولية الالتزام نظراً لكثرة الديون التي كانت قد تراكمت على والدهم . وهكذا خلف ظاهر العمر والده كملتزم لمنطقة طبرية بعد موافقة الوالي العثماني في صيدا.

استطاع ظاهر العمر توسيع مناطق نفوذه بموافقة الوالي العثماني في صيدا عن طريق إرسال الهدايا له ، فاستطاع الحصول على التزام جميع المناطق القريبة من طبرية ، ونجح في ضم مناطق يافا والرملة ونابلس إلى التزامه سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م ، كما استطاع ضم منطقة صفد سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م^(١) ، وأقام علاقاتٍ وديةً مع التجار الفرنسيين في عكا ، وأمدّهم بالقمح والقطن عن طريق ميناء عكا الذي كان يعاني في تلك الفترة من دمارٍ كبير منذ عهد الصليبيين ، وكانت منطقة عكا تابعةً لولاية صيدا ، ويتولى إدارة شؤونها ملتزم عثماني ورغب ظاهر العمر في ضمّ منطقة عكا إلى التزامه ، لكنّ الوالي العثماني في صيدا رفضَ منحه إياها ، على الرغم من الأموال الكبيرة التي عرضها عليه ، وعندما ناقش ظاهر العمر الأمر مع رجاله نصحه أخوه سعد بالاستيلاء على عكا بالقوة ، وشجّعه على ذلك قائلاً له " إذا ما أخذتها ، وقمت له بما لها من المقرّر عليها ، لأنّ العثماني لا يسأل إن كان المتولى باشا من رجاله أو من أهل البلاد ، وعنده الأمر سواء ، بشرط أن يصل الميرى تماماً " ^(٢).

عمل ظاهر العمر بنصيحة أخيه سعد ، فاقتحمت قواته عكا سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م ، ونجح في فرض سيطرته عليها ، واتّخذها مقراً لحكمه ، ولم يستطع الوالي العثماني في صيدا القيام بأيّ عمل ضده نظراً للقوة الكبيرة التي تمتّع بها ظاهر العمر كما حرص ظاهر العمر على تحسين علاقته مع السلطان العثماني ، فدفع أموال الميري بانتظام ، وحافظ على النظام والقانون في مناطق نفوذه ، ومع ازدياد سلطة ونفوذ ظاهر العمر بدأت تظهر بوادر الانشقاق داخل أسرته ، وخاصةً بعد قيام ظاهر العمر بنقل مركزه إلى عكا سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م ، وتعيين أبنائه حكاماً على المناطق التابعة له ، فأعطى طبريا لابنه الأكبر صليبي ، وأعطى صفد لعلّي ، وشفاعمرو لعثمان ، وصقوريّ لسعيد ، وجبل عجلون لأحمد ، وطمعاً بزيادة نفوذهم ثار أبناء ظاهر على والدهم ^(٣).

(١) الصباغ : تاريخ ظاهر العمر ، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢.

(٣) كانت أولى ثورات أبناء ظاهر العمر على والدهم سنة ١١٦٤هـ/١٧٥١م ، ولكن ثورتهم انتهت بالمصالحة ، ثم ثاروا ثانية سنة ١١٧٤هـ/١٧٦١م ، وانتهت هذه الثورة بالمصالحة أيضاً ، ثم ثار علي لوحده على أبيه سنة ١١٧٥هـ/١٧٦٢م معتمداً على دعم أخوته من أمه ، وقد أيد علياً في ثورته كل من عثمان باشا والشيخ ناصيف زعيم المتأولة ، إلا أنّ هذه الثورة انتهت كسابقتها بالمصالحة حيث أرضاه أبوه بمد نفوذه على قرى بين صفد وطبريا ، لكنّ ما لبث أن ثار عثمان سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٥م بسبب حقه على الامتيازات التي حصل عليها أخوه علي ، إلا أنّ ظاهر العمر قبض على عثمان وسجنه ستة أشهر ، ثم هرب عثمان إلى

أدركَ ظاهر العمر الخطرَ المُحدَقَ به عندما صدر قرار تعيين درويش والياً على صيدا في جمادى الأولى ١١٨٤هـ/أيلول ١٧٧٠م ، لذلك قام بتعزيز تحصيناته في عكا ، وأخذ يبحث عن حليفٍ يجمع بينهما العداء المشترك للدولة العثمانية ، فوجد ذلك في شخصية علي بك الكبير زعيم المماليك في مصر، وعندما علم ظاهر العمر بأن الدولة العثمانية أصدرت أوامرها لواليتها في دمشق عثمان باشا بالقضاء عليه ، قام ظاهر بالاتصال بعلي بك في مصر طالباً مساعدته في الحرب القادمة مع الدولة العثمانية ، فقام علي بك بإرسال جيش بقيادة إسماعيل بك لمساعدة ظاهر العمر، ثم أتبعه بإمدادات أخرى بقيادة محمد بك أبو الذهب الذي تسلّم قيادة القوات المصرية ، ونجح في احتلال دمشق ، لكنه ما لبث أن انسحبَ بعد عشرة أيامٍ من سيطرته على دمشق ، وعاد إلى مصر في الوقت الذي تمكّن فيه ظاهر العمر من السيطرة على صيدا ، وتطلّع بعد ذلك للسيطرة على مدينة بيروت انتقاماً من أهلها الذين وقفوا إلى جانب عثمان باشا ، ونجح في ذلك بمساعدة الأسطول الروسي في البحر المتوسط ، حيث تمكّن من طرد حاكمها أحمد باشا الجزائر^(١). وفيما يتعلّق بأسباب انسحاب محمد بك أبو الذهب فتعود إلى نجاح الدولة العثمانية في كسبه إلى جانبها عن طريق الوالي عثمان باشا الذي وعده بأن السلطان سوف يعينه والياً على مصر في حال نجاحه في القضاء على سيده علي بك الكبير، وهذا ما حدث فعلاً. أمّا بالنسبة لظاهر العمر فقد قامت الدولة العثمانية بإرسال أسطولها الذي كان بقيادة القبطان حسن باشا حيث نجح في السيطرة على حيفا ، ثم عكا في جمادى الثانية ١١٨٩هـ/ آب ١٧٧٥م ، وعندما حاول ظاهر الهرب قُتل على يد قائد حارسه الخاص الذي كان يُدعى الدنكلي بالاتفاق مع الدولة العثمانية ، وكان ذلك في نهاية آب سنة ١٧٧٥م^(٢).

كان من نتائج ثورة ظاهر العمر تدهور الأوضاع الاقتصادية في بلاد الشام الجنوبية ، وتقلص نفوذ والي دمشق ، وبالتالي حدوث فراغٍ سياسيٍ كبير في تلك المنطقة ، فاستغل ذلك أحد ضباط الحملة العثمانية التي أرسلت لإخضاع ظاهر العمر، وهو أحمد باشا الجزائر الذي

المتأولة ، وحرضهم على والده ، وهاجم بهم قوات والده لمدة عام كامل ، فانقطعت طرق المواصلات بين عكا وصيدا ، وانتهت هذه الثورة بالمصالحة بين الأب والابن ، بعد تدخل الأمير منصور الشهابي وعدد من كبار المشايخ في جبل لبنان، وفي سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٧م تمرد علي وسعيد علي والدهما مطالبين بوضع مناطق جديدة تحت تصرفهما ، وقد حصلوا على تأييد ودعم كل من عثمان باشا والشيخ ناصيف ، مما اضطر بظاهر العمر إلى الاستعانة بوالي صيدا محمد باشا العظم الذي كان على عداوة مع عثمان باشا ، وطلب منه المساعدة ضد أبنائه ومحرّضيه ، فأرسل محمد باشا بعض الجنود لمساعدته ، وبعد شهر من بداية هذه الثورة عقد الصلح بين ظاهر وأبنائه . للتفصيل حول هذه الأحداث يرجى العودة إلى رافق : تاريخ بلاد الشام ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

(١) R . C . Anderson , *Naval Wars in the Levant 1559 – 1853*, Liverpool, 1952 , p.p286 – 289.

(٢) الصباغ : تاريخ ظاهر العمر ، ص ١٤٩.

كان مملوكاً في الأصل ، وعمل في مصر حيث لُقّبَ بالجزّار لشدة بطشه بالببدو القاطنين في إقليم البحيرة ، وفي سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م عيّنه السلطان العثماني والياً على صيدا بعد عزّل الوالي العثماني محمد باشا ، فقام بتحسين عكا وجعلها مركزاً لحكمه ، كما ابتزّ الأموال من الأهالي واحتكر التجارة ، وعندما شعرت الدولة العثمانية بازدياد نفوذه حاولت عزله عن ولاية صيدا ، لكنّها عجزت عن تحقيق ذلك نظراً للقوة الكبيرة التي امتلكها الجزّار، فتعاضت الدولة عنه خصوصاً بعد نجاحه في فرض الأمن داخل ولايته ، وفي سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥م تمّ تعيينه والياً على دمشق حيث تعرّضت دمشق أثناء حكمه إلى الكثير من الظلم نتيجة ابتزازه الأموال من الأهالي ، فصدر قراراً بعزله عن ولاية دمشق سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م ، لكنّه ما لبث أن عُيّن من جديد والياً عليها في حزيران سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م ، فعاد إلى ممارسة الظلم وابتزاز الأموال ، وبقي مسيطراً على هذه الولاية طيلة فترة حكمه ، ولم يعكّر صفوها سوى غزو جيوش نابليون بونابرت لبلاد الشام في سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م ، إلّا أنّ الجزّار استطاع إيقاف تقدّم الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا وأجبرها على العودة إلى مصر وظلّ مسيطراً على بلاد الشام الجنوبية حتى وفاته سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٤م^(١).

كما لعب الأشراف في مدينة حلب دوراً مهماً في الأحداث السياسية التي جرت في هذه المدينة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فدخلوا في منازعات دامية مع الإنكشارية كما حدث في ١١ آب سنة ١٧٧١م ، لكنّ أعنف صدام وقع بين الطرفين كان في شهر رمضان سنة ١٢١٢هـ / شباط ١٧٩٨م ، وقد ذهب ضحية هذا الاشتباك عدد كبير من الأشراف الموجودين في هذه المدينة^(٢) .

٢- العراق :

حكّم العراق في الفترة الممتدة من (١٦٣٨ - ١٧٠٤م) أربعة وثلاثون والياً ، لم يستطع أيّ منهم إنقاذ البلاد من حالة الفوضى ، وعدم الاستقرار التي تعيشها إلى أن تسلّم حسن باشا^(٣) أمور هذه الولاية حيث شكّل عهده بداية مرحلة جديدة ، لما تميّز به من كفاءة ومقدرة

(١) للتفصيل حول أحمد باشا الجزار يرجى العودة إلى أحمد حيدر الشهابي : قصة أحمد باشا الجزار ، تحقيق وإعداد عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث يرجى العودة إلى :

- W. G. Browne , **Travels in Africa ,Egypt, and Syria from years 1792 to 1798** , London , T . Cadell Junior and W . Davies, 1799 , p385.

(٣) ولد حسن باشا سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م ، وتدرّب في القصر السلطاني في استانبول ، ثم تدرّج في المناصب حتى وصل إلى رتبة وزير في سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٧م ، وتولّى ولاية قونية وحلب وأورفه وديار بكر، قبل أن يتمّ تعيينه والياً على بغداد سنة ١١١٦هـ/١٧٠٤م . للتفصيل لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ١٥٥.

على مواجهة المشكلات ، واستطاع تأسيس أسرة حاكمية في العراق استمرت إلى سنة ١٨٣١م. كانت أهم الأعمال التي قام بها تكوين فرقة عسكرية من المماليك الذين استقدمهم من بلاد الكرج والقفقاز، ودرّبهم في مدارس خاصة أنشأها لهذا الغرض ، كما علّمهم مبادئ الدين الإسلامي ، وعيّنهم في وظائف إدارية وعسكرية عليا ، كما تقرب من السكّان المحليين بالغائه عدداً من الضرائب وتجديده بعض الجوامع^(١) ، وتمكّن من إخضاع القبائل الكردية واليزيدية في الشمال مستخدماً القوة تارةً والسياسية تارةً أخرى ، وقام سنة ١١٢٠هـ/١٧٠٨م بإرسال حملة كبيرة إلى البصرة لإخضاع عشائر المنتفق التي استمر تهديدها للبصرة ، واستطاع تحقيق الانتصار عليها ، ولكن الرّغم على من ذلك الانتصار ، فقد استمر عجز والي البصرة على الصمود بمفرده بوجه هذه العشائر، لذلك فوّضت الدولة العثمانية حسن بتعين وال عليها من قبله ، فوقع اختياره على زوج ابنته مصطفى آغا ، وبذلك أصبحت البصرة تابعة للأسرة الحاكمة في بغداد ، كما قام بحملة كبيرة على بلاد فارس بتكليف من الدولة العثمانية^(٢) .

توغّلت القوات العثمانية التي كانت بقيادة حسن باشا واستطاع احتلال بعض المناطق مثل كرمنشاه ، ولكنّه توفي فجأة ، وخلفه ابنه أحمد باشا واليا على بغداد وقائداً للحملة العثمانية على بلاد فارس حيث سيطر على بغداد فترة طويلة امتدت من عام (١٧٢٣-١٧٤٧م) ، وقد سار على نهج والده في استخدام المماليك والاعتماد عليهم في مواجهة ثورات العشائر العربية والكردية ، وفي سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٦م أعلن العثمانيون مجدداً الحرب على الأفغان الذين كانوا بقيادة أشرف الأفغاني حيث كان الأخير قد نجح في الإطاحة بابن عمه محمود وحل مكانه ، وأعلن تحوّلّه إلى المذهب السنيّ ، وأخذ يرسل الوفود إلى السلطان العثماني لإيقاف الحرب المستمرة بين " السنيّ والسنيّ " ، فكانت حجّته قوية ، وخاصةً أنها حظيت بتأييد كبير في الأوساط العثمانية ، وأدت إلى إرباك أفراد الجيش العثماني الذي يقوده أحمد باشا ، وتمّ الصلح بين الطرفين في سنة ١٧٢٧م ، واعترف الأفغان بسيطرة العثمانيين على المناطق الغربية والشمالية لبلاد فارس^(٣). استطاع الشاه الصفوي المعزول طهماسب الثاني استعادة عرشه الضائع من الأفغان سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٩م ، بمساعدة أحد زعماء القبائل التركمانية ،

(١) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٣٢٥.

(٢) في الوقت الذي كان العراق يتمتع بالهدوء والاستقرار ، كانت الدولة الصفوية تعيش ظروفاً صعبة نتيجة غزو الأفغان لبلاد فارس ، ممّا أدى إلى انهيار الحكم الصفوي ، ولذلك انتهزت الدولة العثمانية هذه الفرصة للتوسع في الأراضي الفارسية ، ولمقاومة الأفغانيين الذين كانوا يناقسونهم على زعامة العالم الإسلامي ، وللحيلولة دون انفراد القيصر الروسي بطرس الأكبر في السيطرة على المناطق الشمالية لبلاد فارس ، مما قد يؤدي إلى نتائج سلبية على النشاط التجاري لبعض الولايات العثمانية ، وخاصة حلب للتفصيل رافق : المشرق العربي ، ص ٢٣٧.

(٣) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ١٦٤.

ويدعى نادر شاه وهو قائد قبيلة أفشر، وفور عودته طالب العثمانيين بإعادة المناطق التي استولوا عليها أيام حكم الأفغان ، مما أدى إلى وقوع الصدام بين الطرفين (١) .

بعد وفاة أحمد باشا ، حاول السلطان العثمانيّ استغلال هذه الفرصة لإعادة سيطرته المباشرة على ولاية بغداد ، فعين والياً من قبله ، لكن معارضة المماليك حالت دون تنفيذ رغبة السلطان ، فخلف أحمد باشا سليمان باشا الملقب بأبي ليلي ، وهو صهر أحمد باشا وكان والياً على البصرة ، وطمع بولاية بغداد ، ولذلك قام سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٩م بالتوجّه بقواته إليها وطردَ الوالي العثمانيّ منها ، وأصبحَ والياً على البصرة وبغداد بموافقة السلطان ، واستطاع فرض الأمن والاستقرار وشجّع التجارة (٢).

أعقب وفاة سليمان باشا حدوث صراع على السلطة بين علي باشا الذي استطاع الحصول على موافقة الدولة العثمانية على حكم ولايتي البصرة وبغداد ، وبين عمر باشا الذي يحظى بتأييد بعض المماليك في العراق ، واستطاع الأخير طردَ علي باشا من الحكم وإعدامه سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٤م ، وحلّ مكانه بموافقة السلطان ، لكن الدولة العثمانية ما لبثت أن تخلّصت منه وعيّنت حاكماً على بغداد سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م . وقد أعقب القضاء على عمر باشا ، فوضى سياسية استمرت ثلاث سنوات ، فاستغلّ ذلك حاكمُ البصرة سليمان باشا الذي تمكن من الحصول على ولاية بغداد ، ونجح في ذلك حيث ضمّ إليه ولايات البصرة وبغداد وشهر زور سنة ١١٩٤هـ/١٧٨٠م ، وعُرف منذ ذلك التاريخ باسم سليمان باشا الكبير ، وبقي سليمان باشا في حكم بغداد حتى وفاته سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م (٣). خلف سليمان باشا الكبير كل من علي باشا الثاني (١٨٠٢ - ١٨٠٧م) الذي انتهت حياته بالاغتيال ، وسليمان باشا الصغير (١٨٠٨ - ١٨١٠م) الذي قتله البدو، وعبد الله باشا (١٨١٠-١٨١٣م) وسعيد باشا (١٨١٣-١٨١٦م) ، وكان آخر الولاة المماليك في العراق ، وأطولهم عهداً داود باشا

(١) تمكن العثمانيون الذين كانوا بقيادة أحمد باشا في البداية من تحقيق الانتصار على القوات الصفوية التي يقودها الشاه طهماسب الثاني ، فاستغلّ نادر شاه تلك الفرصة ، وعزل الشاه الصفوي ، وولّى مكانه طفلاً صغيراً لم يتجاوز من عمره الأربعين يوماً ، وجعل نفسه وصياً عليه ، وفي بداية سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٣م زحف إلى بغداد وحاصرها ، فقامت الدولة العثمانية بإرسال حملة كبيرة لمساعدة أحمد باشا بقيادة الصدر الأعظم طوبال عثمان باشا ، وعند وقوع المعركة هُزم العثمانيون ، وقُتل الصدر الأعظم ، ولولا وقوع ثورة في إيران لكان نادر شاه احتل الولايات العثمانية في العراق ، لكن وقوع تلك الثورة أجبرته على عقد الصلح مع العثمانيين والعودة بسرعة إلى إيران ، لكن نادر شاه لم يتخلّى عن أحلامه في التوسع في العراق ، فبعد نجاح حملته على الهند سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م استعد للدخول في حرب جديدة ضد العثمانيين ، ففي سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م حاصر نادر شاه بغداد والبصرة والموصل التي دافع عنها حاكمها حسين باشا الجليلي بشجاعة ، وكان من أكثر معارضيه أحمد باشا الذي كان قد عاد إلى ولاية بغداد سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م بعد غياب استمر سنتين ، وأخيراً تمّ عقد الصلح بين الطرفين سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م . للتفصيل حول هذه الأحداث يرجى العودة إلى عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) رافق : المشرق العربي ، ص ٢٤٠ .

(٣) عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ١٩٧ .

(١٨١٦-١٨٣١م) الذي تعود أصوله إلى بلاد الكرج ، فقد ولد في تفليس في سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ، ودخل إلى بغداد سنة ١١٩٤هـ/١٧٨٠م ، فَبِيعَ عِدَّةَ مرات قَبْلَ أَنْ ينتهي الأمرُ به إلى دار سليمان باشا الكبير، وهناك بدأت تظهر مواهبه الإدارية والعسكرية ، فقدمه سيده على جميع أقرانه^(١) ، وشغل منصبى الدفتردار والكاخيا ، قبل أن يُعَيَّنَ والياً على بغداد وهو في سنّ الخمسين ، ورُغمَ أنه تولّى الحكم في ظروفٍ صعبةٍ بسبب إفلاس الخزينة والصراع بين المماليك أنفسهم ، فضلاً عن تمرد الإنكشارية والقبائل العربية والكردية ، فقد استطاع بفضل حكمته وقوّته تنظيم الإدارة وبناء المنشآت المعمارية مثل الجوامع والمدارس التي لم يقتصر بناؤها على بغداد ، بل شملت السليمانية والموصل والنجف والبصرة وغيرها.

تميّز عهدُ داود بحدثين هامّين ، استئناف القتال مع بلاد فارس ، وإلغاء الإنكشارية^(٢) ، كما ازداد في عهده نفوذُ الأجانب في العراق ، لذلك عمل على الحدّ من ذلك النفوذ ، وهذا ما أزعج الإنكليز الذين قاموا بالتدخل لدى السلطان العثماني ، ضدّ داود باشا حيث لقي تدخلهم آذاناً صاغيةً ، بسبب ازدياد مخاوف السلطان من ازدياد قوة داود باشا ، ومما زاد من هذا العداء بين داود باشا والسلطات العثمانية رَفُض داود باشا الإسهام مالياً في حرب الدولة العثمانية مع روسيا سنة ١٨٢٨-١٨٢٩م^(٣) ، فأرسل السلطان محمود الثاني الدفتردار صادق أفندي لفرض النفوذ العثماني في بغداد ، غير أنه قُتِلَ على يد أتباع داود باشا سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م ، وعندما علّم السلطانُ العثمانيّ بذلك قرَّرَ تحية داود باشا عن الحكم بالقوة، فكلفَ والي حلب علي رضا باشا بالقيام بمهمة القضاء على داود باشا والحلول مكانه ، وذلك لمعرفة أحوال العراق ، وخلال مسيرة الجيوش العثمانية باتجاه بغداد كان وباء الطاعون يفتكُ بسكانها ، ومما زاد الأمرُ سوءاً قيام علي رضا باشا بحصار بغداد لمدة تسعين يوماً ، اضطرَّ سكانها تحت وطأة المجاعة والطاعون إلى فتح الباب الشرقي من المدينة أمام الجيوش العثمانية ، فدخلها علي رضا باشا ، وقَتَلَ المماليك في ٧ أيلول ١٨٣١م ، لكنه أبقى

(١) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٢٨٧.

— العزاوي : موسوعة تاريخ العراق ، المجلد السادس ، ص ٣٧٣ .

(٢) قام ولدي علي شاه حاكم بلاد فارس وهما عباس ميرزا حاكم أذربيجان الذي شجعتة روسيا على مهاجمة أراضي الدولة العثمانية في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١ م ، ومحمد علي ميرزا حاكم كرمينشاه الذي حصل على دعم أكراد شهرزور ، فقام الأخوين بهجوم كبير على العراق ، وكان الدافع لذلك بالإضافة إلى الأطماع الفارسية القديمة ، تقاعس سلطات بغداد في صد هجوم الوهابيين على كربلاء ، وتمكنوا من الانتصار على داود باشا ، ولم يتراجع محمد ميرزا عن احتلال بغداد ، إلا بعد تقشي الطاعون بين قواته ، وفي سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م ، وقّعت معاهدة أضرار بين والي بغداد وسلطات فارس ، اعترف بموجبها بالحدود التي كانت قائمة زمن السلطان مراد الرابع ، كما تم إلغاء الإنكشارية في بغداد إثر قيام السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) بإلغائها في الدولة العثمانية سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م ، وإقامة جيش جديد مُدرَّب على النظام الحديث. للتفصيل رافق : المشرق العربي ، ص ٢٤٢.

(٣) العزاوي : موسوعة تاريخ العراق ، المجلد السابع ، ص . ص ١٧٩ — ١٨١.

على داود باشا الذي أخذ أسيراً إلى استانبول ، وتقلد بعض المناصب حتى وفاته في المدينة المنورة سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م ، وهكذا انتهى حكم المماليك في بغداد التي عاشت خلال فترة حكمهم في أمن واستقرار لم تشهد مثله في ظلّ خضوعها للسيطرة العثمانية^(١).

بعد القضاء على حكم المماليك في بغداد ، تمّ الإطاحة بحكم آل الجليلي في الموصل في سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م ، وتعود أصول هذه الأسرة إلى رجل مسيحي يدعى عبد الجليل الذي خدم عند أحد ولاة الموصل ، وأصبح أولاده من المسلمين ، واستطاع أحد أبنائه ، ويدعى إسماعيل بن عبد الجليل مستفيداً من ثروته وشعبيته وقوة شخصيته أن يصبح والياً على الموصل سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م ، وتمكّن مع أبنائه وأحفاده الذين خلفوه في الحكم من المحافظة على كيان الموصل من الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بها ، واستمروا في حكم هذه الولاية حتى سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م عندما قامت الدولة العثمانية بالقضاء على حكمهم ، وإعادة سيطرتها المباشرة على الموصل^(٢).

٣- مصر :

كانت السلطة في مصر إبان خضوعها للسيطرة العثمانية موزعة بين الوالي العثماني من جهة ، وبين قادة الجند من جهة ثانية ، وبين زعماء المماليك من جهة ثالثة ، وفي القرن السادس عشر حافظ الولاة العثمانيون على سلطتهم ، ونجحوا في الحدّ من نفوذ قادة الجند وزعماء المماليك ، لكنّ هذا الأمر تغيّر في عصر الضعف العثماني نتيجة إكثار السلاطين العثمانيين من عزل الولاة وتغييرهم باستمرار ، خوفاً من انفصال مصر عن الدولة العثمانية ، ممّا أدّى إلى إضعاف الولاة ، وبالتالي ازدياد نفوذ قادة الجند ، غير أنّ الصراعات ما لبثت أن اشتعلت بين الأوجاقات العثمانية الموجودة في مصر ، وخاصة بين أوجاق المستحفظان وبين أوجاق العزبان ، ممّا أدّى إلى إضعافهما معاً ، لصالح ازدياد قوة المماليك التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر ، لكنّ المماليك لم يستطيعوا الإنفراد بالسلطة على الرغم من القوة الكبيرة التي تمتعوا بها ، ويعود ذلك إلى انقسامهم إلى جماعات وفرق متصارعة فيما بينها يطلق عليها " البيوت المملوكية " ، وهي تنسب إلى أسماء مؤسسيها ، ومن هذه البيوت المرادية ، والقاسمية ، الفقارية ، والإبراهيمية وغيرها ، وكثيراً ما جرى الاقتتال بين هذه

(١) رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، (د.م) ، ١٩٩٤م ، ص ٧٩.

(٢) رافق : المشرق العربي ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

الفرق ، وخاصة على منصب شيخ البلد الذي يُعدّ أرفع المناصب المملوكية وكان يتولاه الزعيم الأكثر قوة والذي يملك العدد الأكبر من الجنود^(١).

كان من أبرز الزعماء المماليك في تلك الفترة علي بك الكبير الذي لا تُعرف أصوله على وجه الدقة ، لكن المؤرخ الأوربي " ستافرو لانسان " الذي كان معاصراً لعلي بك الكبير وملاصقاً له ، ذكر أنه ابن قسيس رومي أرثوذكسي من قرية أماسيا في الأناضول ، وأنه ولد في سنة ١١٤٠هـ / ١٧٢٨م ، ثم خُطفَ في الثالثة عشرة من عمره ، وبيع في القاهرة للأمير إبراهيم كتحدا ، الذي جعله يخضع لجميع مراحل التعليم والتدريب التي يمر بها المماليك ، وعندما بلغ مرحلة الشباب بدأت تظهر عليه ملامح الذكاء والقوة والكفاءة العسكرية فتفوق على أقرانه في ركوب الخيل والضرب بالسيف والطعن بالرمح ، واستخدام الأسلحة النارية ، وهذا ما جعل سيده يعتقه ، وهو لم يتجاوز العشرين سنة ، وولاه بعض المهام الإدارية ، ولما توفي أستاذه إبراهيم كتحدا سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٤م خلفه في جميع مناصبه^(٢) ، وفي تلك الفترة تولّى منصب شيخ البلد علي بك الغزاوي الذي أراد القضاء على منافسه الأكبر عبد الرحمن كاخيا ، فأناّب عنه خليل بك الدفتردار في منصب شيخ البلد ، وكلفه بالقضاء على عبد الرحمن كاخيا أثناء غيابه عن القاهرة حيث كان علي بك الغزاوي قد خرج إلى الحجاز على رأس قافلة الحج ، لكن عبد الرحمن كاخيا اكتشف المؤامرة ، وصمّم على الإطاحة بخليل بك ، وتعيين شيخ جديد للبلد ، وذلك بمساعدة علي بك بلوط قبان ، وعندما علم علي بك الغزاوي بما جرى حيث كان في طريق عودته من الحجاز ، اضطر إلى الهروب إلى غزة^(٣) ، وتم تعيين علي بك بلوط قبان شيخاً جديداً للبلد بتوجيه من عبد الرحمن كاخيا .

هدف عبد الرحمن كاخيا من وراء تعيين علي بك بلوط في منصب شيخ البلد أن يكون أداة لتحقيق أهدافه ، لكن علي بك بلوط قبان الذي عُرف فيما بعد بعلي بك الكبير خيّب آمال عبد الرحمن كاخيا^(٤) ، فقد عمل منذ اللحظة الأولى لتسلّمه منصبه على تكوين قوة عسكرية كبيرة لمساعدته في مواجهة منافسيه من بكوات المماليك ، فأكثر من شراء المماليك ، وأنشأ بيتاً مملوكياً جديداً عُرف رجاله فيما بعد بالمماليك العلوية ، وبدأ بالعمل على التخلص من منافسيه الأقوياء ، وكان أبرزهم عبد الرحمن كاخيا وحسين بك القازدوغي الشهير " بكشكش "

(١) الشيخ : تاريخ العرب ، ص ١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٣) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٣٤٨ .

(٤) رافق : تاريخ بلاد الشام ، ص ٤٠٠ .

وصالح بك حاكم جرجا ، وهو من بقايا المماليك القاسمية ، وقد تخلص من عبد الرحمن كاخيا عن طريق نفيه إلى الحجاز ، وفي الوقت نفسه قام بنفي صالح بك إلى غزة ، لكن الأخير تمكن من الهرب إلى المنية ، وأقام علاقات طيبة مع الشيخ همام شيخ عرب هواره الذي أمده بكل ما يحتاج إليه من ذخيرة وعتاد ، فجهز علي بك حملة كبيرة لقتاله بقيادة حسين بك كشكش ، وقد هدف من ذلك ضرب أعدائه ببعضهم البعض ، غير أن حسين بك وصالح بك أدركا هدف علي بك ، فتحالفا معاً في مواجهة مخططات علي بك الذي أدرك صعوبة المواجهة ، فقرّر الهرب إلى غزة (١).

استعاد علي بك منصبه سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٧م ، بمساعدة الشيخ همام شيخ عرب هواره بعد أن وعده بمنحه حكم جهة القبلي طيلة حياته ، إذا ما نجح في تحقيق الانتصار ، وهذا ما حدث ، وبعد عودة علي بك إلى منصبه بدأ بالعمل على التخلص من حلفائه حيث تمكن من الانتصار على الشيخ همام في سنة ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م (٢) ، كما كان قد نفى عدداً من بكوات المماليك إلى الصعيد وإلى الحجاز والفيوم ، وقد اعتمد علي بك في أعماله العسكرية على عدد من رجاله الأشداء ، وكان من بينهم محمد بن أبو الذهب وأحمد الجزار ، ونجح في القضاء على ثورات البدو في مناطق الدلتا (٣) ، كما قام علي بك بالتخلص من والي العثماني في مصر محمد راقم باشا (٤) . وعلى الرغم من القوة الكبيرة التي امتلكها علي بك فقد حرص على إظهار الطاعة والولاء للدولة العثمانية ، حينما استجاب لطلب السلطان العثماني بالتدخل لحسم الصراع الدائر بين الأشراف في مكة (٥) ، فأرسل حملة كبيرة بقيادة محمد بك أبو الذهب في ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م الذي نجح في إعادة الشريف عبد الله إلى منصبه ، وكان هدف علي بك من وراء الاستجابة لطلب السلطان ليس إعادة الشريف عبد الله إلى منصبه ،

(١) حسن ابن الصديق : غرائب البدائع وعجائب الوقائع ، تحقيق يوسف نعيمة ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، دمشق ، ١٩٨٨م ، ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ١٦-١٧ .

(٣) وهم الحبانية في شرق الدلتا والهنادي بإقليم البحرية ، وكان سويلم بن حبيب زعيم الحبانية والهنادي بالوجه البحري قد سيطر على معظم مناطق إقليمي الشرقية والقلوبية ، وتحكم في الطريق ما بين القاهرة والموانئ الشمالية ، وازدادت قوته خاصة بعد انضمام بدو الهنادي بالحيرة ، وعدد من بكوات المماليك المناوئين لعلي بك الكبير إليه ، فعمل علي بك على القضاء على سويلم ، فأرسل حملتين عسكريتين للقضاء عليه ، ونجحت هاتان الحملتان في القضاء على سويلم الذي كان مختبئاً في خيمة صغيرة عند امرأة بدوية بعيداً عن المعركة ، وقد ذكر الجبرتي أن ممالك علي بك عندما قتلوا سويلم قطعوا رأسه ، ورفعوها على رمح . للتفصيل عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ضبطه إبراهيم شمس الدين ، ٣ أجزاء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧م ، الجزء الأول ، ص ٢٦١ .

(٤) استغل علي بك فرصة انشغال الدولة العثمانية في حربها مع روسيا ، فاستصدر أمراً من الديوان بعزل والي العثماني متهماً بإياه بالتآمر ضده ، وتولى منصب القائم مقام بدلاً من والي المخلوع ، وذلك في ١ شعبان ١١٨٢هـ / ١١ كانون الأول ١٧٦٨م . للتفصيل ابن الصديق : غرائب البدائع ، ص ١٧ .

(٥) الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ، الجزء الأول ، ص ٢٧٦ .

بل أراد السيطرة على الحجاز بهدف إحياء تجارة مصر القديمة مع الهند والشرق الأقصى بالاستيلاء على ميناء جدة التجاري ، فيؤمّن بذلك لنفسه مصادر الثروة والغنى التي كانت قد خسرتها مصر جرّاء انتقال تجارة الهند والشرق الأقصى إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبعد عودة جيوش علي بك الكبير من الحجاز تطلّع للسيطرة على بلاد الشام بهدف إكمال مخطّطه في إحياء دولة المماليك ومما شجّع علي بك على ذلك انتصاره في الحجاز، ووجود حليفه في فلسطين ظاهر العمر، فضلاً عن تعاونه مع الروس أعداء الدولة العثمانية الذين تعهّدوا بمساعدته ضد الدولة العثمانية ، وكان علي بك الكبير على عداء كبير مع الوالي العثماني في دمشق عثمان باشا^(١).

تحركت قوات علي بك الكبير من مصر في أوائل تشرين الثاني سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م بقيادة إسماعيل بك الذي تمكّن من احتلال غزة والرّملة دون مقاومة من أهلها نتيجة نعمتهم على مظالم عثمان باشا الذي هرع مسرعاً لمواجهة قوات علي بك ، غير أنّ انضمام ظاهر العمر إلى القوات المصرية جعلته يعود إلى دمشق في الوقت الذي تمكّن فيه إسماعيل بك وظاهر العمر من السيطرة على يافا ، وفي تلك الأثناء وصل محمد بك أبو الذهب على رأس قوات إضافية قادمة من مصر، وتسلم قيادة الحملة ونجح في السيطرة على دمشق في ٢٥ صفر سنة ١١٨٥هـ/٨ حزيران سنة ١٧٧١م ، وعند وصول أخبار هذا النصر الكبير إلى مصر تمّ تزيين القاهرة ، وأقيمت الاحتفالات التي استمرت ثلاثة أيام بلياليها^(٢) ، غير أنّ محمد أبو الذهب انسحب فجأة من دمشق في ١٨ حزيران سنة ١٧٧١م ، وعاد إلى مصر ، وقد فسّر الباحثون انسحاب أبو الذهب وعودته إلى مصر بحصوله على وعد من السلطان بتعيينه والياً على مصر إذا ما نجح في القضاء على سيّده ، وأشارت عدّة مصادر إلى أنّ الباب العالي أوعز إلى عثمان باشا والي دمشق بالاتصال سراً بمحمد أبو الذهب وكسبه إلى جانب الدولة العثمانية ، وبالفعل حدث اجتماع سري بين الطرفين في دمشق أبلغ فيه عثمان باشا محمد أبو

(١) كان هذا العداء سببه حصول خلاف بين الرجلين في الحجاز في سنة ١١٧٧هـ/١٧٦٤م حين كانا أميرين على قافلة الحج المصري وقافلة الحج الشامي ، ومما زاد هذا العداء قيام عثمان باشا بتحريض أعداء علي باشا ضده في مصر، مما اضطره إلى الهرب إلى غزة التابعة لولاية دمشق ، لكن عثمان باشا طرده منها ، فعاد إلى مصر ، ونجح في استعادة منصبه ، وصمم على الانتقام من عثمان باشا ، فقدم شكوى إلى السلطان العثماني ضد عثمان باشا ، وطالب بعزله ، لكن من دون فائدة إلى أن جاءت له الفرصة المناسبة حين عرض عليه ظاهر العمر التحالف معه ضد الدولة العثمانية وواليها في دمشق عثمان باشا. للتفصيل ابن الصديق : غرائب البدائع ، ص ١٥.

(٢) الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ، الجزء الأول ، ص ٢٨٢.

الذهب بأنَّ السلطان قد وعد بتعيينه والياً على مصر في حال تمكّن من القضاء على سيّده علي بك الكبير^(١).

تمكّن محمد أبو الذهب من هزيمة سيّده علي بك الكبير الذي اضطر إلى مغادرة القاهرة ، والالتجاء إلى حليفه ظاهر العمر ، وبدأ في تنظيم قواته محاولاً استعادة سلطته ، لكن محاولته باءت بالفشل ، فبعد وصوله إلى منطقة الصالحية بإقليم الشرقية ، التقى بجيش محمد أبو الذهب في ٢٦ نيسان سنة ١٧٧٣م في معركة كان النصر فيها لحليف الأخير ، وأصيب علي بك في هذه المعركة بجراح خطيرة في وجهه بعد أن سقط عن جواده ، ووقع أسيراً في يد جنود محمد بك ، وتمّ نقله إلى القاهرة حيث عمل محمد بك على معالجة جراح سيّده^(٢) ، لكن علي بك ما لبث أن توفي في ٨ أيار من السنة نفسها ، وآلت السلطة في مصر إلى محمد بك أبو الذهب^(٣).

كما شهدت مصر مع بدايات القرن التاسع عشر بروز محمد علي الذي استطاع أن يستغلّ الأوضاع السياسية المضطربة في مصر في أعقاب انسحاب الحملة الفرنسية ، فتمكّن من السيطرة على مصر ، وكان اللاعب الأساسي في التطورات السياسية التي شهدتها منطقة المشرق العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وُلِدَ محمد علي في بلدة صغيرة ، تدعى " قوله " سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م ، وهي إحدى المدن أو الموانئ الصغيرة التي تقع على الحدود بين تراقيا ومقدونيا مسقط رأس الإسكندر الأكبر^(٤) ، وفي العام نفسه الذي ولد فيه نابليون بونابرت^(٥) ، وفي سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م انضمّ إلى الفرقة الألبانية التي كانت في عداد الجيش العثماني المتجه إلى مصر لقتال الفرنسيين في مصر، وبعد خروج القوات الفرنسية من مصر حدث صراع كبير على السلطة بين الدولة العثمانية الراغبة في فرض سيطرتها المباشرة على مصر، وبين المماليك المدعومين من قبل الإنكليز، فاستغلّ محمد علي ذلك الصراع للوصول إلى السلطة عن طريق تقربهِ من المصريين ، فاستطاع كسب ثقة العلماء والوجهاء ، فأعلنوا رغبتهم بتعيينه والياً على مصر، فاضطرت الدولة العثمانية مكرهة

(١) للتفصيل حول حملة علي بك على بلاد الشام يرجى العودة إلى :

— Rafeq : **The Province of Damascus 1723 _ 1783** , p.p 250 - 282.

(٢) الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ، الجزء الأول ، ص ٢٩٥.

(٣) رافق : العرب والعثمانيون ، ص ٣٥٧.

(٤) أحمد زكريا الشلق وآخرون : محمد علي وعصره ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٥م ، ص ١١.

(٥) جي فارجيت : محمد علي مؤسس مصر الحديثة ، ترجمة محمد رفعت عواد ، الطبعة الأولى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٥.

على الموافقة على تعيين محمد علي والياً على مصر سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ، نتيجة التأييد الشعبي الكبير له حيث لعب الشيخ عمر مكرم دوراً كبيراً في ذلك^(١).

واجهت محمد علي الكثير من المشكلات بعد تسلمه حكم مصر، فكانت الفترة التي أعقبت جلاء القوات الفرنسية عن مصر مليئةً بالفوضى والاضطرابات ، هذا فضلاً عن تعدد القوى المنافسة له ، وعلى رأسها حلفائه من قادة الشعب والمماليك ومن ورائهم الإنكليز، لكنه استطاع التغلب على جميع تلك القوى ، فأوقع الخلاف بين قادة الشعب ، وأغرى بعضهم بالمناصب العليا ، وبالأموال الكبيرة ، وطرد عمر مكرم إلى دمياط ، أما بالنسبة للمماليك ففجح في التخلص منهم عن طريق تدبير مؤامرة أودت بحياة كبار قادتهم حيث استغل سفر ابنه طوسون إلى الجزيرة العربية لقتال الوهابيين ، فأقام حفلة كبيرة لوداعه ، ودعا إليها زعماء المماليك ، وقام بقتلهم أثناء حضورهم تلك الحفلة ، وذلك في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م^(٢) ، أما إنكلترا التي كانت مصممة على انتزاع مصر من يد محمد علي وإعطائها لحلفائها من المماليك ، فعند فشل وساطتها لدى السلطان العثماني قامت بإرسال حملة كبيرة إلى مصر بقيادة فريزر سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ، فاستولت على الإسكندرية^(٣) ، وتقدمت نحو رشيد حين كان محمد علي يطارده فلول المماليك في منطقة الصعيد ، فأسرع بالعودة إلى القاهرة ، وجهز جيشاً كبيراً لقتال الإنكليز، وتمكن من هزيمتهم في رشيد بمساعدة الأهالي ، فاضطر الإنكليز إلى الانسحاب من مصر في كانون الأول سنة ١٨٠٧م ، مما زاد في قوة محمد علي الذي أخذت سلطته تتوطد في مصر بالتدريج^(٤).

عمل محمد علي على بناء دولة قوية في مصر، تعتمد الأسس والنظم الأوروبية الحديثة ، لكن مخططه لم يقتصر على مصر، بل أراد أن تشمل دولته جميع البلدان التي يتكلم أهلها اللغة العربية^(٥)، لذلك قام بسلسلة من الإصلاحات على الصعيد الداخلي^(٦) ، وبعد أن أتم

(١) للتفصيل عن الشيخ عمر مكرم ودوره في الأحداث في مصر يرجى العودة إلى مؤنس : الشرق الإسلامي ، ص ١٠٠.

(٢) الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

(٤) الصباغ : تاريخ العرب ، ص ٢٥٣.

(٥) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان حقي ، الطبعة الثامنة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٩٣.

(٦) قام محمد علي على الصعيد الإداري بتقسيم البلاد إلى مديريات تتفرع إلى مراكز ، وأقام عدة دواوين باختصاصات متعددة ، وعلى الصعيد الاقتصادي اهتم محمد علي بالزراعة اهتماماً كبيراً ، لكونها تشكل المصدر الرئيسي للدخل الوطني في مصر ، وأدخل إليها عدداً كبيراً من الإصلاحات التي هدف من ورائها زيادة الإنتاج ، فبعد قضائه على المماليك وضع جميع الأراضي التي كانت بحوزتهم تحت تصرفه ، وألغى نظام الالتزام حين صادر أراضي الملتزمين ، كما سيطر على أراضي الأوقاف ، وكذلك على جميع الأراضي التي عجز أصحابها عن إثبات ملكيتهم لها ، وبذلك أصبحت جميع الأراضي الزراعية في مصر ملكاً للدولة ، فأمر

محمد علي إصلاحاته الداخلية التي رَسَّخت أقدامه في مصر، ونجح في تكوين جيش كبير ومنظم على النمط الأوروبي الحديث بدأ بالتطلع للتوسع خارجياً ، وفي تلك الفترة ازداد نفوذ الوهابيين في شبه الجزيرة العربية ، خاصة بعد أن نجحوا في فرض سيطرتهم على الحجاز ، وعندما عجز الولاة العثمانيون في تلك المناطق من القضاء عليهم^(١).

لجأ السلطان العثماني إلى واليه في مصر محمد علي ، وكلفه بالقضاء على هذه الحركة ، فانتهاز محمد علي هذه الفرصة لإظهار طاعته للسلطان ، وفرض سيطرته على الحجاز ، فأعد حملة كبيرة بقيادة ابنه طوسون وكلفه بالقضاء على الوهابيين ، وعندما فشل طوسون في إحراز نصر حاسم على الوهابيين، لحق محمد علي بابنه إلى الجزيرة العربية ، وحقق نصراً كبيراً على الوهابيين في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م ، لكنه لم يتابع تقدمه باتجاه عاصمتهم الدرعية لاضطراره للعودة إلى مصر، لكنه استأنف القتال معهم فيما بعد حيث أرسل ابنه إبراهيم الذي تمكن من احتلال الدرعية ، وأسر الأمير عبد الله بن سعود الذي تم إرساله إلى

باستغلالها على نفقة الدولة ، كما قام بعدة مشاريع لتأمين المياه اللازمة للزراعة ، فأنشأ القناطر الخيرية والترعة المحمودية ، كما قام محمد علي بإدخال زراعة بعض المحاصيل إلى مصر كالقطن الذي نجحت زراعته في مصر بشكل كبير نظراً لتوفر الظروف الملائمة لذلك كالتربة الخصبة والمياه الوفيرة ، وفي مجال الصناعة حرص محمد علي على إقامة المعامل والمصانع ، وخاصة المتعلقة في مجال الغزل والنسيج والسكر والورق بالإضافة إلى مصانع الأسلحة ، كما شجع الصناعات الوطنية الموجودة في مصر وعمل على تطويرها ، وفي مجال التجارة حقق نجاحاً ملحوظاً نتيجة التطور الكبير الذي طرأ على الزراعة والصناعة ، فازدادت الصادرات الزراعية ، وساعد على ذلك إنشاء الكثير من الطرق البرية بالإضافة إلى إصلاح عدد كبير من الموانئ المصرية ، وخاصة ميناء الإسكندرية ، كما أظهر محمد علي اهتماماً واضحاً بالتعليم ، وكان هدفه من ذلك تأمين ما تحتاجه مصر من كوادر ، فأنشأ الكثير من المدارس التي كانت ثلاثة أنواع ابتدائية وتجهيزية وخاصة ، وطبق نظام التعليم الإلزامي الذي كان على نفقة الدولة ، وأرسل البعثات التعليمية إلى أوروبا ، وأنشأ مجموعة من المدارس العليا مثل مدرسة الطب في أبي زعبل ، ومدرسة الهندسة في القلعة ، وغيرها الكثير ، ونال الجيش اهتماماً كبيراً من محمد علي ، فقد أدرك أنه لن يتمكن من تحقيق أهدافه في بناء دولة قوية ، ما لم يمتلك جيشاً كبيراً وقوياً يكون قادراً على حماية دولته من الأخطار الكبيرة المحدقة بها ، ولذلك قام بالتخلص من الجنود والضباط الألبان الذين قاموا بالخروج عن طاعته ، وعمل على بناء جيش حديث على النمط الأوروبي بمساعدة أحد الضباط الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام ، ويدعى الكولونيل سيف والذي أصبح يعرف باسم سليمان باشا الفرنساوي ، فجند أبناء الفلاحين المصريين وأنشأ محمد علي المدارس العسكرية كمدرسة المشاة والمدفعية والفرسان ، وأوفد البعثات العسكرية إلى أوروبا ، كما استقدم عدداً من الخبراء الفرنسيين لتدريب الجيش المصري على مختلف الأسلحة الحديثة ، كما عمل على إنشاء قوة بحرية كبيرة ، فاشترى بعض السفن الحربية من أوروبا ، وتم تصنيع بعض السفن على حساب الحكومة المصرية ، وبعد تحطيم أسطوله في معركة نفاارين سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م ، أمر ببناء دار لصناعة السفن الحربية في الإسكندرية ، ومعامل لصناعة جميع مستلزمات هذه الصناعة من معامل لصناعة الحبال والصواري ، وأسس مدرسة بحرية عسكرية في الإسكندرية لتدريب جنوده المصريين الذين يعملون على متن أسطوله الحربي . للتفصيل حول إصلاحات محمد علي يرجى العودة إلى أحمد طربين : تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة ، دمشق ، ١٩٨٥ - ١٩٨٦ ، ص ٦٠ - ٦٩ . فارجيت : محمد علي ، ص ١١٢ . الشلق وآخرون : محمد علي ، ص ٧١ .

(١) إلياس الأيوبي : محمد علي سيرته وأعماله وآثاره ، دار الهلال ، مصر ، ١٩٢٣م ، ص ٢١٠ .

استانبول حيث تمّ إعدامه هناك سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م^(١). وفي سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م قام محمد علي بحملةٍ على السودان وكانت أهدافه من وراء تلك الحملة القضاء على بقايا المماليك الذين هربوا من مصر، وتجمّعوا في شمال السودان ، ورغبته في تجنيد السودانيين في جيشه ، كما أنه استعاد الحلم القديم للفراعنة الذين كانوا يريدون السيطرة على النيل من منبعه إلى مصبه ، نظراً إلى أنّ النوبة وأعالي النيل تشكّل امتداداً طبيعياً لمصر من ناحية الجنوب^(٢) ، بالإضافة إلى طموحاته في السيطرة على مناجم الذهب في السودان ، واستغلال موارده الاقتصادية ، فأرسل حملةً كبيرة بقيادة ابنه إسماعيل الذي حقّق بعض الانتصارات وسيطرَ على بربر وشندي وسنار، ثم أرسلَ محمد علي حملةً أخرى لدعم ابنه إسماعيل ، وكانت بقيادة صهره محمد الدفتردار الذي تمكّن من السيطرة على عاصمة سلطنة دافور، وبعد أن حقّق محمد علي أهدافه في هزيمة المماليك ، وفي السيطرة على مناطق واسعة من السودان ، انصرف إلى استغلال موارد السودان من الذهب والعبيد ، لكنّ السكان المحليين ما لبثوا أن أعلنوا الثورة على القوات المصرية ، وهاجموها ، ممّا أدّى إلى مقتل عدد كبير من الجنود المصريين ، وعلى رأسهم إسماعيل بك ابن محمد علي الذي مات حرقاً^(٣) ، إلا أنّ محمد الدفتردار تمكّن من القضاء على المتمردين مستفيداً من تفوّقه باستخدامه الأسلحة النارية وعدم وجود قيادةٍ موحّدةٍ للثائرين ، ممّا ساعده على إعادة الهدوء والاستقرار للسودان من جديد . كذلك شارك محمد علي إلى جانب قوات الدولة العثمانية في إخضاع ثورة اليونان ، مقابل إعطائه حكم شبه جزيرة المورة ، فأرسلَ قواته بقيادة ابنه إبراهيم باشا الذي تمكّن من هزيمة الثوار اليونانيين ، لكنّ تدخلَ الدول الأوروبية فرنسا وانكلترا وروسيا لمساعدة الثوار اليونانيين ، أدّى إلى هزيمة المصريين ، وتدمير الأسطولين العثمانيّ والمصريّ في موقعة نفارين سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م^(٤).

ازداد طموح محمد علي بعد الحروب التي خاضها ، فتطلع للسيطرة على بلاد الشام^(٥) بعدما رفض السلطان العثمانيّ منحها له ، كتعويضٍ عن الهزيمة التي لحقت به في

(١) للتفصيل حول حروب محمد علي في الجزيرة العربية يرجى العودة إلى لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني، الطبعة الثامنة ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٠٢ .

(٢) فارجيت : محمد علي ، ص ٧٢ .

(٣) الأيوبي : محمد علي ، ص ١٢٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٥) كان هدف محمد علي ضم بلاد الشام الحصول على الأخشاب اللازمة ، لإعادة بناء أسطوله الذي دُمّر في معركة نفارين سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م ، والاستفادة من مواردها الطبيعية والزراعية مثل القطن والحرير والتبغ ، وهَدَفَ كذلك حماية حدوده من هجمات بدو سيناء الذين كانوا يتحكمون بالطرق التجارية بين بلاد الشام ومصر، أما السبب المباشر فيعود إلى رغبته بالانتقام من

اليونان ، فأرسلَ ابنه إبراهيم باشا على رأس جيشٍ كبيرٍ إلى بلاد الشام ، فتمكَّنَ بواسطته من السيطرة على جميع المدن الموجودة في فلسطين دون مقاومةٍ تُذكرُ ، فحاول السلطانُ العثمانيُّ النفاهمَ مع محمد علي ، لكنَّ الأخيرَ أصرَّ على منحه حكم عكا ودمشق كتعويضٍ له عن الخدمات الكبيرة التي قدمها للدولة العثمانية ، لكنَّ السلطان رفض ذلك ، وأمر قواته بمهاجمة إبراهيم باشا الذي استطاع تحقيقَ النصرِ على الجيش العثمانيِّ ، وتابعتِ القواتُ المصريَّةُ تقدمها في بلاد الشام ، واستطاع إبراهيم باشا تحقيقَ نصرٍ جديدٍ على العثمانيين قرب حمص ، وتابع تقدُّمه شمالاً ، فسيطر على حلب وبيلاں وقونية بعد تحقيقه عدَّة انتصاراتٍ على العثمانيين ، وأصبح بذلك الطريقُ مُمهَّداً للقوات المصرية للتوجه إلى استانبول ، مما أخاف الروسُ فتدخلوا لصالح العثمانيين ، ممَّا أربَعَبَ الفرنسيين والإنكليز الذين سارعوا إلى التدخل لإيجاد حلٍّ لهذه الأزمة ، رغم اختلافهم في وجهات النظر لحل هذه الأزمة ^(١) ، وكان لضغط فرنسا وإنكلترا على السلطان دوراً كبيراً في التوصل إلى تسوية كان من أهم نتائجها عقدُ معاهدة كوتاهية التي مُنحَ محمد علي بموجبها حكم بلاد الشام ، وإعطاء ابنه إبراهيم حكم ولاية أضنة .

رحَّبَ سُكَّانُ بلاد الشام بقوات إبراهيم باشا الذي عمل على توطيد الأمن ، وأعلنَ المساواة بين جميع الطوائف الإسلامية والمسيحية ، وشجَّع الزراعة والصناعة والتجارة ، واهتمَّ بالتعليم ، وفَرَضَ التجنيدَ الإجباريَّ على السُكَّانِ ، لكنَّ الثورات ما لبثتُ أن اشتعلت في مناطق عدَّة من بلاد الشام نتيجة قيام إبراهيم باشا بفرض بعض الضرائب الجديدة على السكان ، وجَعَلِه التجنيدَ إجبارياً ^(٢) ، فضلاً عن التحريض الكبير الذي قام به عملاء الدولة العثمانية ضد القوات المصرية في بلاد الشام ، فنشبت الثورات في جميع أنحاء البلاد بدءاً من نابلس والخليل ، مروراً جبل لبنان والمناطق الواقعة شرقي نهر الأردن ^(٣) ، فاستغلَّ السلطان العثماني اشتعال الثورات ضد محمد علي في بلاد الشام لاستعادة السيطرة عليها ، فأعلن الحرب على القوات المصرية في بلاد الشام ، لكنَّ إبراهيم باشا استطاع الانتصار على الجيش العثماني في معركة نزيب في ١٢ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ٢٤ حزيران ١٨٣٩ م ، في الوقت الذي تُوفِّي فيه السلطان محمود الثاني ، قبل أن تصل أخبارُ الهزيمة التي لحقت بقواته إلى العاصمة استانبول ، وتولَّى مكانه ابنه عبد المجيد الذي لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

والي عكا عبد الله باشا الذي تكرر لمحمد علي ، وقام باحتضان المصريين الهاربين من الجندية . للتفصيل الأيوبي : محمد علي ، ص ١٢٧ .

(١) مؤنس : الشرق الإسلامي ، ص ٢٢٤ .

(٢) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ص ١٣٤ .

(٣) أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ٩٢ .

بعد الانتصار الكبيرة الذي حققه إبراهيم باشا على القوات العثمانية ، كان بإمكانه متابعة تقدّمه باتجاه العاصمة العثمانية ، إلا أنّ الدول الأوروبية سارعت إلى التدخل ، وعلى رأسها إنكلترا وفرنسا اللتين على الرغم من أنّ محمد علي كان يمثل ورقة رابحة لها ، فقد خشيتا مع إنكلترا من التدخل الروسي في الدولة العثمانية بحجة تنفيذ بنود معاهدة " هنكار إسكله سي " الموقعة بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٣٣م ، والتي تنص على التدخل الفوري لروسيا في حال تهديد سلامة أراضي الدولة العثمانية ، وصدرت الأوامر للأسطولين الفرنسي والإنكليزي بالتوجه إلى مضيق الدردنيل للوقوف في وجه التدخل الروسي^(١).

عملت انكلترا عن طريق وزير خارجيتها بالمرستون على إيجاد حلّ للأزمة بين السلطان العثماني ومحمد علي ، وكانت خطته قائمة على منح محمد علي مصر وراثية له ولأبنائه من بعده ، مقابل انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام ، لكنّ فرنسا عارضت هذه الخطة ، ممّا أدّى إلى استبعادها ، فعقدت الدول الأوروبية الأخرى " إنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا " معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م^(٢) والتي نصّت على إجبار محمد علي على الانسحاب من بلاد الشام ، ومنحه مصر وراثية له ولأبنائه من بعده ، كما نصّ ذلك الاتفاق على منح ولاية عكا لابنه إبراهيم مدى الحياة . رفض محمد علي الانصياع لهذه القرارات مُعتمداً على تأييد فرنسا له ، إلا أنّ الأخيرة خذلتها ، فحاصرت أساطيل الدول الأوروبية شواطئ بلاد الشام ومصر ، ممّا أجبر محمد علي على سحب قواته من بلاد الشام . وفي ربيع الأول ١٢٥٧هـ/أيار ١٨٤١م عُقد مؤتمر لندن الثاني الذي انتهى بإصدار السلطان العثماني فرماناً ، قضى بمنح محمد علي حكم مصر والسودان وراثياً في أكبر أفراد أسرته ، وتخفيض عدد القوات المصرية إلى ثمانية عشر ألفاً ، ومنع محمد علي من بناء السفن الحربية ، إلاّ بإذن من السلطان ، ودفعه محمد علي عائدات سنوية للسلطان ، وتطبيق القوانين العثمانية على مصر والسودان باعتبارهما ولايتين عثمانيتين.

٤- المغرب العربي :

في بدايات القرن السابع عشر حكمت تونس الأسرة المرادية ، نسبةً إلى مؤسسها مراد بك ، والذي خلفه ابنه حمود بك الذي يُعدُّ أشهر رجال هذه الأسرة بسبب قدرته على فرض الأمن والاستقرار في تونس ، وخلفه ابنه مراد الثاني الذي اتّبع سياسة والده ، وبعد وفاته

(١) فارجيت : محمد علي ، ص ١٧٣ .

(٢) الأيوبي : محمد علي ، ص ١٣٢ .

حدث صراعٌ كبير على السلطة بين أولاده أدّى إلى سقوط حكم الأسرة المراديّة وتسلم الأسرة الحسينية حكم تونس (١) .

عمل حسين بن علي بعد التخلّص من منافسيه على الحصول على فرمان توليته من الدولة العثمانية ، ليكسبَ حكمه صفة الشرعية ، ونجح في تحقيق ذلك في سنة ١١٢٠هـ/١٧٠٨م ، ثمّ انصرفَ بعدها إلى الاهتمام بشؤون ولايته الداخلية ، فرمّم أسوار مدينة تونس ، ووطّد الأمن وعمل على الاهتمام بالأمور الاقتصادية ، فشجّع الزراعة والصناعة والتجارة ، وأنشأ مدرستي الحسينية والنخلة وغيرها من المدارس في جميع المدن التونسية كسوسة والقيروان (٢). وفي سنة ١١٤١هـ/١٧٢٩م عادت الاضطرابات إلى تونس نتيجة إعلان علي ابن أخ حسين باي الثورة على عمّه (٣) ، ونجح في السيطرة على الحكم . وقد شهد عهد علي باشا (١٧٤٠-١٧٥٦م) الكثير من الاضطرابات نتيجة لسياساته الخاطئة فاختلف علي باشا مع ابنه يونس حيث أراد علي باشا إشراك كلّ أبنائه في الحكم وهذا ما رفضه يونس ، فنَفَذَ علي باشا رغبته في ظلّ غياب ابنه ، وعندما ازداد الخلاف بينهما ، ثار يونس وغادر البلاد سنة ١١٦٥هـ/١٧٥٢م . ولم تكن سياسته الخارجية أفضل حالاً من سياسته الداخلية ، فاستولى في صيف ١٧٤١م على مركز الجنوبيّ التجاري في طبرقة ، كما قام بالسيطرة على مركز " كاب نيقور " التجاري التابع للفرنسيين في شرقي طبرقة ، وكان هدفه من وراء ذلك إبعاد التجار الأوروبيين بقصد السيطرة على تجارة البوادي ، مما أغضب فرنسا التي حاولت الرد بالسيطرة على طبرقة ، ولكن دون جدوى (٤) ، كما استمر في عهد علي باشا التهديد الجزائري لتونس نتيجة وجود أولاد عمّه حسين بن علي في الجزائر حيث

(١) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، الدار الوطنية للنشر ، تونس ، ١٩٨٦م ، ص ١٧٩ .
— علي المحجوبي : انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، تعريب عمر بن ضو وحليمة فرفوري ، الطبعة الثانية ، دار سراس للنشر ، تونس ، ١٩٩٣م ، ص ٨ .

(٢) عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٨١ .

(٣) كان حسين قد تبنى علي ليكون خليفته في حكم البلاد ، لكون حسين باي لم ينجب أولاد وحين رزق بالأولاد من أسيرة جنوبية ، فكر في حصر الإرث في أولاده ، وحصل على موافقة أعيان الولاية بحصر الحكم في أبنائه ، ولم يرغب حسين باي أن يحرم ابن أخيه من المشاركة في إدارة البلاد ، فمنحه لقب باشا سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٤م ، لكن علي لم يقبل بهذا المنصب الشرفي ، ورأى فيه إيعاداً له عن السلطة ، فغادر تونس سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٨م إلى جبل وولات ، على الرغم من محاولة عمه إقناعه بالعودة . اتصل علي باشا بالجزائريين الذين أمدوه بقوة كبيرة استطاع من خلالها هزيمة عمّه ، ودخل مدينة تونس ، ونودي به باباً سنة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م ، أما حسين باي فانسحب إلى القيروان ، وانقسمت البلاد بين حسينية وباشوية نسبة إلى حسين وعلي باشا ، وفي سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م نجح علي باشا في الاستيلاء على القيروان ، وقَتَلَ عمّه حسين . للتفصيل حول ثورة علي باشا على عمه يرجى العودة إلى أحمد ابن أبي ضياف: اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الاجتماعية ، ٥ مجلدات ، تنفيذ الدار العربية للكتاب ، (د.م) ، ١٩٩٠م ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ص ١٠٦-١١٦ .

(٤) محمد الهادي الشريف : تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، تعريب محمد الشادش ومحمد عجينة ، الطبعة الثالثة ، دار سراس للنشر ، تونس ، ١٩٩٣م ، ص ٨٥ .

استغل حكام الجزائر ذلك لممارسة الضغط على تونس ، وعندما رفض علي باشا دفع الأموال للجزائريين وطالبهم بعدم التدخل في شؤون تونس ، قام الجزائريون بتأييد أولاد حسين بن علي ، وساعدوهم في القضاء على حكم علي باشا ، وذلك في أيلول سنة ١٧٥٦م^(١).

تعلم أولاد حسين بن علي من دروس الماضي وحرصاً على عدم قيام الخلافات فيما بينهم اتفقوا على إقامة نظام جديد لانتقال السلطة بينهم نصّ على أن يتولى الحكم أكبر أفراد الأسرة سناً ، ونتيجة لذلك تولى الحكم محمد بشكل اسمي وأخوه علي بشكل فعلي ، وفي سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م توفي محمد ، فانفرد علي بالسلطة ، وقبيل وفاته أطلت من جديد مسألة الوراثة ، فتبعاً للنظام الذي أوجده أفراد هذه الأسرة كان لا بدّ أن يخلفه علي ابن أخيه أبو النشاء محمود لأنه أكبر أفراد هذه الأسرة ، لكنّ بعض رجاله نصحوه بتولية ابنه حمودة باشا ، وقد تردد في البداية خوفاً من تكرار أحداث الماضي ، ولكن انتصرت العاطفة في النهاية ، وولى ابنه حمودة باشا.

يُعدّ حمودة باشا من أشهر بايات الأسرة الحسينية ، ومن أبرز الشخصيات القيادية والإدارية التي مرت في تاريخ تونس ، وقد وصفه المؤرخ الشهير أحمد ابن أبي ضياف بقوله " كان عزيز النفس ، ثاقب الفكر ، ومع ذلك لا يستغني عن مشورة رجال دولته في جليل الأمور وحقيقتها " ^(٢)، وكان أول باي يعتمد على موارد تونس المحلية في عملية التجنيد بعدما كانت تونس تعتمد فيما مضى على قوات من الإنكشارية الذين كانوا يسببون الكثير من المشكلات لحكام تونس ، لكن الأمر اختلف في عهد حمودة باي ، فحين أعلنت الإنكشارية العصيان عليه اعتمد على قواته المحلية لمواجهة تمردهم ^(٣)، كما حفل عهده بالعديد من الصراعات مع جيرانه ، ففي طرابلس اصطدم مع علي باشا الجزائري " علي برغل " الذي استغل الخلاف الدائر بين أفراد الأسرة القرمانيّة ، فحصل على فرمان سلطاني بتعيينه والياً على ليبيا وإنهاء حكم الأسرة القرمانيّة ، ونجح في الاستيلاء على طرابلس ، ولجأ القرمانيون إلى تونس، فقام حمودة باشا بمساعدة القرمانيّين على طرد علي باشا الجزائري ، فعاد القرمانيّون إلى حكم طرابلس^(٤)، كما شن عدة هجمات ضد الجزائريين الذين كانوا يحاولون على الدوام مد نفوذهم إلى تونس ، وبعد وفاته سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م ، خلفه أخيه أبو النور عثمان على الرغم من وجود من هو أكبر منه سناً في الأسرة الحسينية ، وهو ابن

(١) للتفصيل حول استعادة أبناء الحسين بن علي السلطة في تونس من علي باشا يرجى العودة إلى ابن أبي ضياف : اتحاف أهل الزمان ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ص . ١٤٥ - ١٥١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٣) يحيى : المغرب الكبير ، الجزء الثالث ، ص ٥٧ .

(٤) عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٨٨ .

عمه أبو الثناء محمود الذي تأمر على أبي النور عثمان ، وقتله وحلّ مكانه سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م . ومن أهمّ الأحداث التي جرت في عهده كانت ثورة الجند التركي الثانية سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤ م والتي تمكّن من القضاء عليها مُستغلاً الخلاف الذي حصل بين زعماء هذه الثورة ، كما وقع في عهده صلح نهائي بينه وبين حُكّام الجزائر بمساعي الدولة العثمانية التي بذلت جهوداً كبيرة لتسوية الأوضاع بين الولايتين (١).

تولّى حسين باي الحكم بعد وفاة والده أبو الثناء محمود ، ويُعدّ عهده بداية الأزمة المالية التونسية والتي سوف تزداد تعقيداً في عهد خلفائه ، وخلال حكمه وقع الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م ، وقد وقف حسين باي مؤيداً للفرنسيين دون أن يدرك أنّ هذه الخطوة ليست إلا بداية لسيطرة الفرنسيين على الشمال الإفريقي بكامله ، فأرسل وفداً لتهنئة القائد الفرنسي بورمونت ، وقد تأثر موقفه هذا بعوامل عدّة كان منها العداء الكبير بين الولايتين " تونس والجزائر " ، واعتقاده بأنّ الفرنسيين جاؤوا إلى الجزائر لتأديب الداي ، وأنهم سوف يعهدون إليه بحكم الجزائر، كذلك خوفه من الفرنسيين الذين أبلغوه بنواياهم تجاه الجزائر وحذروه من التدخل (٢).

خلف مصطفى باي (١٨٣٥ — ١٨٣٧م) أخوه حسين باي ، وقد شهدت فترته تزايد النفوذ الأوربي في منطقة الشمال الإفريقي ، ممّا دفع الدولة العثمانية إلى فرض سيطرتها المباشرة على ولاياتها في هذه المنطقة ، فبعد مرور أسبوع على تولّي مصطفى باي الحكم قامت الدولة العثمانية بإعادة سيطرتها المباشرة على ليبيا بعد قضائها على حكم القرمانليين ، وقد خشي مصطفى باي من أن يمتدّ ذلك إلى ولايته ، فسعى للحصول على فرمان توليته من العاصمة العثمانية استانبول ، لكنه لم يستمر طويلاً في الحكم حيث توفي في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م ، وخلفه أحمد باي (١٨٣٧ — ١٨٥٥م) الذي تميّز عهده باتباع سياسة إصلاحية شملت مجالات عديدة من بينها الجيش والتعليم ، وقد وصفه ابن أبي ضياف بأنه "كان كريماً جواداً ... يعطي الجزيل ويحتقره " (٣) . أمّا فيما يتعلق بإصلاحاته ، فعلى صعيد الثقافة أسّس مكتبة الأحمدية واشترى لها عدداً كبيراً من الكتب كان من بينها جميع الكتب التي كانت بحوزة حسين جوجة (٤) ، وعلى صعيد الجيش أدرك حاجته إلى جيش قوي يحميه من الخطرين الكبيرين المحيطين به المتمثلين بالفرنسيين في الجزائر والأتراك في ليبيا ، ولذلك

(١) عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٩٢.

(٢) فارس : تاريخ المغرب ، ص . ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٣) ابن أبي ضياف : اتحاف أهل الزمان ، المجلد الثاني ، الجزء الرابع ، ص ١٦٧.

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٩.

أسّس مدرسة باردو العسكرية سنة ١٨٤٠م ، واهتمّ بإنشاء قوّة بحرية حديثة ، فاشترى بعض السفن الحربية الصغيرة وبارجة من الطراز الكبير سماها الحسينية ، ثم أحدث مرسى حربي في " بغار الملح " ، وأنشأ داراً لصناعة السفن في حلق الوادي^(١).

بعد وفاة أحمد باي خلفه ابن عمه محمد باي (١٨٥٥ — ١٨٥٩م) الذي عمل على إيقاف حالة التدهور الاقتصادي للبلاد ، فخفّف الضرائب ، وشجّع الزراعة ، واهتمّ بالقضاء وفي عهده صدر ما يُعرفُ بعهد الأمان^(٢) ، فعجلت إصلاحات محمد باي إيقاع تونس في قبضة الدول الأوروبية لأن القيام بتلك الإصلاحات كان بحاجة إلى أموال كثيرة في وقت كانت الخزينة التونسية تعاني الإفلاس ، ممّا دفعه للاقتراض من البنوك الأوروبية ، واستمرّت الأمور في التدهور في عهد محمد الصادق باي (١٨٥٩—١٨٨٢م) الذي خلف أخاه محمد قبل فرض الحماية باثنتين وعشرين سنة^(٣) ، وقد تميّز عهده بصدور الدستور، وتشكيل المجالس الحامية له والمحاكم المنفذة لعهد الأمان ، وأصدر الباي القوانين التي نظمت الوزارات وحددت اختصاصاتها ، وفي عهده تمّ إدخال أول مطبعة إلى تونس ، كما صدرت صحيفة الرائد التونسي^(٤).

اشتد التنافس بين الدول الأوروبية للسيطرة على تونس ، وخاصة بين الفرنسيين والإيطاليين الذين رغبوا بفرض سيطرتهم على تونس لاعتبارات جغرافية وتاريخية ، فتونس تعدّ بالنسبة إلى الإيطاليين قرطاجة القديمة ، بالإضافة إلى قربها من الأراضي الإيطالية^(٥)، لكنّ الفرنسيين حسموا الصراع في النهاية لصالحهم ، فادّعوا قيام قبيلة خمير التونسية بمهاجمة الأراضي الجزائرية وأرسلوا حملة كبيرة إلى تونس ، وفرضوا على الباي معاهدة

(١) عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٢٠٠.

(٢) يُعدّ عهد الأمان بمثابة وثيقة إعلان حقوق الإنسان ، وكانت المبادئ التي تضمنتها الوثيقة توفيقية ما بين مبادئ الدين الإسلامي وفلسفة القرن الثامن عشر الليبرالية ، وتألّف عهد الأمان من مقدمة واثنى عشر بنداً نصت على تأكيد الأمان لجميع سكان تونس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وألوانهم ، وعلى المساواة أمام القانون ، وفي الضرائب ، وفي تحديد مدة الخدمة العسكرية ، كما نصّ عهد الأمان على إنشاء المحاكم المختلطة الجنائية والتجارية ، وألغت جميع الامتيازات التي يتمتع بها المسلمون ، كما تمّ إزالة جميع العوائق التي تحدّ من حرية التجارة ، ومنحت التجار الأجانب الحق في ممارسة جميع أنواع التجارة في تونس. فارس : تاريخ المغرب ، ص ٣٤٥ .

(٣) المحجوبي : انتصاب الحماية الفرنسية ، ص ٩.

(٤) ابن أبي ضياف : اتحاف أهل الزمان ، المجلد الثالث ، الجزء الخامس ، ص ٣١.

(٥) المحجوبي : انتصاب الحماية الفرنسية ، ص ٢٦.

باردو في ١٣ جمادى الثانية ١٢٩٨هـ/ ١٢ أيار ١٨٨١م التي أدت إلى فرض الحماية الفرنسية على تونس^(١).

أمّا في ليبيا فتمكّن أحد قادة الجُنْد ، ويُدعى أحمد القرماني من تأسيس أسرة حاكمة في ليبيا استمرت في حكم هذه الولاية من سنة ١٧١١م إلى سنة ١٨٣٥م ، وتعود أصول أحمد القرماني إلى أسرة تركية قدّمت من بلاد قرمان في الأناضول ، واستقرت في ليبيا في عهد الرئيس طرغوت ، وتدرّج أفراد هذه الأسرة في المناصب حتى تسلّم أحد أفرادها حكم مدينة المنشية الواقعة على الساحل^(٢).

تقلّد أحمد القرماني مناصب عدّة عسكرية وسياسية ، واستطاع بدهائه وحنكته أن يكسب ثقة الجُنْد وأعيان البلاد ، فاختروه والياً سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ، وقد أدرك أحمد حجم الصعوبات التي تواجهه ، ولذلك كان عليه كسب ودّ الدولة العثمانية حتى يحصل على فرمان بتعيينه والياً على ليبيا ، فأرسل وفداً من أهالي طرابلس إلى استانبول لمطالبة السلطان بتثبيتته والياً على ليبيا^(٣) ، كما نجح في القضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية في الولاية كالقضاء على ثورات أهل تاجوراء ومسلاته ، وثورة علي بن عبد الله الصنهاجي سنة ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م والتي تعدّ أخطر الثورات ، لأنّ قائدها تسترّ بالدين ، وأدعى أنّه المهدي المنتظر، وأنّه سوف ينقذ البلاد من الأتراك^(٤) . وفيما يتعلق بعلاقته مع الدول الأوروبية ، فقد اتّسمت بالعداء بسبب قيام أسطوله بمهاجمة السفن الأوروبية في البحر المتوسط ، وقيامه بفرض أتوات على الدول الأوروبية ، لقاء عدم قيام أسطوله بمهاجمة السفن الأوروبية ، وقد خضعت تلك الدول لشروطه ، وعلى رأسها انكلترا وهولندا^(٥).

حكمَ أحمد باشا القرماني ليبيا مدة ٣٤ سنة امتدت من ١٧١١ إلى ١٧٤٥م ، استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القرمانية في ليبيا ، وتوطيد سيطرته في جميع أنحاء الولاية ، وفي الفترة الأخيرة من حياته أُصيب بالعمى ، ويبدو أنّه لم يحتمل ذلك ، فأطلق النار على نفسه ، ومات في ٤ تشرين الثاني سنة ١٧٤٥م ، ودفن في جامع^(٦)ه ، وخلفه ابنه محمد الذي سار

(١) فارس : تاريخ المغرب ، ص ٣٦٦ .

(٢) الشيخ : تاريخ العرب ، ص ٣٠١ .

— جلال يحيى : المغرب الكبير ، الجزء الثالث ، ص ٥٨ .

(٣) عمر علي إسماعيل : انهيار حكم الأسرة القرمانية في ليبيا ١٧٩٥ — ١٨٣٥ ، الطبعة الأولى ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ١٩٦٦م ، ص ٣٥ .

(٤) فيرو : الحوليات الليبية ، ص ٣٧٠ .

(٥) للتفصيل حول علاقات أحمد القرماني بالدول الأوروبية يرجى العودة إلى بروشين : تاريخ ليبيا ، ص ١١٥ .

(٦) روسي : ليبيا ، ص ٣٤٣ .

على نهج والده ، فاهتمّ بالأسطول وسمح لبحارته بمهاجمة السفن الأوربية ، فسارعت تلك الدول إلى تجديد المعاهدات والاتفاقيات الموقّعة مع والده مثل فرنسا ، كما قامت دول أخرى بعقد معاهدات جديدة معه مثل النمسا والدنمارك سنة ١٧٤٩م . أمّا إنكلترا فطالبت بعقد معاهدة مماثلة للمعاهدة الموقّعة مع فرنسا ، فحصلت على ذلك سنة ١٧٥١م^(١)، وعاشت ليبيا خلال فترة حكمه في هدوءٍ واستقرارٍ سياسي واقتصادي لم تعرفه خلال القرن الثامن عشر . توفي محمد باشا في ٢٤ تموز سنة ١٧٥٤م ، بعد أن حكم مدة عشر سنوات ، ودُفِنَ إلى جانب والده في مقبرة جامع أحمد باشا .

تولّى علي باشا القرمانلي الحكم بعد موت والده محمد باشا ، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة ، فاستغلّ قادة الإنكشارية صِغَرَ سنّه ، وعملوا على زيادة نفوذهم ، فقاموا بمهاجمة السفن التابعة للدول الأوربية ، وفرضوا الضرائب الباهظة على الأهالي ، كما جعلوا علي باشا يُصدر أحكامَ الإعدام على كل مَنْ كان محلّ ثقةٍ الناس حتى عمّه المدعو خليل الذي كان يشغل منصب باي درنة^(٢)، ممّا دفع تلك الدول إلى قصف طرابلس بالمدفعية ، وترافق ذلك مع تعرّض الولاية للمجاعة التي أدّت إلى موت الكثيرين ، فضلاً عن قيام العديد من الثورات في أنحاء الولاية ، الأمر الذي دفع بالسكان للاستجداد بالدولة العثمانية لإنقاذهم من حالة الفوضى التي تعمّ الولاية^(٣) ، فانتهزت الدولة العثمانية الراغبة في فرض سيطرتها المباشرة على ليبيا هذه الفرصة ، وكلفت علي باشا الجزائري بالقضاء على الأسرة القرمانلية حيث أصدر السلطان العثماني سليم الثالث فرماناً بتعيين علي باشا الجزائري والياً على ليبيا ، وعندما علّم علي باشا القرمانلي بفرمان السلطان سليم الثالث جمّع أسرته ، وغادر الولاية إلى تونس ، لكونه يرتبط مع والي تونس حمودة باشا بعلاقاتٍ قوية^(٤) ، لكنّه سرعان ما عاد إلى حكم ليبيا بعد فشل علي باشا الجزائري في إدارة هذه الولاية^(٥).

— فيرو : الحوليات الليبية ، ص٤١٧ .

(١) بروشين : تاريخ ليبيا ، ص ١٢٤ .

(٢) إسماعيل : انهيار حكم الأسرة القرمانلية ، ص ٥١ .

(٣) بروشين : تاريخ ليبيا ، ص ١٢٦ .

(٤) إسماعيل : انهيار حكم الأسرة القرمانلية ، ص ٦٤ .

(٥) فشل علي باشا الجزائري في كسب ودّ الأهالي ، على الرغم من قيامه بتخفيض الضرائب المفروضة عليهم ، وقضائه على اللصوص وقطاع الطرق ، وزاد الأمر سوءاً فشله في الحصول على الأرز من مصر ، فاضطر إلى إطعام جنوده البرغل ، فاحتقره ولقبوه بعلي برغل ، كذلك لم يوفّق علي باشا الجزائري في احتلال جزيرة جربا ، بسبب تدخل والي تونس حمودة باشا الذي أرسل قواته إليها وتمكّن من احتلالها ، ومنها تابع تقدمه باتجاه طرابلس ، وكانت حجتّه في ذلك استجداد الأهالي به لإنقاذهم من ظلم علي برغل ، وإعادة حكم الأسرة القرمانلية ، مما أجبر الأخير على الهروب ، وعاد القرمانليون مجدداً إلى حكم ليبيا. للتفصيل بروشين: تاريخ ليبيا ، ص١٤٥ — ١٤٧ .

بعد عودة القرمانيين إلى ليبيا ، وهروب علي باشا الجزائري تنازل علي باشا لابنه أحمد عن الحكم ، لكنّ ولده الثاني المدعو يوسف ظل متطلعا لمنصب الوالي ، وتمكّن في النهاية من الظفر به ^(١) . أدرك يوسف باشا أنه لن يتمكن من تثبيت سلطته في الولاية ، وقطع الطريق أمام أعدائه ومنافسيه ، إلّا عن طريق حصوله على فرمان من الدولة العثمانية بتعيينه واليا على ليبيا ، لذلك قام بإرسال وفد من أعيان الولاية وزعماء القبائل البدوية إلى استانبول ، وأقنعهم بضرورة تقديم عريضة للسلطان العثماني يعبرون فيها عن رغبتهم بتعيينه واليا على ليبيا ، فأصدر السلطان فرمانا في ذلك ^(٢) . أمّا فيما يتعلق بعلاقته مع الدول الأوروبية ، فقد حافظ على علاقات جيّدة مع فرنسا ، على الرّغم من قيام الأخيرة بإرسال حملة إلى مصر سنة ١٧٩٨م ^(٣) ووقع معها معاهدة سنة ١٨٠٢م ، مما أغضب انكلترا والدولة العثمانية ، وفيما يتعلّق بعلاقته مع جيرانه ، فقد ارتبط يوسف باشا بعلاقة قوية مع حمودة باشا والي تونس الذي كان قد ساعد الأسرة القرمانية في استعادة سيطرتها على ليبيا ، وطرد علي باشا برغل لكنّ هذه العلاقة ما لبثت أن تآزمت بسبب عدم دفع يوسف باشا الأموال المتبقية من تكاليف الحملة التي أعادت الأسرة القرمانية إلى حكم ليبيا ، وتطوّر الموقف وأخذ كلا الطرفين يستعدّ لقتال الآخر ، لكنّ انشغال حمودة باشا بثورة الجنّد الأولى سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م ، وانصراف يوسف باشا إلى معالجة بعض المشاكل الداخلية أوقف الصراع بينهما ، كذلك أقام يوسف باشا علاقات جيدة مع حُكّام الجزائر ، ومع محمد علي والي مصر ، أما علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية فقد اتّسمت بالعداء الكبير ^(٤) .

(١) استغل يوسف باشا خروج أحمد باشا إلى تاجوراء لزيارة بعض الأضرحة ، وكان برفقته بعض أعيان المدينة ، ومنهم يوسف باشا الذي تسلل في منتصف الطريق عائداً إلى طرابلس ، فأغلق الأبواب ، وأعلن الثورة على أخيه الذي أدرك عدم قدرته على المواجهة ، وغادر البلاد إلى مالطا . للتفصيل بروشين : تاريخ ليبيا ، ص ١٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) للتفصيل حول علاقة يوسف باشا بالفرنسيين وموقفه من الحملة الفرنسية يرجى العودة إلى محمد عبد الكريم الوافي : يوسف باشا القرماني والحملة الفرنسية على مصر ، الطبعة الأولى ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ١٩٨٤م .

(٤) بسبب قيام سفنه بمهاجمة السفن الأمريكية في البحر المتوسط حيث طالب يوسف باشا الولايات المتحدة الأمريكية بدفع جزية سنوية ، نظير عدم قيام سفنه بالتعرض للسفن الأمريكية في المتوسط ، فرفض الأمريكيون مطالب الباشا ، وحاول القنصل الأمريكي التفاوض ، لكنّ يوسف باشا رفض ذلك ، وأنزل العلم الأمريكي عن القنصلية ، وطلب من القنصل مغادرة الولاية ، وقامت سفنه بمهاجمة السفن الأمريكية ، فكلّفت الولايات المتحدة الأمريكية بعض قطع الأسطول بحصار الشواطئ الليبية وقصف طرابلس ، لكنّ إحدى السفن الأمريكية وتدعى " فيلادلفيا " جنحت إلى الشاطئ ، وسيطر عليها الليبيون ، وأسروا بحارتها البالغ عددهم حوالي ٣٠٠ بحار ، ورفض الباشا إطلاق سراحهم ، وإعادة السفينة ما لم تنفذ مطالبه ، لذلك لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتّباع أسلوب آخر لإجبار الباشا على الانصياع لمطالبها ، وكلّفت قنصلها السابق في تونس إيتون بهذه العملية ، فقرر إيتون مهاجمة طرابلس من جهة الشرق من مصر ، وأجرى اتصالات مع أحد الطامعين بانتزاع الولاية من يوسف باشا ، ويدهى أحمد باشا ، وتم الاتفاق على أن يرافقه في الحملة المتجهة إلى طرابلس حيث نصّت خطة إيتون على قيام أحمد بمهاجمة درنة من ناحية البر ، بينما تقوم ثلاث قطع من الأسطول الأمريكي بمهاجمتها من البحر ، وبعد السيطرة عليها يتابع أحمد التقدم إلى طرابلس

ساعت أوضاع ليبيا في الفترة الأخيرة من حكم يوسف باشا ، فانتشرت الفتن والاضطرابات نتيجة إعلان القبائل ثورتها ، فأعلن عن رغبته بالتنازل عن الحكم لابنه علي بسبب عدم قدرته على إدارة الأمور لكبر سنّه ومَرْضِيهِ ، فوافقوا على ذلك وأقسموا يمين الولاء لعلي باشا الذي أعلن فور تسلّمه الحكم عن رغبته في توطيد الأمن ، وتطبيق العدالة ، فحاول التفاهم مع الثائرين الذين رفضوا الاستجابة . وسط تلك الفوضى والصراعات ، قررت الدولة العثمانية التدخّل ، لإنهاء حكم الأسرة القرمانلية ، وإعادة الحكم العثمانيّ المباشر في ليبيا^(١)، ومن الأسباب التي دفعتها للقيام بذلك الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م ، وزيادة الأطماع الأوروبية في الولايات التابعة للدولة العثمانية ، ولهذا كلفت مصطفى نجيب باشا بقيادة الأسطول العثمانيّ إلى ليبيا لتسوية الأمور، وإنهاء حكم الأسرة القرمانلية وإدارة الولاية وتوطيد الأمن فيها ، وفور وصوله ألقي القبض على علي باشا ، وجمع أعيان البلاد ووجهائها ، وأخبرهم بالفرمان السلطاني القاضي بعزل علي باشا ، وإعادة السيطرة العثمانية المباشرة على ليبيا^(٢).

سادساً — مرحلة مركزيّة الحكم العثمانيّ وازدياد التدخّل الغربيّ :

عملت الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر على إعادة فرض سيطرتها المباشرة على الولايات الخاضعة للحكم العثمانيّ ، وخاصة بعدما تزايدت حدة الأطماع الأوروبية في السيطرة على الأراضي التابعة لها ، ففي مناطق الشمال الإفريقي خسرت الدولة العثمانية الجزائر التي تمكّنت فرنسا من السيطرة عليها سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م ، كما أن تونس كانت تعاني من أزمة مالية كبيرة نتيجة السياسات الخاطئة التي اتّبعتها حُكّامها من أفراد الأسرة الحسينية ، ممّا جعلها رهينة في يد الدول الأوروبية . أما ليبيا فلم تكن أوضاعها أفضل بكثير من تونس ، فقد كانت تعاني من اضطراب الأمن والفوضى نتيجة الصراع القائم على الحكم بين أفراد الأسرة القرمانلية ، ولذلك قرر رجالات الدولة إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على هذه الولايات ، إلّا أنّ ذلك لم يتحقّق في تونس بسبب تدخّل الدول الأوروبية

بينما يقوم الأسطول الأمريكي الموجود في مالطا بقيادة ليبر بمهاجمة طرابلس من البحر ، وبعد الاستيلاء عليها يسلم حكم المدينة إلى أحمد باشا نظير دفعه مصاريف الحملة ، وعندما نجح في السيطرة على درنة رضخ يوسف باشا للمطالب الأمريكية ، ووقع معاهدة معهم تضمنت عشرين بنداً حصل من خلالها الرعايا الأمريكيين على امتيازات تفوق جميع ما يتمتع به رعايا الدول الأخرى. للتفصيل حول علاقة يوسف باشا بالولايات المتحدة الأمريكية يرجى العودة إلى روسي : ليبيا ، ص ٣٧٩ . بروشين : تاريخ ليبيا ، ص ١٩٥ .

(١) إسماعيل : انهيار حكم الأسرة القرمانلية ، ص ٣٠١ .

(٢) فيرو : الحوليات الليبية ، ص ٦١٩ .

— بروشين : تاريخ ليبيا ، ص ٢٥٧ .

الراغبة بإبعاد العثمانيين عن هذه الولاية بهدف فرض السيطرة الأوربية عليها ، لكن العثمانيين نجحوا في إعادة قبضتهم على طرابلس الغرب ، مستغلين الخلافات الداخلية ضمن الأسرة القرمانيّة ، وطلب الأهالي من السلطات العثمانيّة التدخل لإنقاذهم من حالة الفوضى التي تعيشها الولاية ، ولذلك تم تكليف مصطفى نجيب باشا بمهمة قيادة الأسطول العثمانيّ إلى طرابلس الغرب سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، لإنهاء حكم الأسرة القرمانيّة ، وإعادة السيطرة العثمانيّة المباشرة على هذه الولاية ، ونجح مصطفى نجيب باشا في تحقيق ذلك حيث قبض على علي باشا القرماني ، منهياً بذلك حكم هذه الأسرة لطرابلس الغرب الذي استمر من سنة ١٧١١ إلى ١٨٣٥م.

لم تختلف أوضاع ليبيا في ظل الحكم العثمانيّ المباشر، عمّا كانت عليه الأمور أيام الأسرة القرمانيّة ، فاستمر اضطراب الأمن والفوضى بسبب إعلان عدد من القبائل عصيانها وتمردّها على الدولة . كما شهدت هذه المرحلة ازدياد النفوذ الأوربي في ليبيا ، فتسابقت الدول الأوربية للحصول على الامتيازات في هذه الولاية ، وكان على رأس تلك الدول إيطاليا التي وجهت أنظارها نحو ليبيا بعد فشلها في الظفر بتونس التي حسم الفرنسيون الصراع عليها سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م ، وتمكن الإيطاليون في النهاية من السيطرة عليها سنة ١٣٣٠هـ/١٩١١م ، بعدما نجحوا في إجبار العثمانيين على توقيع صلح أوّشي في لوزان بسويسرا الذي اعترف فيه الأتراك بالسيطرة الإيطالية على ليبيا^(١).

أمّا في منطقة المشرق العربي ، فنجح العثمانيون في إعادة سيطرتهم المباشرة على العراق وبلاد الشام ، فبعد نجاح العثمانيين في القضاء على حكم المماليك في بغداد ، وآل الجليلي في الموصل ، عاد العراق مجدداً إلى السيطرة العثمانيّة المباشرة حيث قامت الدولة بتعيين الولاة الذين عملوا على إخضاع المتمردين للسلطة المركزية ، لكنهم كانوا عاجزين عن الوقوف في وجه القبائل التي امتنعت عن دفع الضرائب ، ورغم محاولة الولاة العثمانيون تطبيق بعض الإصلاحات التي نصّت عليها التنظيمات الخيرية في العراق ، فقد كان تنفيذ تلك الإصلاحات بطيئاً ، فلم يطبق قانون التجنيد العسكري العام في جنوبي العراق حتى سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، كما لم يتم فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية حتى ١٣٦٤هـ/١٨٤٨م ، وجرى في الوقت نفسه إعادة تنظيم جهاز الدولة ، مما أدّى إلى بعض المركزية^(٢). لكن الأمور تحسّنت قليلاً ، وخاصة بعد تعيين مدحت باشا والياً على العراق ، في الوقت الذي كان يشغل فيه قيادة الفيلق السادس ، فأعاد تنظيم البلاد ، وأنشأ داراً لصناعة

(١) للتفصيل حول أوضاع ليبيا في ظل السيطرة العثمانية المباشرة يرجى العودة إلى القسم الثالث من كتاب روسي: ليبيا، ص ٤٢١.

(٢) حسون : العرب والدولة العثمانية ، ص ١٧٦.

السفن في البصرة ، وفصل السلطة القضائية عن الإدارية ، وصدرت في عهده أول جريدة في بغداد ، كما قام بفرض الضرائب على القبائل ، مما دفعها للقيام بانتفاضة ضده سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، إلا أنه تمكن من قمعها ، كذلك قام ببذل جهود كبيرة للمساعدة في عملية توطين القبائل واستيطانها حيث باع أراضي الدولة إلى شيوخ القبائل بأسعار زهيدة تطبيقاً لقانون الأراضي الصادر في سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م^(١) . لكن تلك الإصلاحات ما لبثت أن توقفت نتيجة عزل مدحت باشا^(٢) ، ونقله إلى ولاية أخرى في البلقان ، وقد حاول الولاة الذين جاؤوا بعده إكمال الطريق الذي بدأه مدحت باشا ، لكنهم فشلوا في مساعيهم ، وبقيت إصلاحاته حبراً على ورق^(٣) .

وفي بلاد الشام عادت الدولة العثمانية مجدداً إلى فرض سيطرتها المباشرة على المنطقة، بعد خروج قوات محمد علي من بلاد الشام ، وبالتالي عاد الوضع إلى ما كان عليه قبل الحملة المصرية ، وترافقت تلك العودة مع ازدياد نفوذ الدول الأوربية ، وازدياد أعداد القناصل التابعين لتلك الدول ، والذين اتسعت دائرة نفوذهم لتطال كل نواحي النشاط الحكومي حيث عملوا على التدخل في الشؤون الداخلية لبلاد الشام بهدف إضعاف الحكم العثماني فيها ، وزيادة نفوذ دولهم في المنطقة ، وذلك عن طريق إثارة المشاكل والمتاعب للسلطة العثمانية في بلاد الشام . أما الدولة العثمانية فأدركت خطورة العودة إلى النظام القديم في إدارة بلاد الشام الذي كان قائماً على ترك السلطة في أيدي ولايتها والقوى المحلية الذين كانوا يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون ، ولهذا عمد الباب العالي بعد خروج القوات المصرية إلى اتباع نظام جديد في الحكم يستند إلى أسس الإدارة المركزية الشديدة ، فتم وضع موظفين أترك في جميع المراكز والمناصب الهامة ، لكن هذه الإجراءات لم تحدد من سلطة الزعامات المحلية التي ظلت تشكل عقبة كبيرة أمام رغبة الدولة في فرض سيطرتها المباشرة .

أوجدت التنظيمات التي فرضتها الدولة العثمانية صيغة توافقية بين الدولة والقوى المحلية حيث قلّصت تلك التنظيمات صلاحيات والي العثماني ورجاله من الموظفين الأتراك ، وتركت مجالاً محدوداً للزعامات المحلية لإثبات وجودها في السلطة ، لكن الوجود العسكري العثماني الكبير في المدن شكّل قوة رادعة لتلك الزعامات ، إذا ما حاولت الدخول في صدام مع موظفي الحكومة المركزية . أما في الريف فلم تستطع الدولة العثمانية فرض سيطرتها المباشرة بسبب حاجتها إلى قوات عسكرية ضخمة لإخضاع تلك المناطق النائية والبعيدة ،

(١) طربين : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥٩ .

(٢) للتفصيل عن فترة حكم مدحت باشا للعراق يرجى العودة إلى لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٣٥٨ .

(٣) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ص ١٧٤ .

لذلك لجأت إلى الاعتماد على القوى المحلية لفرض سيطرتها هناك ، وكثيراً ما وقع الصدام بين الدولة وتلك القوى التي امتنعت في أحيان كثيرة عن دفع الضرائب المترتبة عليها ، وتصدت للقوات العثمانية عندما هاجمت مراكزها ، مثلما حدث في مناطق جبال العلويين وجبل العرب^(١).

أمّا البدو فحاولوا استغلال الأوضاع محاولين بسط سيطرتهم ، والحصول على بعض المكاسب من خلال استغلالهم للفراغ السياسي والعسكري الذي خلفه انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام ، فقاموا بمهاجمة المناطق الحضرية ومحاصرتها وفرض الأتاوات عليها ، كذلك عمدوا إلى السيطرة على الطرق التجارية القريبة منهم بقصد فرض الأتاوات والقيام بأعمال النهب والسلب ، ولم تستطع الدولة العثمانية إيقافهم ، على الرغم من محاولتها السيطرة على هذه القبائل عن طريق توطينها واستقرارها.

نتج عن هذا التدخل الأوربي وسوء الإدارة العثمانية في بلاد الشام أزماتٍ عدّة خطيرة كان جبل لبنان وفلسطين مسرحاً لها ، فقد شكّل خروج القوات المصرية من بلاد الشام فراغاً سياسياً كبيراً ، وخاصة في جبل لبنان حيث حاولت من خلاله بعض القوى المحلية الاستفادة منه ، لكن الدولة العثمانية كانت حريصة كل الحرص على فرض سيطرتها المباشرة على جبل لبنان ، أمّا الدول الأوربية فعملت على استغلال هذه الأوضاع بهدف زيادة نفوذها .

بدأت الاضطرابات في جبل لبنان عندما ثارت بعض القوى على الأمير بشير الثالث المعين من قبل الدولة العثمانية مطالبين بإعادة امتيازاتهم وإقطاعاتهم السابقة ، فقامت الدولة العثمانية بإرسال جيش إلى جبل لبنان بقيادة مصطفى باشا سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م ، فقام باعتقال بشير الثالث وأرسله إلى العاصمة العثمانية^(٢) . لكن ما لبثت أن عادت الاضطرابات مجدداً إلى الجبل نتيجة سوء إدارة مصطفى باشا ، فعزلت الدولة العثمانية مصطفى باشا ، وعيّنت مكانه أسعد باشا الذي قام بوضع نظام جديد كان حلاً وسطاً بين وجهتي النظر الفرنسية والعثمانية^(٣).

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ، ٦ أجزاء ، (د.ن) ، دمشق ، ١٩٣٥م ، الجزء الثالث ، ص ٧٧.

(٢) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ص . ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) طالب الفرنسيون بإعادة نظام الإمارة تحت حكم الشهابيين ، لكن هذا الاقتراح تمّت معارضته من قبل الدولة العثمانية بتشجيع من بريطانيا ، أما الدولة العثمانية فكانت رغبة بجعل جبل لبنان خاضعاً لسيطرتها المباشرة ، لكن فرنسا وبريطانيا عارضت هذا الطرح ، وتمّ أخيراً الاتفاق على تقسيم جبل لبنان إلى منطقتين إداريتين الأولى في الشمال يتولى إدارة شؤونها قائم مقام ماروني ، وأخرى في الجنوب يتولى إدارة شؤونها قائم مقام درزي ، على أن تكون الكلمة الفصل في القضايا المهمة للوالي العثماني في صيدا ، وهكذا انتهى حكم الشهابيين ، وتمّ تعيين أسعد باشا والياً على صيدا ، وكلف بتطبيق النظام الجديد ، وقبلت الدول الأوربية بهذا النظام فالبريطانيون وافقوا على هذا التقسيم لأنه أعطى أنصارهم من الدروز لأول مرة منذ القرن السابع عشر حكماً إدارياً

عادت الاضطرابات مجدداً إلى الجبل ، فقامت الدولة العثمانية بعزل أسعد باشا سنة ١٢٦١هـ/١٨٤٥م ، وعينت مكانه محمد وجيهي والياً على صيدا الذي أدت سياساته الخاطئة إلى عودة الفوضى مجدداً ، فقامت الدولة العثمانية بإرسال شكيب أفندي إلى لبنان ، وكلّفته بإدخال بعض التعديلات على نظام القائم مقامتين^(١)، وتمّ إعطاء أوامر لنامق باشا بالسيطرة على بعض المناطق المهمة في جبل لبنان تمهيداً لتنفيذ تلك التعديلات ، وفي ٣٠ تشرين الأول أصدر شكيب أفندي قراراً بتنظيم شؤون القائم مقامتين^(٢).

عادت الأمور إلى سابق عهدها بعد مغادرة شكيب أفندي لبنان ، ومما زاد الأوضاع سوءاً تدخل القناصل الأوروبيين في الصراعات القائمة في الجبل مستفيدين من الانقسامات الحاصلة في صفوف الأطراف المتصارعة ، وتطورت الأحداث بشكل خطير وامتدت شرارتها إلى مناطق أخرى ، ومنها مدينة دمشق ، لكن تدخل العقلاء في هذه المدينة ، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري حال دون وقوع فتنة كبيرة^(٣).

وعلى إثر ذلك التطورات الخطيرة قامت الدولة العثمانية بإرسال جيش كبير إلى لبنان بقيادة محمد فؤاد باشا ، وكلّفته بوضع حدّ لتلك الأحداث والقبض على المساهمين فيها . أمّا الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث ، فعمل على التدخل بسرعة كبيرة في تلك التطورات ، وكانت حجته حماية المسيحيين^(٤)، فأرسل قوة عسكرية إلى لبنان بقيادة " بوفورد دو تبول " مكونة من ستة آلاف جندي ، وفور وصوله إلى بيروت في ٢٦ آب ١٨٦٠م عمل على الاتصال بمحمد فؤاد باشا الذي كان قد أصدر قراراً بإلغاء نظام القائم مقامتين ، وقسم لبنان إلى عدّة مناطق عسكرية ، وقبض على الزعماء المتورطين في تلك الأحداث ، ومن ناحية أخرى قامت الدول الأوروبية بإرسال لجنة إلى بيروت للبحث في أسباب تلك الأحداث وكيفية معالجتها ، وبدأت اللجنة فور وصولها أعمالها بحضور محمد فؤاد باشا بصفته ممثلاً للدولة

وسياسياً شبه مستقل ، كما أن الفرنسيين وافقوا على هذا التقسيم لأنه منح الموارد إمارة شبه مستقلة ، وفي الحقيقة فإن الدول الأوروبية وافقت على هذا التقسيم ليس حرصاً على مصالح الموارد والدروز ، بل لأنها رأت فيه تحقيقاً لمصالحها في زيادة نفوذها . للتفصيل كمال سليمان الصليبي : تاريخ لبنان الحديث ، الطبعة السادسة ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ٩٧ . قسطنطين بازيلي : سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ترجمة طارق معصراني ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٩م ، ص ٣٢١ .

(١) بازيلي : سوريا وفلسطين ، ص ٣٤٨ .

(٢) أبقى هذا التعديل على التقسيم القديم ، وتم إيجاد مجلس إداري إلى جانب كل قائم مقام ، ويُعدّ كلا القائم مقامين موظفين يعينون من قبل والي صيدا من بين الموارد والدروز ، ويحق للوالي عزلهم ، وكان لهذا المجلس مهام قضائية وصلاحيات تتعلّق بجباية الضرائب ، ويتكون من وكيل قائم مقام وقاض ومستشار مارونيين ، وقاض ومستشار أرثوذكسيين ، وقاض ومستشار كاثوليكيين ، وأخيراً مستشار شيعي لأن القاضي السني يقضي بين الطائفتين معاً . للتفصيل عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٣٦٨ .

(٣) حتي : تاريخ لبنان ، ص ٥٣٣ .

(٤) لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ص ١٦٣ .

العثمانية ، وقد عمل خلال المناقشات على الوقوف في وجه المحاولات الفرنسية الهادفة إلى تدعيم نفوذها في سوريا - مدعوماً من البريطانيين - وفي تموز ١٨٦١م أنهت اللجنة أعمالها حيث تم الاتفاق على إيجاد نظام حكم جديد في جبل لبنان ، فأصبح جبل لبنان بموجب هذا النظام صنجقاً عثمانياً يتمتع بالاستقلال الذاتي على أن يكون رأس الإدارة متصرف مسيحي كاثوليكي يتم تعيينه من قبل الباب العالي ، وتم كذلك إيجاد مجلس إداري يساعد المتصرف مؤلف من اثني عشر عضواً يمثلون الطوائف المتواجدة في جبل لبنان حيث ضم أربعة من الموارد ، ثلاثة من الدروز ، اثنان من الأرثوذكس ، واحد عن الروم الكاثوليك ، واحد عن السنة ، واحد عن الشيعة ، وبموجب هذا النظام قُسم جبل لبنان إلى سبع مناطق إدارية بحيث يكون على رأس كل منها قائم مقام يتم تعيينه من قبل المتصرف من الطائفة التي تشكل أغلبية سكانها ^(١).

أمّا فيما يتعلق بالأزمة التي حدثت في فلسطين ، فكان ظاهرها الخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس حول امتلاك مفاتيح الأماكن المقدسة ^(٢)، لكن الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة كانت في التنافس بين الدول الأوروبية على زيادة نفوذها في الدولة العثمانية ^(٣) ، وعندما ظهر الخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس على ملكية مفاتيح الأماكن المقدسة في فلسطين ، حاولت روسيا استغلال تلك القضية لزيادة نفوذها في الدولة العثمانية ، فقامت بإرسال بعثة دبلوماسية إلى الأستانة برئاسة " منشكوف " ، وكلفته بالتفاوض مع السلطان العثماني لحل الخلاف في قضية الأماكن المقدسة لصالح الأرثوذكس ، كما طالبت بعقد إتفاقية مع الدولة العثمانية ، تعلن فيها الأخيرة أن روسيا الحامية الوحيدة لجميع الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية ، وهذا ما رفضته الدولة العثمانية بتشجيع من بريطانيا وفرنسا اللتين أدركتا خطورة هذه المطالب التي تعني زيادة النفوذ الروسي على حسابهما ، خصوصاً أن عدد الأرثوذكس في الدولة العثمانية يبلغ اثني عشر مليوناً ^(٤) ، فأدى الرفض العثماني للمطالب الروسية إلى قيام حرب

(١) عمر: تاريخ المشرق العربي، ص ٣٨٠ .

(٢) فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩١ .

(٣) حاولت روسيا السيطرة على الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في البلقان مستغلة حالة الضعف التي تمر بها تلك الدولة ، وعرضت على الدول الأوروبية مشروعاً لتقسيم " تركة الرجل المريض " متخذة من الدين ذريعة لذلك ، فروسيا كانت بحكم اعتناقها للمذهب الأرثوذكسي تُعدُّ نفسها وريثة للإمبراطورية البيزنطية ، وبالتالي كان قياصرتها يتطلعون للسيطرة على القسطنطينية ، إضافة إلى أطماعها في السيطرة على المضائق " البوسفور و الدردنيل " الذي يحقق هدفها في الوصول إلى البحر المتوسط ، وكان القيصر الروسي نيكولاس الأول طرح في سنة ١٨٥٣م على السفير البريطاني في روسيا مشروعاً لتقسيم الدولة العثمانية ، تأخذ روسيا ، بموجبه المضائق والقسطنطينية ، أما الولايات العثمانية في البلقان فتشكل دولة مستقلة ، مقابل ذلك تأخذ بريطانيا مصر وروندس وقبرص ، لكن بريطانيا رفضت ذلك المشروع . للتفصيل مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الثاني ، ص ١٣٤ .

(٤) طربين : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٤٨ .

كبيرة بين الطرفين عُرفت بحرب القرم (١٨٥٣ م - ١٨٥٦ م) بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وسردينيا من جهة أخرى .

انتهت تلك الحرب إلى هزيمة روسيا وانتصار الحلفاء ، وتمّ توقيع معاهدة باريس سنة ١٨٥٦م ، التي تضمنت عدّة نقاطاً مهمة ، كان من أبرزها : حرية الملاحة في نهر الدانوب ، وتشكيل لجنة دولية للإشراف على ذلك ، وإعلان حياد البحر الأسود ، وكانت هذه المادة كارثة بالنسبة لروسيا ، لأنه أجبر روسيا على سحب سفنها الحربية من هذا البحر ونقلها إلى بحر البلطيق ، واعترفت المعاهدة بالاستقلال الذاتي لكل من ولايتي الأفلاق والبغدان " رومانيا حالياً " ضمن الدولة العثمانية ، وأنّ يتمّ احترام استقلال الدولة العثمانية ، وعدم التدخل في شؤونها الداخلية ، مقابل ذلك يتعهد السلطان العثمانيّ بتحسين أحوال الرعايا المسيحيين في البلقان ، واعترافه بالمساواة التامة بين جميع رعاياه على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ^(١) ، وأعلنت الدولة العثمانية قبولها بمبدأ التحكيم في حالة وقوع خلاف بينها وبين غيرها من الدول كما نصّت المعاهدة على احتفاظ العثمانيين بحق حماية الأراضي الصربية ، ووعدت الدول الكبرى بالعمل على حلّ أيّ خلاف ينشأ بين الصرب والعثمانيين ، وهكذا قضت تلك الحرب على أحلام روسيا بالتوسع في الدولة العثمانية ^(٢).

حاولت الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر القيام ببعض الإصلاحات التي كان من أبرزها صدور خط شريف كلخانة في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١م) في ٤ تشرين الثاني ١٨٣٩م ، والذي نصّ على المساواة التامة بين جميع رعايا الدولة العثمانية على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ^(٣) ، وكذلك خط شريف همايوني الذي صدر في عهد عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٥م) في ١٨ شباط ١٨٦٥م ، والذي تبني جميع المبادئ الواردة في خط شريف كلخانة ، وبلغت حركة الإصلاحات ذروتها بإعلان الدستور في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) في سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م ، وقد ارتبطت هذه الإصلاحات بأسماء الوزراء رشيد باشا ، وعالي باشا ، وفؤاد باشا، ومحدث باشا .

تأثرت الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية بهذه الإصلاحات ، وعلى رأسها بلاد الشام التي شهدت نهضة ثقافية كبيرة نتيجة انتشار المدارس الأهلية الحديثة والمدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية الأجنبية ، وانتشار الطباعة والصحافة ، وكثرة الجمعيات الأدبية

(١) مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الثاني ، ص ١٣٧ .

(٢) للاطلاع على التفاصيل الكاملة لمعاهدة باريس يرجى العودة إلى فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥١٣-٥٢١ .

(٣) طربين : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥١ .

والعلمية^(١) ، وبعد إعلان الدستور جرت انتخابات عامة في أنحاء السلطنة العثمانية لانتخاب أعضاء مجلس النواب "المبعوثان" حيث شارك أهالي الولايات العربية ، ومن بينها بلاد الشام في تلك الانتخابات ، وقام النواب العرب بدور كبير خلال اجتماعات المجلس ومناقشاته ، قبل أن يقوم السلطان عبد الحميد الثاني بتعطيل المجلس في ١٣ كانون الأول ١٨٧٧م^(٢).

أدت سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الاستبدادية إلى إثارة نقمة العرب والأتراك على السواء ، ولذلك عملوا على محاربته والتخلص من سيطرته ، وعندما نجحوا في ذلك وآلت أمور الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي التي أعلنت إعادة العمل بالدستور في ١٠ تموز ١٩٠٨م ، اعتقد العرب بأن أوضاعهم سوف تتحسن في ظل سيطرة جمعية الاتحاد والترقي ، خصوصاً أنهم ساعدوا تلك الجمعية في الوصول إلى السلطة ، فتشكلت الجمعيات السياسية في بلاد الشام والعراق وقامت بنشاطها بشكل علني ، وأخذت تطالب بمنح العرب الاستقلال الذاتي ضمن السيادة العثمانية . لكن السياسة التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي التي قامت على تطبيق المركزية الشديدة في الحكم ، فضلاً عن اتباعها سياسة التتريك ، وحصر الوظائف والمراكز العليا في الدولة والجيش بالأتراك ، مما أدى إلى تخييب آمال العرب وتطلعاتهم ، ولذلك عملوا على محاربة جمعية الاتحاد والترقي عن طريق تشكيل الجمعيات السرية التي كان من أبرزها جمعية بيروت السرية التي اتخذت من بيروت مركزاً لها ، وكان لها فروعاً في دمشق وطرابلس وصيدا^(٣) ، والجمعية القحطانية التي تأسست في استانبول سنة ١٩٠٩م ، والتي هدفت إلى منح العرب الاستقلال الذاتي ، إلا أنها اضطرت إلى إيقاف نشاطها ، بعد أن كشف أمرها ، وتحولت فيما بعد إلى جمعية العهد التي تبنت برنامج الجمعية القحطانية ، واقتصرت عضويتها على العسكريين فقط^(٤) ، والمنتدى الأدبي الذي تأسس في استانبول سنة ١٩٠٩م على أيدي مجموعة من الموظفين والطلاب العرب^(٥) ، وجمعية الفتاة التي تأسست في باريس سنة ١٩١١م ، وكان هدفها النهوض بالأمة العربية ، ونقلت مقر نشاطها إلى بيروت سنة ١٩١٣م ، وهي التي دعت إلى عقد مؤتمر باريس سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م الذي حضره أربعة وعشرون عضواً نصفهم من المسيحيين والنصف

(١) أنطونيوس : يقظة العرب ، ص . ص ٩٧ - ١٢٦ .

(٢) طربين : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٧٦ .

(٣) جلال يحيى : العالم العربي الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، المكتب الجامعي الحديث ، (د.م) ، ٢٠٠١م ، ص ٢٢١ .

(٤) علي محافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٥م ، ص ١٣٩ .

(٥) عبد العزيز الدوري : التكوين التاريخي للأمة العربية ، الطبعة الأولى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م ، ص ١٩٩ .

الآخر من المسلمين ، وقد كان غالبيتهم من السوريين ^(١) ، أمّا العراق فتمثّل بعضوين في حين أرسلت الجالية العربية في الولايات المتحدة ثلاثة أعضاء ، وعقد المؤتمر أربع جلسات رسمية برئاسة عبد الحميد الزهراوي استغرقت ستة أيام ، وطالب المؤتمر بإشراك العرب في الإدارة المركزيّة في استانبول ، كما طالبوا بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية في الولايات العربية ، وقد تظاهر الاتحاديّون بقبول توصيات مؤتمر باريس ، واستمر الصراع بين الجمعيات العربية والاتحاديّين إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى التي أدّت إلى نهاية الوجود العثمانيّ في البلاد العربية ^(٢).

(١) للتفصيل حول الجمعيات العربية يرجى العودة إلى محافظة : الاتجاهات الفكرية ، ص . ص ١٣٥ — ١٤٥ . الدوري : التكوين التاريخي ، ص ١٩٨ .

(٢) رافق : المشرق العربي ، ص . ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

الفصل الثاني

بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن السابع عشر

أولاً - لمحة عن الرحلات المغاربية إلى بلاد الشام قبل العصر العثماني :

لم تنقطع الصلات الحضارية بين المشرق العربي ومغربه منذ أقدم العصور حتى وقتنا الراهن ، بل ازدادت تلك الصلات قوةً ومتانةً بعد انتشار الإسلام ، وقد أدى العامل الديني دوراً كبيراً في استمرارية ارتباط جناحي الوطن العربي ببعضهم البعض ، فاستقطب المشرق العربي ، الرحالة العرب القادمين من المغرب إلى المشرق ، لأداء فريضة الحج ، وزيارة الأماكن المقدسة ، والمزارات الإسلامية الكبرى التي لها قدسيّتها في العالم الإسلامي . ومن ضمن بلاد المشرق حازت بلاد الشام على اهتمام الرحالة المغاربة ، فعلى أرضها أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين ، وهي التي باركها الله تعالى بقوله " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" (١) ، هذا بالإضافة إلى أن بلاد الشام تشكل جزءاً من الطريق إلى الحجاز ، فضلاً عما تحتويه من أماكن مقدسة ومراكز علمية معروفة (٢) . ومن أشهر الرحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشام في العصور الوسطى محمد بن محمد الشريف الإدريسي في القرن الثاني عشر ، وأبو عبد الله محمد العبدري في القرن الثالث عشر ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة ، وأبو البقاء خالد بن عيسى البلوي في القرن الرابع عشر .

يُعدُّ محمد بن محمد الشريف الإدريسي (٤٩٣ - ٥٦٠هـ / ١١٠٠ - ١١٦٦م) صاحب كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " من أكبر الجغرافيين والرحالة العرب (٣) إذ قام

(١) القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، الآية الأولى .

(٢) للإطلاع على بعض الوثائق المتعلقة بالأوقاف المغربية في مدينة القدس والتي تؤكد على عمق ارتباط المغاربة بالمشرق

العربي عموماً والقدس خصوصاً يرجى العودة إلى الملاحق من الأول إلى الخامس ص . ص ٢٦٦ - ٢٧٢ .

(٣) الشريف الإدريسي (٤٩٣ - ٥٦٠هـ / ١١٠٠ - ١١٦٦م) : هو محمد بن محمد الشريف الإدريسي ، ولد في الأندلس في سبته سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠م ، ودرس في قرطبة ، وزار بلداناً كثيرة في الأندلس ، والمغرب ، والبرتغال كما زار مصر ، وكذلك عرف سواحل أوروبا الغربية من فرنسا وإنكلترا والقسطنطينية ، وآسيا الصغرى التي زارها ولم يكن عمره يتجاوز السادسة عشرة وفي سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م عبر البحر قاصداً بلاط ملك صقلية روجر الثاني الذي طلب منه أن يؤلف كتاباً في جغرافيا العالم ، كما كلفه بوضع خريطة لما هو معروف من البلدان والأقطار في ذلك العهد ، وبعد وفاة الملك روجر خلفه غليوم الأول ، وظل الإدريسي محافظاً على مركزه في البلاط النورماندي ، وقام بتكليف من الملك غليوم بتأليف كتاباً آخر في الجغرافيا سماه (روض الأئس ونزهة النفس) أو (كتاب الممالك والمسالك) ، لم يعرف منه إلا خلاصات موجودة في إحدى المكتبات في اسطنبول ، كما صنع الإدريسي للملك النورماندي كرة من الفضة منقوش عليها صورة للأرض ، وفي أواخر أيامه قام الإدريسي بمغادرة صقلية عائداً إلى بلدته سبته حيث توفي فيها سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٦م . للتفصيل حول حياة الإدريسي يرجى العودة إلى أغناطيوس

برحلة طويلة زار فيها عدة مناطق ، ومنها بلاد الشام التي أفرد صفحات عديدة من كتابه للحديث عنها ، فوصف مدينة القدس " وبيت المقدس مدينة جليلة ، قديمة البناء أزلية ، وكانت تسمى إيلياء ، وهي على جبل يُصعدُ إليها من كلِّ جانب ، وهي في ذاتها طويلة ، وطولها من المغرب إلى المشرق ، وفي طرفها الغربي باب المحراب ، وهذا الباب عليه قبة داوود عليه السلام ، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون ، ومن جهة الشمال يسمى باب عمود الغراب " (١) ، ووصف الإدريسي كنيسة القيامة بقوله (٢) " وإذا دخل الداخل من باب المحراب يسير نحو الشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى المعروفة بكنيسة القيامة وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها وهي من عجائب الدنيا ولها باب من جهة الشمال يُنزلُ منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة ، ويسمى هذا الباب " شنة مرية " ، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة ، وعليها قبة معقودة ، قد أُنقن بنيانها وحُصنَ تشييدها وأبدع تنميقها " .

وتحدّث الإدريسي عن المسجد الأقصى مقارناً إياه بمسجد قرطبة ومسجد قبة الصخرة الذي وصفه بشكل تفصيلي " في وسط هذا المسجد قبة عظيمة تعرف بقبة الصخرة ، وهذه القبة مرصعة بالفص المذهب وسطها الصخرة المسماة بالواقعة ، وهو حجر مربع كالدرقة في وسط هذه القبة وطول هذه الصخرة مقارب لعرضها ولهذه القبة أربعة أبواب " (٣) ، أما مدينة الخليل فذكر الإدريسي إنها " قرية ممدنة ، وبمسجدها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهذه المدينة في وهدة بين جبال كثيفة الأشجار أعني شجر الزيتون والتين والجميز وفواكه كثيرة " (٤) .

وعندما وصل الإدريسي إلى مدينة دمشق وصفها بأنها " من أجمل بلاد الشام ، وأحسنها مكاناً ، وأعدلها هواء ، وأطيبها ثرى ، وأكثرها مياهاً وأعزرها فواكه ، وأعمقها خصباً ، وأوفرها مالاً ، وأكثرها جنداً ، وأشمخها بناءً ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة وبها ضياع كالمدن مثل المزّة وداريا وبرزة وحرسة وكفرسوسية ومياه الغوطة الجارية بها

كراتشوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان ، جزآن ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، الجزء الأول ، ص . ٢٨٠ — ٢٩٤ . زكي : الرحالة المسلمون ، ص . ٥٤ — ٥٦ .

(١) الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مجلدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، (د.ت) ، المجلد الأول ، ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٣ .

تخرج من عين الفيحة ، وهذه العين في أعلى جبل ، وتتصب ماؤها من أعلى هذا الجبل كالنهر العظيم " (١) ، ووصف الجامع الأموي بأنه " المسجد الجامع الذي ليس على الأرض مثله بناءً ، ولا أحسن منه صفة ولا أتقن منه إحكاماً ، ولا أوثق منه عقداً ، ولا أغرب منه رسماً ، ولا أبدع منه تلميعاً بأنواع الفصص المذهب والآجر المحكوك والمرمر المصقول " (٢) .
أمّا مدينة حمص فوصفها الإدريسي بأنها " مدينة حسنة في مستو من الأرض ، وهي عامرة بالناس والمسافرين يقصدونها بالأمّعة والبضائع من كل فن وهواؤها أعدل هواء يكون بمدن الشام وطرقها مفروشة بالحجر الصلب وزراعتها مباركة كثيرة وبها مسجد جامع كبير من أكبر جوامع الشام " (٣) .

كما زار الرحالة المغربي أبو عبد الله محمد العبدري (٤) بلاد الشام سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م ، بعد الشريف الإدريسي ووصف بعض المدن التي زارها في فلسطين مثل مدينة الخليل " وهي قرية مليحة المنظر ، أنيقة المسموع والمبصر ، مشرقاً كالصباح إذا أسفر " (٥) ، أما مسجدها فهو " بنية أنيقة ، من المباني القديمة الوثيقة ، عالية البناء ، محكمة العمل من صخور منحوتة في نهاية العظم وفي داخل المسجد قبر الخليل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، وتقابلها من ناحية يسار القبلة ثلاثة أخرى هي قبور أزواجهم ، وكان في غربي المسجد قبر يوسف عليه السلام " (٦) .

وزار العبدري مدينة القدس التي وصفها بقوله " والبلد مدينة كبيرة ، منيعة محكمة كلّها من صخر منحوت وسورها مهديم والخراب فيها فاش ، وليس بها نهر ولا بستان وبها كنيسة معظمة عند النصارى يحجونها في كلّ عام ، وهي التي يزعمون أنّ فيها قبر عيسى عليه السلام وفي شرقي البلد وادٍ يُعرف بوادي جهنم في بطنه كنيسة

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٤ .

(٤) أبو عبد الله محمد العبدري (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) : هو محمد بن علي العبدري نسبة إلى جدّه الأعلى عبد الدار بن قصي القرشي . أصله من بلنسية . لا توجد معلومات دقيقة عن مسيرة حياة هذا الرجل ، وقد سافر من مدينة الصويرة الواقعة على ساحل المغرب الأقصى لتأدية فريضة الحج سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م حيث سلك الطريق البري ، وبعد أدائه فريضة الحج أقام في فلسطين بعض الوقت ، ثم عاد إلى موطنه ماراً بالإسكندرية وتلمسان وفاس ، وقد دَوّن أخبار رحلته أثناء إقامته في تلمسان . للتفصيل كراتشوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، الجزء الأول ، ص . ص ٣٦٧ - ٣٦٩ . أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص . ص ٣٤٧ - ٣٥٣ . زكي : الرحالة المسلمون ، ص . ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٥) أبو عبد الله محمد العبدري : رحلة العبدري ، تحقيق وتقديم علي إبراهيم كردي ، الطبعة الأولى ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ص ٤٥٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٥٧ .

يعظمها النصارى ، ويقال : إن بها قبر مريم عليها السلام ^(١) ، وأشار العبدري إلى المسجد الأقصى " وأما المسجد المقدس فهو من المساجد الرائقة ، العجيبة ، المنشرحة الفسيحة ، وهو متسع جداً طولاً وعرضاً والمسجد كله فضاء غير مسقف إلا الناحية الغربية ، فهناك مسجد مسقف في نهاية الإحكام ، وإتقان العمل " ^(٢) ، أما قبة الصخرة فهي " من أعجب المباني الموضوعة في الأرض وأتقنها ، وأغربها ، قد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة ، وتلت من الإتقان ظاهره ونصه " ^(٣) ، وقلما رأى العبدري مثل مدينة عسقلان التي جمعت الكثير من المحاسن " صنعا وإتقانا ووضعاً ومكاناً ، وبراً وبحراً ، وعامراً وقفراً ، لها على البر والبحر طرف ممتد ، وحكم لا يرتد " ^(٤) . أما غزة فهي " مدينة متسعة عامرة ، لا سور لها ، وبينها وبين البحر مسافة أميال وهي جسر إلى مصر ، وإلى الشام ، وبها أسواق قائمة ، ومساجد معمورة ، ولها جامع مليح حسن " ^(٥) .

ومن الرحالة المغاربة الذين استقطبتهم بلاد الشام أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة الذي فاقت شهرته جميع الرحالة العرب ، ويُعدُّ كتابه " تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " من أهم وأشهر كتب الرحلات في العالم ^(٦) ، وقد تجول ابن بطوطة كثيراً في بلاد الشام واصفاً المدن من نواحي العمران والسكان والعادات والتقاليد والأوضاع الاقتصادية والثقافية ، فوصف مدينة الخليل ومسجدها بأنها " مدينة صغيرة المساحة ، كبيرة القدر ، مشرقة الأنوار مسجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامي الارتفاع ، مبنى بالصخر المنحوت ، في أحد أركانها

(١) العبدري : رحلة العبدري ، ص ٤٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٧٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٧٧ .

(٦) ابن بطوطة (٧٠٣ - ٧٧٦ هـ / ١٣٠٤ - ١٣٧٥ م) : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ، ينتسب إلى قبيلة (لواته) . ولد سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ، وعاش في كنف أسرة معروفة باهتماماتها العلمية وتلقى محمد علوم الدين والفقه واللغة وحفظ القرآن حتى بلغ سن العشرين ، فأراد القيام بالحج ، فخرج من موطنه سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وقد استمرت رحلاته وأسفاره مدة ثمانية وعشرين عاماً حيث قام بثلاث رحلات ، ففي الأولى طاف أنحاء المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا ومصر وبلاد الشام والحجاز والعراق وإيران وبلاد الأناضول واليمن والخليج العربي والقسطنطينية وخوارزم وخراسان وبخارى وكابل والهند والصين ، أما الرحلة الثانية فقادته إلى بلاد الأندلس ، وكانت رحلته الثالثة إلى أفريقيا ، وقد تولى كتابة أخبار رحلات ابن بطوطة ابن جزي الكلبي كاتب السلطان المريني ، وأطلق ابن بطوطة على رحلته " تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " . للتفصيل كراتشوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، الجزء الأول ، ص ٤٢١ - ٤٣٣ . فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الدراسات العربية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م ، ص ٤٨٨ - ٤٩٥ . زكي : الرحالة المسلمون ، ص ١١٠ - ١٤٠ .

صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شيراً^(١) ، أمّا مدينة عكا فكانت " خراب ، وكانت عكا قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ومرسى سفنهم وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام " (٢) ، ومدينة صور " ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لأن البحر محيط بها من ثلاث جهات ، ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر " (٣) ، ومدينة بيروت " مدينة صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ، ويُجلب منها إلى ديار مصر الفواكه " (٤) .

ومدينة طرابلس " إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام يكتنفها البحر بمراقفه العميقة والبر بخيراته المقيمة " (٥) ، ومدينة أنطاكية " مدينة عظيمة أصيلة عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام وأنطاكية كثيرة العمران ، ودورها حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه ، وبخارجها نهر العاصي " (٦) ، ومدينة اللاذقية " مدينة عتيقة على ساحل البحر وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص ، وهو أعظم دير بالشام ومصر ، ويسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين والنصارى يضيفونه وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحطّ له السلسلة ، وهي من أحسن المراسي بالشام " (٧) ، ومدينة بعلبك " حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تخترق أراضيها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية وبها يصنع الدبس المنسوب إليها ، وهو نوع من المربي يصنعونه من العنب ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الإحرام وغيره " (٨) ، كما أفرد ابن بطوطة صفحات كثيرة للحديث عن مدينة دمشق والجامع الأموي وأئمة والمدّرسين والمعلّمين به ، وعن قضاة دمشق وعن المدارس الموجودة في هذه المدينة " (٩) .

كما زار بلاد الشام من الرحالة المغاربة القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي^(١٠) زار مدن عدة في فلسطين في سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م مثل غزة التي وصفها بقوله " بلد من

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، شرحه وكتبه هوامشه طلال حرب ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٧) المصدر السابق ، ص . ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٩) المصدر السابق ، ص . ص ١٠٤ — ١٢٦ .

(١٠) البلوي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته — ٧٦٥هـ / ١٣٦٤م) : هو القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي ، غادر موطنه ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م لتأدية فريضة الحج وزيارة بعض البلدان الإسلامية ، فمرّ في تونس والإسكندرية والقاهرة ، أقام مدة من الزمن

أحسن تلك البلدان ، فسيحة الساحة ، مستطيّلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، ما شئت من منظر عجيب ، وجانب رحيب ، وبسيط خصيب ، وساحل قريب ، ومكان مؤنس لكل غريب " (١) ، وأعجب البلوي بالمسجد الموجود في تلك المدينة عند زيارته له " دخلت المسجد الأعظم ، فرأيت من حُسْنِه عجباً ، ومن بنيانه ما شئت فضاة " (٢) . كما كان البلوي مُعْجَباً بمدينة القدس التي قال عنها " بلدة الأفق المنير ونجمه مدينة واسعة الرقعة ، طيبة ، سامية الارتفاع ، مشرفة البقاع ، مباركة الأغوار والتلاع تشهد لسكانها بالثراء والشفاء ، قد أخذت من كل المحاسن نصيباً " (٣) ، وأثناء وجوده في القدس زار كلاً من المسجد الأقصى الذي وصفه بقوله " ثم قصدت الحرم الشريف ، والمسجد العظيم المنيف ، الذي بارك الله حوله ، وعرفت كل أمة فضله وهذا المسجد الشريف هو أعظم مساجد الدنيا ، طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعة وخمسون ذراعاً وأبوابه خمسون باباً ، يطيف به سور سعتة ثلاث خطوات " (٤) ، وقُبَّة الصخرة التي وصفها قائلاً " وهي مصنوعة من قبة مَثْمَنَة الحائط والأركان من داخلها وخارجها مستوية السقف ، أعلاها ذهب مضروب في صنائع عجيبة وجوانبها كلّها من داخلها مُلَبَّسة بألواح المنثور " (٥) .

من خلال ما تقدّم نجد أن بلاد الشام قد حظيت باهتمام كبير من جانب الرحالة المغاربة الذين زاروها في العصور الوسطى ، حيث تجولوا في رحاب أهمّ مدنها ، ومعالمها الدينية ، ومن هؤلاء كان كلاً من الإدريسي والعبدي وابن بطوطة والبلوي الذين كانوا مقدّمة لرحالة آخرين زاروا بلاد الشام في العصور اللاحقة ، وتركوا لنا مدونات عن رحلاتهم مثل المقرئ والعياشي والمكناسي والزياني والسنوسي وغيرهم .

ثانياً – أبو العباس أحمد المقرئ (٩٨٦ – ١٠٤١هـ / ١٥٧٨ – ١٦٣٢م) :

أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ واحد من أعلام الفكر العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، سطع نجمه في أنحاء متعددة ، وذاع صيته من أقصى المغرب العربي إلى أقصى المشرق العربي ، وعُرف في مناطق كثيرة كتلمسان وفاس ومصر

في القدس ، قبل أن يصاحب قافلة الحج الشامي إلى الديار المقدسة ، ودَوَّن أخبار رحلته في كتاب سماه " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق " . للتفصيل زكي : الرحالة المسلمون ، ص ١٠٩ .

(١) خالد بن عيسى البلوي : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، جزاءن ، صندوق الإحياء الإسلامي ، الرباط ، ١٩٨٠م ، الجزء الأول ، ص ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

والحجاز وبلاد الشام ، وأقرَّ معاصروه من العلماء والفقهاء والأدباء بمكانته وعلمه . برع المقري في علوم الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب ، وخلف العديد من المؤلفات التي تشهد له بغزارة العلم وتنوُّع المعارف .

١- المولد والنشأة :

تشير العديد من المصادر والمراجع إلى أنَّ نسب المقري يرجع إلى أسرة عربية من قبيلة قريش ، وفدت إلى الجزائر ، واستقرت في منطقة تُدعى مَقَرَّة — بفتح الميم وتشديد القاف وفتحها وفتح الراء — ثم انتقلت إلى مدينة تلمسان التي تعدُّ من أكبر المدن الجزائرية في أواخر القرن السادس الهجري ، وقد اشتهرت أسرة المقري إلى جانب انتمائها إلى قبيلة قريش ومكانتها العلمية بمزاولة التجارة ، وخاصة ذرية جدهم عبد الرحمن حيث حققوا أرباحاً كبيرة^(١).

وُلِدَ شهابُ الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري التلمساني سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م^(٢) ، وفيما يتعلَّق بلقب المقري أبو العباس ، فهي كنية شرفية حظي بها المقري حيث لم تذكر المصادر أنه خلف ولداً حمل ذلك الاسم ، أما المقري فنسبة إلى بلدة مَقَرَّة موطن أسرته القديم ، وهي بلدة في نواحي قسنطينة^(٣) وإليها ينتسب عدد كبير من علماء المغرب^(٤) . أمَّا التلمساني فهي نسبة إلى مسقط رأسه تلمسان . تربى المقري في كنف أسرة مشهورة بتعلُّقها بالعلم والمعرفة ، فجده أبو عبد الله محمد المقري كان قاضي فاس في عهد السلطان أبي عنان المريني ، وتلمذ على يده عددٌ كبير من مشاهير العلم والأدب والتاريخ الذين تولَّوا عدة مناصب سياسية عالية كالوزير لسان الدين ابن الخطيب^(٥) ، والمؤرخ الشهير ابن خلدون^(٦) ، أمَّا عمه سعيد المقري — الذي يُعدُّ

(١) محمد عبد الغني حسن : المقري صاحب نفح الطيب ، (د.ن) ، (د.م) ، (د.ت) ، ص ١٤ .

— محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ومكتباتها ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ ، ص . ص ٣١٠ — ٣٠٠ .

(٢) عبد الواحد عبد السلام شعيب : مقدمة كتاب " نفح الطيب " مرآة لثقافة مؤلفه الموسوعية ، مجلة التاريخ العربي ، الرباط ، العدد ٢٠ ، ٢٠٠١م .

(٣) قسنطينة : مدينة قديمة بناها الرومان ، وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية ، وأسواق هذه المدينة حسنة التنسيق بحيث أنَّ جميع الحرف فيها مفصولة بعضها عن بعض . للتفصيل ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر ، جزاءن ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م ، الجزء الثاني ، ص . ص ٥٥ — ٦٠ .

(٤) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٣٧٤ .

(٥) لسان الدين ابن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦هـ / ١٣١٣ — ١٣٧٤م) : هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي الأندلسي ، أبو عبد الله الشهير بلسان الدين ابن الخطيب كان وزيراً ومؤرخاً وأديباً مشهوراً ، ولد ونشأ في غرناطة . استوزره أبو

شيخ أبو العباس ومربيّه — فتبوا منصب قاضي تلمسان لمدة سنتين ، وخطيب مسجدها الكبير أكثر من أربعين سنة ، كما كان على صلات وثيقة بعلماء فاس ومشايخها ، وهو الذي نصح أبو العباس بالتوجه إلى فاس ، لأخذ العلم عن شيوخها وعلمائها ، كما كان عمه سعيد يروم بالإضافة إلى ذلك أن يتبوا ابن أخيه مكاناً في مجلس السلطان أحمد المنصور الذهبي (٩٨٥-١٠١١هـ/١٥٧٧-١٦٠٢م)^(٢) — الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ليس في المغرب فقط بل حتى في أوروبا — مثل المكانة التي حصلها جده محمد المقرّي في مجلس السلطان أبي عنان الذي اصطحبه معه من تلمسان إلى فاس حين بُيع بالعرش ، وولاه منصب قاضي فاس، كما جعله من خاصته الذين يستشيرهم في أمور دولته^(٣).

أدت مدينة تلمسان دوراً مؤثراً في نبوغ المقرّي ، فهذه المدينة كانت عاصمةً للدولة الزيانية لقرون عدّة ، قبل سيطرة العثمانيين على المنطقة المشهورة برصيدها الثقافي الكبير ، نظراً لكثرة علمائها ، وتنوّع علومها ومعارفها ، وانتشار المكتبات والمدارس فيها بكثرة^(٤)، لكنّ دور هذه المدينة ومكانتها تراجعت في الفترة التي ولد فيها المقرّي حيث كان قد مرّ على دخولها في حوزة الدولة العثمانية ثلاثة عقود ، ممّا أفقدها أهميّتها العلمية والسياسية ، بسبب سوء معاملة الأتراك لأهلها ، وكذلك الحروب والفتن الداخلية التي كانت قد عرفتتها الدولة

الحجاج يوسف بن إسماعيل ، ثم ابنه الغني بالله محمد من بعده ، فعظمت مكانته وعندما شعر بازدياد الحساد من حوله ، كتب إلى السلطان عبد العزيز ابن علي المريني للدخول في خدمته ، فوافق السلطان عبد العزيز ، فترك لسان الدين الأندلس ، ولكن بعد موت السلطان عبد العزيز وحلول ابنه السعيد بالله مكانه قام بإعادة لسان الدين إلى صاحب غرناطة حيث تمّ اتّهامه بالزندقة ، وأفتى بعض الفقهاء بقتله ، لكنّه زج به في السجن ، ثم ما لبث أن مات مخنوقاً في سجنه ، وكان يلقب بذي الوزارتين ، له من المؤلفات حوالي الستين ، من أشهرها الإحاطة في تاريخ ملوك غرناطة . خير الدين الزركلي : **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء** ، ٨ أجزاء ، الطبعة السادسة عشرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ٢٠٠٥م ، الجزء السادس ، ص ٢٣٥ .

(١) عبد الرحمن ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ / ١٣٣٢-١٤٠٦م) : هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، مولده ونشأته في تونس ، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ، تولى أعمالاً عديدة واعترضته دسائس ووشايات كثيرة ، فعاد إلى تونس ثم قرر التوجه إلى القاهرة ، وولّي فيها قضاء المالكية ، توفي في القاهرة ، ومن أشهر مؤلفاته العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر . الزركلي : **الأعلام** ، الجزء الثالث ، ص ٣٣٠ .

(٢) أحمد المنصور الذهبي (٩٨٥-١٥٧٨هـ / ١٥٧٨-١٦٠٣م) : هو أحمد بن محمد بن الشيخ المهدي بن محمد القائم بأمر الله الزيداني الحسني السعدي ، ولد بفاس في سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م ، وبُيع في ساحة معركة وادي المخازن في سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٨م ، يُمثل عهده الذي دام حوالي الستة والعشرين سنة عصر القوة والازدهار للدولة السعدية . للتفصيل يرجى العودة إلى أبو العباس خالد الناصري : **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تحقيق وتعليق أحمد الناصري ، أشرف على النشر محمد حجي وإبراهيم بوطالب وأحمد توفيق ، ٨ أجزاء ، منشورات وزارة الثقافة والاتصال ، الدار البيضاء ، ٢٠٠١م ، الجزء الخامس ، ص. ٩٣ - ٢٠٩ .

(٣) أبو العباس أحمد المقرّي التلمساني : روضة الآس العاطرة الأتفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس ، الطبعة الثانية ، (د.ن) ، (د.ت) ، ١٩٨٣م ، المقدمة ص ٥٠ .

(٤) عبد القادر شرشار : **كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس المقرّي** ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد ٩٨ ، السنة الخامسة والعشرون ، حزيران ٢٠٠٥م ، ص . ص ١٨٨-١٨٩ .

الزيانية في أواخر أيامها ، وعلاقتها بالإسبان في وهران ، وضغط بني وطاس ، ثم السعديين عليها من المغرب الأقصى والعثمانيين من الشرق ، كل ذلك دفع الكثير من علمائها وأدبائها وأشرفها إلى الرحيل عنها شرقاً وغرباً ، ولذلك اكتفى المقري بأخذ العلم والمعرفة عمّن بقي من العلماء والفقهاء فيها ، وخاصة عمّه سعيد ^(١) . وعندما أصبح المقري في عمر الثالثة والعشرين ، قرّر مغادرة تلمسان متّجهاً إلى مدينة فاس التي دخلها في صفر سنة ١٠٠٩هـ / ١٦٠١م ، وأمضى فيها الكثير من الوقت في تحصيل العلم على يد عدد كبير من شيوخها ، ثم عاد إلى تلمسان ، فمكث فيها سنتين ما بين سنتي (١٠١٠ - ١٠١٣هـ / ١٦٠٢ - ١٦٠٤م) ^(٢) ، ثم غادرها مجدداً إلى فاس سنة ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م ، حيث تابع تحصيله ، فدرس الحديث الشريف والأدب والتاريخ ، والتقى بعدد كبير من العلماء والفقهاء ، واستمر على هذا المنوال إلى أن جاء إلى المدينة الفقيه إبراهيم بن محمد الآيسي أحد كبار قادة السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي التقى بالمقري وأعجب به ، فقرّر اصطحابه معه إلى مراكش وتقديمه للسلطان أحمد المنصور الذهبي ^(٣) ، حيث التقى هناك بعدد كبير من العلماء ، ومن أبرزهم ابن القاضي وأحمد بابا التتبتكي صاحب نيل الابتهاج ^(٤) .

بقي المقريّ مدّة من الزمن في المغرب متنقلاً بين فاس ومراكش حيث عايش خلال تلك الفترة أحداثاً سياسية بارزة في تاريخ المغرب ، كان من أهمّها وأشهرها أزمة العرائش ، التي حدثت بعد موت السلطان أحمد المنصور الذهبي حيث دخلت البلاد في مرحلة من الفوضى والصراع بين أبنائه الثلاثة أبو عبد الله محمد الشيخ المأمون ، وأبو فارس عبد الله الوائق ، وزيدان الناصر للظفر بالعرش ، وكان الأخير يتمتع بثقة الأهالي ومحبتهم في الوقت الذي تراجعت فيه سمعة أخيه المأمون ، ممّا أجبره على الانتقال إلى العرائش ، ومنها إلى القصر الكبير حيث قرر طلب المساعدة من الإسبان للحصول على العرش ، مقابل التنازل لهم عن العرائش ، ولم يسمح له الأسبان بالعودة إلى المغرب ، إلا بعد أن ترك أولاده رهينة عندهم ، وعندما علم الناس بتصرف المأمون ازداد الكره له ، فلجأ لتخفيف النقمة ضدّه إلى استصدار فتوى من الفقهاء والعلماء تجيز له فداء أولاده مقابل التنازل عن العرائش ، الأمر الذي أوقع الفقهاء في إرباك شديد ، فانقسموا إلى ثلاثة طوائف بين مؤيد للمأمون خوفاً من بطشه ،

(١) أبو العباس أحمد المقريّ التلمساني : رحلة المقري إلى المغرب والمشرق ، تحقيق محمد بن معمر ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر ، الجزائر ، ٢٠٠٤م ، ص ٥ .

(٢) عنان : تراجم إسلامية ، ص ٣٧٥ .

(٣) المقريّ التلمساني : روضة الآس ، المقدمة ص . يا .

(٤) أبو العباس أحمد المقريّ التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ٨ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٨م ، المجلد الأول ، ص ٦ .

ومعارضاً له ، وبين من قرَّرَ الاختفاء عن الأنظار تفادياً من الحرج الذي سوف يقعون فيه في حال قيامهم بالبت في هذا الأمر وكان المقرّي من بينهم ^(١) .

بعد مرور ثلاث سنوات على انقضاء تلك الأزمة تمّ تعيين المقرّي خطيباً لجامع القرويين بعد وفاة الشيخ محمد الهواري ، وذلك سنة ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م ، ومما زاد في علو مكانة المقرّي أنّه استطاع الجمع بين الفتوى والخطابة والإمامة في جامع القرويين ، وهي وظائف يندر اجتماعها في يد شخص واحد ، إلّا في حالة كان ذلك الشخص يتمتع بقدرات علمية وفقهية كبيرة ^(٢) ، وبقي المقرّي في تلك المناصب حوالي أربعة عشر سنة إلى أن قرَّرَ مغادرة المغرب بعد أن شعر بأنّ الأمور لا تسير على ما يُرام بسبب كثرة الفوضى والاضطرابات في البلاد متوجّهاً نحو الحجاز بقصد الحج تاركاً زوجته وابنته ومكتبته ، فمرّ بكل من تلمسان ومدينة الجزائر سنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م التي استقرّ فيها مدّة من الزمن حيث اتصل بعلمائها ، وعلى رأسهم سعيد قدورة ، وشرع في التدريس وخصوصاً التفسير ، ثم سافر من الجزائر إلى تونس براً ، ومنها إلى مصر بحراً ، ومن مصر إلى جدّة بحراً ، فأدّى العمرة سنة ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م ، ثم أدّى فريضة الحج في السنة التالية ليعود بعدها إلى مصر سنة ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م ، ويتزوج بها من سيّدة من أسرة الوفائيين ^(٣) ، وظل المقرّي يتنقل بين مصر والحجاز وبيت المقدس ودمشق ، وحج حوالي خمس مرات ، وسافر إلى القدس مرات عدّة ، وذهب إلى الشام مرتين ، واستمر على ذلك اثنتي عشرة سنة إلى أن وافته المنية سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م ، وهو في مصر يستعد للعودة إلى دمشق .

٢- مؤلفاته :

ترك المقرّي عدداً كبيراً من المؤلفات بلغت حوالي ثمانية وعشرين مؤلفاً ، لم تقتصر على علم محدّد ، بل شملت علوماً عدّة كالأدب والفقه والتراجم والتاريخ ، وقد ألّف المقرّي معظم كتبه عندما كان في المشرق حيث ألّف العدد الأكبر من كتبه الدينية في الحجاز ، بينما ألّف الكتب المتعلقة بالأدب والتاريخ أثناء تواجده في القاهرة ودمشق ، وقد تمّ نشرُ كتبٍ عدّة

(١) المقرّي التلمساني : رحلة المقرّي ، ص ٦.

(٢) فورار المحدث بن لخصر : المقرّي التلمساني ودمشق في كتاباته ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد ١١٠ ، السنة الثامنة والعشرون ، حزيران ٢٠٠٨م ، ص ٢٠-٢١.

(٣) هي أسرة عريقة ترجع إلى السيد محمد وفاء الشاذلي الملقب بأبي الفضل وأبي الفتح وهو وإن كان من مواليد الإسكندرية ، فإن أصله مغربي ، اتبع طريق أبي الحسن الشاذلي ، ونظم الشعر الصوفي على طريقة ابن الفارض ، وقد تزوج في صعيد مصر وكان له عدة أتباع ومريدون ، ثم انتقل إلى القاهرة وسكن الروضة على شاطئ النيل ، واشتهر كثيراً بين الناس ، فأقبل عليه الأعيان والوجهاء . للتفصيل المقرّي التلمساني : روضة الآس ، المقدمة ص ١٠ .

للمقريّ ، إلاّ أنّ معظمها ما يزال مخطوطاً ، وفيما يأتي أسماء مصنفات المقريّ ، كما وردت في مقدمة كتاب نفح الطيب :

١- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** : يُعدُّ هذا الكتاب أشهر كتب المقريّ على الإطلاق حيث طُبِعَ أول مرة في سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م في مطبعة بولاق ، وأعيد طباعته مرّة أخرى في مطبعة الأزهرية سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، وتأتي شهرة الكتاب من خلال كونه أوّل كتاب يتناول الحديث عن تاريخ الأندلس بشيء من التفصيل ^(١) ، وقد ذكر المقريّ أنّ سبب تأليفه يعود إلى إلحاح وضغط عدد كبير من أعيان الشّام وعلمائها ، وقد قسّم المقريّ كتابه إلى قسمين الأول كان للحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها وفنّح العرب لها ووَصَفَ مدينة قرطبة وجامعها وقصورها وذكر الوافدين إليها من المشرق . أمّا القسم الثاني فخصّصه للحديث عن الوزير لسان الدين ابن الخطيب.

٢- **أزهار الرياض في أخبار عياض** : وضع المقريّ هذا المخطوط أثناء إقامته في فاس بين سنتي (١٠١٣ - ١٠٢٧هـ / ١٦٠٤ - ١٦١٨) ^(٢) ، أي قبل قدومه إلى المشرق ، وذكر أنّ سبب تأليفه يعود إلى تلبية طلب عدد من أهل مدينته تلمسان تأليف كتاب يتحدّث عن تاريخ عالم المغرب ومحدثه وقاضيه الإمام عياض بن موسى بن عياض صاحب كتاب " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " .

٣- **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من نقيته من أعلام مراكش وفاس** : وفيه ترجمةٌ لعددٍ كبير من علماء مراكش وفاس حيث ألفه المقريّ لكي يقدمه إلى السلطان أحمد المنصور الذهبي ^(٣).

٤- **فتح المتعال في مدح النعال** : وضع المقريّ هذا الكتاب في القاهرة بسبب ما تم من تبادل الأحاديث مع بعض الفقهاء في موضوع النعل النبوية ، وما قيل فيه من الأمداح المنشورة والمنظومة .

(١) حسن : المقري صاحب نفح الطيب ، ص ١٧٤ .

(٢) أبو العباس أحمد المقريّ التلمساني : أزهار الرياض في أخبار عياض ، ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شبلي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩م ، ص المقدمة ص .د.

(٣) المقريّ التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ١١ .

٥- إتحاف المغرم المغربي بتكميل شرح الصغرى : بدأ في تأليفه في المغرب ، ثم أكمله في الإسكندرية ، وتحدث فيه عن علم الكلام ، وما زال الكتاب مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة خطية في خزانة جامع الزيتونة ، وكذلك نسختان في الخزانة الملكية في الرباط ^(١).

٦- إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة : وهو منظومة بدأ بتأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة ١٠٢٧هـ/١٦١٨م ، وأتمها في القاهرة سنة ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م.

٧- حسن الثنا في العفو عمن جنى : جمع فيه الآيات والأحاديث والآثار الواردة في طلب العفو عن المذنب ، وطُبع في مصر على الحجر بدون تاريخ في سبع وأربعين صفحة ^(٢).

٨- إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة : وقد أشار إليه المقرئ في كتابه نفح الطيب.

٩- رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق : يتناول هذا الكتاب حياة المقرئ الشخصية في تلمسان والمغرب الأقصى ومصر والحجاز وبلاد الشام ^(٣).

أما المؤلفات الأخرى للمقرئ والتي ما تزال مخطوطة نذكر منها : أزهار الكمامة في شرف العمامة ، إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس ، النفحات العنبرية في نعل خير البرية ، نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الحالي الوسط ، سبحان من قسم الحظوظ . وفيما يتعلق بالكتب التي تم التعرف على أسمائها من خلال كتب بعض من ترجم للمقرئ كالمحبي نذكر منها : الغث السمين والثرث الثمين ، قطف المهتصر في شرح المختصر، البلدة والنشأة ، عُرف النشق في أخبار دمشق ، شرح مقدمة ابن خلدون ، القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية ، النمط الأكمل في ذكر المستقبل ، أرجوزة في الإمامة ، نظم في علم الجدول ، حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي ، الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين ، الجمان في أخبار الزمان ، كذلك ورد اسم كل من كتاب الشفاء في بديع الاكتفاء ، الأصفياء في رسالة بعث بها أحمد بن شاهين إلى المقرئ ^(٤).

(١) حسن : المقرئ صاحب نفح الطيب ، ص ١٨١.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٣) شرشار ، كتاب الرحلة ، ص ١٩٠ .

(٤) حسن : المقرئ صاحب نفح الطيب ، ص . ص ١٨٢- ١٨٣ .

من خلال ما تقدّم نستنتج أنّ المقرّي كان على قدرٍ كبيرٍ من العلم والمعرفة ، ويدلّ التنوع الكبير في مؤلفاته على مقدرة علمية وفكرية كبيرة ، كما أنّ نشاطه العلمي توزّع على أقطار المغرب والمشرق العربي سواء أكان تحصيلاً للعلم أم تدريساً أم تأليفاً ، ممّا جعله من أشهر أعلام القرن السادس عشر والسابع عشر ممن اشتغلوا في التدريس والتأليف ليس في المغرب العربي فحسب ، بل في المشرق كذلك سطع اسمه عالياً في تلمسان وفاس ومراكش والحجاز ومصر وبلاد الشام .

٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه المقرّي^(١):

قرّر المقرّي في أواخر رمضان سنة ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م مغادرة فاس إلى المشرق بقصد الحج تاركاً أهله وأصدقاءه وجميع المناصب التي كان يشغلها ، وقد تعدّدت الآراء في الأسباب التي دفعت المقرّي لهذا القرار ، ولكنّها في مجملها تتفق على أنّها دوافع سياسية ، وهي أنّ سلطان المغرب الغالب بالله عبد الله بن المأمون هو الذي أجبر المقرّي على مغادرة المدينة ، وأنّه خرج متخفياً ، وهذا الكلام يتطابق مع ما أورده المقرّي رحلته من أنّه استأذن ملك المغرب صاحب فاس ، وهو الغالب بالله عبد الله بن المأمون في السماح له بالرحيل ، وقد أذن له في ذلك وحمله رسالة إلى سلطان الحجاز شريف مكة يخبره عن قدوم المقرّي إليه ، ويبلغه فيها عن مكانة هذا الرجل وقدره ، ويطلب منه مساعدته^(٢).

كانت مدينة الجزائر أولى المحطات في رحلة المقرّي إلى المشرق حيث أخبرنا المقرّي عن لقائه بعدد من أعيان هذه المدينة ، وقد عبّر المقرّي عن إعجابه بمدينة الجزائر وعلمائها قائلاً^(٣) :

جزائر الغرب لا تطرفك أحزانُ يا بهجة الجهر طابت منك أزمانُ
وزادك الله يا أرضَ الجهادِ علّى فكمّ علّا فيك إسلامٌ و إيمانُ
وصانك الله من كيّدِ العدى وعدا للنصرِ والعزّ في معنّاك إيمانُ

غادر المقرّي مدينة الجزائر قاصداً مدينة تونس عن طريق البحر حيث ركب إحدى السفن الكبيرة المتجهة إلى مدينة تونس التي التقى فيها بالشيخ أبي عبد الله محمد تاج العارفين أبي بكر العثماني التونسي إمام وخطيب جامع الزيتونة الذي طلب إجازة من المقرّي ، فأجازه

(١) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه المقرّي في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٣.

(٢) المقرّي التلمساني : رحلة المقرّي ، ص ١٠.

(٣) شرشار: كتاب الرحلة ، ص ١٩٣.

صاحبنا بقصيدة تجاوزت الأربعين بيتاً ، فقام الشيخ تاج العارفين بتقديم هدية إلى المقريّ قبل سفر الأخير إلى مصر عن طريق البحر حيث ركب المقريّ سفينة متجهة إلى الإسكندرية من سوسة ، وقد صور لنا المقريّ الأحوال والمخاطر التي تعرضت لها سفينته في صورة أدبية ممتعة ، خاصّة وصفه للأمواج العالية والرياح القوية التي تعرضت لها السفينة " فكم استقبلتنا أمواجه بوجوهٍ بَوَاسِرٍ ، وطارت إلينا من شرّاعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الرياح من وكرها فلم تبق شيئاً من قوّتها ومكرها ، فسمعنا للجمال صفيراً ، وللرياح دويّاً عظيماً وزفيراً وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيّاً الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه ، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح ، فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساعت الظنون ، وتراءت في صدرها المنون ونحن قعود ، كدودٍ على عود ، ما بين فرادى وأزواج ، وقد نَبَتُ بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الغرق ألسنتنا وتوهمنا أنّه ليس في الوجود ، أغور ولا نجود ، إلا السماء والماء وذلك السّفين ، ومن في قبر جوفه دفين " (١).

كما أشار المقريّ إلى الخوف الذي ساد على السفينة من الخطر الذي كان يتعرّضُ له المسلمون في البحر المتوسط المتمثّل بالقراصنة الأوربيين ، خاصّة أهل مالطا الذين كانوا يطاردون المراكب التابعة للمسلمين في البحر المتوسط " مع ترقّب هجوم العدوّ، في الرواح والغدو، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله سبحانه من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب ولاسيما مالطا الملعونة فقد اعترضت في لهوات البحر الشامي شجا ، وقلّ من ركبه فأفلت من كيدها ونجا فزادنا ذلك الحذر " (٢) ، لتصل سفينة المقريّ أخيراً إلى الإسكندرية بعد رحلة طويلة عانى فيها المقريّ ومن كان معه كثيراً ، قبل نزولهم على البرّ، وقد عبر المقريّ عن الفرح الذي ملأ قلوب من كان على السفينة عند وصولهم إلى البرّ "فراينا البر وكأنا لم نراه من قبل ، وشفيت به أعيننا من المرّة وحصل بعد الشدّة الفرج فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب ، يقلّ شكراً لها صوم الأحقاب وعتق الرقاب " (٣).

أقام المقريّ في الإسكندرية أياماً عدّة ، ثم تابع طريقه إلى القاهرة التي كان يطلق عليها "مصر المحروسة " حيث دخلها في شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٨هـ ، فأقام فيها مدة شهر

(١) المقريّ التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤.

ثم قرر متابعة طريقه إلى الحجاز للقيام بالحج في أواخر سنة ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م ^(١) ، سالكاً الطريق البحري عبر السويس إلى جدة ، فأدى العمرة ، وبقي في الحجاز في انتظار بدء موسم الحج ، وعند حلوله قام بتأدية الفريضة ، ثم عاد إلى القاهرة في محرم بداية سنة ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م ثم قام بزيارة بيت المقدس في شهر ربيع الأول من السنة نفسها ^(٢) .

عمل المقرئ أثناء إقامته في القاهرة على زيارة الحرمين الشريفين وبيت المقدس ودمشق مراتٍ عدّة ، ووفقاً لما أورده الدكتور محمد بن معمر الذي قام بتحقيق كتاب رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق يكون المقرئ قد حج إلى مكة المكرمة خمس مرات ، كما زار المدينة المنورة سبع مرات ، وهو العدد الذي ذكره في الرسالة التي وجهها إلى محمد الدلائي والمؤرخة في أواخر ربيع الأول سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م ، فكان حجه إلى مكة في سنوات " ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م ، ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م ، ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م ، ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م ، ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م " ، أما زيارته للمدينة المنورة فكانت في السنوات نفسها باستثناء سنتين من السنين المذكورة سابقاً حيث زار المقرئ المدينة قبل بدء موسم الحج وبعد انقضائه ، كما زار المقرئ القدس ثلاث مرات الأولى كانت في سنة ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م ، والثانية في سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م ، والثالثة في سنة ١٠٤٠هـ أو ١٠٤١هـ / ١٦٣١ أو ١٦٣٢م ، طبقاً لما ورد في رسالته إلى محمد الدلائي ^(٣) .

٤- بلاد الشام في رحلة المقرئ :

ينبغي علينا قبل الشروع في دراسة ما سجله المقرئ عن أحوال بعض المدن التي زارها في بلاد الشام — وهي القدس ودمشق — الإشارة إلى ملاحظة مهمة ، وهي أنّ ما دونه المقرئ في رحلته يختلف اختلافاً جذرياً عما هو شائع في أدب الرحلات ، فرحلته لم تكن مجرد مشاهدات سياحية ، كما فعل معظم الرحالة السابقين واللاحقين له ، حيث أنّ المقرئ لم يهتم كثيراً بوصف ما شاهده من مظاهر العمران في المدن التي زارها في المشرق كالمساجد والمزارات والمكتبات ، كما أنّه لم يتعرّض للنواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إلّا ما ندر ، فكان جُلّ اهتمامه منصباً على النواحي العلمية من إلقاء الدروس في الجوامع والمساجد الكبيرة كالمسجد الأقصى والجامع الأموي ، ولقاء كبار العلماء في المدن التي زارها .

(١) عنان : تراجم إسلامية ، ص ٣٧٦ .

(٢) محمد أمين المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء ، (د.ن) ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، الجزء الأول ، ص ٣٠٤ .

(٣) المقرئ التلمساني : رحلة المقرئ ، ص ١٢ .

أ - القدس في كتابات المقرئ :

زار المقرئ مدينة القدس ثلاث مرات ، فكانت زيارته الأولى في شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ / شباط ١٦٢٠م ، بعد أدائه فريضة الحج حيث عاد إلى القاهرة ، فمكث فيها بعض الوقت ، ثم توجه إلى القدس ، وقد أشار المقرئ إلى صعوبة الطريق إلى القدس قائلاً "وتذكرتُ عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة ، قول حافظ الحفّاظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى - وهو ممّا زادني في هذه الزيارة رغبة :

إلى بيت المقدس جئتُ أرجو جنان الخلد نزلًا من كرم
قَطَعْنَا في مسافتيهِ عقابًا وما بعدَ العقابِ سوى النعيم^(١)

بعد وصول المقرئ إلى القدس قام بزيارة المسجد الأقصى^(٢) الذي قال فيه " فلما دخلتُ المسجد الأقصى ، وأبصرتُ بدائعهُ التي لا تُستقصى ، بهرني جماله الذي تجلّى الله به عليه ، وسألتُ عن محل المعراج الشريف فأرشدتُ إليه ، وشاهدتُ محلاً أمّ فيه صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام الهداة " ^(٣).

كانت زيارة المقرئ الثانية إلى القدس في سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م حيث أمضى فيها خمسة وعشرين يوماً ، ألقى خلالها الدروس في المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، كما زار مقام الخليل عليه السلام وعدداً من المزارات الأخرى الموجودة في القدس والتي لم يذكر منها سوى مزار النبي موسى عليه السلام " ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم ، على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين والأنبياء أفضل الصلاة والتسليم " ^(٤). كرر المقرئ مرة ثالثة زيارته إلى القدس ، وكانت تلك الزيارة - كما ذكر محمد بن معمر - سنة ١٠٤٠هـ أو سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١ أو ١٦٣٢م ، كما يستنتج من الرسالة التي بعث بها المقرئ إلى محمد الدلائي^(٥) ، مع الإشارة إلى أن المقرئ لم يذكُر أيّة معلوماتٍ أو تفاصيلٍ عن تلك الزيارة.

(١) المقرئ التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٥٤.

(٢) المسجد الأقصى : كان اسم المسجد الأقصى يطلق قديماً على الحرم القدسي الشريف كله ، وما فيه من منشآت أهمها بالطبع قبة الصخرة الشريفة التي بناها عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ / ٦٩١م والتي تعد من أعظم الآثار الإسلامية في العصور كلها ، أمّا اليوم فإن اسم المسجد الأقصى يطلق على المسجد الكبير الكائن جنوبي ساحة الحرم . الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، مجلدات ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٠م ، المجلد الثاني ، ص ٩٠.

(٣) المقرئ التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٥٥.

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٨.

(٥) المقرئ التلمساني : رحلة المقرئ ، ص ١٢.

ب - دمشق في كتابات المقرئ :

زار المقرئ مدينة دمشق مرتين الأولى كانت في شهر شعبان سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م والثانية كانت في سنتي ١٠٤٠هـ و ١٠٤١هـ / ١٦٣١ أو ١٦٣٢م ، وذلك طبقاً لما ورد في كتاب رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق يكون المقرئ قد حل في دمشق في زيارته الثانية في ١٦ رمضان سنة ١٠٤٠هـ / ١٧ نيسان ١٦٣١م ، وظل مقيماً في المدينة حتى محرم سنة ١٠٤١هـ / آب ١٦٣١م تاريخ خروجه منها ، وعودته إلى القاهرة ، قبل أن توافيه المنية في شهر جمادى الثانية من السنة نفسها .

لم يذكر المقرئ الأسباب التي دفعته لزيارة دمشق ، لكنه أشار إلى لقائه بمفتي هذه المدينة الشيخ عبد الرحمن بن شيخ الإسلام عماد الدين في مكة المكرمة الذي يمكن أن يكون قد دعاه إلى زيارة دمشق ، كما أن المقرئ كان قد سمع الكثير عن فضائل هذه المدينة وكرم أهلها ، فقرر الوفود إليها " وكنت قبل رحلتي إليها والوفادة عليها ، كثيراً ما أسمع عن أهلها زاد الله في ارتقائهم ، ما يشوقني إلى رؤيتها ولقائهم ، ويُشقني على البعد أريج الأدب الفائق من تلقائهم ، حتى لقيت بمكة المعظمة أحد كبرائها مفتي السلطان في تلك الأوطان ، على مذهب الإمام النعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن بن شيخ الإسلام عماد الدين ، لا زال سالكا سبيل المهتدين ، فكان جمل الله به عصراً وأواناً ، لقضية هذا القياس عنواناً " (١).

دخل المقرئ مدينة دمشق في منتصف شهر شعبان سنة ١٠٣٧هـ / نيسان ١٦٢٨م ، فسُحرَ بجمال هذه المدينة وبخطتها وحدائقها ومدارسها ومناخها ، وعبر عن ذلك بقوله "دمشق الشام ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام ، والأرواح المتنوعة ، والأرواح المتضوعة ، حيث المشاهد المكرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء ، والحديقة ، والمكارم التي يُباري فيها المرء شأنه وصديقه ، والأطلال الوريقة والأفنان الوريقة ، والزهر الذي تخاله مبسماً والندى ريقه " (٢) ، وقد ذكر المقرئ في مدح هذه المدينة حوالي الثلاثمئة بيت من الشعر في مقدمة كتابه نفح الطيب ، هذا فضلاً عما ورد في كتابه الآخر رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق (٣) ، ومن جملة ما قاله في التغني بهذه المدينة :

محاسن الشام أجلى من أن تُسامَ بحدٍّ

(١) المقرئ التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٣) بن لخضر : المقرئ التلمساني ، ص ٢٨ .

لولا حمى الشَّراع قُلْنَا ولم نقف عند حدّ

كأنَّها معجزاتٌ مقرونةٌ بالتحدي^(١)

عندما حلَّ المقرِّي في دمشق أراد النزول في موضع يكون قريباً من الجامع الأموي ،
فأنزله أحمد بن شاهين بالمدرسة الجقمقية الواقعة بالقرب من الجامع الأموي ، وقد ذكر
المحبي^(٢) " لما دخل المقرِّي إلى المدرسة أعجبه ، فنقل أسبابه إليها واستوطنها مدة إقامته "
وأشار المقرِّي إلى أنه كان ينوي الإقامة في دمشق مدّة ثلاثة أيام ، إلّا أنّه وبسبب ما وجده
في هذه المدينة من طيب الإقامة وكرم أهلها ، أقام فيها شهراً كاملاً :

نزلنا بها ننوي المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهراً^(٣)

أوردَ المقرِّي الكثير من الأشعار في وصف جمال مدينة دمشق ، ومن جملة ما ذكره فيها:

تزيّد على مرّ الزمانِ طلاوةً دمشقُ التي راقت بحلوّ المشاربِ

لها في أقاليمِ البلادِ مشارقٌ منزّهةٌ أقمارُها عن مغاربِ

وجدتُ بها ما يملأ العينَ قُرّةً ويُسلي عن الأوطانِ كلّ غريبٍ^(٤)

حازت دمشق على إعجاب المقرِّي بطبيعتها الخلابة وعمران بيوتها التي ذُهلَ بمراها ،
فعبّر عن ذلك بقوله^(٥) " فلهّ مرآها الجميل الجليل ، وبيوتها التي لم تخرج عن عروضِ
الخليل ومنظرها الذي ينقلبُ البصرُ عن بهجته وهو كليلٌ " ، حتى أنّ قبورَ دمشق شبَّها
المقرِّي بالقصور :

مقابرُ الشّامِ أحسنُ من قصورِ الغيرِ^(٦)

حظيَ الجامع الأموي بإعجاب المقرِّي وتقديره لمكانته الدينيّة والعلمية ، فأشار إلى الأهميّة
العلمية التي يمتنعُ بها هذا الجامع الذي يجتمع فيه أهمّ العلماء والفقهاء لإلقاء الدروس

(١) المقرِّي التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٥٩ .

(٢) المحبي : خلاصة الأثر ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥ .

(٣) المقرِّي التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٥٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٦) المقرِّي التلمساني : رحلة المقرِّي ، ص ٣١ .

والمحاضرات ^(١) ، وقد واطب رَحَّلتنا على إلقاء الدروس في الجامع الأموي تحت قُبَّةِ النسر بعد صلاة الصبح كما ذكر المحبِّي في كتابه خلاصة الأثر ^(٢) .

وبالمُجْمَلُ تغنَّى المقرِّي بجمال مدينة دمشق من خلال عددٍ كبيرٍ من القصائد والأبيات الشعرية — والتي لا مجال لذكرها جميعها — حتى أنَّ المقرِّي نفسه عبَّرَ عن ذلك ، عندما أشار إلى أنَّ البليغَ يعجزُ عن وصفِ محاسن هذه المدينة مهما أجادَ واجتهدَ:

وَإِذَا وَصَفْتَ مُحَاسِنَ الدُّنْيَا فَلَا تَبْدَأُ بِغَيْرِ دِمَشْقَ فِيهَا أَوْ لَا

بَلَدٌ إِذَا أُرْسِلْتَ طَرَفَكَ نَحْوَهُ لَمْ تَلَقْ إِلَّا جَنَّةً أَوْ جَدُولًا

ذَا وَصَفَ بَعْضَ صِفَاتِهِ وَهِيَ الَّتِي تُعَيِّ الْبَلِيغَ وَإِنْ أَجَادَ وَطَوَّلَا ^(٣)

خَصَّ المقرِّي أهلَ دمشق بكثيرٍ من المدح ، بسبب ما لقيه من استقبالٍ حار أثناء إقامته بينهم حيث أشار إلى ذلك بقوله " فلما حللتُ بدارهم ، ورأيت ما أذهلني من سَبَقهم للفضل وِبِدَارهم ، وَصَدَّقَ الْخُبْرُ الْخُبَرَ وقابلوني أسماهم الله بالاحتفال والاحتفاء ، وعرفني بديعِ برهم فنَّ الاكتفاء " ^(٤).

لقد جاءت كتابات المقرِّي عن بلاد الشام مقتضبةً ومختصرةً ، كما غلب عليها الطابع الأدبي ، فعلى الرَّغم من زيارته لأهم المساجد والجوامع في بلاد الشَّام كالمسجد الأقصى وقبَّة الصخرة والجامع الأموي ، فلم يذكر أيَّ تفاصيلٍ عن النواحي العمرانية لتلك المعالم الدينيَّة ، كذلك فإنَّ المقرِّي لم يُشيرْ بشكلٍ مفصَّلٍ إلى المناطق التي مرَّ بها خلال زيارته المتكررة إلى القدس ودمشق ، باستثناء ذكره لقرية الصالحية ^(٥) في دمشق ، ومدينة غزة ^(٦) التي حلَّ فيها سنة ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م ، وكان ذلك مع بداية فصل الربيع ^(٧) ، وقرية

(١) المقرِّي التلمساني : رحلة المقرِّي ، ص ٣٦.

(٢) المحبِّي : خلاصة الأثر ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥.

(٣) المقرِّي التلمساني : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٦١.

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٣.

(٥) المقرِّي التلمساني : رحلة المقرِّي ، ص ٣٦.

(٦) غزة : بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتح هـ ، وهي مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر وبينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل ، وقد أطلق عليها الفُرسُ اسم "هزاتو" والعبرانيون اسم غزة وسماها العرب غزة هاشم نسبة إلى مناف جد الرسول (ص) الذي مات فيها وهو راجع بتجارته إلى الحجاز . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م ، المجلد الأول ، ص. ص ٢٠٢ — ٢٠٣.

— الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الثالث ، ص ٣٨٩.

(٧) المقرِّي التلمساني : رحلة المقرِّي ، ص ١٣٩.

دارياً^(١) التي صحبه إليها بعضُ أعيانِ مدينة دمشق ، لوداعه بعد انتهاء زيارته لدمشق ، كما افتقرتُ كتابات المقرئ إلى ذكرِ أيةِ تفاصيلٍ سياسية واقتصادية سوى ذكرِهِ لإحدى الروايات التي تتحدثُ عن وَلَعِ السلطان المملوكي قانصوه الغوري بِغرسِ الأشجار " وفي شعبان سنة ٩١٢هـ وصل إلى قانصوه الغوري في دمشق صناديقُ خشبٍ نحو مائة وخمسين حملاً فيها أشجارٌ بطينها ما بين تُفّاح شاميّ ، وكُمثري ، وسفرجل ، وكروم عنب ، وأشجارٍ مزهرة ، ما بين وردٍ أبيض ، وزنبق ، وسوسان ، وغير ذلك قد أُحضِرَ إليه ، من شجرة جوز هندٍ بطينها والقرنفل ، فغرسَ ذلك كله في الميدان الذي تحت القلعة ، وكان أنشأ به مناظر وبركاً ومكاناً للمحاكمات ، وكان مُولعاً بِغرسِ الأشجار وحُبُّ رؤيةِ الأزهار سامحه الله^(٢).

أمّا من النواحي الاجتماعية والثقافية ، فقد أشار المقرئ إلى بعض الجوانب ككرم أهل دمشق وحُسْنِ استقبالهم له . أمّا فيما يتعلّق بالناحية الثقافية والعلمية — التي حظيت باهتمام رحّالتنا — فقد وجد المقرئ في دمشق ضالّته المنشودة في الجلسات الأدبية والشعرية التي تبادل فيها الأشعار مع أعلام العلماء وكبار الأدباء والفقهاء ، فكان حريصاً أثناء إقامته في دمشق على لقاء أعلامها المعروف عنهم تعلّقهم بالعلم ، والذين بدروهم سعوا إلى الاجتماع بالمقرئ صاحب الصيّت الكبير حيث تبادل معهم الإجازات وكان من بينهم عبد الرحمن العمادي^(٣) ، وأحمد ابن شاهين^(٤) ، ومحمد الكريمي^(٥) ، وعمر القارئ^(٦) ويحيى بن

(١) دارياً : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ص ٤٣١ .

(٢) المقرئ التلمساني : رحلة المقرئ ، ص ١٦٢ .

(٣) عبد الرحمن العمادي (٩٧٨-١٠٥١هـ / ١٥٧٠-١٦٤١م) : هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عماد الدين العمادي الحنبلي ، ولد في مدينة دمشق سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م ، تتلمذ على يد الحسن البوريني وابن الفار والبغدادي وغيرهم ، تولى منصب الإفتاء في مدينة دمشق ، كما ألّف كتباً عدّة من بينها الروضة الريا فيمن دفن بدارياً ، وتحرير التأويل ، والمستطاع من الزاد ، توفي سنة ١٠٥١هـ / ١٦٤١م ، المحبّي : خلاصة الأثر ، الجزء الثاني ، ص ٣٨٠ — ٣٨٩ .

(٤) أحمد بن شاهين (٩٩٥-١٠٥٣هـ / ١٥٨٧-١٦٤٣م) : هو أحمد بن شاهين القبرصي الأصل الدمشقي المولد ، لأن أصل والده من جزيرة قبرص حيث اشتراه أحد الأمراء ، وتبناه وأصبح من أبناء دمشق ، ولد أحمد سنة ٩٩٥هـ / ١٥٨٧م ، وتتلمذ على يد عبد الرحمن العمادي ، وعمر القارئ ، والحسن البوريني ، وانضم إلى سلك الجندية ، وعندما وقع الصدام بين علي باشا جنبلط والعساكر الشامية أسر أحمد بن شاهين ، ولكن أطلق سراحه فيما بعد ، كان أحمد شاعراً وأديباً مشهوراً ، ألقى الدروس في المدرسة الجقمقية ، وعندما حلّ المقرئ في دمشق أنزله في تلك المدرسة ، وهو الذي اقترح عليه تأليف كتاب نفح الطيب ، توفي في شهر شوال سنة ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م . المحبّي : خلاصة الأثر ، الجزء الأول ، ص ٢١٠ — ٢١٧ .

(٥) محمد الكريمي (١٠٠٨-١٠٦٨هـ / ١٥٩٩-١٦٥٨م) : هو محمد بن يوسف الكريمي الدمشقي ، ولد سنة ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م ، وتتلمذ على يد الشيخ فضل الله بن عيسى ، وعمر القارئ ، وعبد الرحمن العمادي ، كان يتقن بالإضافة إلى العربية الفارسية والتركية ، وكان ينظم الشعر باللغات الثلاث ، تسلم قضاء الركب الشامي سنة ١٠٣٤هـ / ١٦٢٥م ، سافر كثيراً إلى بلاد الروم ، توفي في سنة ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م ، المحبّي : خلاصة الأثر ، الجزء الرابع ، ص ٢٧٣ — ٢٨٠ .

(٦) عمر القارئ (٩٥٨-١٠٤٦هـ / ١٥٥١-١٦٣٦م) : هو عمر بن محمد بن أحمد أحد كبار علماء دمشق ، ولد في ١٣ ذو القعدة سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م ، وتتلمذ على يد عدد من الشيوخ من بينهم العماد الحنفي ، وأبي الفداء إسماعيل النابلسي ، ومحمد النوري ،

المحاسني الدمشقي^(١)، ومحمد بن سعد الكلشني^(٢)، وإبراهيم الأكرمي^(٣)، ومحمد الحريري^(٤)، والأمير منجك اليوسفي الدمشقي^(٥) وغيرهم، كما التقى المقرئ أثناء عودته من دمشق إلى القاهرة بالشيخ الغصين في غزة، وقد ذكر العياشي في كتابه الرحلة العياشية بأن الشيخ عبد القادر الغصين أخبره أن المقرئ عندما حلّ في غزة نزل في دار والده، وأشار إلى أن المقرئ أراد الذهاب إلى المسجد للتدريس فيه، ولكن دار الغصين كانت بعيدة عن المسجد، لذلك عرض على الغصين الذهاب معه إلى أمير غزة من أجل السماح له ببناء بيت صغير في فناء المسجد لإلقاء الدروس، وعند اجتماعهم بالأمير حدّثه المقرئ عن فضل بناء المدارس والمساجد والإحسان إلى أهل العلم، فأعجب الأمير بكلام المقرئ، وعبر عن ذلك بقوله "مثله لا يلق له البناء في المسجد ولكن هنا موضع نحسبه عليك"^(٦).

توفي في جمادى الأولى سنة ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م، ودفن بمقبرة بباب الصغير. المحبّي: خلاصة الأثر، الجزء الثالث، ص ٢٢٣ - ٢٢٥.

(١) يحيى بن المحاسني الدمشقي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م): هو يحيى بن أبي الصفا بن أحمد المعروف بابن محاسن الدمشقي الحنفي، كان من أشهر أدباء دمشق، تتلمذ على يد عبد الرحمن العمادي، ويوسف الفتحى، وعندما حلّ أبو العباس أحمد المقرئ في مدينة دمشق، ظل يحيى ملازماً له، توفي وهو في ريعان الشباب سنة ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م. المحبّي: خلاصة الأثر، الجزء الرابع، ص ٤٦٣.

(٢) محمد بن سعد الكلشني (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م): هو محمد بن سعد الكلشني، نزيل دمشق، كان من أبناء الصوفيّة وله محاضرات وأخبار عجيبة، توفي في دمشق سنة ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م. المحبّي: خلاصة الأثر، الجزء الثالث، ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

(٣) إبراهيم الأكرمي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م): هو إبراهيم بن محمد الصالحي الدمشقي المعروف بالأكرمي، تتلمذ على يد أبي المعالي الطالوي، وعبد الحق الحجازي، توفي في شهر شعبان سنة ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م، ودفن في سفح قاسيون. المحبّي: خلاصة الأثر، الجزء الأول، ص ٣٩ - ٤٢.

(٤) محمد الحريري (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م): هو محمد بن علي بن أحمد المعروف بالحريري لأنه كان يصنع بدمشق القماش المتخذ من الحرير، كما عُرف بالحرفوشي نسبة لآل حروفش أمراء بعلبك، تتلمذ على يد العمادي الذي كان يجله ويشهد بفضل، برع الحريري بال نحو والأدب والشعر، له عدة تصانيف منها شرح الأجرومية، وشرح التهذيب، ونهج النجاة فيما اختلف فيه من النحاة، وشرح الزبدة وغيرها الكثير، توفي في بلاد العجم في سنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م. المحبّي: خلاصة الأثر، الجزء الرابع، ص ٤٩ - ٥٤.

(٥) الأمير منجك اليوسفي الدمشقي (١٠٠٧-١٠٨٠هـ/١٥٩٨-١٦٦٩م): هو الأمير منجك بن محمد بن منجك بن أبي البكر بن عبد القادر بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن منجك الكبير اليوسفي الدمشقي، ولد سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م، وتتلمذ على يد الشيخ عبد الرحمن العمادي، وأحمد الوفاي، وأبي العباس المقرئ، له ديوان شعر، توفي سنة ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م. المحبّي: خلاصة الأثر، الجزء الرابع، ص ٤٠٩ - ٤٢٣.

(٦) عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (١٦٦١ - ١٦٦٣)، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، جزءان، الطبعة الأولى، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦، الجزء الثاني، ص ٤٠٩.

ثالثاً - عبد الله بن محمد العياشي (١٠٣٧-١٠٩٠هـ/١٦٢٨ - ١٦٧٩م) " الرحلة العياشية " :

على الرغم من الشهرة الكبيرة التي حظي بها عبد الله بن محمد العياشي ، وخاصة من خلال كتابه الرحلة العياشية " ماء الموائد " التي وصفها ابن سودة بأنها " أعظم رحلات أهل المغرب العلمية " (١) ، فإن المصادر وكُتُبَ التراجم ، لم تسجل الكثير من التفاصيل عن حياة هذا الرجل الذي ينتسب إلى قبيلة آيت عياش القاطنة في نواحي سبلماسة جنوبي غربي المغرب (٢).

١- المولد والنشأة :

ولد عبد الله بن محمد بن أبي بكر المكنى أبو سالم (٣) في شهر شعبان سنة ١٠٣٧هـ / ٤ أيار سنة ١٦٢٨م (٤) ، وتلقى علومه على يد أشهر الأساتذة والمشايخ المغاربة المعروفين في ذلك العهد ، وكان من أبرزهم والده محمد بن أبي بكر العياشي وعبد القادر الفاسي وأبو بكر يوسف الكتاني (٥) ، قبل أن يقرر القيام برحلته المعروفة إلى المشرق بهدف الحج ، وزيارة الأماكن المقدسة والتدريس في المدينة المنورة ، والالتقاء بالعلماء ورجال الدين المعروفين في البلدان الإسلامية التي مرّ بها في طريقه إلى البقاع المقدسة .

شارك العياشي مشاركة فعّالة في الحركة الفكرية في عصره ، وذلك من خلال مؤلفاته العديدة ، وخاصة كتابه الرحلة العياشية التي تُعدُّ موسوعة علمية كبيرة تضمّنت الكثير من المعلومات الجغرافية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي مرّ بها العياشي فأنت رحلته " جمة الفوائد عذبة الموارد ، غزيرة النبع ، جليلة القد ، جامعة من المسائل العلمية المتنوعة لما يفوت الحصر، سلسلة المساق والعبارة ، مليحة التصريح والإشارة " (٦).

(١) عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ص ٢٤٩.

(٢) عبد الرحمن الكتاني : فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والمشايخ والمسلسلات ، اعتناء إحسان عباس ، ٣ أجزاء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، (د.ت) ، الجزء الثاني ، ص ٨٣٢.

— مخلوف : شجرة النور الزكية ، ص ٣١٤.

(٣) أبو القاسم سعد الله : مع العياشي في رحلته إلى القدس ، مجلة التاريخ العربي ، الرباط ، العدد ١٠ ، ١٩٩٩م ، ص ٦.

(٤) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ٢٩.

(٥) سعد الله : مع العياشي في رحلته إلى القدس ، ص ٦.

(٦) محمد حجي : موسوعة أعلام المغرب ، ١٠ أجزاء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٠ ، الجزء الرابع ، ص ١٦٢٢.

توفي العياشي إثر إصابته بمرض الطاعون الذي اجتاح المغرب سنة ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م ، فكانت وفاته صبيحة يوم الجمعة ٨١ ذي القعدة ١٠٩٠هـ/ ٢٠ كانون الأول ١٦٧٩م^(١).

٢- مؤلفاته :

ترك العياشي الكثير من المؤلفات في مجالات عدّة كالأدب والفقه والتصوف ، ومن مؤلفاته المطبوعة : **اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر** ، **إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء** ، **الرحلة العياشية** ، أمّا المؤلفات التي ما تزال مخطوطة فهي كثيرة وموزعة بين مكنتات عدّة ومنها : " إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب " ^(٢) ، " التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في الطريق إلى الحجاز " ^(٣) ، " تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية " ^(٤) ، " الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف " ^(٥) ، " معارج الوصول " ^(٦) ، " إظهار المنة على المبشرين بالجنة " ، وله قصائد عدّة في المدائح النبوية منها " المضريات في إصلاح الوترية " ^(٧).

٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه العياشي^(٨) :

يُعدُّ العياشي أكثر الرحالة المغاربة الذين أفاضوا في وصف طريق الحجّ المغربي إلى الديار المقدسة ، لكونه سلك الطريق البري ذهاباً وإياباً ، ولم يترك صغيرة أو كبيرة إلاّ وسجلها ، سواء من حيث ذكره لجميع المدن والبلدات والقرى التي مرّ أو نزل الركب فيها ، أمّ من ناحية تسجيله لمختلف المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية في المناطق التي مرّ بها ، مع الإشارة إلى حرصه الشديد أثناء ترحّاله على لقاء العلماء والفقهاء ومحاورتهم ، إضافة إلى زيارة المزارات المعروفة في المناطق التي مرّ بها ، وقد أشار العياشي إلى ذلك ، عندما تحدّث عن هدفه من تدوين أخبار تلك الرحلة " فكانت تلك الرحلة ، وهي من الله أعظم نحلة ولم يكن فيها كبير أمر يعتني بكتابة الرحلة لأجله إلا ما يشترك في معرفته عامّ الحجاج وخاصّهم من أوصاف المسالك وتعداد

(١) محمد بن الحبيب القادري : نشر المئاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى ، مكتبة الطالب ، الرباط ، ١٩٨٢م ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٤.

(٢) وهو موجود في الخزّانة الوطنية في المغرب تحت رقم ١٩٥٦ د .

(٣) وهو موجود في الخزّانة الوطنية في المغرب تحت رقم ٤٣ ك .

(٤) وهو موجود في الخزّانة الوطنية في المغرب تحت رقم ١٣٨٨ د.

(٥) وهو موجود في الخزّانة الوطنية في المغرب تحت رقم ٣٩ ك .

(٦) وهو موجود في الخزّانة الوطنية في المغرب تحت رقم ١٦٧٤ د .

(٧) الكتّاني : فهرس الفهارس ، الجزء الثاني ، ص ٨٣٤.

(٨) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه العياشي في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٤.

المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذلك ، مما لا تطمحُ إليه عيونُ أولي الفضل ، وترتاح لذكره هممُ أهل النبل ، من لقاء المشايخ الفضلاء ، ومحاضرة الأدباء النبلاء ، ومباحثة الأذكياء ، وزيارة الأتقياء ، إلّا أشياء إن انفردت بالذكر قلّت ، وإن أُدرجت مع غيرها ضلّت" (١).

خرج العياشي من بلدته (٢) في يوم " الخميس أول يوم من ربيع الثاني " (٣) سنة ١٠٧٢هـ/ ٢٤ تشرين الأول سنة ١٦٦١م ، بعد وداعه أهله وأصحابه متجهاً نحو مدينة سجلماسة (٤) التي كانت مركز انطلاق ركب الحجاج الرئيسي إلى الديار المقدسة في الحجاز. غادر ركبُ الحجاج مدينة سجلماسة في يوم السبت ١٠ ربيع الثاني ١٠٧٢هـ/ ٢ تشرين الأول سنة ١٦٦١م متجهاً نحو توات (٥) التي وصلها في يوم الخميس آخر أيام شهر ربيع الثاني ، فأقام الحجاج في هذه المدينة ستّة أيام باعوا خلالها الخيول والإبل التي أصابها الإرهاق ، ثم تابع الركب طريقه بعد أن انضم إليه عدد من أهل توات الراغبين في الحج ، فكان خروجهم منها يوم الخميس ٧ جمادى الأولى/ ٢٨ كانون الأول باتجاه واركلا (٦) متجاوزين قرية القليعة " وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه ، وبها آبار كثيرة طيبة الماء ، ونخيل ليس بكثير " (٧) .

وصل ركبُ الحجاج إلى واركلا التي وصفها العياشي بقوله " هي مدينة لها سبعة أبواب وهي في وسط خط من النخل ، ومساحة هذه المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ في مثله محيط بها خندق مملوء ماءً من كلّ جهاتها ، لا يصل أحد إلى سورها إلّا من ناحية الأبواب" (٨) ، فأمضى الحجاج ثلاثة أيام في هذه المدينة ثم تابعوا المسير إلى نفزاوة (٩) التي

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) لم يذكر العياشي اسم بلدته.

(٣) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ٦٧.

(٤) سجلماسة : بكسر أوله وثانيه ، وسكون اللام ، وبعد الألف سين سهلة ، مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان ، بينها وبين فاس مسيرة عشرة أيام تلقاء الجنوب ، وهي في منقطع جبل درن ، يمر بها نهر كبير قد غرسوا عليه بساتين ونخلًا مد البصر ، وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر وغلتهم قليلة ، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ، كما وصفها الحسن الوزان الفاسي الملقب بليون الإفريقي بأنها مدينة متحضرة جداً ، دورها جميلة ، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٢٧.

— الحموي : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ١٩٢.

(٥) مدينة تقع في الجنوب الغربي من الجزائر .

(٦) مدينة تقع في الجنوب الشرقي من الجزائر ، بناها النورمنديون ولها سور من الآجر وحولها نخل كثير ، ويوجد فيها عدد من القصور ، وحولها عدد من القرى . الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٣٦.

(٧) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ١١١.

(٨) المصدر السابق ، ص ١١٥.

وصفها العياشي بقوله " وبلاد نفزاوة قرى كثيرة تقرب من الألف ، كل قرية منفردة وحدها " (٢) ، ثم تابع ركب الحجاج طريقه إلى مدينة طرابلس الغرب (٣) التي كان الدخول إليها في يوم الأربعاء ١٧ رجب ١٠٧٢هـ / ٧ آذار ١٦٦٢م ، وقد أعجب العياشي كثيراً بهذه المدينة التي وصفها "هي مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة ، ونكايتها للعدو شهيرة أنيقة البناء ، فسيحة الفناء ، عالية الأسوار، متناسقة الأدوار" (٤) ، فأقاموا فيها أياماً عدة ، ثم تابعوا رحلتهم قاصدين مدينة الإسكندرية (٥) في يوم السبت ٢٦ رجب ١٠٧٢هـ / ١٦ آذار ١٦٦٢م.

قصّ لنا العياشي أحوال الطريق ما بين طرابلس والإسكندرية حيث مرّت القافلة بمناطق عدة تابعة لجبال مسلاته (٦) كوادي الرمل ، وادي المسيد ، وادي ينوت ، جبل الكنزة ، قبل الوصول إلى بلاد سرت (٧) التي عدّها العياشي " من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة البعل" (٨) ، ثم تابع الحجاج تقدّمهم وصولاً إلى موضع يُدعى التميمي قرب درنة (٩) ، فسمعوا هناك بعض الأخبار التي تحدّثت عن انتشار الوباء في مصر " وهناك بلغنا خبر الوباء بأرض

(١) نفزاوة : بالكسر ثم السكون ، زاي ، وبعد الألف واو مفتوحة ، مدينة من أعمال إفريقيا ، وصفها ياقوت الحموي نقلاً عن البركي تسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب وبمدينة نفزاوة عين تسمى بالبربرية تاورغي ، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها ، ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة ، وهي كثيرة النخل والثمار وحولها عيون كثيرة . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ٢٩٦.

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٤٥.

(٢) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ١٢٥.

(٣) طرابلس : بفتح أوله ، وبعد الألف باء مضمومة ، ولام أيضاً مضمومة ، وسين مهملة ، ولمدينة طرابلس سور صخر جليل البنين ، وهي على شاطئ البحر ، ومبنى جامعها أحسن مبنى ، وبها أسواق حافلة جامعة ، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، أعمرها وأشهر مسجد الشعاب ، وهي كثيرة الخيرات والثمرات ، ولها بساتين جليّة في شرقها ، وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الرابع ، ص ٢٥.

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٩٧.

(٤) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ١٣٥.

(٥) الإسكندرية : مدينة مصرية تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أسسها الاسكندر الأكبر ، والمدينة مربعة الشكل لها أربعة أبواب ، أحدها في جهة الشرق ، والآخر في الجنوب جهة البحيرة ، والثالث من الغرب جهة برقة ، والرابع نحو البحر حيث يوجد الميناء . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ١٨٢ — ١٨٩.

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٩٤.

(٦) تقع هذه الجبال في ليبيا.

(٧) سرت : بضم أوله وسكون ثانيه ، وآخره تاء مثناة من فوق ، مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس الغرب . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٦.

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٥٥.

(٨) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ١٩٦.

(٩) درنة : موضع بالمغرب قرب أنطابلس . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ص ٤٥٢.

مصرَ والإسكندرية " (١) ، ومع ذلك تابع الركبُ تقدّمه إلى أن وصل منطقة تُدعى جيمية حيث تأكد الحُجّاجُ من أخبار انتشار الوباء في مصر والإسكندرية ، وعلى الرغم من الخوف الكبير الذي وقع بين الحُجّاج من الوباء فقد تابع الركبُ طريقه ، وأثناء المسير التقى الحُجّاج ببعض الأعراب من البحيرة والذين أخبرهم عن تراجع الوباء " ولقينا أعراب كثيرة معهم حاكم عرب البحيرة ، وأخبرونا عن الإسكندرية أن الوباء قد خفّ فيها ، وأن البحيرة قد كثر فيها ، وأن مصر بفضل الله وحلمه وستره سالمة منه ، وتقوى عزمُ الناس على أن يتكّبوا الإسكندرية ويتركوها يساراً ويذهبون إلى مصر ، وذهب إلى الإسكندرية طائفة قليلة من الناس ممن لهم بها أهل أو بضائع " (٢).

وهكذا غيّرت القافلة طريقها ، فاتّجهت مباشرة إلى مدينة القاهرة دون المرور بمدينة الإسكندرية ، فمرّ الحُجّاج بأنبابة " ضحى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان الموفي خمسين يوماً من يوم خروجنا من بلدي سيدي مرزوق آخر العمران من عمالة طرابلس وأنبابة هذه مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكانل ومساجد على هيئة ما في القاهرة " (٣) ، وفي اليوم التالي أي ٢٦ رمضان/ ١٤ أيار عبّر العياشي نهر النيل ودخل القاهرة، فأقام الحُجّاج في القاهرة حوالي الشهر ، وأمضى العياشي تلك الفترة الطويلة نسبياً في زيارة الأزهر الشريف ولقاء العلماء ، واهتمّ كغيره من المغاربة بزيارة المزارات الدينية ، كما شهد العياشي الاحتفالات الكبيرة التي أقيمت في هذه المدينة عند وصول خبر فتح السلطان العثماني لإحدى المدن الكبيرة في حربه مع الأوربيين (٤) ، وقد أفرد صفحات عديدة للحديث عن إقامته في القاهرة وما شاهده فيها (٥) ، ثم تابع الركب طريقه وصولاً إلى بلدة السويس .

تابع الحُجّاج المغاربة طريقهم إلى الديار المقدسة ، وقد ذكر العياشي المواضع والمنازل التي مرّوا بها وهي النابعة ، ووادي الخروب ، وأرض النيه التي وصفها بقوله " وهي أرض مُقَفَّرَةٌ مُوحِشَةٌ طويلة عريضة معطشة " (٦) ، والعقبة ، وظهر الحمار ، ومغائر شعيب التي

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص ٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

(٤) كانت تلك المدينة قلعة " نوهزل " وهي إحدى القلاع الواقعة إلى الشرق من فينا ، وهي مشهورة بمناعتها وقوتها حيث تمكنت الدولة العثمانية من فتحها في عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧م) ، أما القائد العثماني الذي فتح تلك القلعة ، فكان الصدر الأعظم أحمد باشا كوبريلي الذي فرض عليها حصاراً شديداً عليها إلى أن تمكن من السيطرة عليها في ١٣ محرم ١٠٧٤ / ١٧ آب ١٦٦٣م . للتفصيل فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص . ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٥) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الأول ، ص . ص ٢٢٧ — ٢٨٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

وصفها بقوله " وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها " (١) ، ومدين " وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة وسكّانها أهل بادية " (٢) ، وعيون القصب " وهو ماء جار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس " (٣) ، والمويلح الذي وصفه بقوله " ماؤه كثير، وفيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل ، وهناك حصن كبير فيه عسكرٌ وأميرٌ، ويُخزّن فيه الميرة والفول كثيراً " (٤) ، ودار أم السلطان ، والأزلم ، ووادي الأراك ، وبئر الدركين الذي سُمّي بذلك الاسم " لأنه دركٌ أعراب مصرَ وأعراب الحجاز، فإنّ ما بعده من عمل الحجاز في دركٍ أعرابه " (٥) ، والعقبة السوداء " وهي عقبة صغيرة في أرض سوداء ذات أحجار وأشجار ، ويُقال إنها أولُ أرض الحجازش " (٦) ، ووادي النبط ، ووادي النار، وينبع ، ودار الوقدة ، وجبل الرمل ، وبدر التي وصفها بقوله " وهي قرية حسنة ذات نخيل وماءٍ عذب فيه بركة كبيرة تكفي الأركاب كلّها " (٧) ، ورابع " وهي قرية صغيرة فيها نخل وآبار كثيرة في وادي يأتي إليه السيل من بعيد ، وتُزرع فيه مقاتي كثيرة ، ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز " (٨) ، وقديد ، وعقبة السكر ، وعسفان ، ومرّ الظهران الذي يُسمّى أيضاً وادي الشريف " وهي وادٍ كبيرٍ فيه قرى ذات نخيل وبساتين وعيون تجري ، وأعظمها القرية التي ينزل بها الحجاج ، وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مؤنقة " (٩) ، والتنعيم ، والزاهر، ليصل الركبُ المغربي إلى مكة يوم السبت ٥ ذي الحجة ١٠٧٢هـ / ٢١ تموز ١٦٦٢م .

غادر الحجاج مكة المكرمة بعد انقضاء شعائر الحجّ مُتجهين إلى المدينة المنورة في ٢١ ذي الحجة / ٦ آب ، فأمضوا فيها ثلاثة أيام ، ثم سلكوا طريق العودة إلى المغرب ، أمّا العياشيّ فقررّ البقاء في الحجاز بقصدٍ مجاورة الأماكن المقدسة في انتظار موسم الحجّ في العام التالي ، فأقام في المدينة سبعة أشهر ونصف الشهر، ثم غادرها في ١٧ شعبان ١٠٧٣هـ / ٢٥ شباط ١٦٦٣م إلى مكة ، وقام أثناء تواجده في مكة بزيارة كلٍّ من مدينة جدة

(١) العياشيّ : الرحلة العياشيّة ، الجزء الأول ، ص ٢٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .

والطائف ، ثم عاد إلى مكة ، فبقي فيها إلى أن حلَّ موسمُ الحجِّ ، فحجَّ للمرة الثانية ، ثم اتَّجه إلى المدينة يوم الثلاثاء ١٨ ذي الحجة ١٠٧٣هـ / ٢٣ تموز ١٦٦٣م .

غادر العياشيَّ المدينة المنورة عشية يوم الخميس ٢ محرم سنة ١٠٧٤هـ / ٥ آب ١٦٦٣م برفقة الركبِ المغربيِّ ، وقد ذكَّر العياشيَّ المواضعَ والمنازلَ التي مرَّ بها الركبُ من المدينة إلى العقبة وهي : ينبع ، والعقبة السوداء ، وإصطبل عنتره ، وكفافة ، ودار أم السلطان ، والمويلح ، وعيون القصب ، ومغائر شعيب ، وبني عطية ، وظهر الحمار ، وصولاً إلى العقبة حيث قرَّر العياشيَّ زيارة القدس " وهناك تجددت لنا نيةُ السفر إلى القدس الشريف وزيارة ثالث الحرمين ومشاهدة الأرض المقدسة المباركة ومُعَاينة آثار الأنبياء وزيارة الخليل وكان ذلك يختلج في أفكارنا أيام المجاورة كلها " (١) ، ولذلك فارقَ الركبُ المغربيَّ الذي تابعَ طريقَ العودة يوم الأحد ٢٩ محرم / ١ أيلول ، واتَّجه إلى القدس ماراً بغزة والرَّملة ، وبعد انتهاء زيارته للقدس سلكَ طريقَ العودة عبر غزة التي كان خروجه منها يوم ١٠ ربيع الأول / ١١ تشرين الأول ماراً بالعريش التي وصفها بقوله " بلد كبير على ساحل البحر فيه نخل كثير وأجنة وبه مسجد كبير وفنادق وأسواق ، وهو آخرُ عمالةِ الشام وأوَّلُ عمالةِ مصر " (٢) ، ثم دمياط التي وصفها بقوله " وهي مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل ذات مساجد كثيرة وأسواق حافلة وخانات عامرة ومرسى عجبية غصَّت بها السفنُ الكبيرة والقوارب الصغيرة " (٣) ، ثم مدينة المنية (٤) التي وصفها بقوله " وهي مدينةٌ كبيرةٌ فيها مساجد وخانات " (٥) ، ثم الوصول إلى القاهرة التي وجد فيها بعض أصدقائه من المغاربة الذين أخبروه بأنَّ الركبَ المغربيَّ لم يغادرِ المدينةَ فسرَّ لذلك .

غادرَ العياشيَّ القاهرة إلى الإسكندرية بواسطة مركبٍ في النيل ، وقد أُعْجِبَ كثيراً بالإسكندرية ، فوصفها بقوله " ومدينةُ الإسكندرية من أمَّهاتِ المُدنِ في الدنيا ، وهي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام " (٦) ، ثم غادرها في ٢٢ ربيع الأول / ٢٣ تشرين الأول برفقة الركبِ المغربيِّ عائداً إلى بلاده ، وقد اجتاز الركبُ مناطق عدَّة تابعة لبرقة وصولاً إلى

(١) العياشيَّ : الرحلة العياشيَّة ، الجزء الأول ، ص ٤٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٤٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٤) المنية : وهي مدينة جميلة بناها المسلمون في عهد الدولة العباسية في مكان يقع على نهر النيل ، ويحيط بها عدة أنواع من الفواكه التي تُحْمَلُ منها كمياتٌ كبيرةٌ إلى القاهرة ، ويوجد فيها عدد من القصور والمساجد . للتفصيل الإفرقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٢٣٥ .

(٥) العياشيَّ : الرحلة العياشيَّة ، الجزء الثاني ، ص ٤٧١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٧٧ .

طرابلس التي خرج منها في ٥ شعبان ١٠٧٤هـ/ ٢ آذار ١٦٦٤م ، ثم استأنف الحُجَّاجُ رحلتهم ، فمروا في بمناطق عدّة من بينها قابس^(١) ، وتورز^(٢) ، وبسكرة^(٣) ، قبل الوصول إلى بلدهم في ١٧ شوال سنة ١٠٧٤هـ/ ١٢ أيار ١٦٦٤م ، وهكذا تكون رحلة العياشي قد استغرقت حوالي السنتين ونصف السنّة حيث كان خروجه ١ ربيع الأول سنة ١٠٧٢هـ/ ٢٤ تشرين الأول سنة ١٦٦١م ، أما عودته ، فكانت ١٧ شوال سنة ١٠٧٤هـ/ ١٢ أيار ١٦٦٤م .

قدّم العياشي في رحلته وصفاً دقيقاً لطريق الحج المغربي إلى الديار المقدّسة في الحجاز فيما يتعلّق بالنواحي الجغرافية حيث وصف بشكل دقيق جميع المراحل التي اجتازها الركبُ من مدنٍ وبلداتٍ وقرى ، فضلاً عن وصفه للطريق من ناحية وعورة المسلك وأماكن آبار المياه والأسواق التي يتزود من خلالها الحجاج بما يحتاجون إليه من طعام وحاجيات ، كما ضمّن العياشي رحلته الكثير من التفاصيل عن أحوال هذا الطريق من الناحية الأمنيّة ، فتحدّث كثيراً عن اضطراب الأمن وكثرة اللصوص وقطاع الطرُق على الطريق الذي يسلكه ركبُ الحُجَّاجِ المغربيّ إلى الديار المقدّسة ، إضافة إلى ذكره اعتداء بعض القبائل البدويّة على الحُجَّاج ، وقد أشار العياشي إلى ذلك مرّاتٍ عدّة ، كحديثه عن كثرة اللصوص على الطريق في المنطقة الممتدة ما بين طرابلس الغرب والإسكندرية " وخارج مدينة طرابلس وسائر عمّالتها أكثر البلاد سرقةً ، وأعرابها أعلمُ الناس باستعمال الحيل في ذلك ، مع إقدام وهجوم بالليل إنْ تمكنوا من ذلك " (٤).

كما أشار إلى ذلك عند حديثه عن أحوال الطريق ما بين الإسكندرية والقاهرة " ولمّا تهيّأنا للرحيل جاء شيخُ عربٍ البهجة ، وحذّر أميرَ الركبِ من عربٍ هذا البلد وهم عربٌ سوءٌ بل عربُ السّلامة كلّهم لا خيرَ فيهم ، والسّلامة طوائفٌ ثلاثٌ : الهنادي والبهجة والأفراد ، وهم الذين يسكنون أطرافَ البحيرة إلى الإسكندرية إلى ما بين العقيق وانضاف إليهم الكثيرُ من عربٍ برقة وطرابلس وبعض هوّارة والفواخر وهم تارةً يُدْعَنون ويدّعون طاعة السلطان وتناهلهم الأحكام ، فيخفّ ضررهم وتارةً ينقضون وينكثون " (٥) ،

(١) مدينة بين طرابلس وصفافس فيها نخل وبساتين . الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٢٨٩ .

(٢) مدينة في أقصى إفريقيا من نواحي الزاب الكبيرة من أعمال الجريد ، بها نخل كثير ، وقد بناها الرومان كما ذكر ليون الإفريقي . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ص ٥٧ .

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٤٢ .

(٣) وهي بلدة بالمغرب من نواحي الزاب ، بناها الرومان . الحموي : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٤٢٢ .

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٣٨ .

(٤) العياشي : الرحلة العياشيّة ، الجزء الأول ، ص ١٧٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

وكررَ ذلك عند حديثه عن منطقة العقبة التي تكثر فيها اعتداءات البدو على قوافل الحُجاج "ولمّا كان المحلّ معروفاً بتلصُّصِ الأعراب وحريبتهم ، تهيأ الناس ، وأخذوا حذرهم ، وأخرجوا أسلحتهم خوفاً من عدوانهم ، فإنّ الغالبَ أنهم لا بدّ أنْ يتعرضوا للرَّكْبِ في هذا الموضع لصعوبته " (١) ، ثم أعاد الحديث عن فقدان الأمن واعتداء اللصوص على ركب الحُجاج في المنطقة الممتدة من ينبع إلى العقبة " وفي الغد مررنا بكفافة وأغار اللصوص على آخرِ الرَّكْبِ فلم يجدوا هناك جماعة إلا طائفة قليلة من أعراب برقة ، ورجلان من أصحابنا ذهبوا لسقي ماء من البئر فقاتلوهم أشد قتال ، وقُتِلَ من اللصوص رجلان ، ومع ذلك أخذوا من الإبل قريباً من الثلاثين بأحمالها " (٢) .

٤ - بلاد الشام في الرحلة العياشيّة :

زار العياشيّ بعض المدن في فلسطين أثناء حجّه في سنة ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م ، فَبَدَءَ وُصُولَ رَكْبِ الْحَجِّ الْمَغْرِبِيِّ إِلَى الْعُقْبَةِ ، قَرَّرَ الْعِيَاشِيُّ تَنْفِيذَ مَخْطَطِهِ فِي زِيَارَةِ الْقُدْسِ وَالْخَلِيلِ " وهناك تجددت لنا نيّة السفر إلى القدس الشريف وزيارة ثالث الحرمين ومشاهدة الأرض المقدّسة المباركة ومعاينة آثار الأنبياء وزيارة الخليل وكان ذلك يختلج في أفكارنا أيّامَ المجاورة كلّها " (٣) ، فتوجّه إلى القدس برفقة عددٍ من أهل غزة ، ومِمّا شجّعهُ على الانضمام إلى قافلة حُجاج أهل غزة وجود الحاج أحمد العجيس الطرابلسي (٤) الذي قدّم المساعدة له ولأصحابه - وكانوا اثنين - حيث اشترى لهما جملين ، وأمنّ لهما الماء ، وكل ما يحتاجونه من نفقة في طريقهم إلى القدس " فلما نزلنا العقبة ووجدنا بها رفقة من أهل غزة ، قوِيَ عزمنا على ما كنا نأمله ، وتركنا الالتفات وأعاننا على ذلك صاحبنا الحاج أحمد العجيس الطرابلسي " (٥) .

انضمّ العياشيّ إلى قافلة حُجاج أهل غزة التي كان كبير القافلة في تلك السنة حسين المغربي في صبيحة يوم الأحد ٢٩ محرم / ١ أيلول ، فكان الوصول إلى غزة في يوم الاثنين ٧ صفر / ٩ أيلول ، وقد أعجب العياشي بغزة التي وصفها بقوله (٦) " ورأينا من غزة بلداً فسيحاً ومنظراً رائعاً ، وأسواقاً حافلة ، وأسعاراً رخيصة ، وفاكهة كثيرة " ، فأقام العياشي في غزة

(١) العياشيّ : الرحلة العياشيّة ، الجزء الأول ، ص ٢٨١ .

(٢) المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) العياشيّ : الرحلة العياشيّة ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠٨ .

خمسَةَ أَيَّامٍ، ثم توجَّهَ إلى الرَّمْلَة ^(١) يوم السبت ١٢ صفر/ ١٤ أيلول ، ثم زار مدينة اللدّ التي وصفها بقوله ^(٢) " وهي مدينة مليحة فسيحة مجاورة لمدينة الرَّمْلَة ، بينهما نحو فرسخ من ناحية البحر، وفيها أسواق ومساجد ومزارات " ، ثم تابع رحلته إلى مدينة القدس ، وبعد انتهاء زيارته لهذه المدينة سلك طريق العودة إلى مصر عبر غزة التي خرج منها في ١٠ ربيع الأول/ ١١ تشرين الأول، متابعاً طريق العودة إلى بلاده ، وقد قدّم العياشي في رحلته بعض التفاصيل عن أحوال بعض المدن في فلسطين من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية .

أ - الجوانب السياسية :

على الرّغم من أنّ الهدف الأساسي لزيارة العياشي للقدس والخليل وبعض المدن الفلسطينية كان دينياً محضاً ، فإنّ ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى بعض الجوانب السياسية حيث نلحظ من خلال كتابات العياشي انعدام الأمن في فلسطين بشكل كبير، وقد أشار مراراً إلى كثرة اللصوص وقطّاع الطُّرُق فضلاً عن اعتداءات البدو على القرى والمدن ، فالعياشي تردّد كثيراً في تنفيذ زيارته للقدس نظراً لانعدام الأمن على الطريق ، وقد عبّر عن ذلك بقوله ^(٣) " كنّا نرى الوصول إلى تلك الأماكن متعسراً أو متعذراً على أمثالنا نظراً لقلّة ذات اليد ، وعدم القدرة على مقاساة المشاق العظيمة التي يوجبها الإنفراد عن الطريق المألوف والسلوك في بلادٍ غير معهودة ، والمعارف بها مفقودة ، والرفقة إليها غير مأمونة ، والمخاوف إن لم تتحقّق فهي مظنونة " ، كما تحدّث العياشي عن انعدام الأمن على الطريق المؤدي إلى قبر النبي موسى عليه السلام ^(٤) ، كذلك أشار العياشي إلى كثرة اعتداءات القبائل البدويّة على

(١) الرَّمْلَة : مدينة عظيمة في فلسطين ، سُميت بهذا الاسم لغلبة الرَّمْل عليها ، وقيل سميت باسم إمراة اسها رملة وجدها سليمان بن عبد الملك في بيت من الشعر حيث نزل مكانها يرتاد بعض الماء ، فأكرّمته وأحسنّت ضيافته ، فسألها عن اسمها ، فأخبرته بأنّها تدعى رملة ، فبنى البلدة وسماها باسمها . الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٦٩ .

— الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الثالث ، ص ٤٧٤ .

(٢) العياشي : الرحلة العياشيّة ، الجزء الثاني ، ص ٤١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

(٤) حصل في القدس وضواحيها تدهور أمني خطير في الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وخصوصاً في الطرق المؤدية إلى المدينة ، واستمر هذا التدهور حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد صعد البدو من هجماتهم على قوافل الحجاج المتجهين إلى المقامات الدينية في الخليل وغيرها من المناطق ، ومنعوا الخطباء من إلقاء خطبهم في المساجد وفرصوا أتوات على الحجاج ، وقد لجأت السلطات العثمانية من أجل كبح جماح البدو إلى إجراءات مختلفة تتضمّن أخذ الرهائن وتعيين شيوخ البدو أمراء سناجق أو أرباب إقطاعيات وتكليف شيوخ البدو أو القرى بحماية القوافل ، كما قامت السلطات العثمانية ببناء بعض القلاع التي تمّ تزويدها بالرجال والأسلحة فحوالي سنة ١٠٣٩هـ / ١٦٣٠م بنى السلطان مراد الرابع (١٦٢٢ — ١٦٣٩م) قلعةً عند برك سليمان لحماية البنايع والبرك التي تزود القدس بالمياه من قطاع الطرق ، لكنّ جميع الإجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية لم تنجح ، والسبب في ذلك انشغال الحكومة المركزية العثمانية بحروب طاحنة على الجبهتين الشرقية والغربية ، ولم يكن بوسعها

القرى والمدن في فلسطين، وفشل السلطات العثمانية في وضع حد لتلك الاعتداءات " مع ما هم فيه من التشويش من أجل العرب المخالفين ، فإنهم يغيرون على القرى التي حول المدينة وينسفون زروعها ، وعجز الباشا عن مقاومتهم " (١).

كما تحدّث العياشي عن بعض المهام التي تقوم بها القبائل البدوية كحمايتها للقوافل أثناء اجتيازها مناطقهم مقابل مبلغ من المال ، وقد أشار العياشي إلى قيام أحد زعماء القبائل ويدعى الشيخ بشير بمرافقة الحجاج من العقبة إلى غزة ، فصار الحجاج بحماية " أمير الوحيدات وما والاها من عرب غزة المسمى الشيخ بشير ، وكان ورد العقبة في نحو عشرين فارساً من أصحابه.... وكان بينه وبين كبير حجاج أهل غزة في تلك السنة الحاج حسين المغربي معرفة ، فتكلّم معه على أن يذهب بهم بأتاوة إلى غزة يؤدونها له " (٢) ، وأشار العياشي إلى أن ذلك الشيخ كان على خلاف مع أمير غزة ، فقد قام الشيخ بشير ورجاله بمهاجمة عساكر غزة ونهبهم في تلك السنة ، ولذلك فإن الحجاج كانوا خائفين من غدره ، ولم يقبلوا متابعة المسير ، إلا بعدما تعهّد ذلك الشيخ بتأمين الحماية لهم ، وذلك في حضور أمير الركب المصري ، وكتبوا ورقة في ذلك ، كما ذكر العياشي أن الشيخ بشير ورجاله قاموا بترك القافلة عند اقترابهم من غزة بسبب خوفهم من باشا غزة ، فتابعت القافلة المسير دون حماية ، ممّا جعل الناس يشعرون بالخوف حتى وصلوا إلى غزة " وفارقهم شيخ العرب وجماعته ، لأنهم خافوا من باشة غزة ، فإنهم قتلوا منه في الشهر الذي قبل هذا نحو ثلاثمائة ، وسار الناس على حالة وجل لأنّ المحلّ موضع بين الفريقين " (٣) ، كما ذكر العياشي قيام أهالي بعض المناطق على الطريق ما بين الرملة والقدس بأخذ الغفر منهم .

ب - الجوانب الاقتصادية :

أشار العياشي إلى انتشار بعض الزراعات البعلية في القدس ، وخاصة الحبوب حيث يعتمد الناس على مياه الأمطار في زراعة الحبوب ، لأنّ مناخ القدس يساعد على انتشار الزراعة البعلية طبقاً لما أورده العياشي " لأنّ البلد كثيرة الأمطار، وقد ذكر بعضهم أنّ من خاصيّة البلد الشريف أنّه ما رأيت السماء صاحبة يوماً كاملاً ، صيفاً ولا شتاءً ، ولا بدّ أن يُرى في السماء غيم " (٤).

تخصيص قوات وأموال كافية للحفاظ على الأمن . للتفصيل يرجى العودة إلى كامل جميل العسلي : القدس في التاريخ ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٢م ، ص . ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .

ج - الجوانب الاجتماعية :

تركز اهتمام العياشي بشكل كبير على الحديث عن المزارات الموجودة في المدن التي زارها في فلسطين ، لكن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى بعض الجوانب الأخرى كحديثه عن عدم احترام أهل غزة للمساجد على حدّ تعبيره " ومِمَّا عَيَّبَ على أهل هذا البلد عدم احترامهم للمساجد فإنّ لهذا المسجد ، وهو أعظم مساجدهم ، أبواباً بعضها من ناحية السوق ، وبعضها من ناحية الدور ، فلا يكون لأهل الدور مروراً إلى السوق إلا في وسط المسجد ، ويمرون في صحنه بنعالهم ويستعملون فيه الدخان الذي يشربونه " ^(١). وقد أسهب العياشي كثيراً في الحديث عن المزارات الموجودة التي زارها في المدن والقرى الفلسطينية ، فتحدّث عن المزارات الموجودة في جبل الطور الواقع ما بين المسجد والوادي الكبير المُسمّى وادي جهنم ، والذي يُشرفُ على القدس وما حولها ، فأشار العياشي إلى أنّه يوجد في أعلى طور زيتا مزار يُقال أنّ عيسى عليه السلام رُفِعَ منه وإنّ هذا المزار كان في أيدي النصارى ، لكنّ الشيخ محمد العلمي بذل جهوداً كبيرة من أجل استعادته منهم ، ونجح في ذلك ، وقد بنى الشيخ محمد العلمي تحت المزار مشهداً رباطاً ، ويوجد فيه قبره ، ومن المزارات التي أشار إليها العياشي في أعلى جبل الطور قبرُ رابعة العدوية ، وهو في مغارة تحت الأرض ، وقبر مريم الذي يوجد في كنيسة بأصل الوادي ، وكان في فترة زيارة العياشي بأيدي النصارى ، وأشار العياشي إلى الحرج الكبير الذي وقع به عند زيارته له ، فاكتمى بزيارته من الخارج ^(٢).

كما ذكر العياشي من المزارات الموجودة في القدس قبر شداد بن أوس وقبر عبادة بن الصامت وهما تحت سور المسجد الشرقي ، وفي الموضع نفسه يوجد مقبرة كبيرة . أمّا بالنسبة للمزارات الموجودة في غرب القدس منها قبر النبي داود عليه السلام ، وكان في يد النصارى ، ولكن الشيخ محمد العلمي وبعض الأعيان عملوا على استعادته منهم ، وقد ذكر العياشي أنّ معظم المزارات الموجودة في تلك الناحية هي بأيدي النصارى ، وخاصة الموجودة في بيت لحم ^(٣) " فممّا بأيديهم بيت لحم الذي فيه مولد المسيح ، وهو على نحو فرسخ من المدينة إلى ناحية القبة ، وقد مررنا قريباً منه لما ذهبنا إلى زيارة الخليل عليه السلام ، ومنها قبر يونس بن متى عليه السلام ، وهو في قرية قرب

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .

(٣) بيت لحم : تعدّ هذه المدينة من أعرق المدن الفلسطينية ، تقع على جبل يرتفع قرابة ٧٨٠م عن سطح البحر في الجزء الجنوبي من سلسلة جبال القدس ، وعلى مسافة تزيد قليلاً عن ١٠ كلم جنوبي القدس . الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الأول ، ص ٤٥٧ .

الخليل^(١) ، وقد مررنا قريباً منه أيضاً ، وزرناهما من بعيد تأمناً من دخول متعبد النصارى ولضيق الوقت " (٢).

أما قبر النبي موسى عليه السلام الذي بينه وبين القدس نحو نصف مرحلة ناحية المشرق ، فكان العياشي راغباً في زيارته ، لكن الطريق إليه كانت خطيرة فنصحته البعض بمقابلة الشيخ محمد النفاتي لمساعدته ، وعندما اجتمع العياشي بالشيخ النفاتي أظهر له رغبته في زيارة قبر النبي موسى لكن الشيخ النفاتي نصحه بعدم القيام بذلك نظراً لطول المسافة ، وضرورة الذهاب القيم إلى المزار معهم لفتح الأبواب ، وهذا الأمر مكلفاً من الناحية المادية ، ولذلك اكتفى العياشي بالنية . أما بالنسبة لمزارات مدينة اللد فذكر العياشي قبراً يُقال إنه للمقداد بن الأسود الصحابي المشهور ، ومشهد يقال إنه لعبد الرحمن بن عوف " (٣) . أما بالنسبة للمزارات في غزة ، فذكر العياشي مزار مولد الإمام الشافعي " وهو في مغارة تحت الأرض قرب الجامع الكبير " (٤) ، وقبر هاشم بن عبد المطلب " وهو في المدينة من الناحية البحرية " (٥) ، وقبر الإمام الأوزاعي . وفي الرملة زار العياشي قبر الصحابي الفضل بن العباس عم النبي .

د - الجوانب الثقافية :

تحدث العياشي من الناحية الثقافية عن اللقاءات التي جمعتة بعدد من العلماء والفقهاء المعروفين أثناء زيارته لفلسطين ، ففي غزة أشار العياشي إلى لقائه بكل من الشيخ عبد القادر الغصين^(٦) ، والشيخ عمر المشرقي^(٧) ، وفيما يتعلق بلقائه بالشيخ عبد القادر ، فذكر العياشي أنه حمل كتاب توصية من

(١) الخليل : كان الاسم الذي أطلقه الكتانويون على هذه المدينة قرية " أربع " ، ثم عُرفت باسم جبرون . الموسوعة الفلسطينية القسم العام ، المجلد الثاني ، ص ٣٥٢.

(٢) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢٤.

(٣) المصدر السابق ، ص ٤١٩.

(٤) المصدر السابق ، ص ٤١٣.

(٥) المصدر السابق ، ص ٤١٣.

(٦) عبد القادر الغصين (١٠١٣ - ١٠٨٧هـ / ١٦٠٤ - ١٦٧٦م) : هو عبد القادر بن أحمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل بن شعبان المعروف بابن الغصين الغزي الشافعي العالم الولي الصالح ، ولد في شهر ذي الحجة سنة ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م ، ورحل إلى مصر لطلب العلم سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م ، تتلمذ على يد كبار علماء القاهرة من أمثال الشيخ علي الحلبي ، وأبي العباس المقرئ ، والبرهان اللقاني ، وأخذ الطريقة الرفاعية عن الأستاذ الكبير محمد العلمي القدسي ، توفي في نهار الاثنين ١٧ ذي القعدة سنة ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م . المحيي : خلاصة الأثر ، الجزء الثاني ، ص ٤٧.

(٧) عمر المشرقي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته - ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م) : هو عمر بن عبد القادر المشرقي الغزي ، من أسرة معروفة بتعلقها بالعلم والمعرفة ، وخاصة جده محمد المشرقي ، تتلمذ على يد الشيخ صالح بن الشيخ محمد صاحب التتوير ، وأخذ عنه علم النحو والمعاني والبيان ، كان شافعي المذهب أخذ فقه الشافعي عن الشيخ حسن النحالي ، توفي في سنة

الشيخ إسماعيل النابلسي الحنبلي ، عندما كانوا في العقبة إلى علماء غزّة ، وعلى رأسهم عبد القادر الغصين لتقديم المساعدة للعايشي ، وعندما وصل العياشي إلى غزّة ، ودخل المسجد أعطى الكتاب إلى الشيخ عبد القادر الذي لم يعرفه أيّ اهتمام لاعتقاد الشيخ بأنّ الشخص الموصى به من قبل الشيخ إسماعيل شخصاً آخر غير العياشي ، ولكن في اليوم التالي ذهب العياشي إلى مدرسة الشيخ عبد القادر الذي سأله عن الشخص الموصى فيه في الكتاب ، فأخبره العياشي بأنّه الشخص المعنيّ ، فاعتذر منه الغصين ، ورحّب به ، وطلب منه الانتقال من المسجد ، إلى مدرسته ، حيث أنزلهم في مكان واسع مخصص لاستضافة المسافرين ، وأكرمهم غاية الإكرام ، وقد أعجب العياشي بهذه المدرسة الواقعة قرب المسجد حيث ذكرَ بأن الشيخ عبد القادر أخبره أنّ أميرَ غزّة هو الذي بنى المدرسة وملحقاتها ، وخصّص لها أوقافاً ، وأنّ السبب الذي دفع الباشا للقيام بهذا العمل كان قدوم أبي العباس أحمد المقريّ إلى غزّة حيث نزل عند والد الشيخ عبد القادر ، وقد أراد المقريّ الذهاب إلى المسجد للتدريس فيه ، ولكنّ المنزل الذي نزل فيه كان بعيداً عن المسجد ، لذلك عرض على والد عبد القادر الذهاب معه إلى أمير غزّة للسماح له ببناء بيت صغير في فناء المسجد للتدريس ، وعند اجتماعهم بالأمير حدّثه المقريّ عن فضّل بناء المدارس والمساجد والإحسان إلى أهل العلم ، فأعجب الأمير بالمقريّ وقال " مثله لا يلق له البناء في المسجد ، ولكن هناك موضع نحبه عليك " ^(١) ، فأصدر الأميرُ أوامره بإنشاء المدرسة ، وكتبَ ورقةً في ذلك بحضور الشهود ، وقد تبادل العياشي مع الشيخ عبد القادر الغصين الإجازة .

كما التقى العياشي في غزّة بالشيخ عمر الشرقي قاضي الحنفية ، وهو صهر الشيخ عبد القادر، وقد أشار العياشي إلى تعلّق العلماء في المشرق بالمناصب ، وقدّم لنا مثلاً الشيخ عمر الشرقي الذي كان من أتباع المذهب الشافعي ، ولكن بعد موت القاضي الحنفي في غزّة ، وبسبب عدم وجود شخص يقوم بتولي منصب القضاء في غزّة ، قام الشيخ عمر بالتحول إلى المذهب الحنفي للحصول على ذلك المنصب ، وقد أشار المحبي في كتابه خلاصة الأثر إلى ذلك ^(٢). وفي مدينة الرملة التقى العياشي

١٠٨٧هـ/١٦٧٦م . للتفصيل يرجى العودة إلى إحسان عباس : الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين أثناء القرن السابع عشر ، مجلة قضايا عربية ، العدد الثالث ، السنة السادسة ، بيروت ، تموز ، ١٩٧٩ ، ص ٦٧ .

— المحبي : خلاصة الأثر ، الجزء الثاني ، ص . ص ٢١٢—٢١٤ .

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٩ .

(٢) المحبي : خلاصة الأثر ، الجزء الثاني ، ص . ص ٢١٢ — ٢١٤ .

بالشيخ محمد بن أبي الوفاء الأشعري الحسيني^(١) الذي كان الشيخ عبد القادر قد كتب له يوصيه بالعيشي وصاحبيه ، فأكرمهم غاية الإكرام^(٢) ، وقد ذكر العياشي أن الشيخ محمد من فقهاء الشافعية ، وأنه تولّى القضاء في القدس ، وأن منزله كان مقصداً للوجهاء والأعيان ، وأشار العياشي إلى أن الشيخ محمد بن أبي الوفاء الأشعري الحسيني رافقه لزيارة الشيخ خير الدين الرملي^(٣) كبير مشايخ الرملة " توجهت مع السيد محمد إلى لقاء الشيخ المسن العلامة المنقن السيد الرواية ، إمام الحنفية ومفتيهم وإليه مرجعهم في تلك الديار الشيخ خير الدين الرملي " ^(٤) ، وقد التقى العياشي بالشيخ الرملي في يوم الاثنين الرابع عشر من صفر في داره الجديدة في الرملة.

والتقى العياشي في القدس بمجموعة من رجال الدين والعلماء المعروفين ، وكان من بينهم الشيخ محمد الصيداوي^(٥) ، نقيب رواق الشيخ منصور ، الواقع تحت صحن الصخرة المقدسة ، وكان الشيخ الغصين قد كتب إلى الشيخ الصيداوي لتقديم المساعدة للعياشي ، ولذلك احتفى الشيخ الصيداوي بضيوفه ، وأعطاهم بيتاً إلى جانب الرواق الذي كان داخل المسجد ، كما التقى العياشي بقاضي القدس محمد النفاتي ، وهو تونسي الأصل ، وذكر العياشي أن الشيخ محمد كان قد استقر في العاصمة العثمانية استانبول عدة سنوات ، قبل أن يُعيّن في منصب قاضي القدس سنة ١٠٧٤هـ/١٦٦٤م " وكان القاضي في ذلك الوقت الشيخ محمد النفاتي التونسي المغربي ، قَمَ من اصطنبول مُتقلداً لقضاء القدس ، وكانت له وجهة عند السلطان والعسكر من لدن أخيه الشيخ أبي الحسن النفاتي رحمه الله " ^(٦) ، وقد ذكر العياشي أن الشيخ محمد قد أكرمه غاية الإكرام ، وطلب من أصحابه أن يعثّوا منزلاً للعياشي ورفيقه من أجل إقامتهم فيه ، لكنّ العياشي اعتذر عن ذلك حيث أخبر النفاتي بأنهم قد نزلوا في المسجد الأقصى ، فقام النفاتي بتأمين حاجاتهم من الخبز واللحم وغيرهما حيث كلف بعض رجاله بتأمين ونقل هذه الحاجات إليهم يومياً ، فقام العياشي بنظم قصيدة ، ونقديهما للشيخ النفاتي ، كردّ جميل على الخدمات الجليلة التي قدّمها له ولرفيقه.

(١) محمد بن أبي الوفاء الأشعري الحسيني (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته ووفاته) : أخذ الحديث والنحو عن الشيخ خير الدين الرملي وكان عمدة شيوخه ، تولى الإفتاء ، كما عمل في مجال التدريس في القدس ، ثم تولى الوظيفة ولزم داره في الرملة حيث أعد منزلاً للوضوء والصلاة وأخذ يقيم الصلوات الخمس بمنزله ، وكان بيته ملتقى للأفاضل والوجهاء يقصده الناس للزيارة . عباس : الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين ، ص ٦٩ .

(٢) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤١٥ .

(٣) خير الدين الرملي (٩٩٣ - ١٠٨١هـ/١٥٨٥-١٦٧٠م) : ولد خير الدين بن أحمد بن نور الدين الرملي بمدينة الرملة ، وكان ثالث أبناء أحمد بن نور الدين ، وقد بدأ دراسته في الرملة على يد الشيخ موسى بن حسن القبي ، وهو فقيه شافعي ذو ميول صوفية . للتفصيل يرجى العودة إلى عباس : الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين ، ص ٦٦ .

(٤) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤١٥ .

(٥) لم أعثر له على ترجمة .

(٦) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٥٢ .

كذلك التقى العياشي بالشيخ شهاب الدين الحنفي المصري^(١) ، وهو أحد علماء مصر، وكان قد نزل في القدس قبل شهرين من وصول العياشي إليها ، وعندما سمع العياشي بقدوم هذا الشيخ إلى القدس رغب بلقاء هذا الشيخ المصري الذي نزل بالقرب من رواق الشيخ منصور حيث نزل العياشي ، ويبدو أن الشيخ شهاب الدين كان هو الآخر راغباً في لقاء العياشي ، فبعث إليه ، فلبى العياشي الدعوة ، والتقى الرجلان في منزل الشيخ شهاب الدين وتبادلا أطراف الحديث ، وفي اليوم التالي اجتمع الرجلان ثانية حيث ذكر العياشي أنه عندما دخل عليه وجده يتبادل الحديث مع بعض الفقهاء من الحنفية عن مناسك الحج ، وعند الحديث عن يوم التروية قال الشيخ شهاب أنها مشتقة من الرؤية ، فاعترض العياشي على ذلك حيث كان رأيه أنها مشتقة من التروي من الماء ، وتمسك كل منهما برأيه ، كما اختلفا في عدة مسائل فقهية أخرى ، وفي اليوم التالي اجتمع الرجلان في منزل الشيخ محمد العلمي وعاد الشيخ شهاب الدين إلى إثارة الموضوع مجدداً ، فطلب العياشي إحضار بعض الكتب كصحيح البخاري ، وتم النظر في الموضوع الذي هو محل خلاف ، فثبت صحة رأي العياشي ، وكان ذلك في حضور عدد كبير من رجال الدين ، وهذا ما أزعج الشيخ المصري الذي رحل عن القدس بعد يوم أو يومين ، وقد أشار العياشي إلى أنه التقى بالشيخ شهاب الدين في طريق العودة في الخليل وغزة " ولما دخلت مدينة الخليل وجدته فيها ، فخرج وأدركته في غزة ، ثم اجتمعت فيه في خان يونس^(٢) فجاملته على خلقه ، وعاملته معاملة أنه فقيه إمام إلى أن افترقنا بضمياط^(٣) على خير^(٤) .

كما التقى العياشي بالشيخ عمر العلمي^(٥) ، وقد أشار كثيراً إلى أفراد هذه الأسرة ، وخاصة الشيخ محمد العلمي " جد الشيخ عمر " الذي وصفه بالقُطْب ، وذكر أنه شيخُ شيخه أبي بكر السكتاني المغربي، لأنَّ السكتاني كان قد تلقى الذكرَ عن الشيخ محمد العلمي وحصل منه على الإجازة ، كما أشار العياشي إلى أن أبو العباس أحمد المقرئ قد تلقى الذكر عن الشيخ محمد العلمي أيضاً ، وكان المقرئ هو الذي نصح السكتاني بلقاء الشيخ محمد العلمي ، وقد اجتمع العياشي بالشيخ عمر حفيد الشيخ محمد العلمي في اليوم الثاني من زيارته للقدس حيث دعاه الأخير إلى داره ، وكان ذلك في يوم الجمعة ١٨ صفر، وقد أخبرنا العياشي بما جرى بينه وبين الشيخ عمر " فأخذتُ عليه العهدَ ، فلقنني وشدَّ المنزر في

(١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢) خان يونس : يقع في أقصى جنوب غربي فلسطين على بعد ٢٠ كلم من الحدود المصرية . الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الأول ، ص ٣١٤ .

(٣) هي مدينة دمياط .

(٤) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢٩ .

(٥) عمر العلمي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته — ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م) : هو عمر بن عبد الصمد بن محمد العلمي ، تتلمذ على يد جدّه المشهور محمد العلمي ، وحلَّ مكانه ، فعظَّم شأنه بين الناس ، توفي في سنة ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م . المحبي : خلاصة الأثر ، الجزء الثالث ، ص ٢١٢ .

— عباس : الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين ، ص ٦٣ .

وسطي وأقعدني وأقلمني ، ثم أقعدني قائلاً اجلس مريداً وقم خادماً للفقراء واجلس مُربياً لهم ، ووهب لي القوطة التي شدّ بها وسطي وأجازني وكتب لي إجازة متضمنة لخطوط جماعة من أصحابه وأصحاب جدّه يشهدون بذلك " (١) ، ولابدّ من الإشارة إلى أنّ تلك الطقوس معروفة عند أصحاب الطرق الصوفية . كما ذكر العياشي أسماء الشهود من الذين شهدوا على الإجازة التي منحها له الشيخ عمر العلمي ، ومن بينهم عبد الباقي بن عبد القادر بن محمد العلمي ، ودرويش التميمي ، ويحيى بن شيبانة ، وعلي بن عمر بن عبد الصمد بن محمد العلمي ، وأحمد بن حسن الرجواني ، وقاسم بن عبد المعطي ، وعبد الرحمن بن الحاج أحمد الدقاق ، ومحمد السالمي القدسي ، وعلي الحوراني ، ويحيى بن المهدي ، وعلي الكرمي ، وغير هؤلاء .

كما التقى العياشي بكلّ من الشيخ محمود السالمي ، وقاسم إمام اللذين كانا من أتباع الطريقة الرفاعية ، وكانا من أصحاب الشيخ عمر العلمي ، وقد شهد الشيخ محمود القاسمي على إجازة الشيخ العلمي للعياشي ، وذكر العياشي أنه عقد مع الشيخين السالمي وإمام " عقد أخوة في الله وتكفلاً لي بالدعاء مدة حياتهما في تلك المقامات الشريفة ، ووهب أخونا الشيخ محمود السالمي ديوان الشيخ محمد العلمي ، وفيه من جيد القصائد المحتوية على قصائد الصوفية وأمداح خير البرية ما لا يُحصى ذكره ، ووهب لي جملة من رسائله " (٢) ، وقد قام العياشي بإيراد ترجمة طويلة للشيخ محمد العلمي جدّ الشيخ عمر معتمداً رسالة للشيخ محمد وعنوانها معالم التصديق لمعرفة دخول الفقر في الطريق .

هـ — الجوانب العمرانية :

اهتمّ العياشي كثيراً بالحديث عن عمارة المساجد والجوامع التي زارها في المدن الفلسطينية ، فوصف المسجد الأقصى وصفاً دقيقاً " وهذا المسجد المقدس آية من آيات الله في فخامة البناء وسعة المقدار ، فيه أشجار كثيرة من التين والزيتون عظيمة ، تحت كل شجرة مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظلل أغصان الشجرة وطوله من الجهة الشرقية ستمائة ذراع وخمسة وستون ذراعاً بالذراع المالكي ، وعرضه أربعمائة ذراع وستون ذراعاً بالذراع المالكي ، وأمّا الأورقة التي في داخله والبيوت التي في خارجه ، فشيء كثير وهو كله مسقف ، وفيه تُصلّى الجمعة ، وبنائوه من أرفع الأبنية وفي ركنه الشرقي موضع يزار فيه حجر منحوت يقال له مهد عيسى ، وهناك طاقات واسعات في جدار المسجد يشرف منها إلى الوادي الذي يقال له وادي جهنم " (٣) .

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣١ .

(٣) المصدر السابق ، ص . ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

كما تحدّث العياشي عن مسجد قُبّة الصخرة ، وخاصة القبة والأبواب " في وسط المسجد قُبّة الصخرة ماثلة مثمّنة الشكل ، لها أربعة أبوابٍ دون القبة ، كلّها نحو خمسمائة قدم ، وحيطان القبة وأرضها كلّها مزخرفة بأنواع الفسيفساء المصبوغة بأصباغٍ مختلفةٍ ونقوشٍ عجيبةٍ ، وهي في غاية الارتفاع وإيقان البناء ، وأبوابها في غاية العظمة والإتقان والصخرة يميل لونُها إلى الزُرْقَة ، وهي في غاية الصلابة ، وشكلُها فيه استدارة يغلب عليه الطول وغلظها نحو ذراعين ، وعلى ظهر الصخرة ندوب ومربعات صغيرة وكبيرة كأنّها أماكنُ أحجارٍ قُطِعَتْ منها " (١) ، وقد أشار العياشي إلى القبة الموجودة وراء قُبّة الصخرة " من وراء قُبّة الصخرة قبة لطيفة يصلّي فيها الناس ، يقال أنّ منها عُرِجَ برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليلة المعراج ، ويحيط بمسجد الصخرة صخر كبير مفروش بالحجر المنحوت ، وعلى أطراف الصخر بيوت ينزلها المتعبّدون ، وكذلك تحته ، وهي مُتعدّدة " (٢) ، ويلخص العياشي كلامه عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة بقوله " وبالجملّة ، فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى ، وما حولهما من المزارات شيء كثير " (٣).

ومن الأمور التي لفتت انتباه رحالتنا حائط البراق (٤) الذي يقوم الناس بزيارته ، والتبرّك به " من ذلك حجر خارج أبواب المسجد الغربية مقبوع هو في الأصل حائط يزوره الناس ويدخلون فيه أيديهم ويتمسحون به ، يقولون إنه الذي ربط به النبي صلى الله عليه وسلم دابة البراق ليلة المعراج " (٥). ومن المساجد الأخرى التي تعرّض لذكرها العياشي مسجدُ غزّة الكبير الذي وصفه بقوله " وهذا المسجد من أحسن المساجد عالي البناء ، فسيح المنظر له صحن رائق مفروش بالمرمر والحجارة المفروشة وعن يمين قُبّة الصحن مسجد كبير مرفوع على سوارى كبيرة لا يُصلُّون فيه إلّا في أيّام الشتاء ، ووجدنا الفعلة مجتهدين في تبييضه وتجديد نقوشه ، أمّا بنيانه فلا يحتاج إلى تجديد لفخامته ووثاقه ، وكان أصله كنيسة كغالب مساجد ذلك الساحل ، إلّا أنّ المسلمين لمّا ملكوا البلاد من يد الفرنج صيّروها مساجد ، وقد سمعت من بعض أهل غزّة أنّ مسجدهم ذلك كان كنيسة في زمن المسيح عليه السلام " (٦). كما وصف العياشي الجامع الأبيض (٧) القائم في مدينة الرملة حيث ذكر أنّ هذا المسجد

(١) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .

(٤) حائط البراق : وهو جزء من الحائط الغربي للحرم الشريف في القدس ، وقد كان إدعاء اليهود ملكيتهم له سبباً في التوتر الذي نتجت عنه اضطرابات واشتباكات عنيفة خلال شهر آب سنة ١٩٢٩م بين العرب واليهود . الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الرابع ، ص ٣٧ .

— محمد محمد شراب : معجم بلدان فلسطين ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٨٧م ، ص ١٤٦ .

(٥) العياشي : الرحلة العياشية ، الجزء الثاني ، ص ٤٢٢ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠٨ .

(٧) من أشهر جوامع فلسطين أقامه سليمان بن عبد الملك عندما كان والياً على الرملة ، ثم أتم إنشاءه في خلافته . الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الثاني ، ص ٩٣ .

كان بالأصل كنيسة " كان في الأصل كنيسة ، صار اليوم نصفه مسجد ونصفه كنيسة ، تسمعُ أصواتَ كلّ من المحليين في الآخر " (١) ، وذكر العياشي أنّ السبب في ذلك يعود إلى أيام الفتح الإسلامي " وزعموا أن سبب ذلك أن المسلمين في وقت فتح البلد دخل بعضهم من ناحية الصحن صلحاً ، والبعض من الناحية الأخرى عنوة ، فاجتمعوا في وسط الكنيسة ، فصار نصفها مسجد والنصف الآخر كنيسة " (٢)

وهكذا من خلال ما تقدّم نستنتج أنّ العياشي لم يكن مهتماً بالتعرّف على الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال زيارته لبعض المدن في فلسطين ، بل كان جُلّ اهتمامه منصباً على الجوانب الدينية كزيارة المساجد والمزارات والالتقاء بالعلماء ورجال الدين من أصحاب الطُرق الصوفيّة ، وخاصّةً الطريقة الرفاعية(٣) ، والحصول من أصحابها على الإجازات والشهادات ، وهذا ما كان يهدف إليه معظم الرّحالة المغاربة الذين زاروا المشرق في تلك المرحلة حيث كان اهتمامهم مُنصباً بشكل كبير على النواحي الدينية والثقافية من زيارة الأماكن الدينية والالتقاء بالعلماء المشاركة ، وتبادل الإجازات معهم .

رابعاً — مقارنة بين كتابات الرّحالة المغاربة وكتابات بعض الرّحالة العرب المشاركة والأوربيين الذين زاروا بلاد الشّام في القرن السابع عشر:

يمكن القول إنّهُ من خلال عَرَضٍ ومقارنةٍ كتابات بعض الرحالة العرب المشاركة والأوربيين الذين زاروا بعض المناطق في بلاد الشّام في فتراتٍ متقاربةٍ مع زيارة الرحالة المغاربة نصلُ إلى صورةٍ واضحةٍ عن أوضاع بلاد الشّام في تلك المرحلة ، خصوصاً مع اختلاف الاهتمامات بين الرّحالة العرب والأوربيين الذين أفاضوا في الحديث عن بعض الجوانب التي أغفلها الرّحالة العرب ، ولاسيّما الاقتصادية منها . ومن أهمّ الرّحلات العربية

(١) العياشي : الرحلة العياشيّة ، الجزء الثاني ، ص ٤١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١٩ .

(٣) الطريقة الرفاعية : بدأت هذه الطريقة في جنوبي العراق ما بين البصرة وواسط في القرن السادس الهجري ، ثم انتقلت إلى المناطق المجاورة كسوريا وفلسطين وتركيا ومصر ، مؤسس هذه الطريقة هو أحمد بن علي الرفاعي ٥١٢ — ٥٧٨هـ / ١١١٨ — ١١٨٢م ، وهو عربي من قبيلة رفاعية ، كان مقره بلدة أم عبيدة المعروفة حالياً بالرفاعية قرب البصرة ، وقد تنافست هذه الطريقة مع الطريقة القادرية ، وكان لهذه الطريقة زاويتان في القدس ، أحدهما تحولت فيما بعد إلى فقراء الهنود ، وأصبحت تدعى بزواية الهنود ، وهي حارة السعدية داخل السور عند باب الساهرة ، والثانية عند باب الغوانمة وتدعى بزواية أبي السعود ، وسميت كذلك لكثرة المنتسبين من أفراد هذه العائلة إلى هذه الطريقة . كامل جميل العسلي : معاهد العلم في بيت المقدس ، الطبعة الثانية ، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان ، ١٩٨٤م ، ص ٣١٠ .

المشرقية التي تحدّثت عن بلاد الشام في القرن السابع عشر رحلة الخياري^(١) (١٠٣٧-١٠٨٣هـ/١٦٢٨-١٦٧٢م) " تحفة الأدباء وسلوة الغرباء " التي تتضمن الكثير من التفاصيل الهامة عن أحوال هذه المنطقة .

فقدّم الخياري في كتابه صورة واضحة عن مدينة دمشق في القرن السابع عشر، وخاصة الجوانب التي لم يشير إليها المقرئ كالمقاهي والحمّامات والأسواق حيث وصف مقاهي دمشق بأنها " من ألطف ما تلحظه بالشام النواظر خانات القهوة ، وهي متعددة ومتفاوتة في المحاسن، فمنها الخالي من الأنهار الجامع للأقمار، ومنها المشتمل على الأنهار، ومن ألطف كاساتها إذا حملتها أكف سقاتها ، وأما إذا أدبرت الغزالة وجرت الليل أذياله ، فإنك ترى بسمائها من النجوم قناديل سباكاً وأطواقاً ، إنها بذلك القطر أعمر من الجوامع " (٢) . أما حمّامات دمشق فقال فيها " أما حمّاماتها وما أدراك ما حمّاماتها ! فكلُّ منها يكسب النعيم ، تشتملُ على لطافة الأوضاع وحُسْن الصنّاع وترى بها من حُور الجنان أو كأنما فرّ من رضوان ، فعند ذلك تتحقّق النفس أنّها ذات نعيم ، وأنّ نارها وإن اشتدت نار إبراهيم " (٣) ، كما تحدّث الخياري عن الأسواق "وأما أسواقها ، فهي التي تزيد للنفوس فيها أشواقها ، وتقف فيها شاخصة من النظار أحداقها ، بجمعها ما يرق الطرف وينيل العطف ممّا تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين ، وتقرّ بالعجز عن تفصيل وصفه الألسن " (٤).

وقدّم الخياري وصفاً لأنهار دمشق السبعة " أما أنهارها السبعة ، فإنها تبطن ذلك الوادي ، فبعضها يرتفع من جهة اليمين ، وبعضها يرتفع من جهة اليسار، وهي هكذا نهر المزة ، نهر الداراني، نهر قنوات ، نهر بانياس ، نهر بردى ، نهر ثورا ، نهر يزيد إن نهر المزة هو أولها على يمين من كان بالربوة نهر الداراني هو النهر الثاني أعلى عمّا قبله ، ومنه يسقى بستان النوفر.... ونهر قنوات وهو النهر الثالث أعلى منه بنحو قامة مُصعداً نحو الجبل، نهر بانياس وهو الرابع إلى جانب بردى قريب منه ، نهر بردى وهو الخامس في وسط الأرض ، وهو أعظمها ، ومنه ينقسم بانياس عند المقسم في وسط الربوة ، ونهر ثورا

(١) الخياري (١٠٣٧-١٠٨٣هـ/١٦٢٨-١٦٧٢م) : هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن علي المدني الخياري ، أصله من مصر ، وسكن المدينة ، ثم رحل إلى الأستانة ودمشق ، من أشهر مؤلفاته تحفة الأدباء وسلوة الغرباء . للتفصيل الزركلي : الأعلام ، الجزء الأول ، ص ٤٥

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، ٣ أجزاء ، (د.ن) ، بغداد، ١٩٨١م ، الجزء الثاني ، ص ١٧٠.

(٣) المصدر السابق ، ص . ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٥.

وهو السادس إلى جانبه بنحو قامتين أو ثلاث ، وهو نهر عميق كثير الجري ، ونهر يزيد وهو السابع فوقه بنحو ذلك أعلى الجبل ، وبه محل يُسمَّى المنشار " (١).

كما نالت المباني الدينية اهتمام كبيراً من الخياري ، فخصّ الجامع الأموي بكثيرٍ من الوصف على عكس المقرّي الذي لم يذكر أية تفاصيل عن النواحي المعمارية المتعلقة بهذا المسجد " هو مؤزّرٌ بالرخام الملون الحسن الوضع مُشتمِلٌ على مقصورةٍ بداخلها المنبر العظيم الوضع المعمول من الخشب بأحكم صنْعٍ وبها المحراب الكبير.... وأمّا المقصورة قُبّةٌ عالية حسنة الوضع سامية ، يتزاحم الدمشقيون على التدريس بذلك الموطن والمسجد والله الحمد عامر بالتدريس في مواطن كثيرة منه وبالمسجد المذكور منارات ثلاث أحدها في ركنه الشرقي قريباً من بابهِ المُسمّى باب جيرون ، عظيم وضعها ، شامخ رفعها وبه منارة أخرى يقال لها منارة العروس وصحن الجامع هذا من أعاجيب الدنيا مفروش بالرخام الأبيض ، العظيم القطع، الباهي البريق واللمعان " (٢).

أما فيما يتعلّق بالمسجد الأقصى ومسجد قُبّة الصخرة فاتفق الخياري مع العياشي على المكانة الدينية الكبيرة التي يتمتع بها كلا المسجدين ، كما قدّم الخياري وصفاً لكلٍ من المسجدين من الناحية العمرانية يتفق مع ما ذكره العياشي ، فوصف المسجد الأقصى بأنه "مسجدٌ كاملٌ الصفات ، مُستحسنٌ الأوضاع والسمات ، في صدر الحرم الواسع الأكتاف ، المنبسط الأنحاء والأطراف في جهة قبلته " (٣)، كما تحدّث عن أبواب هذا المسجد العظيم "وأما أبواب المسجد الأقصى المشتمل على المنبر والمحراب فَعَشْرَةُ أبواب : سبعةٌ من جهة القبلة ، وواحدٌ من جهة المشرق ويُسمّى باب الخضر، وواحدٌ من جهة المغرب ، والباب الثالث لجهة الأقصى العتيق ، وبين أبواب هذا الجامع السبعة والصخرة بحرة ماءٍ عذبٍ بها كأس من الرخام الأبيض حسن الوضع والصنع" (٤) ، أمّا قبة الصخرة ، فوصفها بقوله " هي قُبّةٌ تأخذ الأبصار، وتقضي لرائيها بالاعتبار، مُعشاةً بالقيشاني الحسن الألوان والإبداع ، الكامل في حُسْنِ الصناعة والارتفاع ، وهي كما أخبرني بعضٌ من لقيته من بناء عبد الملك بن مروان ، وأمّا القاشاني من عمل سليمان ، وكذلك ما تحته مُغشّى به والقُبّة من الرخام

(١) الخياري : تحفة الأدباء ، ص . ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ١٦٤ - ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص . ص ١٩٠ - ١٩١ .

الأبيض العريض القَطْعَ فَمِنْ عمله أيضاً ، وأنه كان ببعض الكنائس ، فأخذه ونقله إليها " (١) ، وبشكلٍ عامٍّ أسهبَ الخياري في وصف عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة (٢).

وقد ذكر الخياري أسماء بعض العلماء والفقهاء الذين التقى بهم أثناء تنقله بين المدن الشامية والذين كان قد كان قد التقى ببعض منهم كلاً من المقرئ و العياشي ، ففي مدينة دمشق أشار الخياري إلى لقائه بكل من محمد الحسيني نقيب الأشراف ، والمفتي أحمد أفندي ، وإسماعيل المحاسني خطيب الجامع الأموي ، والشيخ إبراهيم الفتال ، وقاضي الشام أحمد البكري ، والأمير منجك ، والشيخ رمضان المعطيفي ، الشيخ والرحالة المشهور عبد الغني النابلسي ، والشيخ حسن العدوي ، و خليل بن الطريف الحنبلي ، الشيخ عبد القادر الصفوري الشافعي ، والشيخ زين العابدين بن أحمد البصراوي (٣) ، أما بالنسبة للعلماء الذين التقى بهم الخياري في فلسطين نذكر منهم خير الدين الرملي ، والشيخ إبراهيم بن سليمان بن محمد بن الجيني في الرملة ، والشيخ عبد القادر الغزي بن الحاج أحمد الغصين في غزة.

كما لا بدّ من الإشارة إلى أن الخياري وصف بعض المناطق والمدن التي مرّ بها والتي سبق أن ذكرها العياشي في رحلته حيث أن العياشي زار بعض المدن في فلسطين قبل زيارة الخياري لها بحوالي سبعة سنين ، ومنها اللد التي قال عنها الخياري " عَذْبٌ هواها مُخَضَّرٌ أنحاؤها " (٤) ، والرّملة " قرية سامية ، عامرة البناء ، بها المساجد العامرة ، وبها بركة عظيمة تمتلئ عند منزل الحُجّاج " (٥) ، وبيت لحم " وبها محلّ يقولون إنّ مَهْدُ سيدنا عيسى وإلى جانبه كنيسة النّصارى ، ومحلّ هذا المهد يُنزل إليه بدرجاتٍ فإذا المحلّ فيه رخامٌ أبيضٌ ، وفيه موضع منخفض " (٦) ، وغزة " هي بلدة معالمها عامرة ومحاسنها شهيرة ظاهرة " (٧).

أمّا الرحالة الثاني الشيخ عبد الغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ/١٦٤١-١٧٣١م) الذي يُعدُّ من أشهر الرّحالة والمتصوفيين الذين عرفتهم منطقة المشرق العربي في العهد العثماني ،

(١) الخياري : تحفة الأدباء ، ص ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ١٧٤ - ١٩٥ .

(٣) عبد القادر الريحاني : رحلة الخياري إلى سوريا في القرن الحادي عشر الهجري ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، إصدار مديرية الآثار العامة ، دمشق ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثاني ، ١٩٦٥م ، ص . ص ١١ - ١٣ .

(٤) الخياري : تحفة الأدباء ، الجزء الثاني ، ص ١٦٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨) عبد الغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ/١٦٤١-١٧٣١م) : هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي ، شاعر ومتصوف وعالم دين ، ولد ونشأ في مدينة دمشق ، ورحل إلى بغداد ، ثم عاد إلى دمشق ، ليتنقل بعد ذلك بين فلسطين ولبنان ،

فهو صاحب أربع رحلات قام بها في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، وقد تميّزت كتابات النابلسي عن بلاد الشام بالغنى وكثافة المعلومات ، إضافة إلى أنّ رحلتين من رحلاته الأربعة كانت إلى بعض المدن اللبنانية التي لم يزورها أحد من الرحالة المغاربة في القرنين السابع عشر والثامن عشر لأسباب عدّة وهي عدم احتواء لبنان على أماكن إسلامية مقدّسة لها مكانتها الكبيرة في العالم الإسلامي ، ولكون لبنان — بالتسمية الحالية — لا يشكّل جزءاً من طريق الحجّ إلى مكّة المكرمة ، لذلك نستطيع القول إنّ رحلتي النابلسي "حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز" و " التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية" قد ألقت الأضواء على هذه المنطقة الهامة من بلاد الشام التي لم تشكّل جزءاً من اهتمامات الرحالة المغاربة في تلك المرحلة ، وقد قدّم النابلسي في رحلته المسماة " حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز" بعض المعلومات عن أحوال المناطق التي مرّ بها ، وخاصةً عن بعلبك ومن أبرز تلك المعلومات وصّفه لقلعة بعلبك^(١) وقلعة قبّ إلياس التي بناها فخر الدين المعني الثاني^(٢)، كما أشار إلى عدد كبير من المزارات الموجودة في المناطق التي زارها ، وتحدّث عن عدد من الجوامع ، منها جامع الحنابلة في بعلبك.

أما الرحلة الثانية للشيخ عبد الغني النابلسي إلى لبنان وهي " التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية " فكانت إلى مدينة طرابلس التي توجه إليها من مدينة دمشق في يوم الاثنين ٢ ربيع الأول سنة ١١١٢هـ/ ١٦ آب ١٧٠٠م ، وقد قدّم لنا النابلسي في هذه الرحلة الكثير من المعلومات الهامة عن بعض المدن اللبنانية التي زارها في ذلك الوقت ، وخاصةً من الناحية العمرانية حيث ذكر النابلسي جميع المساجد والزوايا والحمّامات الموجودة في كلّ مدينة زارها، فعند حديثه عن المساجد أشار إلى وجود ستة جوامع في صيدا ، وأهمها الجامع الكبير المسمّى بالعمري الذي وصفه بقوله " وهو جامع رفيع البناء مشرق الأرجاء كالبدن المنير مطلّ على البحر، وفي فنائه بركة دافقة البناء مياها عذبة رائقة وفي وسطها قبة عظيمة البناء ، وفي خارجه صفة صغيرة محكمة الأركان مشرفة على البحر العظيم " ^(٣) ، وجامع الكيخية ، وجامع ابن قطيش ، وجامع البحر ، وجامع السوق ، ويعرف أيضاً بجامع البطاح ،

كما سافر إلى الحجاز ومصر ، له الكثير من المؤلفات من أشهرها إيضاح الدلالات في سماع الآلات ، والحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز ، حلة الإبريز في الرحلة إلى بعلبك والبقاع العزيز ، والتحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية ، الحضرة الإنسية في الرحلة القدسية . الزركلي : الأعلام ، الجزء الرابع ، ص ٣٦ .

(١) عبد الغني النابلسي ، رمضان بن موسى العطيبي : رحلتان إلى لبنان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، اسطفان فيلد ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت ، بيروت ١٩٧٩م ، ص ٨١ — ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٣) عبد الغني النابلسي : التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية ، حققه وقدم له هريبرت بوسه ، مكتبة الثقافة الدينية ، (د.م) ، (د.ت) ، ص ٧ .

والمحتسب . أمّا بالنسبة للجوامع الموجودة في بيروت ، فذكر النابلسي وجود أربعة جوامع ، وهي الجامع الكبير ، وجامع الأمير منذر ، وجامع الأمير عساف ، وجامع البحر . أمّا جوامع طرابلس فهي كما ذكر النابلسي اثنا عشر جامعاً ، الجامع الكبير ، وجامع طيلان ، وجامع المحمودية ، وجامع الطحال ، وجامع الغناشاه ، والبرطاسية ، وجامع الأويسية ، وجامع العطار ، وجامع التوبة ، وجامع محمود بيك ، وجامع التفاحي ، وجامع القلعة . أمّا بالنسبة للزوايا فقد أشار النابلسي إلى كثرة الزوايا الموجودة في المدن التي زارها ، وخاصةً بيروت وعبرَ عن ذلك بقوله " فمن الزوايا زاوية مشرقة الأنوار تُسمّى بزاوية ابن القصّار ، وهي نيرة مرتفعة البنيان ، يجتمع فيها الحفّاظ ما بين العشائين يتدارسون بها القرآن ، ومنها أيضاً زاوية تُسمّى بزاوية ابن الحمرا يُقام فيها الذكّر والأورادُ ، وهي مُتسعة بها إيوان به محراب كبير " (١) .

أمّا الحمّامات فذكر النابلسي وجود أربعة حمّامات في مدينة بيروت ، وهي حمّام الأمير فخر الدين بن معن ، وحمّام القيشاني ، وحمّام الأوزاعي ، أما الرابع فهو قديم لا يُعرف اسمه وأشار النابلسي إلى أنّ جميع تلك الحمّامات مهجورة باستثناء حمّام الأمير فخر الدين والسبب كما ذكر " وسبب ذلك الظلم من الحكّام ، فإنّ هذا الحمّام للميري ، ويؤجره الحاكم كلّ سنة هو وقهوة هناك " (٢) ، وفي طرابلس ذكر النابلسي وجود أحد عشر حمّاماً وهي حمّام النوري ، وحمّام عز الدين ، وحمّام الدواير ، وحمّام الطواقية ، وحمّام العبد ، وحمّام القاضي ، وحمّام العاطر ، وحمّام الناعورة ، وحمّام الحاجب ، وحمّام القرافيش ، وحمّام القلعة ، وفي صيدا ثلاثة حمّامات هي حمّام السوق ، وحمّام الأمير ، وحمّام الشيخ . وحوّت هذه الرحلة على عدد كبير من أسماء المزارات الموجودة في المناطق التي زارها النابلسي مثل قبر شبيب أبي روح الكلاعي في صيدا ، ومزار عثمان الكردي الموجود في الطريق ما بين بيروت وطرابلس وغيرها الكثير من المزارات . أمّا فيما يتعلّق بالنواحي السياسية والاقتصادية ، فلم يذكر النابلسي أيّة معلومات متعلّقة بهذه الجوانب باستثناء إشاراته إلى بعض اللقاءات التي جمعتها بحكّام بعض المناطق التي مرّ بها .

وقام النابلسي برحلةٍ ثالثة كانت إلى القدس أطلق عليها اسم " الحضرة الإنسانية في الرحلة القدسية " في شهر جمادى الثانية سنة ١١٠١هـ / آذار سنة ١٦٩٠م ، فكانت معظم المعلومات التي دونها النابلسي في هذه الرحلة متعلّقة بالجوانب العمرانية والدينية ، لكنّ ذلك لم يمنعه من التطرّق لبعض الجوانب السياسية ، حيث كرر ما ذكره العياشي عن اضطراب

(١) النابلسي : التحفة النابلسية ، ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

الأوضاع الأمنية في فلسطين ، غير أن النابلسي لم يكتفِ بالإشارة إلى كثرة اللصوص وقطّاع الطُرُق ، بل أشار إلى قيام حركاتٍ عصيانٍ ضدّ السلطات الحاكمة ، مثلما حدث عند مروره بقرية عيون التجار حيث كان جامعها مُغلَقاً بسبب فتنةٍ قُتِلَ بها شيخُ القرية " وقد نُهب الجامع وما فيه وقفلوا بابه ومنعوا منه من يبتغيه ، وفي رجوعنا كان الأمر كذلك " (١).

كما زوّدنا النابلسي في هذه الرحلة ، كما فعل العياشي من قبله ، بكثير من المعلومات عن المزارات الموجودة في فلسطين ، وأسماء عدد كبير من أعيانها وعلمائها ، لكن بقي الجانب العمراني الجانب الأهم والأكثر غنىً في رحلة النابلسي حيث انصبَّ اهتمامه بدرجةٍ كبيرة على وصْفِ المساجد كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الكبير في نابلس والمسجد الإبراهيمي في الخليل ، والزوايا كزاوية الشيخ نصر الدين اليعبدي وزاوية القدم في نابلس ، والزاوية القادرية في الخليل ، والمدارس كالمدرسة الصلاحية والمدرسة القرشندية ، والمدرسة القادرية ، والمدرسة البسطامية وغيرها ، والحمّامات كحمّام الشفافي في القدس ، وحمّام الريش في نابلس ، والخانات كالحان الموجود في جسر بنات يعقوب وخان المنية وخان سعسع ، هذا بالإضافة إلى وصْفِهِ لعدد كبير من المزارات التي زارها في فلسطين ، وبالمُجمل يمكن القول أن كتاب الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية يُعدُّ من أهمّ المصادر التي تتحدّث عن فلسطين في نهاية القرن السابع عشر ، وخاصةً من الناحية العمرانية .

أمّا الرحلة الأهم والأكثر شهرةً بين رحلات النابلسي فهي " الحقيقية والمجاز في رحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز " أو كما دعاها النابلسي الرحلة الكبرى ، حيث تُعدُّ هذه الرحلة الأكثر غنىً بالمعلومات عن بلاد الشام بين جميع كُتُبِ النابلسي ، لكونه زار معظم مدن بلاد الشام ، ولم تخرج المعلومات التي دوّنها النابلسي في هذه الرحلة عن الإطار العام الذي تميّزت به الرحلات السابقة لهذا الرجل الكبير حيث انصبَّ اهتمامه على الجوانب والعمرانية بالدرجة الأولى ، لأنّ الهدف الرئيس وراء القيام بهذه الرحلات زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة ، بالإضافة إلى زيارة مزارات الأولياء والصالحين .

كما زار بلاد الشام في القرن السابع عشر عددٌ من الرحالة الأوروبيين نذكرُ منهم على سبيل المثال الرحالة الفرنسي لوران درافيو (٢) " D,Arvieux " (١٦٣٥-١٧٠٢م) الذي بدأ

(١) عبد الغني النابلسي : الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ، تحقيق ودراسة أكرم حسن العلي ، الطبعة الأولى ، دار المصادر، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص ٤٨ .

(٢) لوران درافيو (١٦٣٥-١٧٠٢م) : رحالة ودبلوماسي فرنسي ، ولد في مرسيليا في سنة ١٦٣٥م ، قام برحلة إلى الشرق في سنة ١٦٥٤م ، زار خلالها بلداناً عدّة منها سوريا ولبنان وفلسطين ، كما زار تونس في سنة ١٦٦٦م ، ثم عاد إلى فرنسا ،

رحلته من مرسيليا سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م ، بتكليف من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، للقيام ببعض المهمات في المشرق والمغرب حيث شغل مناصباً قنصليةً عدةً في حلب وصيدا والجزائر، وفي عدة مراكز تجارية تابعة للدولة العثمانية^(١) ، وقد زحرت مذكرات الفارس دارفيو بمادة علمية غزيرة عن المناطق التي زارها فيما يتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية^(٢) ، فحظيت بلاد الشام بأهمية كبيرة عند دارفيو الذي أفرد الكثير من الصفحات للحديث عنها والتي لا مجال لذكرها جميعها ، ولذلك سوف نكتفي بالتطرق إلى المعلومات التي ذكرها عن مدينة دمشق وبعض المدن في فلسطين — أي المناطق التي زارها الرحالة المغاربة — نظراً لأهمية تلك المعلومات في إلقاء أضواء هامة على بعض الجوانب التي أغفل الرحالة المغاربة الحديث عنها ، وخاصةً فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية.

فأشار دارفيو إلى أن مدينة دمشق تعدُّ واحدة من أكثر المدن اتجاراً في الدولة العثمانية بما تحتويه من مصانع يدوية للمخمل الممتاز المطرّز وأصناف أخرى من النسيج ذي اللون الواحد والمخطّط والمموج ، والمناديل الحريرية ، والأقمشة القطنية ، كما تعدُّ مركزاً لتجمع القوافل القادمة من مكة والتي تحمل إليها جميع أنواع العقاقير والتوابل ، وبضائع بلاد فارس والهند ، إضافةً إلى ما يحمله إليها الأوربيون من الأغذية الحريرية والأصواف والذهب والسكر، وكميات من البضائع الأخرى التي تفرغ في صيدا وبيروت وطرابلس ، ثم تنقل من هذه المرافئ مع القوافل إلى دمشق ، كما تحدّث دارفيو عن أسواق مدينة دمشق التي تباع فيها جميع الأصناف من البضائع الثمينة كالأحجار الكريمة والأقمشة المذهبة والحرير بأنواعه ، وما شابه ذلك^(٣).

أما من الناحية العمرانية ، فأبدى دارفيو إعجابه بالبيوت الدمشقية شأنه شأن المقري مشيراً إلى أن القسم الأعظم منها مبني من الطين ، وهي تبدو صغيرة الحجم من الخارج ، لكنها كبيرة من الداخل ، وحسنة الترتيب ، ونظيفة ومفروشة بشكل جيد ، كما أن جدرانها ملبّسة ومزخرفة ومزينة بالرّسوم وفق الطابع المميّز للمدينة ، أما فيما يتعلق بالجامع الأموي فوصفه دارفيو بأنه واحد من أجمل الصروح التي كانت قائمة في نطاق الدولة العثمانية " يبلغ

تولى بين سنتي ١٦٧٤-١٦٧٥م مسؤولية القنصلية الفرنسية في الجزائر ، توفي في سنة ١٧٠٢م . للتفصيل ليلي الصباغ : فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو ، الطبعة الأولى ، دار المصادر ، بيروت ، ١٩٩٦م ، ص ١٧-٢٤.

(١) عبد الكريم رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، الدراسات الخاصة ، المجلد الثاني ، الدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص ٧٤٠.

(٢) الصباغ : فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو ، ص ٣٢.

(٣) أحمد أبيش : وصف دمشق في القرن السابع عشر من مذكرات الرحالة الفرنسي الفارس دارفيو ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٨٢م ، ص ٢٩-٣٠.

طوله ثلاثمائة خطوة ٧٥٠ قدماً ، وعرضه ستين خطوة ١٥٠ قدماً ، وتستند أجنحته الثلاثة على عمودٍ من الرخام وحيطانه مُوشَّاةٌ بالفسيفساء مع زخارف بالذهب واللازورد ، ويتمّ الدخول إلى الجامع من اثني عشر باباً جميلاً ذات مصاريع مكسوّة بالنحاس المنقوش ، كما تزيّنها أعمدةٌ غاية في الروعة ، ويُشرفُ الباب الرئيسُ على صحنِ الجامع ، والصحنُ مُبلّطٌ برخامٍ أبيضٍ صقيلٍ للغاية شديد اللّمعان ، حتى تخاله من صفحات المرايا ، وعلى جوانب هذا الصحنِ أروقةٌ مكشوفةٌ ترتكز على صفيّين من أعمدة الرخام والبرفير ، وفيها تجد زخارف مشغولة بمنتهى الدقة ، كما أنّ هذه الأروقة مزدانةٌ بالصورِ ومذهبةٌ ، وفيها أحواض رخاميّة يستخدمها المسلمون للوضوء " (١).

كما ضمّن دارفيو مذكراته وصفاً لزيارته لفلسطين في سنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م — أي قبل زيارة العياشيّ لفلسطين بحوالي الخمس سنوات — وما ميّز كتابات دارفيو عن العياشيّ إirاده الكثير من التفاصيل عن النواحي الاقتصادية ، كما أنّ وصفه للنواحي المعمارية لم يقتصر على الأبنية الدينيّة ، فأعجبَ بعكا التي ما تزال تحتفظ ببقايا أسوارها وأبراجها المُهدّمة ، وأراضيها التي تتمتعُ بخصوبةٍ كبيرة حيث تنتشرُ فيها زراعةُ القمح والرّزّ والخضار، وتجارّتها النّشطة مع التجار الفرنسيين والأوربيين الذين يقومون بتصدير مادة القليّ المُستخدمة في تصنيع الزجاج والصابون . أمّا مدينة الرّملة فوصفها دارفيو بأنّها قريةٌ كبيرةٌ ، كثيرةُ السكّان، كما أُعجبَ بالموقع الهام الذي تتمتع به هذه المدينة الواقعة على طرق المواصلات بين يافا والقدس ، وطريق القوافل بين مصر ودمشق حيث أشار إلى الأرباح الكبيرة التي يجنيها سكان هذه المدينة من خلال مرور القوافل التجاريّة فيها، إضافةً إلى العوائد الماليّة الأخرى التي يحصل عليها سكان الرّملة من التجّار القادمين إليها لشراء الحبوب والفواكه والقطن (٢).

ومن المدن الأخرى التي زارها دارفيو مدينة غزّة التي أُعجبَ بموقعها الاستراتيجيّ رغم تواضع مساحتها ، وعدم وجود أسوار حولها ، كما ذكر رحّالتنا أنّ أبنيتها مبنية إمّا من الحجارة أو اللّبن أو من كليهما معاً ، وهي مقيّبةٌ وذات شُرُفات . أمّا فيما يتعلّق بالمساجد والكنائس والأبنية الأخرى في غزّة ، فأشار دارفيو إلى وجود جامع رئيسٍ كبير في غزّة ، إضافةً إلى وجود ستّة جوامع أصغر منه ، كما ذكر وجود كنيسةٍ للأرمن وأخرى أكبر منها للأرثوذكس ، كذلك تحدّث دارفيو عن وجود عدّة حمامات عامّة وصفها بالجميلة والمريحة ،

(١) أبّيش : وصف دمشق ، ص . ص ٣٨ — ٣٩.

(٢) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٤٢.

وأشار إلى السوق الكبير الموجود في هذه المدينة حيث ذَكَرَ أنه يحتوي عدداً كبيراً من الدكاكين والمخازن التي يستخدمها التجّار في عمليات البيع والشراء .

أما مدينة القدس فذكر دارفيو بأنها أكثر طولاً من الشرق إلى الغرب منها من الشمال إلى الجنوب ، كما أنّ المدينة محاطة بأسوار قوية ذات أبراج مربّعة ، وحولها خندق ممتد من باب دمشق إلى باب بيت لحم ، ولها سبعة أبواب ، أمّا بيوتها فمؤلفة من طابق واحد يعلو الطابق الأرضي ، وهي معقودة بالحجر المنحوت والمسوّى ولها شرفات وخزانات لتخزين مياه الأمطار ، لأنّ المدينة خالية من الآبار والينابيع ، وتُجلب المياه إليها من بُرك سليمان^(١)، وتحدّث عن كنيسة القيامة والطقوس والاحتفالات الدينية التي تُقام في عيد الفصح الذي صادف حدوثه في تلك السنة وجود دارفيو في القدس^(٢) ، كذلك زار دارفيو بيت لحم التي أعجب بموقعها المتميّز وبهوائها وتربتها الخصبة ، لكنّ على الرّغم من ذلك ، ذكر دارفيو أنّ أرضها مهجورة ، لأنّ سكّانها هاربون ومختبئون بسبب الظلم الذي يُعانونه من قبل حُكّامهم ، وذكر أنّ معظم سكّان هذه المدينة يعيشون من وراء صناعة الأدوات التذكارية الدينية ومن الهبات ، أمّا أشهر الزراعات المنتشرة في بيت لحم فهي الزيتون والتين والكرمة ، وفيما يتعلّق بمدينة الخليل فذكر أنّه لا يوجد للمدينة خندق أو سور، وأنّ جميع سكّانها من المسلمين باستثناء وجود بعض اليهود ، أمّا أشهر زراعاتها فهي الكرمة ، وأنه بسبب الأهمية الدينية لهذه المدينة يمنع إدخال الخمر إليها ، كذلك أشار إلى رواج صناعة الزجاج فيها .

أمّا الرحالة الإنكليزي هنري موندريل " Henry Maundrell " ^(٣) (١٦٦٥-١٧٠١م) الذي يُعدّ كتابه " A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697 " واحداً من أهمّ كتب الرّحلات الإنكليزية التي تتحدّث عن بلاد الشّام حيث لقي رواجاً كبيراً في أوروبا بعد ظهوره إلى النور ، وخاصةً أنّه كتّب على شكل مذكرات يومية ، وكان موندريل قد عيّن سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٥م كاهناً في مكتب شركة الهند الشرقية^(٤) في حلب ، فقام في بداية

(١) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٤٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤٥.

(٣) هنري موندريل (١٦٦٥-١٧٠١م) : ولد هنري موندريل في سنة ١٦٦٥م ، وحصل على شهادتي البكالوريوس في الآداب في سنة ١٦٨٥م ، وعمل شهادة الماجستير في العلوم اللاهوتية من جامعة إكسفورد في سنة ١٦٩٧م ، عمل كقسيس لإحدى الشركات الإنكليزية في حلب ، وقام في سنة ١٦٩٧م برحلة من حلب إلى القدس ، توفي في سنة ١٧٠١م. للتفصيل يرجى العودة إلى شيرين خير الله هنري موندريل (١٦٦٥ - ١٧٠١م) ، ترجمة عماد أبو أسعد ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد ٥١ ، السنة التاسعة ، ١٩٨٨م، ص ١٦٢.

(٤) شركة الهند الشرقية : تشكلت هذه الشركة في ٣١ كانون الأول سنة ١٦٠٠م عندما أصدرت الملكة البريطانية إليزابيث الأولى مرسوماً يقضي بإنشاء هذه الشركة ، ومنحتها سلطات احتكارية على تجارة الهند وجميع مستعمراتها في جنوب شرق آسيا ، وبهذا

سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٧م بالتخطيط للقيام برحلة إلى القدس لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في القدس ، وحضور الاحتفالات الدينية التي تقام هناك بمناسبة عيد الفصح .

وصل موندرييل إلى القدس في ٣ رمضان ١١٠٨هـ/ ٢٥ آذار ١٦٩٧م ، أي قبل يوم من الجمعة العظيمة حسب التقويم اللاتيني الغربي ^(١) ، فأقام مع أصحابه في القدس إلى أن جاء يوم الفصح ، فشاركوا في الاحتفالات التي أقيمت بهذه المناسبة ، ثم اتجهوا نحو مدينة بيت لحم برفقة حاكم المدينة الذي قام بإيصال هؤلاء الحجاج إلى الأردن ، لحمايتهم من اعتداءات اللصوص ، كما زار موندرييل البحر الميت الذي وصفه بقوله " كانت مياه البحيرة هادئة جداً وملوحتها في أعلى الدرجات ، بل كانت مياهاً مرةً ومثيرةً للقيء حيث أنني كنت مهيباً نفسي لاختبار مدى قوة هذه المياه ، فإني قفزت إليها ، فوجدت أنها تلقت جسدي بقوة كبيرة غير عادية ، أما ما يقوله بعض الكتّاب من أن السباحين يطفون على سطح المياه عندما ينزلون إلى الأعماق في داخلها ، فقد وجدت أنه قول غير صحيح " ^(٢) ، وزار أيضاً بعض المناطق المشهورة في بيت لحم كالبرك الثلاث والحدائق والينابيع ^(٣) ، قبل أن يعود مجدداً إلى القدس في الثاني من نيسان ، ليحضر طقوس النار المقدسة التي يقوم بها اليونان والأرمن استناداً إلى الحجة القائلة بأنه في كل ليلة فصح تنزل شعلة عجائبية من السماء إلى داخل الضريح المقدس ^(٤) ، ومن أهم المعلومات التي ذكرها موندرييل في رحلته إلى القدس ، والتي سبق أن أشار إليها العياشي ، كثرة الرسوم "الغفر" التي دفعها على الطرق لقاء السماح لهم بمتابعة طريقهم ، وخاصة في فلسطين ، كما ذكر موندرييل قيام السلطات العثمانية بأخذ الرسوم من الحجاج المسيحيين مقابل السماح لهم بالدخول إلى الكنيسة .

أمّا فيما يتعلق بمدينة دمشق التي زارها موندرييل في طريق عودته إلى حلب في ٦ شوال سنة ١١٠٨هـ/ ٢٧ نيسان سنة ١٦٩٧م ، فذكر أنها تبدو طويلة ومستقيمة الشكل ، وأن أطرافها تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وهي ضيقة في الوسط ، إلا أنها تتسع عند الأطراف ، وخاصة من الناحية الشمالية الشرقية ، وقدّر موندرييل طول المدينة حوالي

تحولت هذه الشركة من مشروع تجاري إلى مؤسسة تحكم جميع الولايات الهندية وجميع مستعمرات التاج البريطاني في المنطقة وذلك بدعم سياسي وعسكري من بريطانيا ، واستمر ذلك حتى حُلّت الشركة إثر إندلاع التمرد، والعصيان المدني في الهند ١٨٥٨. للتفصيل حول هذه الشركة يرجى العودة إلى مصطفى عبد القادر النجار : شركة الهند الشرقية ، مجلة التاريخ العربي ، الرباط ، العدد ١٤ ، ٢٠٠٠.

(١) Henry Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697*, Beirut, Khayats, 1963 , p 90 .

(٢) Ibid , p.p 113 – 114.

(٣) Ibid , p 118.

(٤) Ibid, p 127.

الميلين، وذكر أنّ المدينة كثيرة المساجد والمآذن ، كما وصف بيوت دمشق مبدئاً إعجابه بها ، فأعاد ما ذكره دارفيو عن أن هذه البيوت مبنية من الطين ، وأنها جميلة من الداخل فهي مربّعة وكبيرة ومزينة بمختلف أنواع الأشجار المعطرة والنوافير المصنوعة من الرخام الأبيض ومحاطة بالغرف ، أمّا الأسقف فهي مطلية ومرتبّة وفق النمط التركي . ومن الأماكن الأخرى التي زارها موندريل في دمشق كنيسة القديس يوحنا المعمدان والشارع المستقيم ^(١) . وهكذا نجد أنّ كتابات الرحالة العرب المشاركة والأوربيين قد ألقت الضوء على الكثير من الجوانب التي أغفل الرحالة المغاربة الحديث عنها ، وخاصةً من النواحي الاقتصادية ، كما شملت كتابات الخياري ومعاصريه من الأوربيين مناطق جغرافية لم يصل إليها الرحالة المغاربة في القرن السابع عشر .

خامساً - استنتاجات :

طُبعت كتابات الرحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشام في القرن السابع عشر بالطابعين الديني والثقافي ، لكون الهدف الأساسي من الرحلات المغربية إلى المشرق ديني بالأساس ، وهو القيام بالحج وزيارة الأماكن المقدسة ومزارات الأولياء والصالحين ، كما لعب اهتمام الرحالة دوراً كبيراً في توجهاتهم ، فالمقريّ والعايشي يُعدّان من كبار الفقهاء والعلماء الذين اشتغلوا في مجال التأليف والتدريس ، ولذلك فمن الطبيعي أن ينصبّ اهتمامهما على الجوانب الدينية والثقافية .

لقد تأثرت كتابات المقريّ عن بلاد الشام بشخصيته وطابعه الأدبي ، فالمقريّ يُعدّ من أشهر الشخصيات التي برعت في مجال الأدب والفقه والدين ، وشهرته وصلت إلى أنحاء متعدّدة من الوطن العربي ، ولذلك جاءت معظم كتاباته عن بلاد الشام ، وخاصةً دمشق مطبوعة بالطابع الأدبي حيث تغنى بجمال مدينة دمشق ، وما تحتويه من حدائق ومبانٍ وحتى المقابر ، كما أفاض في مدح الغوطة وبعض المناطق التابعة لمدينة دمشق كالصالحية ، كذلك أشار إلى الجامع الأموي وخصّه بكثيرٍ من المدح ، كما أمّدنا ببعض التفاصيل عن الحياة الفكرية والعلمية في مدينة دمشق ، وذكرَ أسماءَ أهمّ المشتغلين فيها ، أمّا كتاباته عن مدينة القدس فجاءت مُقتضبةً إلى درجة كبيرة ، وهذا ينسجم مع الهدف الحقيقي للمقري من وراء زيارته لهذه المدينة ، وهو زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة كالمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة .

(١) Maundrell, *A Journey from Aleppo* , p.p 171 – 173 .

أما العياشيّ – وإنّ تركّزت اهتماماته على الجوانب الدينية – فقد أمّدنا ببعض التفاصيل عن النواحي السياسية كحديثه عن فقدان الأمن في أنحاء متعددة من فلسطين ، والاقتصادية كإشارته إلى انتشار بعض الزراعات البعلية كالحبوب في القدس ، والاجتماعية والثقافية ، كذكره أسماء عدداً كبير من العلماء والفقهاء الذين التقاهم أثناء تنقله بين المدن الفلسطينية ، وإشارته إلى جميع المزارات الموجودة في كل مدينة أو منطقة زارها.

الفصل الثالث

بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن الثامن عشر

زار بلاد الشام من الرحالة المغاربة في القرن الثامن عشر كلاً من محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي وأبو القاسم الزياني اللذين قاما بتدوين أخبار رحلتيهما ومشاهدتهما في بلدان المشرق ومنها بلاد الشام ، وتميّزت كتابتهما عن هذه المنطقة بغزارة المعلومات ودقتها ، وخاصة المكناسي الذي يشترك مع الزياني في كونه من كبار رجال السياسية الذين عملوا في البلاط المغربي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، لكنّه يختلف عن الزياني في هدف رحلته إلى المشرق ، فالمكناسي قام برحلته بتكليف من السلطان المغربي محمد بن عبد الله (١١٧٠ - ١٢٠٤هـ/١٧٥٧ - ١٧٩٠م) (١) الذي كلفه بترؤوس سفارة مغربية إلى العاصمة العثمانية ، وبعد الانتهاء من سفارته أمره بالتوجه إلى الحجاز لتوزيع هداياه وهباته على أهل الحرمين الشريفين ، فقام المكناسي بمرافقة قافلة الحجّ العثماني التي اجتازت بلاد الشام في طريقها على الحجاز، أما أبو القاسم الزياني فقام برحلته إلى المشرق عموماً وبلاد الشام خصوصاً بدافع شخصي .

أولاً - محمد بن عبد الوهاب المكناسي (٢) (المتوفى في ١٢١٣هـ/١٧٩٩م) رحلة المكناسي:

يُعدُّ محمد بن عبد الوهاب المكناسي من أبرز الشخصيات المغربية التي كان لها دور كبير وفَعَال في الحياة السياسية والدبلوماسية في المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقات المغرب مع إسبانيا والدولة العثمانية (٣).

(١) محمد بن عبد الله (١١٧٠ - ١٢٠٤هـ/١٧٥٧ - ١٧٩٠م) : يُعدُّ السلطان محمد بن عبد الله من أشهر سلاطين الأسرة العلوية حيث استطاع إعادة الأمن والاستقرار إلى المغرب بعد فترة من الفوضى والاضطرابات ، كما قام ببعض الإصلاحات الداخلية التي شملت ميادين عدّة كالجيش والقضاء ، وتميّز عهده بحركة دبلوماسية قوية حيث تمتع المغرب بعلاقات جيدة مع أغلب الدول الأوروبية كإسبانيا وفرنسا وإنكلترا . للتفصيل انصاري : الاستقصاء ، الجزء السابع ، ص . ٩ - ٩٨ .

(٢) لم يتمكّن المؤرخون من تحديد تاريخ ولادته بشكل دقيق ، لكن يُرجّح البعض أنّ ولادته كانت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري / الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي . للتفصيل يرجى العودة إلى محمد بن عثمان المكناسي : الإسفير في فكاك الأسير ، حقّقه وعلق عليه محمد الفاسي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ١٩٦٥م ، المقدمة ص ط .

(٣) عبد الهادي التازي : القدس والخليل في الرحلات المغربية رحلة ابن عثمان نموذجاً ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - ، الرباط ، ١٩٩٧م ، ص ٢٥ .

١- المولد والنشأة :

وُلِدَ المكناسي في مدينة مكناس في منتصف القرن الثاني عشر الهجري / الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي ، ونشأ في كنف أسرة عريقة مشهورة باهتماماتها العلمية ، فوالده محمد بن عثمان المكناسي كان كاتباً وواعظاً في أحد مساجد مدينة مكناس^(١) التي كان لها دورٌ كبيرٌ في نبوغ المكناسي ، فمدينة مكناس كانت عاصمةً للدولة العلوية في عهد مولاي إسماعيل وأبنائه من بعده ، وعلى الرغم من تراجع مكانتها السياسية بعد وفاة مولاي إسماعيل بسبب ما عانته من اضطرابات خلال فترة أزمة الثلاثين عاماً (١٧٢٧-١٧٥٧)^(٢)، ثم انتقال العاصمة إلى مراكش مع اعتلاء السلطان محمد بن عبد الله العرش سنة ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م ، فقد ظلت مكناس محافظة على دورها الثقافي والعلمي بسبب استقرار عدد كبير من أبناء العائلات العلوية بها ، إضافة إلى اهتمام السلاطين بالحفاظ على مكانتها العلمية والثقافية والذي عززه وجود أعداد كبيرة من العلماء والأدباء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الثقافية في هذه المدينة ، مما جعلها تتحول في تلك الفترة إلى أحد أكبر المراكز العلمية والفكرية في المغرب .

وبسبب ما تقدّم ذكره فقد تلقى المكناسي قسطاً وافراً من العلم والمعرفة بسبب احتكاكه بعدد كبير من أشهر العلماء والأدباء في المغرب في القرن الثامن عشر، بشكل أصبح فيه المكناسي مؤهلاً لشغل عدة مناصب عليا في الدولة في عهد السلطان محمد بن عبد الله (١١٧٠-١٢٠٤هـ / ١٧٥٧-١٧٩٠م) الذي قرّبه منه ، ثم عينه كاتباً في القصر السلطاني ، واستمرّ المكناسي بهذا العمل لعدة سنوات نال خلالها إعجاب وثقة السلطان محمد بن عبد الله الذي تمكن من إعادة الهدوء والاستقرار إلى المغرب بعد فترة من الصراعات والحروب على العرش بين أبناء السلطان إسماعيل في أعقاب وفاة والدهم حتى أن سبعة من أبنائه استطاعوا الصعود إلى العرش ، ولكن تمّ إجبار عددٍ منهم على التنازل عنه مرات عدة ، وحدث ذلك في ظرف ثلاثين سنة ، وهي الفترة التي يصطلح المؤرخون على تسميتها بفوضى الثلاثين عاماً^(٣) .

(١) المكناسي : الإكسير ، المقدمة ص ط .

(٢) شهد المغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل الذي حكم المغرب ما بين سنتي (١٠٨٢ - ١١٣٩هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧م) فترة من الفوضى والاضطرابات استمرت حتى سنة ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م حيث كانت السلطة الفعلية بيد الجند والعيبد الذين تحكموا بمقررات البلاد السياسية والاقتصادية ، ولم يكن السلاطين المغاربة الذين تعاقبوا على العرش في هذه الفترة إلا دُمى يحركها الجنود والعيبد كيفما أرادوا . للتفصيل انصاري : الاستقصاء ، الجزء السادس ، ص . ص ١٤١ - ٢٢٣ .

(٣) المكناسي : الإكسير ، المقدمة ص ط .

اهتم السلطان محمد بن عبد الله اهتماماً كبيراً بتقوية علاقاته التجارية والدبلوماسية مع الدول الأوروبية والدولة العثمانية عن طريق إرسال الوفود إلى تلك الدول لعقد الاتفاقيات والمعاهدات ، وكان من بين تلك السفارات التي أرسلها السلطان محمد إلى الخارج السفارة التي ترأسها الطاهر فنيش إلى فرنسا ^(١) ، والسفارة التي ترأسها الكاتب محمد بن عبد الوهاب المكناسي إلى إسبانيا في سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م ، وكان الهدف من هذه السفارة تجديد معاهدة الصلح بين الدولتين ، وإطلاق سراح الأسرى الجزائريين المحتجزين لدى الإسبان ^(٢).

نجح ابن عثمان في تحقيق أهداف سفارته فعقد معاهدة "أرانخويت" سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م التي أرست العلاقات المغربية الإسبانية على ركائز جديدة ، قوامها السلم والتبادل التجاري والتعاون ، كما تمكّن من تحرير ١٢٢ أسيراً جزائرياً كانوا محتجزين لدى الإسبان ، وبعد عودته إلى المغرب كافأه السلطان محمد بن عبد الله بتعيينه وزيراً . لكن معظم المصادر التاريخية المغربية العائدة لتلك الفترة لم تلقّ به هذا اللقب ، ومرد ذلك أن مصطلح "كاتب" كان يُستعمل بمعنى وزير ، إضافة إلى أن معظم المؤرخين الدارسين لتاريخ المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر اعتمدوا اعتماداً كبيراً على ما ذكره أبو القاسم الزياني الذي لم يكن على علاقة جيّدة بابن عثمان ، لأنه كان عدوّه اللدود ومنافسه الحسود ^(٣) — على حدّ تعبير محمد الفاسي — ولكن على الرّغم من تلك العداوة بين الرجلين ، فقد ذكر الزياني ابن عثمان بلقب الوزير في إحدى قصائده التي رثى فيها ضحايا الوباء الذي حلّ بالمغرب سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م ، وكان ابن عثمان من بينهم حيث قال الزياني :

ثمّ محمد بن عثمان الوزيرُ أخذَ من وفرٍ ومن دُرٍّ كثير

وبعد مرور ثلاث سنوات على سفارته إلى إسبانيا كلّفه السلطان محمد بن عبد الله بسفارة أخرى إلى مالطا و نابولي سنة ١١٩٥هـ / ١٧٨١م ^(٤) ، وكان الغرض منها تحرير الأسرى المحتجزين في جزيرة مالطا ، وتوقيع معاهدة مع مملكة نابولي تنصّ على انضمام الأخيرة إلى معاهدة الصداقة الموقعة بين إسبانيا والمغرب ، وقد تمكّن ابن عثمان من تنفيذ مهمته بنجاح كبير ، فتمّ تحرير الأسرى وتوقيع المعاهدة مع مملكة نابولي.

(١) التازي : القدس والخليل ، ص ٢٥ .

(٢) المكناسي : الإكسير ، المقدمة ص ظ .

(٣) المصدر السابق ، المقدمة ص ك .

(٤) حجي : موسوعة أعلام المغرب ، الجزء السابع ، ص ٢٤٢٣ .

وفي سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م ترأس ابن عثمان السفارة المغربية المتجهة إلى العاصمة العثمانية استانبول^(١) ، لنقل شكوى السلطان محمد بن عبد الله ضدّ أتراك الجزائر الذين كانوا يغيرون على الأراضي المغربية ، والبحث في إمكانية التعاون بين المغرب والدولة العثمانية ضدّ الإسبان في البحر المتوسط ، وكلفه السلطان المغربي بعد تحقيق أهداف سفارته إلى استانبول التوجّه إلى الحجاز بقصد الحجّ لتوزيع هداياه على أهل الحجاز وغيرهم ، وقد دامت تلك الرحلة الطويلة للمكناسي إلى المشرق سنتين وسبعة أشهر، فكانت بدايتها في ١ محرم ١٢٠٠هـ/ ٤ تشرين الثاني سنة ١٧٨٥م ، أمّا نهايتها فكانت في ٢٦ شوال ١٢٠٢هـ/ ٤ حزيران ١٧٨٨م^(٢) .

حافظ المكناسي على مكانته في البلاط المغربي بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله ومبايعة ابنه اليزيد(١٢٠٤-١٢٠٦هـ/١٧٩٠-١٧٩٢م)^(٣) سلطاناً على المغرب سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م ، فتمّ تعيينه سفيراً للمغرب لدى ملك إسبانيا كارلوس الرابع ، ثم عاد إلى المغرب في أعقاب وفاة السلطان اليزيد ، وتولّى السلطان سليمان العرش ، والذي كان يعرف المكناسي منذ زمن بعيد ، ويعلم ما يمتلكه هذا الرجل من مقدرة ومهارة سياسية ودبلوماسية ، لذلك قام بتعيينه بمنصب كبير حيث أنابه عنه بمهمة الاتصال بالسفراء الأجانب الذين كانوا يقيمون بولاية طنجة وتطوان ، وقد تميّز المكناسي بالحنكة والمهارة السياسية بعمله كدبلوماسي مهمته تحقيق مصالح بلده ، فعمل على تحقيق هذا الهدف خلال خدمته في البلاط المغربي ، وتجلّى ذلك بدوره الكبير في المحافظة على العلاقات الجيدة التي ربطت المغرب

(١) شهدت العلاقات المغربية العثمانية تحسناً ملحوظاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مع اعتلاء السلطان المغربي محمد بن عبد الله (١١٧٠-١٢٠٤هـ/١٧٥٧-١٧٩٠م) العرش حيث أنهى الجمود القائم في العلاقة بين البلدين ، وكان سبب هذا التحسن في العلاقات بين العثمانيين والمغرب التحولات الكبيرة التي شهدتها القارة الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر حيث بدأت تظهر بوضوح مطامع الأوروبيين في الدولة العثمانية والمغرب على السواء مما دفع البلدين إلى التقارب والتضامن ، وتجلّى ذلك التقارب من خلال السفارات المتبادلة بين البلدين ومساعدة السلطان المغربي في إطلاق سراح الرعايا الأتراك المأسورين لدى بعض الدول الأوروبية . للتفصيل يرجى العودة إلى عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم ، ١٠ مجلدات، (د.ن) ، (د.م) ، (د.ت) ، المجلد التاسع ، ص ٣٦.

(٢) المكناسي : الإكسبر ، المقدمة ص م .

(٣) اليزيد بن محمد بن عبد الله (١٢٠٤-١٢٠٦هـ/١٧٩٠-١٧٩٢م) : حكم المغرب ما بين ١٧٩٠-١٧٩٢م ، تنتهمه المصادر العائدة لتلك الفترة بأنّه ابن عاق حيث ثار عدة مرات على والده ، وقام بعد توليه السلطة بإفساد ما بناه والده خلال ثلاثين عاماً ، فعلى الصعيد الداخلي قامت عدة ثورات ضده نتيجة سوء سياسته . أما على الصعيد الخارجي فقد أفسد العلاقات الجيدة التي ربطت المغرب بإسبانيا نتيجة سوء معاملته للتجار الإسبان ، انتهت حياته قتلاً في إحدى المعارك التي خاضها ضدّ أخيه هشام سنة ١٧٩٢م. للتفصيل انصاري : الاستقصاء ، الجزء السابع ، ص . ص ٨٩-١١٣.

بإسبانيا ^(١) ، إضافة إلى دوره الكبير في السياسة الخارجية للمغرب قام أيضاً بدور مهم على الصعيد الداخلي ^(٢) ، واستمر المكناسي بالقيام بأداء المهام المكلف بها حتى وافته المنية سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م مع الإشارة إلى الجدل القائم بين المؤرخين حول تحديد التاريخ الدقيق لوفاة المكناسي ^(٣) ، ذلك الرجل الكبير الذي عاصر ثلاثة سلاطين من الأسرة العلوية ، كما لعب دوراً مهماً في علاقات المغرب الخارجية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

٢- مؤلفاته :

وضع المكناسي ثلاثة مؤلفات وصف فيها سفارته لكل من إسبانيا وجزيرة مالطا ونابولي والدولة العثمانية ، فتحدثت في رحلته المَعنونة " الإكسير في فكك الأسير " عن سفارته إلى إسبانيا سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م ^(٤) حيث قدّم المكناسي في تلك الرحلة وصفاً دقيقاً للحياة الإسبانية في القرن الثامن عشر ، فكان مؤلّماً بمعرفة الأشياء والإطلاع على أصولها ومقاييسها وفوائدها ، فضلاً عن اهتمامه بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فأشار إلى مظاهر عدّة من الحياة الإسبانية من رقص وتمثيل ومصارعة الثيران في الشوارع ، كما تحدثت عن الصناعات ، واهتم بالنواحي العلمية والفنية والصحية والعمرانية ، فزار عدداً من المدارس والمكتبات والمتاحف والمستشفيات والقصور والمنتزهات ، ووصف الحياة في القصر الملكي الإسباني وصفاً دقيقاً ، وتحدث أيضاً عن تاريخ العائلة المالكة الإسبانية .

(١) بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م دخلت فرنسا في حروب طاحنة مع الدول الأوروبية الأخرى ، وعلى رأسها إنكلترا التي عملت على محاربة النفوذ الفرنسي أينما حلّ ، ففي المغرب قامت إنكلترا بمساعدة أخو السلطان سليمان وخليفته الطيب بنشر دعاية مفادها بأنّ الحُجّاج المغاربة يتعرضون إلى مضايقات عديدة أثناء مرورهم في مصر والتي كانت تحت حكم نابليون بونابرت ، وكانت إنكلترا تهدف من وراء هذه الدعاية التقرب من السلطان سليمان وإبعاد فرنسا وحليفها إسبانيا عن المغرب ، وعندما قامت إسبانيا بإرسال وفد محملاً بالهدايا إلى السلطان سليمان حاولت إنكلترا التدخل لتخريب العلاقة الجيدة بين المغرب وإسبانيا ، لكنّ الوزير المكناسي أدرك بما امتلکه من خبرة كبيرة في الشؤون الخارجية أهمية المحافظة على علاقة المغرب الجيدة مع الإسبان نظراً للمصالح التجارية الكبيرة بين البلدين ، فعمل على توقيع معاهدة سلم وتجارة وملاحة مع إسبانيا ، وذلك في سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م . للتفصيل يرجى العودة إلى المكناسي : الإكسير ، المقدمة ص ٨٠.

(٢) بعد دخول السلطان سليمان مدينة مراكش سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م ، وبرفقته وزيره المكناسي كان قد نجح في فرض نفوذه على جميع مناطق المغرب ما عدا مدينة آسفي التي كان رئيسها القائد عبد الرحمن بن ناصر مناصراً لأحد أخوة السلطان سليمان ويدعى هشام ، ولذلك قرر السلطان سليمان بعد أن استتب الأمر له إخضاع تلك المدينة ، فكلف وزيره ابن عثمان بمهمة الذهاب إلى القائد عبد الرحمن لإبلاغه بوجوب قدومه إلى العاصمة لتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان سليمان ، وإنه في حال عدم استجابته لذلك سوف يرسل السلطان جيشاً كبيراً لمحاربته ، فكان ردّ القائد عبد الرحمن بالاعتذار عن القدوم إلى العاصمة بحجّة المرض ، لكنّه كتب رسالة إلى السلطان سليمان بحضور القاضي وعد كبير من الفقهاء يُعلن فيها بيعته وطاعته للسلطان سليمان . للتفصيل يرجى العودة إلى المكناسي : الإكسير ، المقدمة ص ٨٠ .

(٣) التازي : القدس والخليل ، ص ٢٦ .

(٤) ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ص ٢٢٧ .

ومن الجوانب الأخرى التي لفتت انتباه المكناسي ، وأفاضَ في الحديث عنها المنشآت الخدمية التي أقامها الملك كارلوس الثالث من شقّ الطرق وبناء القناطر واستصلاح الأراضي والاهتمام بالزراعة وبناء السفن والمواصلات وخصوصاً البريد ، كما تحدّث عن الديانة المسيحية الكاثوليكية ، وقَدّم بعضَ التفاصيل عن محاكم التفتيش وعن اليهود الموجودين في إسبانيا ومعاملة الكنيسة والحكومة لهم . وباختصار شديد تُعدُّ هذه الرحلة أحد أهم المصادر التي تتحدّث عن مظاهر الحياة الإسبانية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

أمّا مؤلّفه الثاني " البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر " فتحدّث فيه عن سفارته إلى جزيرة مالطا ومملكة نابولي في سنة ١١٩٥هـ / ١٧٨١م ^(١) ، والتي كان الهدف منها كما هو واضح من العنوان تحرير الأسرى الموجودين في جزيرة مالطا ، وقد كلّلت مساعيه بالنجاح ، وإن صادفتها بعض الصعوبات ، فلم يكتفِ المكناسي في هذه الرحلة بالحديث عن الوقائع التي صاحبت عملية إطلاق سراح الأسرى ، بل ضمّن رحلته وصفاً دقيقاً لأوضاع جزيرة مالطة ، وقَدّم لنا نبذةً عن تاريخها. أمّا مملكة نابولي فأفرد لها عدّة صفحات تتناول فيها أوضاع تلك المملكة من نواح كثيرة ، فوصف عمرانها وأسواقها وحدائقها وقصورها ، إضافة إلى زيارته لبعض معالم تلك المملكة كالمرسح والمتحف وبعض الأديرة وغيرها من المرافق الاجتماعية والثقافية والصناعية ، فضلاً عن تقديمه لمحةً موجزةً عن تاريخها.

وفيما يتعلّق بمؤلّفه الثالث " إحرار المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر الحبيب " ، فقد تحدّث فيه عن سفارته إلى العاصمة العثمانية استانبول ومشاهداته في بلاد الشام الحجاز وتونس والجزائر ^(٢) ، والتي استمرّت ما يقارب الثلاث سنوات ^(٣) . وتُعدّ هذه الرحلة أهمّ مؤلفات ابن عثمان نظراً لغزارة وتنوّع المعلومات التي تضمّنتها هذه الرحلة حيث قدّم المكناسي من خلالها وصفاً تفصيلاً للمدن والقرى التي زارها أو مرّ بها ، فضلاً عن إشارته إلى بعض الأحداث الخطيرة التي قامت في الدولة العثمانية كحديثه عن الاستعدادات الكبيرة التي كانت تجري في العاصمة العثمانية للحرب المقبلة مع

(١) ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ص ٢٢٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٧.

(٣) محمد بن عبد الوهاب المكناسي : رحلة المكناسي " إحرار المعلّى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب ١٧٨٥م " ، تحقيق محمد بوكبوت ، الطبعة الأولى ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، الإمارات العربية ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٣م ، ص ٣٤٣.

الإمبراطورية الروسية ^(١) " وفي هذه السنة أنشأ السلطان عبد الحميد نصره الله وأيده الحرب بين عدو الدين الموسكوا ^(٢) ، بسبب تمرده وطلبه بلداً من بلاد المسلمين ، أراد أن يملكها ، وقد سافرت من عندهم وهو أيدته الله مُشتغل في التأهب والاستعداد وسدّ الثغور وبعث العساكر براً وبحراً لقتال العدو الكافر " ^(٣) . إضافة على قيام المكناسي بوصف طريق الحجّ الشامي إلى الحجاز ، وهذا ما ميّز كتابه عن غيره من كُتُب الرّحلات الحجازية المغربية التي سلكت الطريق التقليدي لركب الحجّ المغربي عبر مصر ، رغم أن المكناسي اشترك في هذه الميزة مع أبو القاسم الزياني صاحب كتاب " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً " .

وقد تمتعت رحلة المكناسي بقيمة تاريخية كبيرة حيث ساعدت المؤرخين على التعرف على أوضاع الدولة العثمانية وأحوال ولاياتها العربية في بلاد الشام والحجاز من جانب غير الذي اعتدناه من باقي الرّحلات ، فمؤلف هذه الرّحلة كان محايد نسبياً فهو عربيّ مسلم غير خاضع للحكم العثماني ، ومتحرّر من الخلفيات التي تحكّمت في نظرة الأوربيين لتلك الدولة ^(٤) وقد حرص على إبراز مظاهر القوة في هذه الدولة الإسلامية عند حديثه عن فتح العثمانيين للقسنطينية " ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليّة ، وكم رام من الخلفاء والملوك فتح هذه المدينة ، وصرفوا همّهم وبذلوا أموالهم ، وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فلم ينالوه ، وإنما جاء الله تعالى به لهذا السلطان الجليل والملك الجليل ، لكونه من أعظم الملوك وأعدلهم وأحسنهم سيرة ، وأخلصهم نيّةً وطويّةً " ^(٥) ، وفي الوقت نفسه نجد أن المكناسي لم يتردّد في

(١) عملت روسيا منذ سنة ١٧٧٣م على إثارة الفوضى والقلق في بلاد القرم تمهيداً لفرض سيطرتها على هذه المنطقة ، فكان نتيجة ذلك وقوع حرب أهلية طاحنة في بلاد القرم ، فاستغلت روسيا ذلك وقامت بإرسال جيش كبير بقيادة بوتكين نجح باحتلال بلاد القرم ، فحاولت الدولة العثمانية إجبار روسيا على الانسحاب من بلاد القرم بحجة تنفيذ بنود معاهدة قينارجة التي نصت على استقلال بلاد القرم استقلالاً سياسياً تاماً ، لكنّ روسيا رفضت ذلك ، فتدخلت فرنسا ونجحت في إقناع الدولة العثمانية بعدم قدرتها على مواجهة روسيا في تلك المرحلة ، فاعترفت الدولة العثمانية بخضوع بلاد القرم للسيطرة الروسية في سنة ١٧٧٤م ، لكنّ روسيا لم تنفع بما حصلت عليه ، واستمرت بإثارة القلاقل بالمناطق الخاضعة للدولة العثمانية في البلقان واليونان ، فأدركت الدولة العثمانية مرامي روسيا وأهدافها في إشعال حرب بين البلدين بهدف ضم بعض المناطق العثمانية إليها ، ولذلك بادرت الدولة العثمانية في هذه المرة إلى إعلان الحرب على روسيا في صيف سنة ١٧٨٧م ، بحجة رفض روسيا تسليم أحد الحكام الخارجيين عن سلطة الدولة العثمانية في بلاد الكرج ، وشاركت في تلك الحرب النمسا التي رغبت في انتزاع بلغراد من أيدي العثمانيين ، لكنّ العثمانيين تمكنوا من هزيمة الجيش النمساوي ، وفي تلك الأثناء توفي السلطان عبد الحميد الأول ، وخلفه السلطان سليم الثالث ، وفي عهده تم توقيع معاهدة الصلح مع كل من روسيا والنمسا في مدينة ستوتوا في سنة ١٧٩٠م . للتفصيل يرجى العودة إلى مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الثاني ، ص . ١٠ - ١١ .

— فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص . ٣٥٩ - ٣٧٠ .

(٢) يقصد المكناسي الإمبراطورية الروسية التي خاضت حروباً طاحنة مع الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر .

(٣) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص . ١٣٣ - ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٨١ .

الإشارة إلى بعض مظاهر الضعف والجوانب السلبية في هذه الدولة مثل إشارته إلى انعدام الأمن على طريق الحجّ إلى الحجاز " وطول هذا البغاز أي المضيق أربع ساعات أو ما يزيد عليها وهو مُخَوِّف ، وقبل أن نصل إليه تقدّم العسكر أمامنا فسبقوا إليه وتمسكوا به ، وتفرّقوا على فتنّه عن اليمين والشمال مشرفين على الوادي وراياتهم وعلاماتهم مركوزة في الأرض والركبُ مارّ بين الفريقين ، وإنّما تقدّم العسكر إلى هذا المكان خشية أن يتمسكوا به العربُ ، فلا يتركون الحجاج يسيرون إلا أن يرضونهم بما يريدون " (١).

كذلك فإنّ لكتاب المكناسي قيمةً علميةً كبيرة تجلّت بحرص مؤلّفه أثناء رحلته على لقاء كبار العلماء والفقهاء المعروفين في المناطق التي مرّ بها للتداول المعلومات معهم ، فعند مروره بدمشق في طريقه إلى الحجاز التقى بالفقيه المحدث الشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي " وحفيده هذا سلك مسلك أسلافه في الدين والاعتكاف على قراءة العلم وله مشاركة في علوم ، صاحب وقار وسمت حسن . وقد توجّهنا إلى زيارة جده سيدي عبد الغني المذكور فأدخلنا إلى مكانه وأكرمنا أكرمه الله وأراني رحلة له إلى بيت المقدس نحى فيها نحو جدّه ، وأطلعنا على عدّة تآليف لسيدي عبد الغني " (٢) ، وفي مدينة دمشق التقى أيضاً بمفتي الشافعية " الفقيه اللبيب الحسيب الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي الشافعي ، اجتمعت معه في جامع الأموية وأدخلنا إلى بيت له في المسجد من ناحية الصحن يقعد فيه بقصد المطالعة والإفتاء " (٣) ، وخلاصة القول — كما وصف محمد الفاسي هذه الرحلة — إنّ ابن عثمان أظهر في هذا المؤلّف عن رحلته المشرقية ثقافة إسلامية واسعة ومعلومات دقيقة في تاريخ تركيا ، وفي الحديث والتصوف والفقه والأدب وعلوم اللسان (٤) .

٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه المكناسي (٥):

لم تكن رحلة المكناسي إلى المشرق بقصد القيام بالحج فقط ، كما هو الحال مع العياشي ، وإنّما كان الهدف الأساسي لتلك الرحلة قيامه بتنفيذ ما كلفه به السلطان أبو عبد الله المنصور محمد بن عبد الله من القيام بسفارة مهمة إلى العاصمة العثمانية استانبول لمقابلة

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٤) المكناسي : الإكسير ، المقدمة ص س .

(٥) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه المكناسي في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٥ .

السلطان العثماني عبد الحميد الأول (١١٣٧-١٢٠٣هـ/١٧٧٤-١٧٨٩م) ^(١) ، ونَقَلَ رسالةً إليه من السلطان المغربي ، وقد أشار المكناسي إلى ذلك في رحلته " فعيننا سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وحسن الإسلام والمسلمين أبو عبد الله المنصور بالله سيدي محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله مع رفقة من الإخوان ^(٢) وأمرنا أدام الله علاه ، وكان له في جميع أموره وتولاه بالتوجه أولاً إلى القسطنطينية العظمى والحضرة الفخمية ، حتى نتلاقى مع سلطانها الأعظم الخاقان المعظم ، خديم الحرمين الشريفين والقدس الشريف أول القبلتين ، السلطان عبد الحميد خان " ^(٣).

كما كَلَّفَ السلطان المغربي المكناسي بعد الانتهاء من سفارته إلى العاصمة العثمانية بالتوجه إلى مكة المكرمة لتأدية مناسك الحجّ وتوزيع الهبات والأموال على أهل الحرمين الشريفين ، وطلب منه تدوين مشاهداته أثناء سفره وترحاله " وأمرني أدام الله اعتناؤه وخلّد في الدهر بالجميل ثناؤه ، أننا إذا تقضينا من القسطنطينية غرض الرسالة ، مع تحصيل رؤية بدر تلك الهالة ، نستعد للسرى إلى أم القرى ، لننقضى مناسك الحجّ ووظائف العجّ والشجّ ، ونفرّق هديته على أهل الحرمين الشريفين وعهد إلينا أدامه الله سعادته وحرس مجادته ، أن نرسم ما تتفق رؤيته في هذا السفر في البدو والحضر، فحاولت أن لا أرسم شيئاً إلا حررته ولا آتي بشيء إلا وضّحته ، امتثالاً لأمره الذي طبق الآفاق " ^(٤).

بدأ المكناسي رحلته في بداية شهر محرم سنة ١٢٠٠هـ/ تشرين الثاني ١٧٨٥م ، من مدينة الرباط ، وكان برفقته في رحلته إلى القسطنطينية السفير التركي إسماعيل أفندي الذي كان قد وفد إلى العاصمة المغربية حاملاً رسالة إلى السلطان المغربي من نظيره العثماني ، فتوجّه المكناسي وأعضاء سفارته إلى مدينة تطوان لركوب البحر منها ، لكن اشتداد العواصف منعتهم من الانطلاق ، فاضطر أعضاء السفارة للإقامة في تطوان أربعة شهور

(١) عبد الحميد الأول (١١٣٧-١٢٠٣هـ/١٧٧٤-١٧٨٩م) : هو ابن السلطان أحمد الثالث ، قضى فترة حكم أخيه مصطفى الثالث مسجوناً في قصره ، تولى الحكم سنة ١١٣٧هـ/١٧٧٤م ، وقد واجه خلال فترة حكمه تحديات كبيرة ، وخاصة مع الروس الطامعين في التوسع في أراضي السلطنة العثمانية ، فدخلت الدولة العثمانية في حرب كبيرة مع روسيا القيصرية ، وانتهت تلك الحرب إلى هزيمة العثمانيين وتوقيع معاهدة قينارجة التي تألفت من ثمانية وعشرين بنداً حصلت من خلالها روسيا على امتيازات كبيرة في الدولة العثمانية . للتفصيل حول عبد الحميد الأول يرجى العودة إلى فريد بك: تاريخ الدولة العلية ، ص. ٣٤١ - ٣٦٢.

(٢) كانت السفارة مؤلفة بالإضافة إلى المكناسي من عبد الملك بن إدريس ابن عم وصهر السلطان ، وأبي حفص عمر الوزير ، وشيخ الركب أبي محمد عبد الكريم بن يحيى . الناصري : الاستقصاء ، الجزء السابع ، ص ٤٠.

(٣) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص . ص ٤٨ - ٤٩.

(٤) المصدر السابق ، ص . ص ٤٩ - ٥٠.

ونصف الشهر إلى أن جاء أمر من السلطان محمد بن عبد الله بالتوجه إلى مدينة طنجة^(١) ،
وركوب البحر منها نظراً لصعوبة تحقيق ذلك في تطوان .

انطلق المكناسي من مدينة طنجة في عشية يوم الاثنين ٢ رجب سنة ١٢٠٠هـ/ ٢٩
نيسان ١٧٨٦م على ظهر سفينة إسبانية بعث بها الملك الإسباني كارلوس الثالث إلى السلطان
محمد بن عبد الله الذي كان تربط بينهما علاقات ودّية كبيرة ، حيث اتجهوا إلى مدينة
قرطاجنة أو قرطاجنة^(٢) " وسافرنا بالمركب المذكور إلى أن وصلنا إلى مدينة قرطاجنة على
ثلاثة أيام من طنجة ، وأرسينا بمرساها العجيب ذي الشكل الغريب ، وأقمنا به خمسة أيام ، ثم
انتقلنا إلى المركب الكبير ، وهو من مراكب الحرب فيه المدافع المسمّات بالأنفاض نيف
وخمسون مدفعاً ، ومن العسكر والبحرية ما يقرب من خمسمائة " ^(٣).

غادر المكناسي مدينة قرطاجنة متوجهاً إلى جزيرة صقلية التي وصلها أعضاء السفارة
بعد حوالي الشهر من الإبحار حيث رسي المركب في أحد موانئ الجزيرة ، ويدعى ميناء
سرقوسة الذي وصفه المكناسي بقوله " فدخل بنا رئيس المركب إلى مرسى من مراسي صقلية
يقال لها سرقوسة ، مؤسسة على الناحية الشرقية منها ، وهي بلد قديمة متوسطة إلى الكبر
أميل وهي من المنعة والحصانة في الغاية التي ليس بعدها شيء ، لأنها مؤسسة على طرف
من الأرض داخلاً في البحر ، وقطعوها عن البر بأربعة خنادق ، أدخلوا في كل واحد البحر
حتى نفذ إلى البحر من الناحية الأخرى ، وجعلوا لخروجهم إلى البر قناطر يعبرون عليها على
كل خندق قنطرة " ^(٤).

تابعت السفينة رحلتها إلى القسطنطينية في بداية شهر رمضان سنة ١٢٠٠هـ الموافق
نهاية حزيران سنة ١٧٨٥م، بعدما تزوّدت بما تحتاجه من المياه والمؤن ، فكان وصولها إلى
العاصمة العثمانية في الرابع من شهر شوال ، وأقام المكناسي في هذه المدينة حوالي العشرة
شهور قام خلال تلك المدة بأداء المهمة المكلف بها ، وهي نقل رسالة السلطان المغربي محمد
بن عبد الله إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول ، وبعد الانتهاء من تلك المهمة بقي في
العاصمة العثمانية في انتظار انطلاق قافلة الحج إلى الديار المقدسة في الحجاز، ممّا أتاح له

(١) طنجة : مدينة مغربية تقع على ساحل البحر ، يطلق عليها البرتغاليين طنجيرة . الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الأول ،
ص . ص ٣١٣ - ٣١٥ .

(٢) قرطاجنة : وهي مدينة على الساحل الإسباني بنيت من قبل حيدر بعل القرطاجي سنة ٢٢١ ق . م ، وظلت عاصمة لإسبانيا
البونيقية حتى الغزو الروماني ، اشتهرت بدور صناعاتها البحرية ، ثم أصبحت قاعدة للأسطول الإسباني . المكناسي: رحلة
المكناسي ، ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

التعرف على هذه المدينة العريقة عن كثب فضمن رحلته العديد من الصفحات التي تتحدث عنها .

رافق المكناسي قافلة الحجّ العثمانية المتجهة إلى الحجاز التي بدأت المسير في يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٢٠١هـ / ١٠ أيار ١٧٨٧م ^(١) ، حيث عبر الحجاج البوسفور إلى الضفة الآسيوية لمدينة استانبول ، وقضوا ليلتهم الأولى بعد انطلاق قافلة الحجّ خارج مدينة إسكدار في موضع مُخصّص لنزول القافلة ، وفي اليوم التالي تابعوا مسيرهم مارين في عدّة مناطق وقرى مثل قرية قرطل وكبزة وخارسك كوى ووادي نهر كاور كو ، ولفلك ، وخان الوزير التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى الوزير سنان باشا الذي أمر ببناء خان كبير في هذه المنطقة لكي يستخدمه الحجاج في فصل الشتاء ، لحمايتهم من الثلوج والأمطار والأحوال ، وقرية السكوت ، وإسك شاهر التي تُعدّ أولى المحطات التي يستريح فيها الحجاج من عناء السفر مابين القسطنطينية ودمشق ، والتي وصفها المكناسي بأنها " مدينة عامرة إلى الكبر أميل وأقمنا بها يومين لأنّ هذه المسافة التي بين القسطنطينية والشام يقيم فيها الركب بقصد الاستراحة وإراحة الدواب والخدمة في خمسة مواضع ، وهذه البلدة هي أول المقام ، ويأتي جميعُ الخدمة من سقّائين وطباخين وفراشين وأصحاب المحامل ودواب الحمل وغير ذلك وبها حمّام مبني على ماء يخرج من الأرض في غاية الحرارة وجعلوا له حوضاً كبيراً عمقه أقل من القامة " ^(٢).

واصل الحجاج المسير فمروا في قرية يُطلق عليها سيدي الغازي ، وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى أحد الرجال الصالحين المدفونين فيها ، ووصفها المكناسي بأنها قرية شديدة البرد ، وهي صفة عامة أطلقها المكناسي على جميع المناطق التي مرّ بها الحجاج بعد خروجهم من القسطنطينية ، ثم مرّ الركب بعدّة قرى منها خضرم باشا وبياض كوى ، وعلى حد تعبير المكناسي فقد كانت هذه القرى خالية من السكان عند مرورهم فيها " لأنّ أهلها يرحلون في طلب الكلاً لماشيتهم لأنّ بلادهم باردة ، فربيعها متأخر ، ويبعدون بالماشية عن زروعهم ، فهم أهل بادية حتى يأتونها زمن الحصاد " ^(٣). اجتازت القافلة قرية بلودم ، ثم قرية أخ شهير والتي يدعي أهلها أنها بلد جحا " ويقول أهل البلد إنّ هذا البلد هي بلد جحا المعلوم صاحب

(١) للإطلاع على المسار التفصيلي لرحلة المكناسي منذ خروجه من العاصمة العثمانية حتى عودته إلى بلاده يرجى العودة إلى

الملحق السادس ص . ٢٧٣ - ٢٧٨ .

(٢) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

الحكايات وأرونا قبّةً بخارجها يزعمون أنّه مدفون بها ، وهذه القبّة المنسوبة إليه مُضحكة ، فقد جعل لها باب وثيق وقفل ، والقبّة لا سور لها وإنّما جعلوا لها خشباً مركزاً في الأرض " (١).

تابعت القافلة رحلتها متجاوزة عدّة قرى منها إلغين — اللاذق — قنية (٢) التي أقاموا فيها مدة يومين ، وهي المحطة الثانية التي يرتاح فيها الحجاج ما بين القسطنطينية ودمشق ، ثم مرّ الحجاج في قرية تدعى إسمل ، ثم قرية قربنار ، ثم مدينة الشاقل ، ومدينة أدنة التي تُعدّ محطة الاستراحة الثالثة ما بين القسطنطينية ودمشق ، فأقام بها الحجاج لمدة يوم واحد ، وذكر المكناسي أنّ هذه المدينة كانت تعتبر من المدن الهامة في الماضي ، لكنّها في الوقت الحاضر مخربة مدمرة بشكل كبير ، ثم مرّ الحجاج في قرية مصيص ، وقرية قرطراط ، وقرية إسكندرونة (٣) القائمة " على طرف البحر الشامي من ناحية أرض الشام " (٤) ، ثم وصلت قافلة الحجّ إلى مدينة أنطاكية ، وهي محطة الاستراحة الرابعة ما بين القسطنطينية ودمشق ، وذكر المكناسي أنّ مدينة أنطاكية من المدن الكبيرة والعريقة ، وهي " مؤسسة في بسيط مستندة على جبل وحولها بساتين ووادي عذب يُقال له العاصي ولهذه المدينة سور عظيم محيط بالمدينة " (٥) ، إلّا أنّها فقدت الكثير من بريقها في الفترة التي زارها المكناسي ، ورغم ذلك فإنّها كانت ما تزال تحتفظ بأشياء كثيرة تدلّ على أصالتها ، كالأبنية الضخمة المبنية بالحجارة المنحوتة ، وأسواقها وأحيائها وطرقها المرصوفة بالحجارة .

غادر الحجاج مدينة أنطاكية متجهين نحو مدينة حماه ، فمرّوا في منطقة يُقال لها الزنبق وهي واقعة على نهر العاصي ، ثم قرية جسر الشغور (٦) التي وصفها المكناسي بأنها بلدة متوسطة المساحة وكثيرة البساتين ، ثم قلعة المضيق (٧) المقامة على وادي العاصي ، ويوجد

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ص . ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) قونية : بالضم ثم السكون ، ونون مكسورة ، وياء مثناة من تحت خفيف ، وهو من أعظم مدن الإسلام في الروم . الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ٤١٥ .

(٣) إسكندرونة : وهي قرية في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الأول ، ص ١٨٢ .

(٤) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٤٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٦) جسر الشغور : بضم أوله وكسر ثانيه وآخره راء ، وهي قلعة بالقرب من أنطاكية . تقع على المجرى الأدنى لنهر العاصي . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٣٥٢ .

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري : بإشراف العماد مصطفى طلاس ، ٥ مجلدات ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، المجلد الثاني ، ص ٦٧٢ .

(٧) قلعة المضيق : تقع في الطرف الغربي لهضبة حماه ، كانت هذه القلعة تعرف باسم حصن أفاميا حتى القرن السابع عشر ، ثم غلب عليها اسم قلعة المضيق ، وكانت هذه القلعة محطة استراحة لقافلة الحجّ العثمانية في طريقها من استانبول إلى مكة المكرمة . للتفصيل المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الرابع ، ص . ص ٥٩٤ — ٥٩٥ .

بالقرب منها خان كبير مُخصَّص لنزول المسافرين ، ثم وصل الحُجَّاج إلى مدينة حماة ^(١) وهي المحطة الخامسة والأخيرة المخصَّصة لاستراحة الحُجَّاج مابين القسطنطينية ودمشق ، وذكر المكناسي أنّ حماة من المدن الكبرى " وهي مؤسسة أيضاً على نهر العاصي المتقدّم يشقّها وعليه دواليب كبيرة لاستخراج الماء منه في غاية الكبر ، علو الواحدة نحو الخمسين قدماً ، ويوجد فيها خمسة وعشرون مسجداً للخطبة ، ولها بساتين وأجنات كثيرة " ^(٢) .

أقام المكناسي في مدينة حماة مدة يومين ، ثم تابعت القافلة المسير مجدداً مجتازة نهر العاصي بواسطة أحد الجسور ، لتصل إلى مدينة حمص التي أقام الحجاج فيها لمدة يوم واحد ، ثم تابع الحجاج رحلتهم إلى دمشق ، فمروا في قرية الحسية ^(٣) حيث أشار المكناسي إلى وجود خان كبير فيها مُخصَّص لنزول الحُجَّاج والمسافرين ، ثم قرية النبق ^(٤) ، كما يسميها المكناسي — وهي النبك حالياً — والتي يوجد فيها خان كبير كما هو الحال في الحسية ، ثم قرية القطيفة ^(٥) ، ومنها تابعوا التقدم إلى دمشق مارين بأرض كثيرة الحجارة — كما ذكر المكناسي — قبل وصولهم إلى مدينة دمشق مع طلوع الفجر ، لكن القافلة لم تدخل إلى المدينة حتى شروق الشمس ، وذلك من أجل إفساح المجال للوالي وأهل المدينة للخروج لملاقاة قافلة الحُجَّاج والترحيب بهم طبقاً للعُرف السائد .

تابع أعضاء السفارة المغربية رحلتهم إلى الديار المقدسة في الحجاز برفقة قافلة الحجّ التي سنطلق عليها من الآن قافلة الحج الشامي ^(٦) على اعتبار أن دمشق كانت المركز الرئيسي

(١) حماة : تعود تسميتها إلى كلمة حمت في الكنعانية والآرامية ، وتعني الحصن ، وصفها ياقوت الحموي بالمدينة الكبيرة العظيمة الخيرات ، تقع على نهر العاصي في محيط زراعي جيد ، وتتمتع بتاريخ قديم وحافل إذ يعود نشوؤها إلى الألف الخامس قبل الميلاد ، وقد تعاقب على حكمها الكنعانيون والحثيون والآشوريون والكلدانيون والفرس واليونان والرومان قبل أن يتم فتحها من قبل الجيوش العربية الإسلامية سنة ٦٣٨م ، وقد ازدهرت كثيراً في العصرين الزنكي والأيوبي ، ولاسيما من الناحيتين العلمية والعمرانية . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٠ .

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الثالث ، ص . ص ١٢٧ — ١٣٣ .

(٢) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٥٣ .

(٣) الحسية : تقع في جنوبي حمص . للتفصيل المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الثالث ، ص ٧٠ .

(٤) النبق : وهي مدينة النبك حالياً ، وصفها ياقوت الحموي بأنها قرية مليحة بين حمص ودمشق ، يعود تاريخها إلى العهد الآرامي . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ٢٥٨ .

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الخامس ، ص . ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

(٥) القطيفة : ذكر ياقوت الحموي أن القطيفة قرية للقاصد إلى دمشق في طريق البرية من ناحية ، تبعد عن مدينة دمشق ٤٠ كلم باتجاه الشمال الشرقي . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٨ .

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الرابع ، ص . ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

(٦) يوجد العديد من الدراسات التي عالجت هذا الموضوع بعناية كبيرة ، وخاصة الدكتور عبد الكريم رافق في البحث الذي أعده للمؤتمر العلمي لتاريخ الحضارة العربية والإسلامية المقام في دمشق في ٢٦ نيسان ١٩٨١م الذي حمل عنوان قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني والذي نشر في مجلة دراسات تاريخية ، العدد السادس ، ١٩٨١م ، ص ٥ — ٢٧ .

الذي تتجمع فيه قوافل الحجيج القادمة من المناطق الشرقية والشمالية ، ومن داخل الدولة العثمانية وخارجها ^(١) ، وكان الوالي قد خرج قبل خروج القافلة من دمشق بأربعة أيام إلى قلعة مزيريب ^(٢) بالمحمل وعلم النبي (ص) ، لكنّ هذا العلم ليس هو نفس علم النبي (ص) ، وإنّما أُطلقت عليه هذه التسمية لكونه يصطحبونه معهم كل سنة مع قافلة الحُجَّاج إلى الحجاز ، أمّا سبب خروج أمير الركب قبل الحُجَّاج ، فكان لإكمال التجهيزات قبل انطلاق القافلة من شراء الإبل التي سوف تحمل الميرة وغير ذلك . غادرت قافلة الحجّ مدينة دمشق إلى الحجاز ^(٣) ، متجاوزة عدّة مناطق منها قرية ذو النون وقرية الصنمين ^(٤) التي أشار المكناسي إلى كثرة الحجارة فيها ، قبل الوصول إلى المزيريب فمكث الحُجَّاج في هذا الموضع ستة أيام لإكمال التجهيزات لانطلاق قافلة الحجّ ، حيث يتمّ في المزيريب الاتفاق مع الأشخاص الذين سوف يتولون أمر إعداد وتجهيز الخيام والطعام والشراب للحُجَّاج في أثناء رحلتهم لقاء أجرة يتمّ الاتفاق عليها .

انطلق الحُجَّاج في السابع والعشرين من شهر شوال ، فمروا في قرى الرمثا والمفرق ، ثم خان الزبيب الذي أشار المكناسي إلى أن سبب تسميته هكذا يعود إلى أنّ الحُجَّاج بعد عودتهم من مكّة يتلقاهم أهل هذه المناطق لبيعهم الفواكه والخضراوات الطازجة ، لكنّ هذا الأمر كان فيما مضى حيث أصبح الآن — أي عندما كان المكناسي مرافقاً للقافلة الحجّ — في مزيريب ، ثم مرّ الحُجَّاج بكل من البلقا والقطرانة التي وصفها المكناسي بأنها " مبنية على بركة ماء كبيرة مؤسسة على وادي يحمل بالسيل وقت الأمطار ، فبنوا في وسطه سداً وصرفوا ماءه إلى هذه البركة بقصد الحُجَّاج ، وهي كبيرة مربعة الشكل في كل ربع ثمانون خطوة ، كثيرة العمق فقد ظهر من مدارجها نحو اثنتي عشرة وبقي فيها من الماء عمق اثني عشر قدماً " ^(٥) وقد وضع الحُجَّاج في هذه المنطقة الكثير من أغراضهم التي لا يحتاجون إليها حتى يرجعون ، وبعد القطرانة مرّت القافلة في مضيق بين جبال كثيرة الحجارة يُقال له بغاز الحسا ، ثم عنزة ، ومعان ^(٦) التي ذكر المكناسي أنّها الموضع الثاني الذي يستريح فيه الحجاج ما بين دمشق ومكّة

(١) عبد الكريم رافق : قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد السادس ، ١٩٨١م ، ص ٥٠ .

(٢) مزيريب : بلدة تقع في هضبة حوران ، تبعد عن مدينة درعا ١١ كلم متر . للتفصيل المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣ .

(٣) للتفصيل حول طريق قافلة الحج الشامي إلى الحجاز يرجى العودة إلى رافق : قافلة الحج الشامي ، ص ١٦-١٨ .

(٤) الصنمين : قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٤٣١ .

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الرابع ، ص ١٥٠ .

(٥) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٥٢ .

(٦) معان : بالفتح وآخره نون ، وهي مدينة في طريق بادية الشام تلقاء الحجاز ، تبعد حوالي ٢١٦ كلم جنوب عمان ، وهي معروفة عبر التاريخ كمحطة لتوقف قافلة الحج الشامية . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ١٥٣ .

بعد الموضع الأول في مزيريب ، ثم وصل الحُجَّاج إلى العقبة ^(١) التي أشادَ فيها المكناسي بجهود عثمان باشا والي الشام في حفرٍ وشقِّ الطُّرُق في هذا الموضع نظراً لصعوبة اجتيازِه .

تابع الحُجَّاج رحلتهم فوصلوا إلى قلعة المدورة التي يوجدُ فيها موضع ماء يتزود منه الحجاج بما يحتاجونه من المياه ، ثم ذات لحج وهي قلعة قائمة على بركتين من الماء ، ثم موضع آخر يُقال له القاع ، ثم تبوك ^(٢) ، ثم قلعة الأخضر والمعظم ومدائن صالح التي أعجب المكناسي بأبنيتها المنحوتة بالصخر، فوصفها بقوله " وهذه البلاد جبالها كلها على شكل المدائن مقلوب أعاليها سافلها والعياذ بالله وبيوتهم كانت منحوتة في الجبال ، والظاهر أنها قرى قوم لوط لأنهم هم الذين وقع بهم القلب ، وأما قوم صالح فأهلكهم الله تعالى بالصيحة والله أعلم " ^(٣) ، ثم مرَّ الحُجَّاج بعدة مناطق وهي " البير الجديد ، الزمرد ، هدية ، الفحلين " قبل الوصول إلى المدينة المنورة ^(٤) .

بعد وصول المكناسي إلى المدينة المنورة ، قام بزيارة قبر الرسول (ص) وقبور بعض الصحابة وزوجات الرسول ، ثم تابع الحُجَّاج الرحلة صَوَّبَ مكة المكرمة متجاوزين عدة مواضع ، منها ذو الحليفة التي تغيَّر اسمها عند زيارة المكناسي لها إلى ببيار بسبب كثرة الآبار الموجودة فيها ، والشهداء وهي كثيرة الجبال والحجارة ، كما ذكر المكناسي ، والجديدة التي شاهدها المكناسي مُخرَبة من قبل شريف مكة سرور بن مساعد بسبب قيام أهلها بالتعرُّض للحُجَّاج ، والصفراء وهي ذات بساتين كثيرة وخاصة من النخل ، وحنين وهي كسابقتها كثيرة النخل ، وبدر التي التقى فيها الركب الشامي مع الركب المصري والمغربي ، ورايح وهي قرية كبيرة يوجد حولها الكثير من النخيل ، وقديدا التي كانت هي الأخرى مُخرَبة من قبل الشريف سرور للأسباب ذاتها ، وخلص ، وعقبة السكر وهو موضع كثير الرمال

(١) العقبة : منزل في طريق مكة ، تبعد عن عمان إلى الجنوب حوالي ٣٣٠ كلم ، وقد أطلق عليها اسم العقبة نظراً لوعورة الطريق المؤدية لها ، ويعود تاريخها للقرن الثالث قبل الميلاد حيث كانت تابعة لمملكة الأنباط . للتفصيل الحموي : **معجم البلدان** ، الجزء الخامس ، ص ١٣٤ .

(٢) تبوك : بالفتح ثم الضم وواو ساكنة وكاف موضع بين وادي القرى وبلاد الشام . للتفصيل الحموي : **معجم البلدان** ، الجزء الثاني ، ص ١٤ .

(٣) المكناسي : **رحلة المكناسي** ، ص ٢٥٧ .

(٤) يشير عبد الكريم رافق في مقاله قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني إلى المحطات والمنازل الموجودة على الطريق إلى الحجاز، والتي كانت تتوقف فيها قافلة الحج للراحة ، وعدد رافق المحطات التي كانت تتوقف فيها القافلة في القرنين السابع والثامن عشر وهي : قبة الحج ، المزيريب ، المفرق ، الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا ، العنزة ، معان ، ظهر العقبة ، المدورة، ذات حج ، القاع ، تبوك ، مغائر شعيب ، الأخضر ، المعظم ، دار الحمراء ، مدائن صالح ، العلا ، بئر الزمرد ، شعب النعام ، هدية ، الفحلين ، وادي القرى ، الجرف ، المدينة المنورة ، قبور الشهداء ، الجديدة ، القاع ، رايح ، قديد ، خليص ، عسfan ، وادي فاطمة، مكة المكرمة . رافق : **قافلة الحج الشامي** ، ص ١٧ .

وصعب العبور، وخاصة على الجمال والبهائم حيث تغوص أرجلها في الرمل ، وسبيل الجواحي ، ثم الوصول إلى مكة المكرمة .

عاد المكناسي إلى دمشق برفقة قافلة الحجّ الشّامي بعد انتهاء شعائر الحجّ ، وقيامه بتوزيع الأموال والهبات التي أرسلها السلطان محمد بن عبد الله على أهل مكة والمدينة . ثم قرّر رحالتنا بعد عودته من الحجاز إلى مدينة دمشق التوجّه منها إلى عكا ^(١) ، لركوب البحر منها والعودة إلى بلاده ، ولذلك قام بمغادرة دمشق بعد أن أخذ قسطاً من الراحة ، فكان خروجه من مدينة دمشق في ٩ ربيع الأول سنة ١٢٠٢هـ / ٢٨ كانون الأول ١٧٨٦م ، ماراً بعدة قرى منها قرية المزة ^(٢) وسعسع ^(٣) التي أشار إلى وجود خان كبير فيها مُعدّ لاستقبال المسافرين ، ثم مرّ أعضاء السفارة بخان ثانٍ يُسمّى خان الأرنب ، وخانٍ ثالثٍ يُسمّى خان الجسر ، ثم نزلوا في خان رابعٍ لم يذكُر المكناسي اسمه ، لكنّه أشار إلى وقوعه قرب جب يوسف عليه السلام الذي وصفه بقوله " وإلى جانب الخان جب يوسف عليه السلام محيط به سور ، وله باب يُصعدُ إليه بمدارج ثلاثة وقبالة البير داخل مسوره مسجد صغير له بلاط واحد ، فدخلنا إلى مسور البير وأشرفنا عليه وفيه ماء كثير عذب " ^(٤) .

تابع المكناسي ورفاقه رحلتهم ، فمرّوا في أرضٍ صعبةٍ المسلك كثيرة الحجارة حتى وصلوا إلى قرية يُقال لها الرمة . وفي اليوم التالي وصل أعضاء السفارة المغربية إلى مدينة عكا ، وبعد أن اتفق المكناسي مع صاحب أحد المراكب على الإبحار بهم إلى وطنهم قرّر التوجّه إلى القدس ، لأنّ ذلك المركب كان بحاجة إلى بعض الإصلاحات التي سوف تستغرق تسعة أيام قبل الإبحار، فغادر أعضاء السفارة مدينة عكا إلى مدينة القدس ، فمرّوا بقلعة سنور وبلدة نابلس ^(٥) التي وصفها المكناسي بقوله " وهي بلدة متوسطة بين جبال مرآها حسن ، وبنائها كله بالحجارة المنحوتة ، حسنة المنظر ، وماؤها كثير ، ذات بساتين ، إلا أنّ أزقتها

(١) عكا : تقع عكا في الطرف الشمالي لخليج عكا الذي يُعدّ من أهم الخلجان البحرية في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .
للتفصيل الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الثالث ، ص . ص ٢٩٠ — ٢٩٦ .

(٢) المزة : بالكسر ثم التشديد ، وهي قرية كبيرة غناء وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق فرسخ ، تقع في الجهة الغربية من مدينة دمشق . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ١٢٢ .

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الخامس ، ص ٢٣١ .
(٣) سعسع : بلدة في حوض النهر الأعوج ، وهي واقعة على طريق ما بين دمشق والقنيطرة ، على الجانب الأيمن للنهر الأعوج .

للتفصيل المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الثالث ، ص ٦٢١ .
(٤) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص . ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٥) نابلس : بضم الباء الموحدة واللام والسين المهلة ، وهي مدينة مشهورة بأرض فلسطين ، تقع في موقع جغرافي هام ، وتتوسط إقليم المرتفعات الجبلية الفلسطينية بصفة عامة وجبال نابلس بصفة خاصة ، وتقع على الطريق الرئيسي الممتدة بين صفد والناصرة

شمالاً حتى الخليل جنوباً . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ٢٤٨ .
— الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الرابع ، ص . ص ٤١٥ — ٤٢٠ .

كثيرة العفونات والطريق إليها من القلعة المتقدمة في صعود وهبوط وحجارة " (١) ومن نابلس توجهوا إلى قرية البيرة (٢) ، ومن ثم إلى مدينة القدس التي وصفها المكناسي وصفاً دقيقاً من الناحية التضاريسية من أعلى جبل الطور " ومن جبل الطور يظهر بيت المقدس في غاية البهاء والابتهاج وحُسنَ المنظر.... وأما من جهة الغرب والشمال فلا ترى منه من بعيد إلا القليل لموارد الجبال له ، فإن بيت المقدس والخليل في جبال كثيرة الأوعار والأحجار ، والسير فيها متعب والمسافة بعيدة ، فإن الجبال المحيطة بالبلدتين مسافتها تقريباً ثلاثة أيام طولاً ومثلها عرضاً بسير الأتقال " (٣) .

كما زار المكناسي مدينة الخليل وبيت لحم ، قبل أن يعودَ إلى القدس لحضور صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ، ومنها عاد إلى عكا حيث ركب مع أعضاء السفارة البحر سالكين طريق العودة إلى بلدهم ، وفي قبرص توقفت السفينة لمدة يومين تزودت خلال ذلك بما تحتاجه من مؤن ومياه ، ثم تابعت رحلتها إلى مدينة مرسيليا الفرنسية (٤) ، ولكنها اضطرت في الطريق إليها إلى تغيير مسارها بسبب هيجان البحر واشتداد العواصف فاتجهت إلى مدينة تونس (٥) ريثما يهدأ البحر ، ولكن بعد نزول أعضاء السفارة في هذه المدينة قرروا متابعة طريق العودة برّاً ، نظراً لكثرة ما لقوه من أهوال البحر ومخاطره ، وعندما علم حاكم تونس بنزول أعضاء السفارة المغربية في بلاده أصدر أوامره بتأمين كل ما يحتاجه أعضاء السفارة ، كما قام بمقابلتهم بعد ستة أيام من نزولهم في مدينة تونس التي وصفها المكناسي بأنها مدينة " كبيرة طولها نحو العشرين ميلاً وهي كثيرة الخيرات والمستنقعات ، إلا أن ماءها قليل فلا يشربون إلا من ماء المطر " (٦) .

غادر أعضاء السفارة المغربية تونس بعد أن أقاموا فيها مدة اثنين وعشرين يوماً مارين خلالها بعدة مناطق ، ومنها " تربة - مجاز الباب - تستر " وجلُّ أهل هذه البلدة من الأندلس في غاية الحضرية والأدب وحسن الأخلاق ، ولا زالوا يسألون عن بلادهم بالأندلس ، وقد

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٩١ .

(٢) البيرة : تقع بالقرب من مدينة رام الله ، وتبعد حوالي ١٦ كلم شمال القدس حملت هذه المدينة أيام الحكم الروماني اسم بيريا ، وكانت من أعمال القدس ، ثم حُرف هذا الاسم إلى البيرة . للتفصيل الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، المجلد الأول ، ص ٤٨٠ .

(٣) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٩٩ .

(٤) مرسيليا : مدينة تقع في جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

(٥) تونس : يسميها اللاتينيون تونيوتوم ويسميها العرب تونس ، وكانت تدعى في غابر الزمان ترسييس . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٧٠ - ٧٨ .

(٦) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣٢٥ .

كنت على بصيرة بها لما رحلت إليها عام ثلاثة وتسعين ومائة وألف " (١) أيضاً مرّ المكناسي في تبرسق والقنطرة والكاف " وهذه البلدة آخر عمل صاحب تونس " (٢) ، دخل بعدها المكناسي في الأراضي التابعة لولاية الجزائر، متجهاً إلى مدينة قسنطينة (٣).

خصّ المكناسي قسنطينة بكثيرٍ من الأوصاف " وهي أي قسنطينة (٤) مؤسسة على ربوة يمرّ بأصلها هذا الوادي ومنه يشربون ، ويحملُ منه الماء في القربِ الكبار على الدواب للمدينة كلّها وحمّاماتها ومساجدها " (٥) ، وقد أقام فيها أعضاء السفارة سبعة أيام تزوّدوا خلالها بحاجياتهم الضرورية ، ثم تابعوا طريقهم إلى الجزائر مجتازين مناطق عدّة كمنطقة البيبان ، قبل الوصول إلى مدينة الجزائر (٦) التي ذكر المكناسي أنّها في غاية التحصين والمنعة (٧) .

تابع المغاربة طريقهم فوصلوا إلى مدينة تلمسان (٨) التي وصفها المكناسي بأنّها " مدينة كبيرة مشهورة ، كثيرة المياه والبساتين والأجنة والزيتون والمستغلات " (٩) ، ثم كان دخولهم إلى الأراضي المغربية حيث مروا بوجدة ، ثم مدينة فاس (١٠) التي التقوا فيها بالسلطان المغربي محمد بن عبد الله الذي اطمأنّ على حالهم ، وسألهم عن أخبار سفارتهم ، ورحلاتهم إلى الحجاز ، ثم قام بتكليف المكناسي بإعادة الأسرى الجزائريين الذين كانوا في قبضة الإسبان ، ولم يقم حاكم الجزائر بدفع الأموال التي طلبها الإسبان منه مقابل إطلاق سراحهم ، فقام ملكهم الذي كان يرتبط بعلاقات جيدة مع السلطان المغربي بإرسالهم إليه كهدية لمعرفته باهتمام السلطان المغربي بإطلاق سراح الأسرى المسلمين ، فقام المكناسي بإعادتهم إلى

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٨ .

(٣) قسنطينة : مدينة قديمة بناها الرومان ، وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية ، وأسواق هذه المدينة حسنة التنسيق بحيث أنّ جميع الحرف فيها مفصولة بعضها عن بعض . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٥٥ - ٦٠ .

(٤) هي مدينة قسنطينة ، لكنها هكذا وردت في النص .

(٥) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣٢٩ .

(٦) الجزائر : معناها الجزر سميت كذلك لأنّها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة ، والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مزغنة . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٣٧ - ٤٠ .

(٧) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣٣٠ .

(٨) تلمسان : وهي مدينة كبيرة حولها سور كبير ، وهي قائمة في سفح جبل ، لها خمسة أبواب . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١٧ - ٢١ .

(٩) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣٣١ .

(١٠) فاس : تأسست هذه المدينة أيام خلافة هارون الرشيد سنة ١٨٥هـ/٨٠١ . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الأول ، ص ٢١٨ - ٢٢١ .

تلمسان ، كما وزّع عليهم بعض الأموال امتثالاً لأوامر السلطان محمد ، ثم سلك طريق العودة إلى مكناس ماراً بوجدة وفاس ، ثم الوصول إلى مكناس^(١) التي دخلها " في ضحوة الثلاثاء لسِتِّ بقين من شوال من شهور سنة اثنتين ومائتين وألف ، فكانت مدة هذه الغيبة المباركة ثلاث سنين تنقص مقدار شهر ونصف كانت كجولان طرف أو كرجعة طرف " ^(٢).

٤ - بلاد الشام في رحلة المكناسي :

حَظِيَّتْ بلاد الشام بقسطٍ كبير من اهتمام المكناسي ، ولذلك أفرد قسماً كبيراً من رحلته للحديث عنها ، وعلى الرغم من أن اهتمامات المكناسي خلال تنقلاته في المدن والمناطق التي توقفت فيها قافلة الحُجَّاج كان مُنصباً بالدرجة الأولى على زيارة المزارات وقبور الأولياء والصالحين ، فإنّه لم يغفل الحديث عن بقية الجوانب السياسية كاضطراب الأوضاع الأمنية في بعض المناطق ، وازدياد نفوذ بعض الحكّام المحليين على حساب سلطة الدولة ، والجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فضلاً عن اهتمامه بالنواحي العمرانية .

أ - الجوانب السياسية :

أشار المكناسي إلى ازدياد نفوذ بعض الحكام المحليين في بلاد الشام الذين كانوا يتصرفون كحُكّام مستقلين ، وعلى رأسهم أحمد باشا الجزائر^(٣) الذي استقبل أعضاء السفارة

(١) مكناس : وهي مدينة كبيرة أسستها قبيلة مكناسة فسميت باسمها ، وتبعد عن فاس بنحو ستة وثلاثين ميلاً ، وهي واقعة في سهل بديع جداً ويمر بقربها نهر صغير . للتفصيل الإفرقي : وصف إفريقيا ، الجزء الأول ، ص ٢١٤ - ٢١٦ .

(٢) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣٤٣ .

(٣) أحمد باشا الجزائر (١١٤٧ - ١٢١٩ هـ / ١٧٣٤ - ١٨٠٤ م) : ولد أحمد باشا الجزائر في سنة ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م في بلاد البوسنة في أسرة مسيحية ، وعندما بلغ السادسة عشر من عمره هرب من البوسنة إلى القسطنطينية ، وفي القسطنطينية باع نفسه لتاجر رقيق يعمل في شراء الشبان من بلدان شرقي أوروبا وتقديمهم للباب العالي وقام باعتناق الإسلام ، وانتهى به الأمر إلى الخدمة في سلك البحرية ، لكنه ما لبث أن ترك هذا العمل ودخل في خدمة علي باشا الكبير الذي صحبه معه إلى مصر ، وعندما عُزل علي باشا بقي أحمد باشا في مصر حيث دخل في خدمة عدد من رجال الدولة الكبار إلى أن انتهى به الأمر في خدمة علي بك الكبير الذي استخدمه في القضاء على منافسيه ، ومنذ ذلك الوقت حصل على اللقب المعروف به وهو الجزائر نتيجة شدة بطشه وقسوته ، لكنه ما لبث أن اختلف مع سيده علي بك الكبير ، ممّا أجبره على مغادرة مصر إلى القسطنطينية أولاً ثم إلى دمشق حيث دخل في خدمة والي دمشق ، ولكفائته منحه والي دمشق حكم مدينة بيروت لكنه اضطر فيما بعد إلى مغادرتها نتيجة ازدياد المعادين له ، فذهب إلى القسطنطينية وتقرّب من السلطان العثماني الذي عينه والياً على بعض الولايات إلى أن تمكن من الحصول على ولاية صيدا ، ومنها أخذ في التوسع ونجح في فرض سيطرته على عكا التي اتخذها مركزاً لحكمه بسبب موقعها الجغرافي الحصين ثم نجح في الحصول على حكم ولاية دمشق ، وهكذا استطاع الجزائر فرض سيطرته على مساحات واسعة من سوريا ولبنان وفلسطين لمدة عشرين عاماً ، ومع الوقت ازدادت سطوة وشهرة هذا الرجل خصوصاً بعد نجاحه في الصمود في وجه تقدم جيوش نابليون في سوريا ، مما جعل الدولة العثمانية تخشى من ازدياد قوته ، فحاولت نقله من بلاد الشام ، لكن مساعيها باءت بالفشل حيث بقي الجزائر في حكم هذه المنطقة حتى وافته سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م . للتفصيل يرجى العودة إلى أحمد حيدر الشهابي : قصة أحمد باشا الجزائر ، تحقيق وإعداد عبد العزيز جمال الدين ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٨ م .

المغربية أثناء وجودهم في مدينة عكا ، وقد أعجب المكناسي بأحمد باشا الجزائر ، وأشار إلى أعماله في مدينة عكا بقوله " ولهذا الوزير أثر كبير بهذه المدينة وهو الذي شهرها وبه اشتهرت ، وأنشأ بها مسجداً من أحسن المساجد وأطفها على شكل مساجد القسطنطينية ، وغرس في صحنه المستدير شجراً مصفوفاً من نخيل وسرو ، وأنشأ بها أيضاً حماماً ما رأيت مثله لا بالقسطنطينية ولا بالشام ، وأهل البلد يثنون عليه كثيراً فله جرايات على الضعفاء والفقراء وراتب لأهل الحياء والحشمة الذين لا يسألون إلحافاً " (١) ، كما تحدّث المكناسي عن طبيعة العلاقة بين أحمد باشا الجزائر والدولة العثمانية حيث ذكر أنّ الجزائر ، وعلى الرغم من تبعيته من الناحية الإدارية لوالي دمشق ، فإنّه لا يعره اهتماماً كبيراً ، بل يمكن القول إنه خارج عن طاعته حيث يتمتع بحكم شبه مستقل في عكا " إلا أنه به شמוש من الدولة يفعل في بلاده برأيه ويقبل من أوامرها ما يوافق غرضه ، وقد استدعته الدولة ونحن هنالك للقدوم عليهم ، قائلين له إنهم أرادوا بعثه لناحية العدو برسم الجهاد فأبى عليهم ، لكنه معذور فلا يأمن على نفسه " (٢).

كما تحدّث المكناسي عن عدم انصياع حاكم قلعة سنور الواقعة بالقرب من نابلس للسلطات العثمانية في دمشق " وهذا الرجل صاحب القلعة تحت نظر وزير الشام مولى عمل هذه الناحية لكنّه غير كامل الطاعة والانقياد ، فهو يميل على الاستقلال والاستبداد ، منفذاً لأوامر أميره لكنه لا يتلاقى معه خوفاً على نفسه ، والوزير أيضاً لا يقدر على نزعه فهو قانع بما يأتي منه ، فإذا أتى الوزير إلى ناحية بلاده يخرج منها إلى ناحية أخرى حتى يرجع الوزير ويرجع " (٣). ومن المظاهر السياسية الأخرى التي ذكرها المكناسي والتي تدل على ضعف هيبة الدولة حديثه عن قيام أهل منطقة جسر الشغور بطرد الحاكم العثماني الذي تم إرساله لإدارة الأمور في هذه المنطقة ، فلم يسمح له أهلها بالدخول إلى بلدتهم بسبب ما اشتهر به هذا الحاكم من ظلم " ولأهلها إباء وامتناع فقد وجدناهم ممتنعين من قبول عامل بعثه السلطان إليهم ، ومنعوه من الدخول إليهم لا خروجاً عن الطاعة ، وإنما هو فراراً من العامل لجوره هكذا يقولون " (٤).

وفيما يتعلّق بالناحية الأمنية في بلاد الشام أشار المكناسي ، مثلما فعل العياشي من قبله إلى اضطراب الأوضاع الأمنية في فلسطين عند حديثه عن رغبته بالتوجّه لزيارة ضريح

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

(٤) المصدر السابق ، ص . ص ١٥٢ - ١٥٣ .

النبي موسى ، لكنّ بعض الناس أخبروه أن الطريق إليه ليست بآمنة ، فعدل عن تنفيذ فكرته ، كما أشار المكناسي إلى اضطراب الأمن في المناطق الشمالية من بلاد الشام عندما تحدّث عن قيام أهالي سكان الجبال الواقعة ما بين اسكندرونه وأنطاكية التي تُدعى بيلان بالاعتداء على قافلة الحجّ أثناء اجتيازها لمنطقتهم " لكن أهل هذه الجبال التي مررنا بها لم تتألمهم الأحكام ، فقد تعرّضوا للركب يأخذون منه على وجه الطلب ، لكنّ بالعدة والعصبية والغلب ، وربما يمدون اليد في بعض البهائم الحاملة حتى يستنقذها أصحابها بما يريدون " ^(١) ، وأشار المكناسي كغيره من الرّحالة الذين رافقوا قوافل الحجّاج إلى انعدام الأمن على طريق الحجّ في بعض المناطق نتيجة قيام البدو واللصوص بالتعرّض لقوافل الحجّاج حيث قدّم المكناسي عدّة أمثلة على ذلك كالخوف الذي ساد على وجوه الحجّاج عند اجتيازهم منطقة بغاز الحسا من قيام البدو بالتعرّض للقافلة ، ولذلك تقدّم العساكر قبل الحجّاج وصعدوا إلى جانبي الممرّ حتى اجتازت القافلة هذا الموضع ^(٢) .

وتحدّث المكناسي عن الظلم الكبير الذي يتعرّض له السكان المحليّون على أيدي الحكام والولاة العثمانيين ، وعرض عدّة أمثلة على ذلك ، كحديثه عن الوزير العثماني الذي حلّ ضيفاً على أحد أعيان مدينة أنطاكية " أخبرت عن أحد الوزراء مرّ بهم ، فنزل على رجل من كبار البلد ، فأضافه نحواً من أربعين يوماً ، وهو يصرف عليه وعلى أتباعه وحشمه نحو مائة ريال رومي كلّ يوم ، وبعد ذلك نهّب ماله كلّه وقتله " ^(٣) ، وإشارته إلى شكوى أهالي قرية سنجيل ^(٤) من الظلم الواقع عليهم " إلّا أنهم كثيرون التشكي من الوزراء والولاة الذين يؤلّون أمرهم من قبل الدولة العثمانية صانها الله ، فإنهم أكلوا اللحم وامتشوا العظم واستقوا المخ ولا حول ولا قوة إلّا بالله . وهذه سيرتهم في جميع الإيالة ، فكل من مررنا به يشكي من جورهم " ^(٥) .

وقدّم المكناسي في كتابه أمثلة عدّة عن حالات الفساد والرشوة السائدة والمنتشرة في الولايات العثمانية بكثرة ، وخاصة بين القضاة في جميع أنحاء الولايات التابعة للدولة العثمانية حيث عبّر عن ذلك بقوله " وقد نزلت نازلةً بدمشق وذلك أنّ القاضي سجن رجلاً حكّم له ، حتى يؤدي عشر الشيء المتنازع عليه كما هي عادة قضاة المشرق نسأل الله السلامة والعافية

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٤) سنجيل : قرية في شمال رام الله تقع على بعد ٢١ كلم من مدينة رام الله . للتفصيل شراب : معظم بلدان فلسطين ، ص ٤٥٧ .

(٥) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣١٩ .

من هذه الورطة التي وقعوا فيها ، فقد عمّت بها البلوى في القسطنطينية وبلاد الترك والشام والعراق ومصر وجميع بلدان المشرق ، وباعوا آخرتهم بدنياهم فكأنّها عندهم جباية من أصول فيسمونه بالمحصول ، فتجد القاضي يناضل على قبضه ويصول ، من غير ارتياء ولا استحياء كأنّه حق واجب ويزاد للجليل والحاجب" ^(١) ، وقد قدّم لنا المكناسي مثلاً على ذلك من مشاهداته في مدينة دمشق حيث طلب منه مفتي الحنفية الشيخ إسماعيل الجزائري أن يتوسط عنده للرجل سابق الذكر الذي سجنه القاضي ، فقام المكناسي بالاتصال بقاضي مكّة المكرمة الذي ترافق معه أثناء السفر من القسطنطينية للتدخل بالأمر عند القاضي في مدينة دمشق ، وكانت النتيجة كما ذكرها المكناسي " فتوسط عند القاضي ، وباللتي وباللتيا ، أسقط له نصف حقه استخلصناه بمشقة من رقه ، بعد أن عُلّقَ بأظفاره مثل ما علقت أظافر سنور بفارة ، وبقي ينهق تحسراً مثل حمار فاره من كثرة ما هو شاره " ^(٢).

وأغرب من ذلك كما ذكر المكناسي أن قاضي مكّة الذي توسط لمساعدة ذلك الرجل عند قاضي دمشق ، تصرف ذات التصرف عند وفاة رجل أثناء المسير في الطريق إلى الحجاز حيث تمّ جمع كل ما يملكه الرجل المتوفي ، وقام بأخذ العشر أمام أعين ذوي المتوفي ، وما أثار عجب المكناسي أيضاً ما رواه عن أن الأديب الشيخ كمال الدين بن محمد الغزي أخبره أنه وقع أسيراً بيد بعض القراصنة أثناء سفره في البحر ، وكيف تمّ اقتياده إلى جزيرة مالطا ، حيث تمّ إطلاق سراحه بعدما عرف القراصنة أنّه رجل علم ، وكيف تجوّل في الجزيرة إلى أن دخل إحدى الكنائس ، فوجد أحد الرهبان قاعداً وحوله بعض الكتب ، فرأى فيها بعض الكتب العربية ، فأخذ واحداً وسأل الراهب إذا كان قد نسخ ذلك الكتاب أو اشتراه من بيت المقدس ، فأجابه أنّه نسخه عندما كان قاضياً هنالك ، فتعجب الغزي من ذلك وسأله كيف حصل ذلك ، فأخبره بأنّه كان مملوكاً لقاضي العسكر في استانبول الذي قام بمساعدته للحصول على منصب قاضٍ في القدس.

ب - الجوانب الاقتصادية :

تحدّث المكناسي عن الفوائد التجارية الكبيرة التي تجنيها بلاد الشام نتيجة تحكّمها بطرق المواصلات ما بين العاصمة العثمانية وبلاد الأناضول والحجاز حيث تجتاز قافلة الحجاج بلاد الشام من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مرتين في السنة ، الأمر الذي يعود على السكان بعوائد مالية كبيرة ، نتيجة بيعهم الحجاج مختلف أنواع الخضار والفواكه وغيرها من المواد

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٥.

التي يحتاجها الحُجَّاج في سفرهم ^(١) ، وأشار إلى ذلك عند توقّفهم في مدينة حماه " ولما حططنا الرّحال بظاهرها خرج أهل المدينة بجميع الأشياء للبيع والفواكه الموجودة في الوقت ، ولا سيما المشماش الحموي المنسوب إليها في الغاية صادق الحلاوة ، وكذا الأردية والأزر التي يُحرّمُ الناسُ فيها فمن هذه المدينة نشترى ، فاشترينا منها كما فعل الناس " ^(٢) .

كما أشار المكناسي إلى الفوائد المالية التي تجنيها بلاد الشّام عند حديثه عن مدينة دمشق التي يُعدُّ سكانها أكثر سكان بلاد الشّام الذين يحققون مكاسب مالية كبيرة مع حلول موسم الحجّ خاصّة أن دمشق كانت آخر مرحلةٍ لاستراحة قافلة الحُجَّاج في مدينة كبيرة قبل الوصول إلى الديار المقدّسة في الحجاز ^(٣) ، ولذلك يعتمد الحُجَّاج إلى التزوّد بحاجياتهم كالخيام والثياب وغيرها ، وبمعنى آخر تتحول مدينة دمشق قبل انطلاق قافلة الحجّ إلى سوق تجاري كبير يضم أعداداً الكبيرة من التجار والحُجَّاج حيث وصف المكناسي ذلك بقوله " وبعد صلاة العشاء وطلوع الفجر حملنا ، وركبنا الأتخات تحملها الإبل ، وسرنا وأسواق المدينة مسرّجة كلّها عامرة بالبيع والشراء والدكاكين مفتوحة والسكك ملئى بالناس رجالاً ونساء بقصد البيع وتوديع الحُجَّاج " ^(٤) .

وفيما يتعلّق بالزراعات الموجودة في بلاد الشّام أشار المكناسي إلى انتشار زراعة الزيتون في منطقة جسر الشغور وقرية الرّمة في فلسطين ، وزراعة القطن والشمش الحموي في حماه . أمّا بالنسبة للصناعات الموجودة في بلاد الشّام ، فأشار المكناسي إلى انتشار صناعة الحرير الطبيعي بكثرة في عدّة مدن شامية ، وخاصّة في حمص التي يُنسج بها "الحرير الكثير فقد كان أهلها يجوسون خلال خيام الركب بثياب الحرير يبيعونها " ^(٥) .

ج - الجوانب الاجتماعية :

تناول المكناسي بعض الجوانب الاجتماعية في رحلته ، فتحدّث عن وجود أعداد كبيرة من المسيحيين في بعض المدن والقرى الشامية كقرية الرمة وبيت لحم التي ذكر أنّ معظم

(١) مصطفى عبد الله الغاشي : بلاد الشام في مذكرات سفيرين مغربيين خلال القرن الثامن عشر ، مجلة التاريخ العربي ، الرباط، العدد ٤٦ ، ٢٠٠٨م ، ص ٤٩ .

(٢) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٥٤ .

(٣) ساهمت قافلة الحج الشامي في زيادة النشاط الاقتصادي في بلاد الشام ، فكانت مدينة دمشق تحقق مكاسب مالية كبيرة مع حلول موسم الحج حيث تنشط فيها صناعة المواد التي يحتاج الحجاج في سفرهم كالخيام والثياب وغيرها ، كما يستفيد مشايخ حوران ومشايخ البدو في منطقة حماه وحلب من وراء تأجير الآلاف من جمالهم لنقل الحجاج والقوات والبضائع المرافقة لقافلة الحج . رافق : قافلة الحج الشامي ، ص ١٩ .

(٤) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٤٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

سكانها من النصارى ومدينة حمص التي يوجد فيها أعداداً كبيرة من النصارى " وبها نصارى كثيرون من بقية أهلها الأقدمين تحت ذمة المسلمين " ^(١) ، وأشاد المكناسي بكرم أهل بلاد الشام وأخلاقهم العالية ومعاملتهم الطيبة للغرباء والضيوف ، ولمس ذلك عند زيارته لمدينة القدس حيث وصف أهلها بقوله " ولأهل القدس بشاشة وطلاقة وأخلاق حسنة ، وميل إلى مؤانسة الغريب ومسامرته والمحادثة معه ، ولاسيما هذا الجنس العلمي ، فلم يعتناء به كثير حياهم الله وأدام سقياهم ورياهم ، وإلى مكارم الأخلاق يسرهم وهياهم " ^(٢) ، كما أشار إلى ذلك عندما تحدث عن الاستقبال الكبير الذي لقيه الحجاج عند دخولهم مدينة دمشق من قبل أهل هذه المدينة " وتقدمنا في البلد فوجدنا أهلها جميعاً خرجوا لملاقاة الركب بالفرح والإجلال والطبول والمزامير والخيول في مهرجان عظيم " ^(٣).

ووصف المكناسي الاستقبال الكبير الذي أقامه أهل دمشق عند دخول ركب الحجاج مدينتهم " وتقدمنا في البلد فوجدنا أهلها جميعاً خرجوا لملاقاة الركب بالفرح والإجلال ، والطبول والمزامير والخيول في مهرجان عظيم " ^(٤) ، وأشار المكناسي إلى الاستقبال الخاص الذي لقيه أعضاء السفارة المغربية من قبل الحاكم العثماني في مدينة دمشق تنفيذاً لأوامر السلطان عبد الحميد الأول ، وكيف تمّ تجهيز بيت خاص لإقامتهم في هذه المدينة ، ريثما تنتهي قافلة الحج من التجهيزات والإعدادات ، لانطلاقها إلى الديار المقدسة في الحجاز. كما اهتم أيضاً المكناسي بوصف المراسم والاحتفالات التي تجري في مدينة دمشق بمناسبة خروج قافلة الحج إلى الديار المقدسة ^(٥) ، وكيف يجري تسليم راية الحج إلى أمير الركب في قلعة دمشق " ويوم خروج العلم من القلعة ودفعه للوزير يوم مشهود ، فتوجهنا إلى رؤية ذلك ودخلنا إلى القلعة ولما جاء آغات الكشارية ^(٦) الذي هو رئيس القلعة دخل إلى ضريح

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١٨.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٨.

(٤) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٧٨.

(٥) كانت قافلة الحج تغادر دمشق في موكب ، يسير فيه الوالي وهو أمير الحج ، ويحمل فيه المحمل والصنق وترافقه قوات كثيرة ، وتتم المغادرة في الغالب ، ما بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال ، ويتوقف أمير الحج عند قبة الحج ، خارج باب أو بوابة الله التي سميت كذلك لأنها تؤدي إلى بلاد الله في الحجاز والقدس ، بانتظار جموع الحجاج ، ويتباطأ هؤلاء بالخروج ، بسبب رغبة بعضهم في مشاهدة موكب الحجاج ، أو لتوديع أقربائهم ، أو للقيام بالمشتريات باللحظة الأخيرة ، ويكتمل خروجهم خلال أسبوع ، ومن قبة الحج تتوجه القافلة إلى المزيريب — التي تبعد عن دمشق حوالي ١٠٣ كلم — بشكل متفرق ، لأنه ليس ثمة أخطار تجربها على التجمع ، كما أن عدداً من أقرباء الحجاج ومن الباعة يرافقون الحجاج إلى المزيريب ، وبعد توقف يقارب الأسبوع في المزيريب حيث يلتئم عقد الحجاج وتتم الاستعدادات النهائية ، ويودع الراغبون من الحجاج ودائعهم في قلعة المزيريب ، لتتطلق بعد ذلك قافلة الحج إلى الحجاز . رافق : قافلة الحج الشامي ، ص ١٦ — ١٧.

(٦) قصد المكناسي بهذه الكلمة الإنكشارية ، لكنها وردت في النص على هذا الشكل .

أبي الدرداء مع أعيان العسكر ، ودخلنا معهم وأتوا بصندوق فتحوه وأخرجوا منه علم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحضروا قصعةً من النحاس وأباريق من ماء الورد والطيب والبخور ، ثم غسلوا جامور العلم وهو من الذهب بماء الورد في تلك القصعة ، وطافوا على الحاضرين بتلك الغسالة ، فشرب الناس منه على سبيل التبرك وتمسحوا به ، وبخروجه وركوبه في صعوته أي عصاه والناس في هذه الحالة يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى فرغوا من هذا العمل ، ثم رفعوا العلم الشريف وخرجوا به بالطبول والآلات وقصدوا به دار الوزير ، وحضر القاضي والمفتي وسلّموه للوزير بأشهاد ، ويكون في هذا اليوم — نعي يوم خروج العلم — مهرجانٌ عظيم ، وتخرج مدافع بعشية هذا اليوم إيداناً برحيل الوزير" (١) .

كما أشار المكناسي إلى حدوث عدة أوبئة في بلاد الشام في تلك الفترة مما أدى إلى تناقص عدد السكان بشكل كبير كالوباء الذي حلّ بمدينة دمشق أثناء سفره إلى الحجاز مؤمّحاً أنّه كان يتمّ دفن خمسمائة شخص كل يوم ، وقد كان من بين الموتى عدد كبير من الأشخاص الذين تعرّف عليهم قبل سفره إلى الحجاز ، وعلى رأسهم الشيخ الفقيه سعد الدين حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي (٢) ، كذلك تحدّث المكناسي عن الوباء الذي حلّ بمدينة أنطاكية قبل زيارته لها والذي ذهب ضحيته عدد كبير من سكّانها ، وأدّى مع الجفاف إلى نتائج سلبية تركت أثرها على النشاط الاقتصادي في المدينة طيقاً لما رواه بعض الباقيين من أهلها له " وقد تكلمت في ذلك مع بعض أهلها فقال لي غيرّها توالي القحط والوباء ، وقد وجدنا بقيته ، فقد وصلناها في فصل الصيف والزرع في سنبله قائم في فدادينه لم يُحصّد لقلّة الناس فقد أبادهم الوباء ، ودخلت إلى حمّام من حماماتها لأستحمّ ، فأخبرني صاحب الكيس أنهم كانوا في هذا الحمّام ستين رجلاً كلّهم أصحاب كيس ، ولم يبقَ منهم إلا رجلان" (٣) .

أمّا بالنسبة للمزارات التي أشار المكناسي إليها أثناء تنقله بين المدن الشامية والتي شغلت حيزاً كبيراً من اهتمامه بسبب حرصه الشديد على زيارة جميع المزارات الموجودة في كلّ قرية ومدينة مرّاً بها ، ففي مدينة أنطاكية أشار المكناسي إلى زيارته لمدفن الشيخ حبيب النجار" ويكفي هذه المدينة فخراً وشرفاً وبركة مدفن الرجل الصالح حبيب النجار.... وقد توجّهنا لزيارة قبره ، وهو وسط البلد فدخلنا ضريحه ، فانحدرنا إلى تربته بنحو ستة مدارج ، فوجدنا في ذلك المكان قبرين أخبرني القِيمُ أنّ القبر الأيمن لحبيب النجار والقبر الأيسر

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص . ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

لشمعون الصفا صاحب نبي الله عيسى عليه السلام أحد الحوريين " (١). وفي مدينة حماه زار المكناسي مدفن بشر الحافي " وقبره خارج المدينة في شرقيها على ما يزعم أهل البلد ، عليه قبة صغيرة ملبسة بالطين فتوجّهنا إلى زيارته وتبرّكنا بتربته " (٢) ، كما زار في حماه إحدى الزوايا التابعة للطريقة القادرية حيث كان يوجد إلى جانبها قبر الشيخ عبد الرزاق ، وهو من أحفاد الشيخ عبد القادر الجيلاني .

واهتم المكناسي أثناء توقّف القافلة في مدينة حمص اهتماماً ملحوظاً بزيارة المزارات الموجودة فيها نظراً لكثرة قبور الصحابة والأولياء المدفونين في هذه المدينة (٣) ، كما ذكر المكناسي نفسه " الحاصل أنّ هذه البلدة بقعة من بقاع الجنة لكثرة ما اشتملت عليه من قبور الصحابة والأولياء رضوان الله عليهم أجمعين " (٤). ومن تلك المزارات التي زارها المكناسي في مدينة حمص قبر خالد بن الوليد وابنه عبد الرحمن بن خالد ، وقبر عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ويبدو أنه لم يكن متأكداً أنه قبر عبد الله " زرنا قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابي على حسب ما يزعمه أهل حمص " (٥) ، ومن المزارات الأخرى التي ذكرها المكناسي كعب الأحمبار ، وجعفر الطيار وهما موجودان في مقبرة خارج المدينة وعليهما قبة ، وقبر عمر بن عبد العزيز الذي أشار إلى أنّ بعض الروايات تقول إنّهُ موجود في دير سمعان . أمّا بالنسبة للمزارات الموجودة داخل المدينة ذكر المكناسي عدداً من قبور الصحابة ، ومنها عكاشة بن محصن الصحابي ، وعمر بن أمية الضمري ، وأبي موسى الأشعري الذي لم يكن واثقاً أنه مدفون في حمص حيث عبّر عن ذلك بقوله " يقال إنّهُ مدفون فيه " (٦) ، وقبر ثوبان ، ووحشي الحبشي ، وقبر دحية الكلبي الذي ذكر المكناسي أنه على الأغلب مدفون في دمشق وبالتحديد في قرية المزّة ، وقبر عبد الله بن مسعود ، وقبر دامس أبي الهول ، وقبر عبد الرحمن بن عوف الذي أشار المكناسي إلى أنه في الحقيقة قبر عبد الرحمن بن أبي بكر.

أمّا بالنسبة للمزارات التي ذكرها المكناسي في مدينة دمشق فهي كثيرة وعديدة ومنها قبر النبي يحيى بن زكريا عليه السلام حيث كان ضريحه موجوداً في داخل المسجد الأموي أمام محراب الإمام مالك ، وقد أشار المكناسي إلى أن رأس النبي يحيى فقط هو المدفون في

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٤.

(٣) الغاشي : بلاد الشام في مذكرات سفيرين مغربيين ، ص ٥٦.

(٤) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٧٧.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦٥.

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٢.

الجامع ، أما بقية جسده فهو مدفون في جامع الدلة في الزبداني ، ومن المزارات الأخرى التي زارها في المسجد الأموي مقام النبي هود عليه السلام ، كما زار ضريح الصحابي عبد الله بن مرداس الواقع في الطريق إلى المسجد الأموي ، وقبر أرسلان الدمشقي ، وضريح محمد بن عقيل بن أبي طالب ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأسما بنت أبي بكر الصديق ، وسكينة بنت الحسين ، وزينب بنت علي بن أبي طالب ، وفاطمة بنت الحسين ، وعبد الله بن زين العابدين ، وزوجات الرسول (ص) أم حبيبة و أم سلمة وميمونة ، وحسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبي الدرداء عويمر بن زيد الأنصاري الخزرجي الذي تولى القضاء في دمشق في عهد عثمان بن عفان ، وعمر بن عبد العزيز ، وأويس بن أبيس الثقفي وهو أحد الصحابة .

وزار المكناسي في قرية المزّة قبر دحية الكلبي ، وفي قرية الصالحية قبر محيي الدين ابن عربي ، وقبر الشيخ عبد الغني النابلسي ، ومقام الأربعين الأبدال الذي وصفه بقوله " فإنه في جبل قاسيون صعب المرتقى ، فلما وصلنا إلى الجبل وهو فوق مقبرة الصالحية ، ترجلنا عن الخيل ، وصعدنا على أرجلنا في مسالك متعبة وطرق متشعبة مصنوعة بالمكائيل والمعاول والآلات محفورة في الحجارة وهذا المقام هو بيت مستطيل فيه أربعون محراباً ، وبوسط المحارب محراب يقال إنه محراب الخضر عليه السلام يقال إن الأبدال الأربعين مجتمعون هنالك " (١) ، وذكر المكناسي أنه يوجد تحت هذا المقام مغارة تدعى مغارة الدم ، ويُعتقد أنها المغارة التي قُتل فيها قابيل أخاه هابيل ، كما يوجد بالقرب من المقام السابق الذكر شق في الجبل تزعم بعض الروايات أنه الكهف الذي كان موجوداً فيه أصحاب الكهف ، وفي أسفل هذا الجبل فوق مقبرة الصالحية قبر النبي ذي الكفل فزاره المكناسي ، ومن القبور الأخرى في الصالحية قبر خولة بنت الأزور .

كما زار المكناسي قبر بلال بن رباح الحبشي مؤذن الرسول (ص) الموجود في جبانة باب الصغير خارج دمشق ، وأشار المكناسي إلى تمتع هذا المزار بشهرة كبيرة ، وبالإضافة إليه يوجد في هذه الجبانة عدد كبير من قبور الصحابة والتابعين والأولياء بما لا يُعد ولا يُحصى ، كذلك زار المكناسي قبوراً عدّة في خارج باب توما ، ومن تلك القبور قبر ضرار بن الأزور الأسدي ، وأبي بن كعب ، كما زار قبر صُهيب الرومي الموجود في الميدان ، وهو أحد أحياء دمشق الحالية ، ومقبرة الصحابي أبي الدحداح التي يوجد فيها بالإضافة إلى قبر الدحداح عدداً من قبور الأولياء والصالحين ، وزار المكناسي مسجد الأقباص الذي يطلق

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٣٥ .

عليه تسمية مسجد السادات لكثرة الصحابة المدفونين فيه ، لكن المكناسي لم يذكر أسماء هؤلاء الصحابة ، كما زار مشهد الحسين الذي يُسمّى مسجد الرأس الذي وصفه بقوله " ثم زرنا مشهد الحسين ويُسمّى مسجد الرأس وهو معروف الآن بدمشق داخل باب الفراديس ، وهو مسجد عليه جلالة ومهابة ، يُقصد للزيارة والدعاء والتبرّك والتماس الحوائج وهو في غاية القبول " (١) ، وختم المكناسي حديثه عن المزارات التي قام بزيارتها في مدينة دمشق بالحديث عن زيارته لقبر نور الدين زنكي الملقب بالشهيد .

وزار المكناسي في مدينة عكا ضريح النبي صالح عليه السلام ، وفي نابلس أولاد يعقوب عليه السلام . أمّا بالنسبة للمزارات التي زارها المكناسي في الحرم القدسي ، فهي محراب السيدة مريم الذي وصفه بقوله " وزرنا أيضاً في هذا الحرم الموضع الذي فيه محراب سيدتنا مريم ، وفيه أيضاً مهد عيسى عليه السلام ، وقد انحدرنا إليه بمدرج وقعدت في المهد تبركاً بصاحبه ، وأشرفنا من هذا المكان على الفضاء المحمول عليه المسجد الأقصى كله ، فهو محمول على أعمدة من الحجارة العظيمة من بناء الجان على عهد نبي الله سليمان عليه السلام " (٢) ، وزار أيضاً تربة النبي سليمان عليه السلام ، وقد أشار إلى أن بعض الروايات تزعم أنه مدفون مع والده في موضع يُقال له الجسمانية خارج سور المسجد من جهة الشرق ، كما ذكر بعض العلماء أن النبي داود عليه السلام مدفون في موضع يُقال له صهيون ، وهو خارج سور المدينة من جهة القبلة ، كذلك زار المكناسي الموضع الذي كان فيه النبي داود عليه السلام يحكم بين الناس ، كما زار حائط البراق الشريف ، وقبر الصحابي عبادة بن الصامت الأنصاري ، والصحابي شدّاد بن أوس ، وضريح مريم بنت عمران حيث أشار إلى أن مفتاح قبعتها بيد النصاري ، وقبر الإمام الحنبلي صاحب كتاب " تاريخ الأنس الجليل في القدس والخليل " .

وزار المكناسي المزارات الموجودة على جبل الطور، ومنها تربة الشيخ محمد العلمي ، والموضع الذي صُلب فيه السيد المسيح عليه السلام حيث ذكر أن ذلك الموضع كان بيد النصاري حتى تمكّن الشيخ محمد العلمي من استخلاصه من أيدهم ، وهذا يتفق مع ما سبق وذكره العياشي ، كما زار تربة النبي عزيز ، والقبّة التي عرج منها الرسول (ص) ليلة الإسراء والمعراج وهي شمال قبّة الصخرة ، وخلوة أبي الغوث دفين تلمسان الواقع في حارة المغاربة ، وقبر راحيل أم يوسف عليه السلام ، وتربة النبي يونس عليه السلام ، وزار المكناسي في مدينة الخليل المسجد الكبير الذي يوجد فيه ضريح الخليل عليه السلام ، وضريح

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

زوجته سارة الواقعان عند باب المسجد ، وضريح إبراهيم عليه السلام وزوجته ، وضريح النبي إسحاق عليه السلام وزوجته ربة ، وضريح النبي يعقوب عليه السلام ، وضريح النبي يوسف عليه السلام .

د - الجوانب الثقافية :

ذكر المكناسي أسماء بعض العلماء والفقهاء الذين اجتمع بهم المكناسي في بلاد الشام، ومنهم الشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي ^(١) الذي وصفه المكناسي بقوله " الفقيه المُحدث الشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ القدوة العمدة سيدي عبد الغني النابلسي وحفيده هذا سلك مسلك أسلافه في الدين والاعتكاف على قراءة العلم ، وله مشاركة في علوم صاحب وقار وسمت حسن " ^(٢) ، وقد زار المكناسي الشيخ سعد الدين ، فأطلعته الأخير على رحلة لجدّه عبد الغني إلى القدس ، وعلى عدّة مؤلفات أخرى للنابلسي ومنها " تأليف في حلية العشبة المسماة في الوقت بطابة ، ومنظومة عدّد فيها منافعها وسمّاها الصلح بين الإخوان " ^(٣) ، والتقى أيضاً المكناسي في دمشق بالفقيه الأديب كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي الشافعي ^(٤) حيث اجتمع فيه بالجامع الأموي ، وكذلك اجتمع المكناسي بمفتي الحنفية في دمشق الشيخ إسماعيل الجزاعي ^(٥) الذي كان يتردّد على أعضاء السفارة المغربية لقرب منزله من المنزل الذي تمّ إنزالهم فيه . وفي مدينة القدس التقى المكناسي ببعض علمائها وفقهائها الشيخ أبو السعود محمد شيخ الطريقة الصوفية المعروفة بالقادرية ^(٦) ، واجتمع أيضاً بالشيخ الأديب مصطفى بن الشيخ أبي السعود ^(٧).

(١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٤) كمال الدين الغزي (١١٧٣ - ١٢١٤ هـ / ١٧٥٩ - ١٧٩٩ م) : هو محمد بن محمد بن شريف بن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الغزي العامري الحسيني الصديقي ، أبو الفضل ، كمال الدين ، مؤرخ وأديب ، كان مفتي الشافعية في دمشق ، له شعر جيد وعدة مؤلفات منها التذكرة الكمالية والمورد الإنسي في ترجمة الشيخ عبد الغني النابلسي . للتفصيل يرجى العودة إلى محمد خليل بن علي المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د.ت) . الزركلي : الأعلام ، الجزء السابع ، ص . ص ٧٠-٧١ .

(٥) لم أعثر على ترجمة له .

(٦) الطريقة القادرية : طريقة صوفية تُنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي قدم إلى بغداد سنة ٤٨٨ هـ ، وذاع صيته بين الناس لما تميّز به من علم ومعرفة وتقوى ، وينتشر أتباع هذه الطريقة في بلاد الشام ومصر والعراق والمغرب العربي وغيرها من البلدان للتفصيل العسلي : معاهد العلم ، ص ٣١١ .

(٧) لم أعثر على ترجمة له .

هـ - الجوانب العمرانية :

أبدى المكناسي اهتماماً كبيراً بالنواحي العمرانية ، فوصف أوضاع المدن الشامية من الناحية العمرانية كمدينة أنطاكية التي ذكر أنها من المدن الكبرى ، ويحيط بها سور كبير ، وما تزال تحتفظ بأشياء كثيرة تدل على أصالتها كالأبنية الضخمة المبنية بالحجارة المنحوتة ، وأسواقها وأحيائها المرصوفة طرقها بالحجارة . أمّا مدينة حمص ، فذكر المكناسي السور الكبير الذي يحيط بالمدينة والأزقة والأسواق المرصوفة طرقها بالحجارة ، والتي ما تزال قائمة من أيام الروم ، كما وصف أبنية هذه المدينة بقوله " إلاّ أنّ ديارها ليست مرتفعة كثيراً وجدرانها التي سقطت وأعيدت البناء لم تعد على شكل ما كانت عليه زمن الروم بالحجارة ، كما هو موجود في بعضها فإنّما يجدونها بالطين لا غير" ^(١) ، وأبدى المكناسي إعجابه بالقلعة الموجودة في هذه المدينة حيث ذكر أنّ سورها مُهدّم من جهات عديدة ، وأنها كانت تمتلك خندقاً تحت الأرض يصلّها بالمدينة .

ووصف المكناسي مدينة دمشق بالمدينة الكبيرة بقوله " دمشقُ بلدٌ كبيرٌ ، نعي بما أضيف إليه ، وأمّا بخصوص مسور دمشق القديمة فليست في غاية الكبر وإنّما هي متوسطة ، وأمّا بما أضيف إليها وزيد فيها خارج السور ، فهي كبيرة جداً مستطيلة لناحية القلعة " ^(٢) ، كما أشار المكناسي إلى قلعة دمشق " ولهذه القلعة مدافع كثيرة دائرة بها وحفير ، وسور عظيم في غاية الضخامة من بنيان الروم الذين كانوا هنالك قبل الإسلام ، فإذا أراد الوزير أن يُظهر خلافاً وشقاقاً وعصياناً على المملكة ، فإنّ العسكر الذي بالقلعة يرمونه بالمدافع من القلعة ويهتّون داره ، فهم هنالك عليه لا له " ^(٣). كذلك أشار المكناسي عند حديثه عن مدينة القدس إلى الأسوار الكبيرة والحصينة المحيطة بالمدينة والمبنية من الحجارة الضخمة ، وأبوابها الستة فذكر أنه بالإضافة إلى باب العمود الذي دخل منه أعضاء السفارة يوجد باب الزاهرة ، وباب الأسباط ، وباب المغاربة ، وباب النبي داود ، وباب الخليل .

وتطرّق المكناسي لوصف بعض الجوامع والمساجد من الناحية العمرانية كالجامع الأموي الذي عدّه المكناسي من أعظم المساجد التي بناها المسلمون في شتى أصقاع المعمورة ، وأكبرها وأعظمها ، فوصفه بقوله " وهو كبير ، فطوله من الجدار الذي عن يمين المستقبل إلى جداره عن يساره ستمائة قدم ، وربما تنقص أو تزيد بقليل لاختلاف الأقدام ، وعرضه من محرابه إلى جدار آخر المسجد ثلاثمائة وسبعة وثلاثون قدماً ، له ثلاث بلاطات عرض كل

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٩.

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٧.

بلاطة اثنان وخمسون قدماً وعرض الصحن مثل البلاطات ثلاثمائة وستين قدماً ، وعرض بلاطة آخر الصحن خمسة وعشرون قدماً ، وكله على أعمدة الرخام عالي السمك ، وله من الأبواب أربعة " (١) .

وفيما يتعلّق بمسجد قبة الصخرة الشريفة ذكر المكناسي أنه للوصول إليها لابدّ من صعود مدرج مؤلف من عشرين درجة ، وقد خصّ المكناسي هذه القبة بكثير من الأوصاف ومن جملة ما قاله " وفي وسط هذا البلاط قبة الصخرة المباركة وهي مُثَمَّنَةُ الدائرة ، لها أربعة أبواب عظام مُجَلَّدِينَ بالصفّر وفي داخل هذه القبة قبة أخرى مرفوعة على أعمدة الرخام دائرة بالصخرة وبين الأعمدة شبابيك من الصفّر في علو نحو قامتين ، لها أربعة أبواب من نفس الشبابيك " (٢) . أما بالنسبة لأعمدة القبة ، فهي " أربعون عموداً من الرخام الفائق ، منها أربعة عشر عموداً هي الدائرة بالصخرة المرفوعة عليها قبتها ، ومنها ستة عشر عموداً مرفوع عليها المثقف المحيط بقبة الصخرة وهو مسطح ، وجميع حيطان هذه القبة من داخل وخارج مكسو بالرخام المصقول الذي كأنه مرآة ، وما رأيت في بلاد الإسلام أكثر تأنّفاً من صنعة هذه القبة ، وفيها محراب يصلي فيه إمام الحنفية الخمس " (٣) .

كما تحدّث المكناسي مطولاً عن المسجد الأقصى قائلاً " وأمّا جامع المسجد الأقصى الذي يُصَلِّي فيه إمام الشافعية ، وهو المسقف من الأقصى فعرضه من المحراب إلى الباب الكبير مائتان وخمسون قدماً ، وطوله خمسة وخمسون وأربعمئة قدم ومحرابه في غاية الحُسْن وهو الذي يُقال إنّ المهدي يصلي فيه وهو مكسوّ بالأواح من الرخام عرض الواحدة أقل من شبرٍ وعددها سبعة عشر لوحاً ، ثمانية بيض وأربعة حمر وثلاثة إلى السواد أميل واثنان إلى الخضرة أميل أما الثمانية الألواح البيضاء إشارة إلى ثمان ركعات صلاة الظهر والعصر ، والأربعة الحمر إشارة إلى صلاة العشاء بعد حمرة الشفق ، والثلاثة التي تميل إلى السواد إشارة إلى صلاة المغرب إذا أقبل الليل ، والاثنان الخضراوان إشارة إلى صلاة الصبح وله أي للأقصى المسقف من الأبواب أحد عشر باباً : سبعة في صف واحد في قابلة الصخرة أوسطها هو الباب الكبير المقابل للمحراب ، وأمام هذه الأبواب بلاط مسقف وأربعة أبواب في جانبه ، وفي الجهة الغربية من الصحن عدّة مدارس وبقرها متصلاً بها مسجد ، وهو بلاط واحد كبير طويل جداً يقال له البقعة البيضاء وبه يصلي إمام المالكية قرب مربوط البراق وطول جميع مسور المسجد الأقصى ، بين المسقف والصخرة

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ١٨١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

وغير ذلك ، سبعمائة وخمسة وثمانون ذراعاً من باب الأسباط إلى محراب داود وسوق المعرفة وعرضه أربعمائة " (١) ، كما عدد المكناسي أبواب المسجد الأقصى " فأولهما وثانيهما متحدان في السور الشرقي والثالث باب الأسباط نسبة لأسباط بني إسرائيل وهم يوسف وروبيل وشمعون ويهوذا ، وهو قريب بابي الرحمة والتوبة والرابع باب حطة في جهة الشمال والخامس باب شرف الأنبياء في جهة الشمال والسادس باب الغوانمة والسابع باب الناظر والثامن باب الحديد والتاسع باب القطانين ومنه يخرج إلى سوق القطانين والعاشر والحادي عشر باب السلسلة وهما متحدان ، وباب المغاربة سمّي بذلك لمجاورته لباب جامع المغاربة وهذا الباب في آخر الجهة الغربية من المسجد ممّا يلي القبلة ويُسمّى باب النبي صلى الله عليه وسلم " (٢).

وزار المكناسي أيضاً المسجد الأقصى القديم الذي يقوم عليه المسجد الحالي ، ووصفه بقوله " وتبرّكنا بزيارة المسجد الأقصى القديم الذي من فوقه المسجد الذي يُسمّى اليوم بالأقصى ، فاندحدرنا إليه بمدارج وهو الذي فيه محرابان ، محراب إلى صوب الصخرة القبلة الأولى ومحراب إلى جهة الكعبة المشرفة ، وبناءه قديم من بناء سليمان عليه السلام بالحجارة الهائلة ، فقد كُتُ حَجراً من أحجاره ، فوجدت فيه تسعة عشر شبراً في طوله وعرضه نحو خمسة أشبار، ورأيت فيه أعظم من ذلك جداراً في طرفه أسطوانة من ثلاثة أحجار فقط ، منحوتاً منها على شكل الأسطوانة مدوراً من نفس الحجر الذي هو الجدار وباقيها مستطيل " (٣) ، وقد أشار المكناسي إلى العناية الكبيرة التي تولّيتها الدولة العثمانية بالحرم القدسي الشريف (٤) والأماكن المقدسة في الحجاز بقوله " ولهذه الدولة العثمانية بهذا الحرم الشريف بل وكذا حرم مكة والمدينة اعتناء عظيم وأثر جسيم ، فمهما سقط شيء منه إلاّ أعادوه وما تلاشى جددوه ولهم هنالك زيادة على إصلاح ما في الحرم من البناء ، الصدقة الجارية على من في القدس من الآباء والأبناء ، وعيّنوا هنالك زاوية تظلّ على طول

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ٢٩٥ — ٢٩٦.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠١.

(٤) اهتم السلاطين العثمانيون بالقيام بأعمال الترميم في الحرم القدسي الشريف بشكل كبير ، فقد كانوا يرون أنّ من واجبهم الديني أن يمدّوا يد العناية والرعاية إلى المقامات الدينية وأماكن العبادة الإسلامية ، خصوصاً في القدس والخليل ، واستمرت أعمال التعمير والترميم في الحرم القدسي في جميع المراحل ، وتضمّ الدفاتر المهمة العثمانية " مهمة دفترلري " عدّة فرمانات وأوامر تظهر الاهتمام الذي كانت توليه السلطات العثمانية للحرم القدسي ومقامات الأنبياء والأولياء ، وكان من الواجبات الملحة صيانة الأماكن المقدسة وأضرحة الأنبياء وتعميرها بلا تأخير ، وكان يُشترط أن تُصرف واردات الأوقاف على أعمال الصيانة بالدرجة الأولى ، ومن جهة أخرى كانت الحكومة على استعداد لأن تتحمل نفقات الترميم والتعمير . للتفصيل العسلي : القدس في التاريخ ، ص ٢٤٧.

الآناء أعشارها تفور ، وأنيتها بالطعام على الفقراء تدور في العشى والبيكور وهذه الحسنة جارية قد مضت عليها من الدهر أحقاب وكلّ مَنْ أتى من ملوكهم عن هذا النهج لا يحيد ولا ينقص بل يزيد ، أدام الله تعالى أيامهم نصر جيوشهم وأعلامهم " (١).

كما تحدّث المكناسي عن مسجد الخليل عليه السلام " وهذا المسجد ليس بالكبير وفي داخل المسجد في أرضه طاق مثل البير بقرب مقام سيدنا إبراهيم ، تُسَرَّجُ فيه المصابيح ليلاً ونهاراً وتُدَلَّى فيه وفي المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور ديباج مثل ما يُفَعَّل عندنا بقبور الأولياء جُعِلَتْ في مقابلة قبور الأنبياء إلا قبرَ يُوسُفَ فإنّه في آخر المسجد عند انتهاء الصحن في الناحية الغربية وكذا نبي الله يعقوب خارج عن مسقف المسجد " (٢) . وقد أشار المكناسي إلى دخوله المسجد على الرّغم من أنّ فقهاء المالكية شددوا على عدم جواز ذلك لأنه من غير المحبذ المرور أو الجلوس على قبور المسلمين فكيف على قبور الأنبياء — وهذا يتطابق مع ما ذكره العياشي من قبل — لكنّ وعلى الرّغم من ذلك فقد أشار المكناسي إلى أنّ ذلك المكان المقدّس منذ أن فُتحت البلاد صار مسجداً تُقام فيه الصلوات، وبالتالي يؤمّه الناس بشكل اعتيادي.

وقد أشار المكناسي إلى اهتمام الدولة العثمانية بأوضاع طريق الحج من ناحية بناء عدد كبير من الخانات التي تحمي الحُجّاج من البرد والثلج في الشتاء والتي تتسع لآلاف الحُجّاج وبناء الجسور والقنطرات وفتح الطرق التي تُسهل على الحُجّاج اجتياز الأماكن الوعرة والصعبة على الطريق كقرية أوابل الواقعة في آسيا الصغرى " ومن الغد سافرنا في بلاد أصعب حجارة وضيقاً وصعوبة بين جبلين والوادي بينهما ، فتارة نمرُ بوسط الوادي وتارة بإحدى العدوتين حيثما أمكن فتح الطريق في الجبل ، لأنّ هذه الطريق كلّها مأخوذة من الجبل مفتوحة بالآلة ، مع ذلك فهي مرصفة بالحجارة مبني جانبها الذي من ناحية الوادي خشية أن يذهب بها السيل " (٣) .

ثانياً- أبو القاسم الزياني (١١٤٦ - ١٢٤٨هـ/ ١٧٣٤ - ١٨٣٣م) " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً " :

يُعدُّ أبو القاسم الزياني واحداً من أشهر الوزراء والمؤرّخين المغاربة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نتيجة مشاركته الفعّالة في الحياة السياسية والدبلوماسية المغربية في تلك

(١) المكناسي : رحلة المكناسي ، ص ٣١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص . ص ١٤٥ - ١٤٦ .

المرحلة ، هذا بالإضافة إلى مساهمته الكبيرة في إغناء الحركة الفكرية المغربية عن طريق قيامه بوضع مؤلفات عدة شملت علوماً عديدة كالتاريخ والفقه والجغرافيا والتراجم ، كما قام الزياني بثلاث رحلات سواءً بتكليف من السلطان المغربي أم بدافع شخصي ، فزار مناطق عدة مثل الدولة العثمانية وسواحل أوروبا الجنوبية ومصر والحجاز ، وكانت رحلته الأولى سنة ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م ، ورافق فيها والده إلى الحجاز بقصد المجاورة . أمّا الثانية فكانت في سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م إلى العاصمة العثمانية استانبول بتكليف من السلطان محمد بن عبد الله ، والثالثة سنة ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م ، بدافع شخصي ، فزار مناطق عدة في المشرق العربي.

١- المولد والنشأة :

ولد أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني البربري الأصل ^(١) في مدينة فاس سنة ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م ^(٢) ، وهو ينتسب إلى قبيلة زيان ، ونشأ في مدينة فاس وتلقى علومه في جامع القرويين على يد كبار علماء هذه المدينة وشيوخها نذكر منهم الفقيه والشيخ أحمد بن طاهر الشرقي والشيخ التادوي والشيخ الطيب القادري ، وفي سنة ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م ، قرر والده بيع جميع ممتلكاته في المغرب والاتّجاه إلى المدينة المنورة بقصد المجاورة نتيجة الفوضى الكبيرة التي عمّت المغرب بعد وفاة المولى السلطان إسماعيل ، فباع منزلين كان يملكهما في مدينة فاس ، بالإضافة إلى جميع الكتب التي خلفها والده الذي كان إمام مسجد فاس في عهد السلطان إسماعيل.

كان أبو القاسم في تلك المرحلة في الثالث والعشرين من عمره ، وكان قد نال قسطاً وافراً من العلم والمعرفة ، وخاصة في علوم الفقه والحديث والتفسير والمنطق ^(٣) ، وعند بلوغ أفراد العائلة مصر أشار البعض على والد أبو القاسم الزياني بمتابعة الطريق بحراً إلى الحجاز ، فأعجب الوالد بهذه الفكرة ، وقرر شراء بعض السلع بالمال الذي يملكه واصطحبها إلى الحجاز بقصد التجارة ، ولكنهم قبل الوصول بقليل إلى ينبع تحطم المركب الذي كانوا على متنه ، وغرقت المواد التي كان قد اشتراها الوالد ، لكنهم استطاعوا النجاة من الغرق بعد أن فقدوا كلّ ما يملكونه باستثناء ما خبأته والدّة أبو القاسم في حزامها حيث استطاعوا بواسطة

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ٧٧٠.

(٢) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ١٥ جزءاً ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت)، الجزء السابع ، ص ٩٣.

(٣) للتفصيل حول المرحلة الأولى من حياة الزياني وأهم العلوم التي تلقّاها والأساتذة الذين تتلمذ على يدهم يرجى العودة إلى أبو القاسم الزياني : الترجمات الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً ، حقّقه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلاي ، (د.ن) ، الرباط ، ١٩٩١م ، ص ٥٦ - ٥٨.

هذا المبلغ متابعة الطريق إلى جدّة ، ثم مكّة المكرمة فحجّوا في ذلك العام ، ثم عادوا إلى المغرب بعد أن تبخّرت أحلام الوالد في المجاورة بعد فقدانهم جميع ما يمتلكونه ، فعادت الأسرة إلى فاس ، قبل سنة واحدة من تولي السلطان محمد بن عبد الله الحكم في المغرب .

بعد عودة أبي القاسم إلى فاس قام بالبحث عن أصدقائه ، فوجد معظمهم قد دخلوا في خدمة السلطان محمد بن عبد الله ، فأراد الزياني اللحاق برفاقه والدخول في خدمة السلطان محمد ، لكنّ والده كان رافضاً لتلك الفكرة خوفاً على ولده ، خاصّة بعد أن شاهد مصير معظم من دخل في خدمة الملوك ، فكان هؤلاء مهما يحصلون من شهرة وغنى ومجد ، فإن نهايتهم إمّا الموت أو السجن مع مصادرة جميع ممتلكاتهم ، لكنّ أبو القاسم رفض نصيحة والده ، ودخل في خدمة السلطان محمد وأصبح كاتباً في البلاط المغربي . لم يهنأ الزياني طويلاً بالخدمة في البلاط المغربي حيث حدث ما توقعه والده ، فقد طُرِدَ أبو القاسم الزياني من الخدمة في البلاط بعد عشر سنواتٍ وهُدِّدَ بالقتل ، غير أنّ الأقدار تدخّلت لمصلحة الزياني نتيجة مواجهة السلطان المغربي محمد بن عبد الله مشكلة كبيرة ، لم يستطع حلّها إلاّ باللجوء إلى الزياني ، فأعادته إلى منصبه وأغدق عليه الأموال والهبات ، كما كلفه ببعض المناصب الإدارية العليا في الدولة ، وفي سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م ، قام السلطان محمد بتكليف الزياني بترأس سفارة مغربية إلى العاصمة العثمانية القسطنطينية لمقابلة السلطان العثماني عبد الحميد الأول^(١) .

توفي السلطان المغربي محمد بن عبد الله سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م ، فخلفه ابنه اليزيد (١٢٠٤ - ١٢٠٦هـ / ١٧٩٠ - ١٧٩٢م) الذي كان يكره أبا القاسم الزياني كرهاً شديداً ، لأنّ الزياني كان على اتصال بالقبائل البربرية التي أراد اليزيد تجنيدها للقضاء على ثورة أخيه هشام حيث أحبط الزياني مخططات اليزيد ، فقام الأخيرُ بسجنه ومصادرة جميع ممتلكاته ، لكنّ تلك المعاناة لم تستمرّ طويلاً بسبب وفاة اليزيد في إحدى المعارك ضدّ أخيه هشام ، فخرج الزياني من السجن بمساعدة أهل الرباط حيث كان مسجوناً في أحد سجونها ، وانضمّ إلى الأمير سليمان في صراعه مع أخوته هشام ومسلمة ، ودام ذلك الصراع أربع سنوات إلى أن استطاع سليمان حسم الأمور لصالحه ، فتمّ ترقية أبي القاسم الزياني ، وأُسند إليه حكم مدينة وجدة ، وبقي الزياني في هذا المنصب إلى أن قرّر القيام برحلته إلى المشرق .

عاد الزياني مُجدّداً إلى الخدمة في البلاط المغربي بعد عودته من رحلته المشرقية ، لكنّ تلك العودة إلى الخدمة في البلاط لم تدم طويلاً حيث تمّ إبعاد الزياني عن القصر نهائياً في

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٦٥ .

سنة ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م ، دون أن تتمّ مصادرة أمواله ، فاعتزل الزياني الحياة السياسية وتفرّغ للتأليف ، واستمرّ على هذه الحال إلى أن وافه الأجل سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م ، ودُفِنَ في داخل الزاوية الناصرية بحي السياج في مدينة فاس ^(١).

٢- مؤلفاته :

لم تكن الفترة التي أمضاها أبو القاسم الزياني منعزلاً في منزله ، والتي استمرت قرابة الخمسة والعشرين سنة أقلّ أهميةً عن تلك الفترة التي قضاها في البلاط المغربي حيث تميّزت مرحلة العزلة بغزارة إنتاجه الفكري ، فألف العديد من الكتب التي لم تقتصر على علم محدّد ، بل شملت علوم الدين والتاريخ والجغرافيا والتراجم ، وتعدّ مؤلّفات الزياني عن الدولة العلويّة من أهم المصادر التاريخية التي تتحدّث عن تاريخ هذه الدولة ، نظراً لمعاصرته لتلك الأحداث بصورة مباشرة ، كما أنّها تمتاز بالدقّة والموضوعية هذا بالإضافة إلى تميّز أبي القاسم الزياني عن غيره من المؤرّخين المغاربة المعاصرين له الذين كانوا يكتفون بسرد الأحداث السياسية دون إبداء رأيهم في تلك الأحداث أو التعليق عليها ، على عكس ما فعله الزياني الذي لم يكتفِ بعرض الأحداث والوقائع ، بل قام بإبداء رأيه فيها أيضاً.

وضع الزياني كما ذكرنا سابقاً العديد من الكتب التي تتحدّث عن تاريخ المغرب في تلك المرحلة ، كما ألف عدّة كتب تعالج بعض القضايا الفقهية ، لكن أهم كتبه على الإطلاق والذي ساهم في شهرة صاحبه كتاب " الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً " الذي تحدّث فيه عن أسفاره ورحلاته ، ويتميّز هذا الكتاب عن غيره من كتب الرحالة المغاربة الذين تمّ التطرّق لهم في هذا البحث ، في كون مؤلفه لم يخصّصه للحديث عن رحلة معينة ، كما فعل المكناشي أو عن جميع رحلاته وأسفاره ، كما فعل المقرّي ، بل جعل الزياني هذا الكتاب أشبه ما يكون بالعمل الموسوعي تحدّث فيه عن حياته وولادته ونشأته ورحلاته وأسفاره ومشاركته في الحياة السياسية للمغرب في تلك الفترة حتى اعتزاله لها ، كما ضمّنه الكثير من التفاصيل عن الأوضاع السياسية للمغرب وغيره من المناطق التي زارها ، هذا فضلاً عن المعلومات الجغرافية الكثيرة والخريطة التي أوردّها في هذا الكتاب ^(٢) والتي شملت العالم كله ، فتحدّث عن البحار والأنهار والجبال والأحجار الكريمة ، كذلك فقد تحدّث عن جميع البلدان المعروفة بما تضمّه من مدن ، ولعلّ خير من وصف هذا الكتاب أبو القاسم الزياني نفسه بقوله " أنّي لما

(١) أبو القاسم الزياني : البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف ، دراسة وتحقيق رشيد الزاوي ، الطبعة الأولى ، مركز

الدراسات والبحوث العلوية ، المغرب ، ١٩٩٢م ، ص ١٠.

(٢) للإطلاع على تلك الخريطة يرجى العودة إلى الملحق الثامن ص ٢٨٦.

رَمَتْ بي الأقدار، وجُلَّتْ في الأقطار ، وشاهدت الكثيرَ من الأمصار في البراري والبحار ووقفت على كثير من الأخبار، واجتمعت بجملة وافرة من الأمراء الأبرار، والعلماء النجباء الأخيار، واستقدت منهم ما شاء الله من الآثار وقيدت أحوال هذا العالم ما في دواوين الأخبار جعلته جملة واحدة على قاعدة النحاة في جواز الجمع بين الأخوات وسميتها الترجمانة الكبرى والتي جمعت أخبار العالم براً وبحراً " (١) ، وكان السبب الذي دفع الزياني لتأليف هذا الكتاب رغبته في إهدائه إلى السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله تعبيراً عن ولاءه لهذا الرجل الذي قدّم الكثير للزياني .

وبالإضافة إلى كتاب الترجمانة الكبرى وضع الزياني عدّة كتب أخرى منها الترجمان المَعْرَبُ عن دول المشرق والمغرب ، والبستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف وقد وصف ابن سودة هذا الكتاب بقوله " وهو لأبي القاسم بن أحمد الزياني افتتحه بقوله : الحمد لله الذي خلق الإنسان وفصله تفصيلاً تكلم فيه على دولة أولاد مولانا علي الشريف العلوي " (٢) ، وألفية السلوك في وفيات الملوك ، وشرح هذه الألفية في دول الإسلام إلى عصره ، والدرّة الفائقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، وتحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب ، ورحلة الحذاق لمشاهدة الآفاق في الجغرافيا ، وجوهرة الياقوت واللؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك وأشياخ المولى سليمان ، وكشف الأسرار في الرد على أهل البدع والأشرار ، ونصيحة المغتربين في بطلان التدبير للمعتزمين ، والتاج والإكليل في مآثر السلطان الجليل وهو كتاب عرّف فيه الزياني بالسلطان سليمان بن محمد بن عبد الله (٣).

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ ما سبق ذكره من الكتب قام الزياني بتأليفها قبل كتاب الترجمانة الكبرى ، لأنّه تحدّث عن هذه الكتب في كتاب الترجمانة . أمّا الكتب التي وضعها فيما بعد ، فمن خلال بعض المصادر استطعنا التعرف على بعض الكتب الأخرى لأبي القاسم الزياني وهي تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء ، وشرح الحال والشكوى للكبير المعتال " وهي قصيدة " ، وقصة المهاجرين المعروفين بالبلدين بفاس ، والروضة السلیمانية في ملوك الدولة العلوية ومن تقدّمها من الدول الإسلامية ، ومقامة في العائلة الفاسية ، وتاريخ الولاية المحمودة البدء والنهاية أو كما سماه ابن سودة " عقد الجمان في شمائل السلطان المولى عبد الرحمن " وقد عرّف فيه بالسلطان عبد الرحمن بن هشام ،

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٥٣.

(٢) ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ص ٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٨.

وتحدّث عن أعماله وحروبه ^(١) ، ولا بدّ من التنويه إلى أن ما سبق ذكره من مؤلفات الزياني هي المعروفة ، مع الإشارة إلى أنّه يمكن أن يكون هناك مؤلفات أخرى للزياني لم تصل إلينا .

٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه أبو القاسم الزياني ^(٢):

قام الزياني — كما ذكرنا سابقاً — بثلاث رحلات إلى المشرق ، وكانت زيارته لبلاد الشام في الرحلة الثالثة التي جاءت في أعقاب تعيينه والياً على ولاية وجدة ^(٣) من قبل السلطان سليمان ، ولم يكن الزياني راغباً بهذا المنصب ، كما ذكر في " الترجمانة الكبرى " ولما تمّت بيعته.... قلّدي ولاية وجدة التي في حيّز الإهمال ، وأزعجني لها من غير إمهال فاستعفيته فلم يقبل كلامي ، واسترحمته فلم يرحم ذمامي ، وخرجت لها في طالع نحس مكدّر ، للسابق المحتوم المقدّر ، فجاءنا العرب من كلّ حدب ينسلون ، ووقع الصدام فانهزم من معنا من العسكر هاربون ، فنهب العرب ما عندنا فأزمت الرحلة عن المغرب ، وتركت من بقي من أعجمي ومُعرب ، وهي الرحلة الثالثة ، والنكبة الخامسة " ^(٤).

وهكذا قرر الزياني مغادرة المغرب بعد المشاكل الكبيرة التي واجهها أثناء ولايته على وجدة ، فقصّد مدينة وهران ^(٥) ، ثم مدينة تلمسان التي وصفها بقوله " هذه تلمسان قاعدة من قواعد المغرب الأوسط ، قديمة أزلية البناء ، أُسست قبل الإسلام بكثير من الأعوام ، أسسها بنو يفرن ، إحدى قبائل زناتة " ^(٦) ، فأقام الزياني في تلمسان حوالي السنة ونصف السنة ، ثم تابع رحلته إلى مدينة الجزائر ، ثم مدينة قسنطينة التي أقام فيها خمسة عشر يوماً ، ثم اتّجه إلى مدينة تونس ومنها توجّه بحراً إلى العاصمة العثمانية في أول أيام جمادى ^(٧) سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م ، فأقام فيها حتى شهر رجب من السنة نفسها بانتظار موعد خروج قافلة الحجّ إلى الديار المقدّسة في الحجاز .

(١) ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ص ١١٥ .

(٢) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه الزياني في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٨ .

(٣) وجدة : مدينة تقع في شمال المغرب ، وصفها ليون الإفريقي بأنها مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل فسيح جداً ، أراضيها الزراعية غزيرة الإنتاج ، تحيط فيها حدائق عدّة ، كما أن أسوارها متينة عالية ، ودورها ودكاكينها متقنة البناء ، وسكانها أثرياء ومتحضرين وشجعان . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص . ١٢ — ١٣ .

(٤) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ١٤٠ .

(٥) وهران : مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر المتوسط وصفها ليون الإفريقي بأنّها من البنايات والمؤسسات ما تميّز به كل مدينة متحضرة من مساجد وملاجئ وحمامات وفنادق ، محاطة بأسوار عالية جميلة ، وأن معظم سكّانها من الصّناع والحاكّة . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص . ٣٠ — ٣١ .

(٦) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ١٤٥ .

(٧) لم يذكر الزياني جمادى الأولى أو الثانية .

رافق الزباني قافلة الحجّ المتّجهة إلى مكّة المكرمة التي بدأت رحلاتها في ٢٢ رجب سنة ١٢٠٨هـ / ٢٢ شباط ١٧٩٣م ، وكانت أول المنازل التي حلّ بها الحُجّاج بعد منطقة الاسكدار التي أمضى فيها الحُجّاج ليلتهم الأولى ، قرية يُقال لها قرطل ، ثم قرية أخرى يُقال لها قبره ، ثم تابع الحُجّاج المسير ، فاستخدموا الزوارق للعبور إلى قرية أخرى تُدعى جارسك كولي " ومنها على ساعتين لخليج سقاية الديل ، الخليج خارج من البحر الشّامي ، قطعناه في الزوارق وسرنا ساعة إلى قرية يُقال لها جارسك كولي " (١) ، ثم تابع الحُجّاج طريقهم متجاوزين عدّة قرى منها قرية الكفار ، وقرية خان الوزير التي ذكر الزباني أنّ سبب تسميتها كذلك يعود إلى الخان الذي بناه الوزير سنان باشا ليأوي إليه الحُجّاج في الشتاء ، ومدينة السكوت التي وصفها بقوله " وهي مدينة كبيرة بها أحد عشر مسجداً للخطبة ، أقمنا بها وهي للبادية أمل ، وبخارجها حمّام على عين حارة ، وبها صهريج يَغْتَسِلُ به الناس ، ماؤه في غاية الحرارة " (٢) ، ثم مرّ الحُجّاج في عدّة مدن وقرى ، قبل الوصول إلى اسكندرونه نذكر منها " سيدي الغازي ، خضروم باشا ، بلودم القين ، اللادن ، قربار ، وادي قشلة ، الصندقلي ، أوابل ، الشاقط ، ثم مدينة أضنة أو آذنة ، كما ذكر الزباني والتي وصفها بقوله " كبيرة الجرم بها تسع خطب على حافة النهر المسمى جيحون ، وكانت من المدن المعتبرة قديماً ، ودخلها الخراب ، وهي محلّ إقامة الحاج " (٣) ، ثم وصل الحُجّاج إلى قرية مصيص ، ثم إلى موضع يُقال له قرطغراو التي أشار إلى وجود قلعة كبيرة وخان فيها .

اجتازت قافلة الحُجّاج إلى قرية اسكندرونه ، ثم قرية بيلان ، ثم مدينة أنطاكية التي وصفها بقوله " كانت في القديم من أعظم الحواضر.... لكنها خربت ووقع لها ما وقع لبغداد ، وفسطاط مصر ، وقرطاجنة ومراكش ، ولها سور عظيم ليس مثله في مدن المعمورة ، في جوفه ألف بيت لنزول العسكر لئلا يزاحمون العامة في المدينة " (٤) . تابعت قافلة الحجّ رحلتها فمرت في موضع يُقال له الزنيق ، ثم بلدة جسر الشغور ، ثم قلعة المضيق القائمة على نهر العاصي ، ثم مدينة حماه التي نالت إعجاب الزباني ، وخاصة نواحيها المُقامة على نهر العاصي لاستخراج المياه منه ورفعها إلى المناطق المرتفعة من المدينة " وهي مدينة عظيمة بها خمسة وعشرون مسجداً للخطبة ونهر العاصي يشقّها ، وعليه دواليب كثيرة لاستخراج المياه " (٥) ، ثم تابع الزباني رحلته مروراً بمدينة حمص وقرية حسية وقرية النبك وقرية

(١) الزباني : الترجمانة الكبرى ، ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

القطيفة ، قبل الوصول إلى مدينة دمشق التي حَظِيَتْ بإعجاب رحالتنا ، لما تحتويه من مبانٍ وبساتين ، فأقام في هذه المدينة بعض الوقت في انتظار استكمال الاستعدادات لانطلاق قافلة الحجّ إلى الحجاز .

ذكر الزباني جميع المواضع التي اجتازتها قافلة الحجّ دون أن يذكر لنا أيّة تفاصيل عن أحوال تلك المناطق مكتفياً بذكر أسمائها فقط وهي " ذو النون ، الصنمين ، المزريب ، المفرق ، وادي الزرقا ، خان الزبيب ، البلقا ، قطرانة ، عنزة ، معان ، العقبة ، المدورة ، قلعة حج ، قلعة تبوك ، بوغاز الوعر ، الحمراء ، مدائن صالح التي ذكر أنه يوجد بها " آبار وأنهار ، وكل بيوتهم كانت منحوتة في الجبل " ^(١) ، ثم هدية ، العجائين ، آبار ناصف ، المدينة المنورة ، ثم مكة المكرمة.

غادر الزباني الديار المقدّسة بعد انتهاء شعائر الحجّ برفقة قافلة الحجّ المصرية ، فزار مدينة القاهرة ، واجتمع بعددٍ كبير من الأعيان والعلماء والفقهاء وعلى رأسهم عبد الرحمن الجبرتي ^(٢) ، كما زار عدداً من معالمها ومزاراتها ، وقد ذكر الزباني أن مدينة القاهرة تعاني من خراب كبير " هي الآن خربة ليس بها إلا قصور الغزو وعمارة قليلة ومنترهات " ^(١) ، وبعد انقضاء سبعة أشهر على نزوله في القاهرة غادرها إلى مدينة الإسكندرية التي أعجب بها كثيراً حيث وصفها بقوله " وأما خبر ما كانت عليه الإسكندرية القديمة قال واصفها إنه لم يرَ مدينةً أحسن منها ، ولا أبدعَ منها صنعاً ولا أجمل رونقا ، ولا أوسع مسالك ، وأعلى مبانٍ

(١) الزباني : الترجمانة الكبرى ، ص ١٨٦ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٤١هـ / ١٧٥٤ - ١٨٢٥م) : نشأ عبد الرحمن الجبرتي في بيت أبيه الشيخ حسن الجبرتي الذي كان من كبار علماء الأزهر ، فرأى عبد الرحمن العلماء والأدباء يأتون منزل أبيه ، ويتحدثون في العلوم والآداب فجلس يستمع إليهم ، ويأخذ من علمهم ، كما استمع إلى كبار رجال الدولة وأمراء المماليك وأغنياء مصر الذين كانوا يزورون أبيه ، فعرف الجبرتي الكثير عن أحوال مصر وأسرارها ، وازداد عبد الرحمن الجبرتي علماً عندما انضم إلى حلقات الأزهر الشريف ، وعندما توفي والده سنة ١١٨٨هـ ترك له ثروة كبيرة وأراضٍ زراعية في أنحاء عديدة من مصر ، فاضطر أن يدير تلك الأملاك بنفسه ، فرحل عن القاهرة حيث توجد هذه الأراضي في أقاليم مصر المختلفة ، فتهيأت له فرصة مناسبة ليعرف أحوال مصر ، وطبقات الشعب من حكام وفلاحين وعُمال ، ثم عاد إلى القاهرة بعد أن ازدادت معارفه ، وواصل دراسته بالأزهر ، وأعجب عبد الرحمن الجبرتي بأحد علماء اليمن الذي وفد إلى مصر إعجاباً شديداً وهو محمد المرتضي الزبيدي صاحب كتاب تاج العروس ، ولازم مجلسه ، حتى أصبح من تلاميذه المخلصين ، وفي أحد الأيام أخبر الزبيدي تلميذه الجبرتي بأنه يريد أن يسجل أحداث الماضي ، ويؤرخ لعلماء القرن الثامن عشر وأمرائه ومشاهيره ، وطلب من الجبرتي أن يساعده في هذا العمل ، لكن ما لبث أن مات أستاذه سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م ، فأكمل الجبرتي مشروع أستاذه واستمر في الكتابة حتى تاريخ وفاته سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثالث ، ص ٣٠٤ .

ولا أجمل مراسم ، لا أوضح معالم ، ولا أملح أزقة ، ولا أعجب رونقاً ورقّة ، ولا أحسن تفصيلاً وجملّة فكان محاسن الدنيا فيها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة " (٢) .

أقام الزياني في مدينة الإسكندرية لمدة شهرين ، وذلك نظراً لقلّة المراكب المتّجهة غرباً بسبب الوباء المنتشر في المنطقة (٣) ، ولذلك قرّر العودة إلى القاهرة والسفر إلى الحجاز للحجّ للمرة الثالثة في حياته ، فعاد من الإسكندرية إلى القاهرة عبر نهر النيل (٤) ، ثم توجه الزياني إلى مدينة السويس لركوب البحر إلى مدينة جدّة ، ووصف لنا تلك الرحلة في البحر الأحمر أو كما يسمّيه بحر القلزم قائلاً " بلغنا مرسى جدة على عشرين يوماً بعد التعب العظيم والمشقة العظمى ، وقطعنا اليأس من الحياة وكنا وقعنا في محل قصير مهلك على جزيرة تحت الماء لا تظهر أرضها وحجارتها (٥) ، حث فيه مركبنا مع خمسة مراكب هلكوا في المحل ونجّى الله مركبنا ، لأن ذلك المحل لا تسافر فيه المراكب إلا نهاراً ، وعند العصر ترسي بالساحل إلى الصباح ، ثم تسافر لكثرة جزره ، وأحجاره تحت الماء لا تظهر ، فيكون في كل مركب رجل عارف وله مرآة ينظر فيها في الماء في مقدمة المركب ، فإذا رأى الأحجار ينادي لماسك المقود وهو للمركب كاللجام للدابة ، يمينك شمالك ، أمام ، وله مسمع ثانٍ وثالث ، كل واحد ينادي الآخر ، وصاحب المقود يدير يميناً وشمالاً ، فإذا أغفل صاحب المرأة وقع المركب ، وبعد وقوعنا نزلوا في الفلايك وعالجوا المركب بالجر إلى وراء فسهّل

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٣) يصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار الوباء الذي حلّ في بلاد الشام ومصر في سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م ، وانتشر هذا البلاء في جميع البلاد شرقاً وغرباً ، وشاهدنا منه العجائب في أطواره وأحواله ، وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد ، وكان أكثره في الرجال سيّما الشبان والعظماء وكل ذي منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق وعزّت الأكلان وصار معظم الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد حتى أن الإنسان لا يدري بموت صاحبه أو قربه إلا بعد أيام ، ويتعطل الميت في بيته من أجل تجهيزه ، فلا يوجد النعش ولا المغسل ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة ، وإن أكبر كبير إذا مات لا يكاد يمشي معه ما زاد على عشرة أنفار ومات العلماء والقراء والمليّنون ، وأخذ في الزيادة في شهر ذي القعدة والحجة حتى بلغ نهايته القصوى ، فكان يموت كل يوم من أسبوط خاصة زيادة على الستمائة ، وصار الإنسان إذا خرج من بيته لا يرى إلا جنازة أو مريضاً أو مشغولاً بتجهيز ميت ، ولا يسمع إلا نائحة أو باكية ، وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة لموت أرباب الوظائف واشتغال من بقي منهم بالمشي أمام الجنائز ، وتعطل الزرع من الحصاد ونشف على وجه الأرض وأبادته الرياح لعدم وجود من يحصده ، وعلى التخمين أنه مات الثلثان من الناس ، هذا مع سعي الأعراب في البلاد بالفساد والتخويف بسبب خلو البلاد من الناس والحكام . الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٧ - ٣٢١ .

(٤) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٠١ .

(٥) وهي الشعب المرجانية والتي يشتهر بها البحر الأحمر .

الله جره لأنه لم يتمكن كله ، ونجاه الله " (١) ، وبعد انتهاء شعائر الحج عاد الزياتي إلى مصر بحراً .

أمضى الزياتي بعض الوقت في مدينة القاهرة ، قبل أن يغادرها إلى مدينة الإسكندرية ، ليتابع طريقه بحراً " فنزلت من مصر إلى الإسكندرية وركبت لبرّ الترك ، إذ أخبروني أنّ مراكباً وَرَدَتْ من الجزائر موسوقة بالزرع لأزمير (٢) ، ومنه تُحمّل العسكر للجزائر ، فاستشرت الشيخ محمد المسيري وجماعةً من أعيان التجار، فوافقوا على ذلك وكتبوا لنا لشركائهم وأهل مودتهم في الوقوف معنا " (٣) . لكنّ المركب الذي استقله الزياتي واجه صعوباتٍ عديدةٍ في رحلته البحرية نتيجة اشتداد العواصف والرياح ، ممّا اضطرّه للتوقف في جزيرة رودس ، ثم عكا ، وطرابلس الشام ، ثم مدينة أنطاكية التي أقام فيها المركب حوالي الشهر ، فقرر الزياتي استغلال هذه المدة والتوجّه براً إلى مدينة الخليل بعد أن قام بترك أغراضه وجواريه في المركب .

لم يذكر الزياتي أيّة تفاصيل عن رحلته البريّة إلى مدينة الخليل التي وصلها في أوائل فصل الربيع " ولمّا بلغت مدينة الخليل عليه السلام ، والزمان في عنفوانه والربيع في ريعانه والروض في حسنه وإحسانه ، والزهر في زهره وزهوه ، والطير في شوقه ، فأويت إلى إيوان وأحسن مكان ، وتركت به الثقل والمركوب إلى أن أؤوب " (٤) . وبعد انتهاء زيارته لهذه المدينة اتجه نحو مدينة القدس ، فزار المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ثم توجّه إلى مدينة دمشق حيث التقى بعض علمائها ، كما زار الجامع الأموي ، قبل أن يسلك طريق العودة إلى أنطاكية ، ليتابع رحلته بحراً إلى مدينة أزمير بعد أن توقف المركب الذي كان على متنه في مدينة أنطاكية لمدة خمس وعشرين يوماً نتيجة الظروف الجوية السيئة ، كما ذكرنا سابقاً .

وصل الزياتي إلى مدينة أزمير التي كانت تعاني من انتشار الوباء فيها الذي أودى بحياة الكثيرين ، وكان من بين الذي أصابهم الوباء الوالي وابنته ، فقام الزياتي بعلاجهم ، فأكرمهم الوالي غاية الكرم ، قبل مغادرته لأزمير باتجاه الجزائر، لكنّ الزياتي غير رأيّه بعدما شاهد الازدحام الكبير على المركب المتجه إلى الجزائر، فقرر ترك أمتعته على هذا المركب ، في حين سافر هو في المركب المتجه نحو تونس " فاجتمعت مع الوالي وقلت لم يتهياً لي السفر في هذا المركب لأنه ممتلئ بالعسكر ومعني جوارى ومماليك صغار لا يجدون طريقاً ولا

(١) الزياتي : الترجمانة الكبرى ، ص ٢١٦ .

(٢) أزمير : مدينة تركية تقع على ساحل بحر إيجه .

(٣) الزياتي : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٦٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

مجازاً مع الأتراك وربما رموا بهم في البحر وقد أوصيت صاحب المركب على رزقي وأعطاني خط يده بما عنده وأنا أتوجه في المركب المتوجه لتونس ، فاكتري لنا منه القامرة " (١) .

توقّف المركب الذي كان الزياني على متنه في جزيرة مالطا ، ثم تابع طريقه ، وعند الوصول إليها لم يسمح حكامها لركاب السفينة بالنزول في ميناء المدينة لكونهم قادمين من مدينة أزمير التي تعاني من انتشار الوباء فيها حيث خافوا أن يتم انتقال العدوى إلى مدينتهم ، فأنزلوهم في قلعة تيكلي الواقعة في وسط البحر فأقام فيها الزياني مدة عشرين يوماً ، ثم قرّر متابعة الرحلة براً إلى مدينة الجزائر ماراً بمدينة قسنطينة ، ثم وصل إلى مدينة الجزائر ، لكنّه تفاجأ بأنّ المركب الذي كانت أغراضه على متنه قد وقع في قبضة بعض القراصنة الأوربيين ، فأقام في مدينة الجزائر لمدة سبعة أشهر إلى أن تمكّن من استعادة أغراضه ، ثم تابع طريقه إلى مدينة تلمسان التي قرّر أن يستقرّ فيها ، لكنّ وصول رسول من السلطان المغربي سليمان بن محمد يطلب منه العودة إلى المغرب جعله يغيّر رأيه ويعود إلى مدينة فاس ، ويدخل مجدداً في خدمة سلاطين المغرب.

٤- بلاد الشام في رحلة الزياني :

تميّزت كتابات الزياني عن بلاد الشام بالدقة على الرّغم من ندرتها ، وخاصة فيما يتعلّق بالوصف العمراني للمساجد والجوامع الكبرى ، كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الأعظم في مدينة الخليل والجامع الأموي في دمشق ، كما عرّفنا الزياني في رحلته على عدد كبير من المزارات الموجودة في المدن الشّامية التي زارها ، هذا فضلاً عن إشارته إلى بعض الجوانب السياسية .

أ - الجوانب السياسية :

على الرّغم من المكانة الكبيرة التي شغلها أبو القاسم الزياني في البلاط المغربي من الناحية السياسية ، والدور الكبير الذي لعبه في الحياة السياسية والدبلوماسية المغربية في القرن الثامن عشر، فإنّه لم يُظهر أيّ اهتمام بالحديث عن الأوضاع السياسية في بلاد الشام مكتفياً بذكر بعض الأمثلة عن حالات ضعف سلطة الدولة العثمانية في بعض المناطق مثل فشل الدولة العثمانية في فرض أحكامها على أهالي قرية بيلان الذين وصفهم بقوله " أهل تلك

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٨٢.

الأرض لا تتألم الأحكام يأخذون من الحجاج بوجه الغلب " (١) ، كما تحدّث الزياتي عن اللقاء الذي جمعه بالوالي أحمد باشا الجزار في مكة المكرمة خلال موسم الحج ، فوصف الجزارُ بقوله " وكان هذا الجزارُ رجلاً أحمقَ يبحث عن أهل الحكمة وعلم الحدّثان ، وكان يزعم أنه المهدي المنتظر ويصرّح بذلك " (٢) ، وذكر الزياتي عدّة أمثلة عن بطش الجزار وجبروته " وفي ذلك الموسم قتل سبعةً من كُتاب إيالته ظهرت فيهم خيانة في مال ، فصحبهم معه في الحجّ وتقرّب بقتلهم وصلبهم ، وفي تلك السنة بعد رجوعه إلى المدينة المنورة قتل شيخ الحرم وصاحب الروضة المشرفة كبير عبيد الدار بعد أن أخذ منه مائة ألف محبوب ، والأخبار عنه في سفك الدماء متواترة " (٣) ، وعلى الرّغم من بطش الجزار وقسوته فقد أشار الزياتي إلى الكرم الكبير الذي يتمتع به ذلك الرجل " وجوده وصدقاته ليست من أهل وقته ، ولقد جلست معه في منى ثلاث مرّات فشاهدتُ العجبَ ، لا يردّ أحداً وقف أمامه غنياً أو فقيراً " (٤) .

عرض الزياتي كما فعل المكناسي بعض الأمثلة عن حالات فساد القضاء في الدولة العثمانية كذكره أنّ مفتي الحنفية الشيخ إسماعيل الجزاعي طلب منه التوسط لأحد الرجال عند قاضي دمشق الذي كان قد قضى بين هذا الرجل وغريمه في مسألة تتعلّق بميراث وعند صدور الحكم لصالح ذاك الرجل طالبه القاضي بالعشر طيقاً للعادة السائدة بين القضاة في المشرق ، فرفض الرجل ، وقام بالذهاب إلى المفتي الشيخ إسماعيل لمساعدته فطلب الأخير من الزياتي المساعدة ، كما تدخل لحل هذه المسألة قاضي مكة الذي كان مسافراً ضمن قافلة الحج في ذلك العام ، ولم يتمكنوا من استعادة نصف حق الرجل من القاضي إلا بعد صعوبة كبيرة ، وقد عبّر الزياتي عن الحالة السيئة التي وصلت إليها أمور القضاء في المشرق بقوله (٥) " وهذه عادة قضاة المشرق كلّهم نسأل الله السلامة والعافية من هذه الورطة التي وقعوا فيها ، فقد عمّت البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلّها ومصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر ، وباعوا آخرتهم بدنياهم " .

ب - الجوانب الاقتصادية والاجتماعية :

لم يذكر الزياتي أيّة معلوماتٍ عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام ، لكنّه رصد عدداً كبيراً من المزارات الموجودة في المدن الشامية التي زارها ، ففي مدينة أنطاكية

(١) الزياتي : الترجمانة الكبرى ، ص ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

أشار الزياني إلى زيارته لقبر حبيب النجار الموجود بداخل المدينة ، وقبر شمعون الصفا ^(١) ، وفي مدينة حماه ذكر الزياني قبر بشر الجافي وضريح الشيخ عبد الرزاق الموجود في زاوية الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وهو من ذريته ، كما أشار إلى قبر أبي يزيد البسطامي طيفور في قرية الرستن أو كما سماها الزياني رستق . أما بالنسبة للمزارات الموجودة في حمص فقد ذكر الزياني أنّ هذه المدينة تحوي عدداً كبيراً من قبور الصحابة " وبها كثير من الصحابة رضي الله عنهم كخالد بن الوليد وقبر عبد الله بن عمر ابن الخطاب على ما يزعمه أهل حمص ، والصحيح أنه توفي بمكة ودفن بفخ وقبر كعب الأحبار ، ثم قبر جعفر الطيار ، وقيل بها قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو موسى الأشعري ، وثوبان ، ووحشي وسعيد بن زيد ، ودحية الكلبي ، وعبد الله بن مسعود ، ثم أبو الهول دامس البطل المشهور ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعمر بن معدي كرب الزبيدي ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم " ^(٢) .

وفي مدينة دمشق زار الزياني عدداً من المزارات الموجودة فيها " وبها قبر نبي الله يحيى بن زكريا عليه السلام وبطريقه قبر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن مرداس السلمي ، وضريحه داخل مسجد الوادي بجانب المسجد الأموي ، وأما جسده فهو بقرية يقال لها الزبدان ^(٣) بينها وبين دمشق ثمان ساعات ، وهناك المصحف العثماني تبركنا به في مقصورة مسجد دمشق ، وقف معنا القيم عليه ورأيناه " ^(٤) ، كذلك فقد ذكر الزياني عدداً آخر من المزارات الموجودة في دمشق " وبالصالحية ومنها قبر الإمام محيي الدين بن عربي وبالمسجد محلّ يُقال إنه قبر مُتَعَبِّد هود عليه السلام مكتوب عليه هذا مقام هود النبي عليه السلام وبها قبر بلال بن رباح الحبشي ومعه في قبته محمد بن عقيل ، وبالجبّانة قبر أسماء بنت أبي بكر ، وعبد الله بن جعفر وزينب بنت علي ، وفاطمة بنت الحسين ، وعبد الله بن زين العابدين ، وأم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأم سلمة ، وميمونة ، وقبر معاوية ، وأبو الدرداء ، وأبيّ بن كعب ومقام الأبدال الأربعين ، يُصْعَدُ إليهم بمدارج في الجبل ، وهو بيت فيه أربعون محراباً ، ومحراباً في وسطهم يُقال إنّه للخضر عليه السلام ، وهناك مغارة الدّم التي قَتَلَ بها قابيلُ هابيلَ ، وفي أسفل هذا الجبل فوق

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٣) وهي الزبداني حالياً .

(٤) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ١٨١ .

المقبرة قبر نبي الله ذو الكفل ، ومحمد بن مالك النحوي صاحب الألفية ، والربوة بين البساتين وباب الفريديس ، بداخله مسجد فيه رأس الحسين يقال له مسجد الرأس " (١) .

أما بالنسبة لقبور الأنبياء الموجودة في دمشق فقد ذكر الزباني قبوراً عدّة ، ومنها قبر إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى عليهم السلام ، أما غيرهم من قبور الأنبياء ، فلم يثبت أنها القبور الحقيقية لأصحابها " وأما غيرهم من الأنبياء فلم يثبت شيء من قبورهم وهؤلاء المعينون منهم ، كل قبورهم مظنونة ، وغير المعينين لا يعلم إلا الله ، وأرض الشام مشتملة عليهم يقال أن بطرسوس عشرة من قبورهم ، والمصيصة خمسة ، وبسواحل الشام ألف قبراً ، وبأنطاكية قبر حبيب النجار يُزار بها ، وبحمص ثلاثون قبراً ، ودمشق خمسمائة ، وبالأردن خمسمائة قبر، وبفلسطين خمسمائة ، وببيت المقدس ألف قبر، وبالعريش عشرة " (٢) .

كما ذكر الزباني بعض المزارات الموجودة في المسجد الأعظم في مدينة الخليل ، ومنها تربة إبراهيم الخليل الواقعة في وسط المسجد " وفي وسط المسجد الكريم التربة المقدسة تربة الخليل أبينا إبراهيم عليه السلام ، قد حف بها من التعاليق المذهبة والموهّة كلّ حسن رائع ، وأمامها ضريح زوجته الطاهرة سارة رحمة الله عليها وأمامها ضريح النبي إسحاق عليه السلام " (٣) . ومن المزارات الأخرى التي ذكرها الزباني ضريح النبي يعقوب عليه السلام والنبي يوسف عليه السلام " وتجاه ذلك من الجانب الجوفي قبة أخرى عظيمة القدر متناهية الإتقان تحتها ضريح يعقوب النبي عليه السلام ، وأمامه ضريح زوجته رضي الله عنها وتحتها طبقة وقبة فيها النبي يوسف الصديق عليه السلام ، وعليه الستور المدبّجة ، والرّسوم المذهبة بأسمائهم المباركة على جميعها والله أعلم بصحة ذلك كلّ " (٤) .

ج - الجوانب الثقافية :

ذكر الزباني أسماء بعض العلماء الذين اجتمع بهم الزباني في أثناء تنقله بين المدن الشامية فأشار إلى أسماء من اجتمع به من علماء وفقهاء مدينة دمشق ، ومنهم سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي الذي وصفه الزباني بقوله " وممن اجتمعتُ به بدمشق البركة سلالة العلماء الصالحين الفقيه المحدث المؤرّخ الأديب الشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ القدوة

(١) الزباني : الترجمة الكبرى ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

العمدة سيدي عبد الغني النابلسي ، وسلك هذا الحفيد مسلك جده سيدي عبد الغني النابلسي المذكور ، وأدخلنا لبيته وأكرمنا أكرم الله وأطلعني على رحلة له إلى بيت المقدس نحا فيها منحى جدّه ، وأطلعني على عدّة تأليف لجدّه منها تأليف في حلية العشبة المسماة في الوقت بطابة ، ومنظومة عدّد فيها منافعها وهي كثيرة ، وكان أعزة الله يأتيني لمحلي وأتوجّه لمحله ويجاريني في تواريخ المغرب ودوله التي لم تصلهم ، وقبّد عني دولة الأشراف الزيدانيين والأشراف العلويين ، إلى وقت أمير وقتنا مولانا سليمان أبقاه الله ، ومدحني بأبيات ضاعت مني ، وتوجّه بي إلى دار الحديث بالأشرفية التي بها نعل الرسول صلى الله عليه وسلّم ، فزرتة وقبّلته وتبركت به " (١) .

كما التقى الزياني في دمشق بالفقيه كمال الدين الشيخ محمد بن محمد الدمشقي المشهور بالغزي ، وقد اجتمع فيه بالجامع الأموي حيث كان للشيخ الغزي مكان مخصّص له في المسجد يقعد فيه من أجل المطالعة والإفتاء ، وتبادلا الزيارة طيلة مقام الزياني في دمشق ، ومن العلماء الآخرين الذين التقاهم الزياني في دمشق إسماعيل الجزائري ، وكان بيته قريباً من البيت الذي نزل فيه الزياني ، وقد أعجب الزياني بالجزاعي ، وذكر أنه كان أعجوبة في الأدب والتاريخ .

د - الجوانب العمرانية :

حظي الجانب العمراني باهتمام كبير من قبل الزياني ، وخاصة ما يتعلّق بعمران المساجد والجوامع التي خصّها الزياني بكثير من الأوصاف ، فقد بدأ رحالتنا زيارته لمدينة الخليل بزيارة المسجد الأعظم الموجود في هذه المدينة ، فأعجب به كثيراً وخصّه بكثير من الأوصاف " ثم دخلت المسجد الأعظم ، فرأيت من حسنه عجباً ، ومن بنائه ما شئت فضةً وذهباً ، لا تُدرّك مبانيه السامية ، ولا تُلحق آثاره العالية ، له أبوابٌ حافلة من الحديد الرفيع ، وشباكٌ بديع وبناء بالرخام ، ومن الأحجار الضخام العظام ، الهائلة المنحوتة بالهندام عدت في طول الحجر الواحد أربعةً وثلاثين شبراً وفيها أكبر ، ومنها ما هو أقصر وأصغر ، أسّس ذلك المسجد العظيم عليها فجاء جامعاً بديعاً ، هائلاً رفيعاً ، بديع الصنعة كبير المساحة والسعة ، أحرق بجميعة سور جليل بناؤه من الصخر الجسيم والصنع الوسيم ، قد جمع الحسن والحصانة ، والعلو والمتانة " (٢) . ومن الأمور الأخرى التي ذكرها الزياني عن هذا المسجد العظيم الصحن الكبير الموجود ما بين المسجد والقبة الجوفية الموجودة ضمن حرمة الذي يُعدّ

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

بمثابة مكان يجتمع فيه الناس يومياً بعد صلاة العصر " وما بين المسجد الكريم والقبّة الجوفية صحن عظيمٌ كبيرٌ جداً ، يكون فيه وفي المسجد مجتمع الوفود الواردين والمقيمين من الأغنياء والفقراء والأمراء والكبراء للضيافة المباركة ، ضيافة الخليل عليه السلام في كل يوم بعد صلاة العصر ، على توالي أحقاب الدهر ، وقد حضرته فيها مع جملة الناس تبركاً بذلك كله والله الحمد " (١).

كذلك أفاض الزياني في الحديث عن المسجد الأقصى ، فأشار إلى المكانة والأهمية الدينية الكبيرة التي يتمتع بها المسجد الأقصى " ثم قصدنا الحرم الشريف والمسجد العظيم المنيف ، الذي بارك الله تعالى حوله ، وعرفت كل أمة فضله ، المسجد الأقصى ومع المعراج والأسراء ، وكفى بهذا شرفاً وفخراً " (٢) ، وأبدى الزياني إعجابه واحترامه لهذا المسجد المبارك وعبر عن ذلك بقوله " فرأيت بقعة لها نور ، وفضل مأثور ، وشرف معلوم مذكور ، مسجد له حرمت ، ومقام تخطر فيه خطوات وتعرض مقامات ، وحلّ تفيض عليه بركات ، وتستجاب به دعوات ، ومكان لا يمكن عنه الالتفات قد جمع شرف المقدار ، إلى طيب التربة وفضيلة الدار فلا منظر يحاسنه ، وفاقت مآثره جميع من يكآثره " (٣).

أمّا من الناحية العمرانية فذكر الزياني أنّ المسجد الأقصى من المساجد الموجودة عند المسلمين " طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً وعرضه أربعة وخمسون ذراعاً ، فيكون تكسيّره من المراجع الغربية مائة مرجع وأربعين مرجعاً وخمسين مرجع ، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية ، وأبوابه خمسون باباً يطوف به سور سعته ثلاث خطوات ، قد أسّس بالحجارة العظيمة وألواحها الكبار المنحوتة الهائلة ، بنته الجن لسليمان عليه السلام والمفتوح الآن من أبوابه اثني عشر باباً ، كل باب منها لها الوجه المنقش ، المحسن المرقش ، فيها باب مُصَفَّح بالعقيان واللّجين مُعَمَّدٌ على راق الأبصار ، وأعجب النُّظَار ، ومنها باب الرحمة وباب التوبة ، وهما بابان من الجهة الشرقية " (٤) .

وقد قصد الزياني بذلك وصف الحرم القدسي بكامله ، لأنه أشار لاحقاً إلى المسجد الأقصى في الجهة الجنوبية للحرم القدسي حيث وصفه بقوله " وفي الجهة القبلية المسجد الأعظم الذي غلب عليه اليوم اسم المسجد الأقصى ، فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع الله فيه من كل إبداع عجيب ، واختراع غريب والمقاصير التي لا نظير لها غرابة صنعة

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

وجودة إنشاء ، والسواري المفضضة الملوّنة من ألوانٍ شتى ، كحمره قانية ، وصفرة فاقعة ، وبياض ناصع ، ومن الحبرية الحالكة الصافية ، ومن الجزية المجزعة البديعة ، كلّها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب " (١) . كذلك فقد تحدّث الزياني عن قبة المسجد الأقصى ، فأبدى إعجابه بطريقة بنائها بالزخارف المنقوشة عليها قائلاً " قبةٌ عظيمةٌ جليلةٌ مُقسّمة على أقباء معقودة بأقواس محنية متراكبة مدخلة على ألوانٍ شتى ، وتصنيف غريب مذهب ما بداخلها من التثمين والتربيع وتذهيب مُشجّر مُورّق بالذهب مصنف مُحكم قد رونق الحسن استتمامها ، واستوفى من خطوط البراعة أقسامها ، لها منظر رائع وزواق لامع ، فتراها تشتعل ذهباً ، وتستقل عجباً ، وفيها تواريخ مكتوبة بالذهب في أرض فيروزية وبأعلى المحراب مكتوب بالذهب في أربعة ما نصّه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدّس وعمارة المسجد الأقصى صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله تعالى على يديه ، في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهو يسأل الله شكر هذه النعمة ، وأجزل حظه من المغفرة والرحمة " (٢) .

وذكر الزياني المساجد الأخرى الموجودة في الحرم القدسي ، ومنها المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب ، وهو واقع شرق المسجد الأعظم ومُتّصل فيه ، كما ذكر الزياني مسجد عيسى ، وهو مسجد بقبتين يقع أيضاً شرق المسجد الأعظم ، وبالقرب منه يوجد مسجد يُدعى مسجد المالكية لأنّ حارتهم تُلصق هذا المسجد . أمّا من ناحية الغرب فتوجد مدرسة تُسمّى الفخرية ، وبخارج المسجد الأعظم صحن كبير يوجد فيه الكثير من الأشجار المثمرة وخاصة الزيتون ، يوجد أيضاً فيه آبار كثيرة ، وأشار الزياني إلى أبواب المسجد الأقصى البالغ عددها أحد عشر باباً ، الأول باب الرحمة ، والثاني باب التوبة وهما متّحدان في السور الشرقي ، والثالث باب الأسباط ، والرابع باب خطة ويقع في الجهة الشمالية للمسجد ، والخامس باب شرق الأنبياء وهو يقع أيضاً في الجهة الشمالية ، والسادس باب المغاربة ، والسابع باب الغوانمة ، والثامن باب الحديد ، والتاسع باب القطانين ، والعاشر باب السلسلة والحادي عشر باب السكينة .

قدّم الزياني في كتابه لمحة موجزة عن تاريخ المسجد الأقصى حيث ذكر أنّ أول من بنى هذا المسجد آدم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام بأربعين سنة ، وكان هذا المسجد كما زعم الزياني مبنياً قبل آدم بآلاف السنين ، لكنّه خرب في الطوفان ، ثم أعيد بناؤه على يد سام بن نوح عليه السلام ، ثم خرب مُجدّداً فبناه إبراهيم عليه السلام بعد بناء الكعبة ، ثم

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

خُرِبَ فبناه يعقوب عليه السلام ، والأمر نفسه تكرر مُجدداً حيث دُمِّر المسجد ، فأعاد بناءهُ داوود عليه السلام ، لكنّه ما لبث أنْ هُدِّمَ فأعيد بناؤه من قِبَلِ الجِنِّ ، كما ذكر الزيّاني " ثم أعاده فانهدم ، فأوحى إليه أن لا يتم بناءه إلا لسليمان ، فبناه الجن بأمره بناءً ضخماً عظيماً شاهقاً ، فكان علو قبة الصخرة اثني عشر ميلاً وزينوها بأنواع اليواقيت والجواهر والذهب والفضة ، ثم خربَه بخت نصر وأخذ جميع ما فيه من الذخائر العظيمة ، ثم بناه الملك كورش المؤمن ملك الفرس ثم خربه طيطوس ملك الروم لعنه الله ، ثم بنته هيلانة أم قسطنطين ملك الروم ، وبنّت قبة الصخرة المباركة ، فلما أكملتْها دخلها سبعون راهباً ليكفروا بها فسقطت عليهم ولم ينج منهم أحد ، فبناها النصارى ثانية وثالثة فسقطت عليهم فأخذوا حجارة المسجد وأعمدته وبنوها بها والجثمانية ، وبيت لحم ، والمصعد ، وجعلوا سطح المسجد والصخرة مزبلة إلى أن جاء الإسلام وفتح بيت المقدس صلحاً على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأزال المزبلة وغسل الصخرة وبنى قطعة من المسجد للصلاة في صدر المسجد إلى أن جاء عبد الملك ، فبناه كله على ما هو عليه اليوم" (١).

وفيما يتعلّق بوصف الزيّاني لمسجد قبة الصخرة ، فذكر أنها من أجمل وأعجب المباني التي شاهدها " فهي من أعاجيب الدهر ، وأحسن ما يُرى بالصبر ويُتَخَيَّل بالفكر ، قبة الصخرة الكريمة ، وهي مسجد مصنوع من قبة مثمنة الحائط والأركان أعلاها ذهب مضروب في صنائع عجبية ، وجوانبها كلها ومن داخلها مُلبَّسة بأنواع الرخام المنشورة الملصقة إلصاقاً محكماً مخططاً بالخطوط الكُحْل ، تخطيط القدرة الربانية فجاء منها خواتم عجبية ، وطوابع مختلفة الصنعة غريبة " (٢) ، كما أبدى الزيّاني إعجابه بالقبة الأخرى الموجودة في وسط القبة المثمنة " وفي وسط هذه القبة المثمنة المستوية السقف قبة أخرى قد بعد في السماء مرتلتها حتى تساوى ثراها مع ثريّاتها قد اتفق الذكر فيها ، وضُرِبَ المثلُ بتناهيها ، وبلغ الخاصة والعامة خبرها والتقى رجالٌ رجال قد دخلوا البلدان ، واستبدلوا الأوطان ، وجالوا في الأمصار ، وجابوا في الأقطار ، فأقسم كلُّ رجلٍ منهم بجهد قسمه ما رأوا بتمام محاسنها تماماً ولا بتأنق ما انتظمته مطالعها انتظاماً ولا بعجيب ما تضمنته أبهاؤها ، وأجتجنته أقبأؤها ، من النقوش السرية ، والصنائع السنية التي لا تبلغها نقوش أهل الهند ، ولا تنتهيها نممة أهل الصين ، ولا تدركها رقوم أهل ري ، ولا تساميتها دياييج تستر ، لا يقارن بها وشيُّ صنعاء ولو لم يكن لها إلا السطح الممرّد المُشْرِف على الصحن الكبير والقبة عجائبها وما تضمنته

(١) الزيّاني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٠.

من إتقان الصنعة ، وفخامة المهمة ، وحُسنِ المستشرق وتراهما الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وزهّب موزون " (١).

أمّا الصخرةُ الشريفةُ القائمةُ عليها القبةُ فوصفها الزياني بقوله " وتحت هذه القبة العجيبة الصخرة الشريفة التي هي كالجبل الراسي والطول العظيم معلّقة وسط الفضاء ، بين الأرض والسماء وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة وبالبنيان الدائر بها نوع مغارة كبيرة تقضي إليها بأدراج جملتها خمس عشرة درجّةً ، وفيها سطح مفروش بالرخام المجزّع المختلف الألوان البديع الصنعة ، وهو موضع مبارك للصلاة " (٢) ، وتحدّث الزياني عن الشبّابيك الموجودة بالمسجد وهي شبّاك من العود وآخر من الحديد . أمّا الأبواب فقد ذكر الزياني وجود ثلاثة أبواب ، لكنّه لم يذكر سوى اسم باب الجنّة ، كما تحدّث عن قبة السلسلة الموجودة أمام باب الجنّة مُبدياً إعجابه بها " وأمام باب الجنّة المذكورة ، قبة تغشى النواظر بشعاعها ، وتطف الأبصار بالتماعها ، تسمى قبة السلسلة وهي التي كان يحكم بها داود عليه السلام ، وهي قبة عجيبة حافلة ، قد قامت على سواري مختلفة ، وصناعة على الحُسنِ مشتملةً ، بوسطها تاريخان مكتوبان بالذهب " (٣) ، ومن الجوامع الأخرى التي تناولها الزياني الجامع الأموي في دمشق والذي عدّه من أجمل المساجد التي شاهدها من الناحية العمرانية " لمّا قدّمنا دمشق لم أقدم شيئاً قبل الصلاة في مسجدنا الجامع ووقفت بالمكان المطلوب فيها الدعاء، ورأيت من عجائب هذا المسجد ما أزهدي فيما رأيت قبله " (٤) .

وفي ختام الحديث عمّا دوّنه الزياني في كتابه الترجمانة الكبرى لابدّ لنا من توضيح نقطة هامةٍ ، وهي أن أبا القاسم قد اقتبس بعض المعلومات عن بلاد الشام من رحلة المكناسي ونسبها إليه دون أن يُصرّح بذلك ، ويظهر ذلك جلياً عند حديثه عن اجتماعه بعدد من علماء دمشق ، فالزياني أشار إلى لقائه في دمشق بالشيخ سعد الدين الحنفي حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي في سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م ، في حين ذكر المكناسي أن الشيخ سعد كان من بين الذين توفوا بمرض الطاعون الذي أصاب دمشق أثناء سفره إلى الحجاز برقفة قافلة الحج الشامي سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٦م ، وكذلك ذكر الزياني لبعض الأمثلة عن فساد القضاء في الدولة العثمانية ، وهي نفس الأمثلة التي سبق وذكرها المكناسي ، لذلك لا بد من توضيح هذه النقطة حيث يتبادر إلى ذهن القارئ أن الزياني والمكناسي كانا معاً في تلك السفارة ، وبالتالي

(١) الزياني : الترجمانة الكبرى ، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٢.

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٦.

فإنهما قاما بتدوين الأحداث نفسها ، كما التقوا الأشخاص أنفسهم ، وهذا ليس صحيحاً ، لأنّ كلا الرجلين قاما بسفارتين منفصلتين إلى العاصمة العثمانية في العام نفسه حيث قام السلطان محمد بن عبد الله بإرسال أبي القاسم الزباني إلى العاصمة العثمانية ^(١) مباشرة بعد إرسال سفارة ابن عثمان المكناسي ، حتى أنّ الرجلين اجتمعا في العاصمة العثمانية ، كما ذكر الزباني نفسه " وقدم علينا أصحاب الطلبة ابن عثمان والوزير ومولاي عبد الملك وابن يحيى ، وجدناهم لا زالوا بالاصطنبول ^(٢) ، وجدوا الركب الأصطنبولي سافر ، وأقاموا إلى العام المقبل " ^(٣) ، وأنّ الزباني عاد مباشرة إلى المغرب بعد انتهاء سفارته في الوقت الذي بقي فيه المكناسي في العاصمة العثمانية في انتظار مرافقة قافلة الحجّ في العام القادم ، وبالتالي فإننا نستطيع تأكيد قيام الزباني باقتباس بعض المعلومات عن المكناسي نسبها إليه دون التصريح بذلك .

ثالثاً - مقارنة بين كتابات الرحالة المغاربة وكتابات بعض الرحالة العرب المشاركة والأوربيين الذين زاروا بلاد الشام في القرن الثامن عشر :

زار بلاد الشام في القرن الثامن عشر عدد من الرحالة العرب المشاركة والأوربيين ، فساهمت كتاباتهم مع كتابات الرحالة المغاربة في إلقاء مزيد من الضوء على أوضاع بلاد الشام في تلك المرحلة المهمة من تاريخ هذه المنطقة ، خصوصاً مع اختلاف اهتمامات الرحالة ، وخاصة الأوربيين ، واختلاف المسارات الجغرافية التي سلكها هؤلاء الرحالة .

فرحلة مصطفى البكري الصديقي ^(٤) المسماة " الخمرة الحسية في الرحلة القدسية " إلى القدس في سنة ١١٢٢هـ / ١٧١٠م ، تُعدّ من أشهر كتب الرحلات العربية التي تتحدّث عن بلاد الشام بصفة عامة والقدس بصفة خاصّة في القرن الثامن عشر ، فأورد مؤلفها بعض

(١) للتفصيل حول هذه السفارة والمهام التي كُلف بها الزباني يرجى العودة إلى الزباني : الترجمة الكبرى ، ص.ص ٨٢ - ٨٧ .

(٢) استانبول .

(٣) الزباني : الترجمة الكبرى ، ص ٩٨ .

(٤) مصطفى البكري الصديقي (١٠٩٩ - ١١٦٢هـ / ١٦٨٨ - ١٧٤٩م) : هو مصطفى بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر بن محي الدين الصديقي الحنفي الدمشقي البكري ، ولد في دمشق في شهر ذو القعدة ١٠٩٩هـ / آب ١٦٨٨م ، ونشأ في جوّ علمي وأدبي ، وتلمذ على يد عدد من أشهر مشايخ عصره كالشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ محمد بن إبراهيم الدككي ، وقبل أن يتجاوز الصديقي العشرين عاماً من عمره أخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الخلوتي ، وفي سنة ١١٢٢هـ / ١٧١٠م ، قام الصديقي بأول رحلة له إلى القدس ، ثم عاد إلى دمشق بعد انتهاء تلك الرحلة ، لكنه تردّد مرات عدّة إلى بيت المقدس ، كما زار القاهرة واستانبول ، وحجّ إلى الديار المقدّسة في الحجاز في سنة ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م ، وقد ساهم الصديقي مساهمة كبيرة في انتشار الطريقة الخلوتية ، توفي في شهر ربيع الثاني ١١٦٢هـ / آذار ١٧٤٩م ، ومن أشهر مؤلفاته بالإضافة إلى الخمرة الحسية في الرحلة القدسية ، ألفية في التصوف ، الفتح الطري الجني في ترجمة عبد الغني النابلسي ، الثغر الباسم في ترجمة الشيخ قاسم . للتفصيل المرادي : سلك الدرر، الجزء الرابع ، ص . ص ١٩٠ - ٢٠٠ .

التفاصيل المتعلقة بهذه المنطقة ، فأشار الصديقي كغيره من الرحالة إلى انعدام الأمن في فلسطين في تلك الفترة ^(١) ، كما ذكر الصديقي بعض المعلومات التي لم يشير إليها الرحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشام في القرن الثامن عشر، كحديثه عن وجود بعض الأشخاص في بعض المناطق يقومون بأخذ الغفر من التجار والمسافرين ، فأشار إلى وجود مثل هؤلاء في الطريق بين نابلس وجنين " فقابلنا بعض الأشخاص يطلبون من المكاية الغفارة فأخبروهم أنهم أعطوا ذلك لغيرهم من الغفريّة ، فلم يرضوا إلاّ بالأخذ ثانية لشدة ما هم عليه من الحميّة " ^(٢) ، كما تحدّث عن عدم سماح السلطات الحاكمة في فلسطين للقوافل بالتوقّف في بعض المناطق دون إذنٍ مُسبق ، مثلما حدث عندما نزلت القافلة في إحدى المناطق التابعة لنابلس دون أخذ إذن الحاكم ، فتّم فرض غرامة مالية عليها " وكان مراد الركب أن يقيموا في تلك المنطقة الخصيبة ، فوشى بها للحاكم فغرّموا بعض الدراهم لم تكن مرت بخاطر ، وعدّوها مصيبة فقلقوا لذلك ورحلوا في ثاني يوم " ^(٣) .

أمّا الرّحلة الثانية فكانت رحلة مصطفى أسعد اللقيمي ^(٤) المسماة " موانح الإنس برحلتى لوادي القدس " التي قادته إلى بلاد الشام سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣١م حيث بدأ تلك الرحلة من مدينة دمياط في ٨ ذي القعدة ١١٤٣هـ / ١٤ أيار ١٧٣١م سالكا الطريق البري إلى فلسطين عبر سيناء ، فزار عدة شامية كغزة والرملة ويافا والقدس ونابلس ودمشق صيدا ^(٥) ، وقدّم في رحلته بعض المعلومات التي سبق أن أشار إليها معظم الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في القرن الثامن عشر كانهدام الأمن ووجود قُطّاع الطُرق بكثرة في فلسطين ، ومن الأمثلة على ذلك عدم قدرته على زيارة مقام النبي يهودا بسبب فقدان الأمن على الطريق إليه " فمررنا على قرية بها مقام يهودا عليه السلام بعيدة عن طريق الجادة ثلاث ساعات تمام ، فعزمت الوصول إلى تلك الأعتاب والاستعداد من مدد المستطاب ، فعاقني عدم الرفيق وخوف الطريق " ^(٦) ، وحديثه عن أهل قرية دير قديس الذين وصفهم بأنهم قُطّاع

(١) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٦٤ .

(٢) مصطفى البكري الصديقي : الخمرة الحسية في الرحلة القدسية ، مخطوط في مكتبة الأسد ، دمشق ، رقم م ف / م / ١٩٩ ، الورقة ٨ .

(٣) المصدر السابق ، الورقة ٨ .

(٤) مصطفى أسعد اللقيمي (١١٠٥ - ١١٧٨هـ / ١٦٩٣ - ١٧٦٥م) : ولد مصطفى أسعد اللقيمي في مدينة دمياط سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م حيث تلقى علومه في هذه المدينة على يد عدد من علمائها ، ثم قام بالحج وأقام فترة في الحجاز أخذ فيها عن علماء مكة والمدينة ، ليعود بعد ذلك إلى دمياط ، ثم يقرر الانتقال إلى مدينة دمشق التي بقي فيها حتى تاريخ وفاته في سنة ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م . للتفصيل المرادي : سلك الدرر ، الجزء الرابع ، ص . ص ١٥٤ - ١٦٦ .

(٥) صيدا : بالفتح ثم السكون والذال المهملة ، وهي مدينة على ساحل بحر الشمال ، وهي مدينة قديمة ذات شهرة واسعة يشهد على ذلك مرفأها وقلاعها . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٤٣٧ .

(٦) مصطفى أسعد بن أحمد اللقيمي : موانح الإنس برحلتى لوادي القدس ، مكتبة الأسد ، الورقة ٦٨ .

طُرُق^(١) ، وأعاد ما ذكره الصديقي عن وجود المكارية الذين يأخذون الغفر من الناس أثناء عبورهم الطرق أيضاً في فلسطين ، كما قدّم اللقيمي بعض المعلومات التي لم يذكرها غيره من الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في تلك الفترة ، كالخراب الذي تعانيه غزة ، وحديثه عن طائفة السامرة الموجودة في نابلس حيث وصفهم بقوله " ذهبت إلى قرية بلاطة وبها مشهد على قارعة الطريق ، يُقال أن به يوسف الصديق وهو الذي تعتقده الطائفة السامرة ، فلذلك استوطنوا نابلس فدورهم عامرة ، وقد أخبرني بعض السادة الأخيار أن هذه الطائفة لا يوجدون في غير هذه الديار وأنهم لا يزيدون على السبعين ، وأن عددهم في نابلس لا يتجاوزن الأربعين ، وهم من رفضة اليهود " (٢) . أمّا بالنسبة لبقية المعلومات التي سجلها اللقيمي ، وخاصة عند حديثه عن المزارات الموجودة في المدن التي زارها ، فهي تكراراً لما سجله جميع الرحالة السابقين واللاحقين له .

كما زار بلاد الشام في القرن الثامن عشر عدداً من الرحالة الأوروبيين الذين ساهموا بكتاباتهم في إلقاء الأضواء على كثير من الجوانب المتعلقة بتاريخ المنطقة ، وخاصة الجوانب الاقتصادية نذكر منهم الرحالة الفرنسي قسطنطين فرانسوا شاسييوف الملقب بالكونت فولني "volney"^(٣) (١٧٥٧-١٨٢٠م) الذي يُعدُّ من أبرز مفكري وفلاسفة فرنسا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وقد قام فولني برحلته إلى سورية ومصر والتي حملت عنوان " Travels though Syria , Egypt in the years 1783 –1784 and 1785 " ما بين سنتي (١٧٨٢-١٧٨٥) وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره ، وبدأ تلك الرحلة من مصر ، ثم انتقل إلى بلاد الشام التي زار معظم مناطقها ، وما ميّز كتابات فولني عن غيره من الرحالة العرب والأوروبيين قيامه بإيراد إحصاءات تجارية وسكانية عن المناطق التي زارها في بلاد الشام حيث حصل على تلك الإحصاءات من القناصل الفرنسيين الموجودين في المدن الشامية^(٤) ، كما تميّزت كتابات هذا الرحالة الفرنسي بغناها بالمعلومات الاقتصادية التي ذكرها في رحلته عن بلاد الشام ، هذا فضلاً عن زيارته لمدينة حلب التي لم يزورها أي من

(١) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٦٦ .

(٢) اللقيمي : موانع الإيس ، الورقة ٧٩ .

(٣) فولني (١٧٥٧-١٨٢٠م) : فيلسوف ومؤرخ فرنسي ، بدأ رحلته إلى الشرق في أواخر سنة ١٧٨٢م ، فزار كلاً من مصر وسوريا ولبنان وفلسطين ، ثم عاد إلى فرنسا في سنة ١٧٨٥م ، كان عضواً في الجمعية الوطنية التأسيسية التي تم تشكيلها في أعقاب الثورة الفرنسية ، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٧٩٥م ، لكنه عاد إلى فرنسا في سنة ١٧٩٨م بعد أن تم اتهامه بالجاسوسية ، توفي في باريس سنة ١٨٢٠م . للتفصيل حبيب السيوفي : سوريا وفلسطين ولبنان كما وصفها أحد مشاهير الغربيين ، جزءان ، دير المخلص ، صيدا ، لبنان ، ١٩٤٨م ، الجزء الأول ، ص ١١ .

(٤) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٧٤ .

الرحالة المغاربة في العهد العثماني ، وذلك لعدم وقوعها على طرق الحجّ الرئيسة القادمة من العاصمة العثمانية استانبول ، ولعدم تمتعها بالمكانة الدينية الكبيرة التي تتمتع بها بعض المدن الشّامية الأخرى كالقدس .

تحدّث فولني عن ولاية حلب وموقعها الجغرافي المميّز في سهل مُتّسع بين نهري العاصي والفرات حيث توجد التربة الخصبة المناسبة لزراعة القمح والشعير والقطن التي تُعدّ أهمّ الزراعات في ولاية حلب بصفة عامة ، كما أشار إلى انتشار زراعة الزيتون والتين في المرتفعات الجبلية والتبغ في المنحدرات القريبة من السواحل ، أما في باقي مناطق الولاية فتنوّع فيها المروج الخضراء المخصصة لعشائر التركمان والأكراد الذين يقومون برعي مواشيهم في تلك المناطق ، كما أشار فولني إلى الدور التجاري الكبير الذي تلعبه هذه المدينة بفضل موقعها الجغرافي المميّز حيث تلتقي فيها القوافل التجارية القادمة والذاهبة ما بين أرمينيا وديار بكر وبغداد وبلاد فارس والخليج العربي والهند ومصر والحجاز ، وتتصل حلب أيضاً بأوروبا عن طريق أنطاكية واللاذقية ، وبالنسبة لأهمّ البضائع التي تصدرها هذه الولاية فهي القطن والصوف وأنواع الحرير ، وأهمّ مستورداتها السكر والتوابل ، وقد أشار فولني إلى وجود سبع وكالات للفرنسيين في حلب ، أما من الناحية العمرانية فقد عدّ فولني مدينة حلب من أجمل المدن السورية وأفضلها بناءً ، ومن الناحية الصحية تحدّث فولني عن الوباء المنتشر بحلب بكثرة وهو المعروف باسم " حبة حلب " (١).

زار فولني معظم المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط كمدينة أنطاكية التي اتفق مع المكناسي والزياني على أنها مدينة مُخرّبة ومُدْمَرة وشوارعها ضيقة ، وتحدّث فولني عن مدينة طرابلس التي ذكر أنها مركز ولاية طرابلس ، وأشار إلى أنها تُعدّ من أهمّ المرافئ الموجودة على الساحل ، وأشهر زراعاتها التوت الأبيض والرمان والبرتقال والليمون ويكثر فيها الصبار، وتشتهر هذه المدينة بتجارة الحرير الخشن ، ويوجد فيها الكثير من التجار الفرنسيين الذين يملكون ثلاث وكالات في طرابلس ، فيقاضون الحرير والإسفنج المستخرج بالجوخ والسكر والبن (٢) ، ومن الناحية الصحية ذكر فولني أن هذه المدينة عُرضة لانتشار الأوبئة ، وخاصة في فصل الصيف (٣) ، وقدّر عدد سكانها مع اللاذقية بأربعين ألفاً . أما مدينة بيروت فذكر فولني أن ميناءها يعاني من إهمال كبير، وتشتهر بها زراعة التوت ،

(١) السيوفي : سوريا وفلسطين ولبنان ، الجزء الثاني ، ص ١١ .

(٢) M.C F. Volney, *Travels though Syria , Egypt in the years 1783 –1784 and 1785*, two Volumes, London , 1972 , Vol2, P173-174

(٣) Ibid , p 171.

وقدّر فولني عدد سكان بيروت بستة آلاف ^(١) ، كما وصف فولني مدينة صيدا بأنها سيئة البناء وكثيرة الانقراض ، ولكن على الرغم من ذلك فتجارتها مزدهرة ، لكونها تعدّ المركز الرئيسي لتجارة دمشق ، ولذلك يوجد فيها عدد كبير من التجار الأجانب وخاصة من الفرنسيين الذين يقومون بشراء الحرير والقطن ، وقدّر فولني عدد سكان صيدا بخمسة آلاف نسمة ^(٢) .

أما بالنسبة لمدينة مدينة عكا ، فأشار فولني ، مثلما ذكر المكناسي من قبله ، إلى الازدهار التي تعيشه هذه المدينة في ظل حكم أحمد باشا الجزائر الذي جعلها من أعظم المدن الموجودة على الساحل الشامي ، فقام بإعادة تحصينها وإصلاح مينائها الذي عدّه فولني أفضل المرفأ الموجودة في بلاد الشام ، كما تحدّث فولني عن مدينة غزة التي شبهها بالمدن المصرية من حيث مناخها المشابه لمناخ الريف المصري وعادات سكانها ولهجتهم القريبة من المصريين ، والسبب في ذلك أنّ غزة تُعدّ منطقة فاصلة ما بين الشام ومصر ، وبالتالي فإنها خاضعة لتأثير المنطقتين ، وقدّر فولني عدد سكان غزة بألفي نسمة ، ومن الناحية الاقتصادية أشار فولني إلى تربة غزة الخصبة المناسبة لزراعة أشجار الرمان والحمضيات والبلح ، إضافة إلى البصل الذي يصدر قسم كبير منه إلى العاصمة العثمانية استانبول ^(٣) .

وفيما يتعلّق بالمدن الداخلية في بلاد الشام أشار فولني إلى الخراب الكبير الذي تعانيه مدينة القدس ، والذي لم يشير إليه الرّحالة المغاربة ، فأسوارها مهدّمة والخندق الذي حول المدينة مليء بالانقراض ^(٤) ، لكنّ فولني تحدّث كغيره من الرّحالة عن رواج صناعة الأدوات التذكارية الدينية في القدس والتي تُصدّر إلى الخارج حيث تُعدّ هذه الصناعة الحرفة الرئيسة التي يعمل بها سكان القدس سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين ، أما المصدر الآخر الذي يعتاش من خلاله سكان القدس فهو ما ينفقه الحجاج المسيحيين القادمين للقدس ، وقدّر فولني عدد سكان القدس ما بين ١٢ إلى ١٤ ألف نسمة.

كما ذكر فولني بعض المعلومات التي لم يشير إليها الرّحالة المغاربة كحديثه عن مدينة الخليل ، المشهورة بتصدير غزل القطن إلى القدس وغزة ، وبصناعة الصابون وصناعة الزجاج حيث أشار فولني إلى أنّ الخليل هي المدينة الوحيدة التي تشتهر بصناعة الزجاج في سوريا ، وأنّ هذه الصناعة تعود بأرباح كثيرة على العاملين بها ، كما تحدّث فولني عن بيت لحم التي ذكر أنّها على الرغم من وقوعها في منطقة جبلية ، فإنّ تربتها وارتفاعها تناسب

(١) السيوفي : سوريا وفلسطين ، الجزء الثاني ، ص ٢٤ .

(٢) Volney, *Travels though Syria* , Vol2 , P 209.

(٣) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص . ص ٧٧٥ — ٧٧٦ .

(٤) Volney, *Travels though Syria* , P 304.

زراعة الكرمة والزيتون ^(١) ، أما مدينة الرملة فذكر فولني أنها تعاني من الخراب والدمار ، وأن معظم سكانها يعملون إما في غزل القطن الذي تشتريه الوكالتان الفرنسيّتان الموجودتان فيها ، أو بصناعة الصابون الذي يتم تصديره منها إلى مصر ^(٢) .

أعاد فولني عند حديثه عن مدينة دمشق ما ذكره الرّحالة المغاربة عن أهمية هذه المدينة من الناحية التجارية ، فذكر أن الموقع المتميّز لمدينة دمشق جعلها من أهم المراكز التجارية في المنطقة فهي تتصل بإرمينيا وديار بكر وبلاد فارس عن طريق حلب ، وتوفد إليها البضائع من القاهرة والحجاز ، كما أنها تتصل بأوروبا عن طريق الموانئ الموجودة على الساحل ، كما تحدّث عن تربة دمشق وغطتها التي تُعدّ من أخصب الأراضي الموجودة في بلاد الشام ، لكنّ تلك التربة لا تناسب زراعة الحبوب ، بل زراعة الأشجار المثمرة ، وقد قدّر فولني عدد سكان دمشق بحوالي ثمانين ألفاً ، وذكر أنّ عدد المسيحيين فيها خمسة عشر ألفاً ثلثهم من الأرثوذكس ^(٣) ، كما تحدّث فولني عن مدينة حمص التي ذكر أنها تعاني من خراب كبير ، وقدّر عدد سكانها بحوالي ١٠٠٠ نسمة . أمّا مدينة حماه المشهورة بنواحيها ، فذكر فولني أن تجارتها جيدة وترتبطها تناسب زراعة القطن والحبوب ، لكنّ الزراعة ضعيفة فيها بسبب الظلم الكبير الذي يعانيه الفلاحون نتيجة اتّباع أسلوب الالتزام في جمّع الضرائب — وهذه صفة عامة أطلقها فولني على جميع المناطق التي زارها — إضافة إلى تعرض الفلاحين إلى هجمات البدو ، وقدّر عدد سكانها بحوالي أربعة آلاف ^(٤) .

أما الرحالة الإنكليزي وليم جورج براون " Browne " ^(٥) (١٧٦٨-١٨١٣م) صاحب كتاب " Travels in Africa , Egypt , and Syria from years 1792 to 1798 " فزار بعض المدن الشّامية بدءاً من فلسطين التي وصل إليها قادماً من مصر حيث أبحر من دمياط على متن مركب تجاري ينقل البضائع بين سوريا ومصر ، وقد قدّم بروان في رحلته

(١) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٧٥ .

(٢) السيوفي : سوريا وفلسطين ، الجزء الثاني ، ص ٧٢ — ٧٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٦ — ٥٩ .

(٤) المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ٦٣ .

(٥) وليم جورج براون (١٧٦٨-١٨١٣م) : رحلة إنكليزي ، زار بعض المناطق في الشرق وإفريقيا ، قام برحلته بدءاً من مصر حيث كان وصوله إلى الإسكندرية في شهر كاون الثاني سنة ١٧٩٢م ، فزار سيناء ، ثم انضم إلى إحدى القوافل المتجهة إلى دارفور ، وقد حاول متابعة رحلته برأ إلى إثيوبيا ، لكنه لم يستطيع تحقيق ذلك ، فعاد إلى مصر ، ثم توجه إلى سوريا ، ثم عاد إلى لندن في أيلول سنة ١٧٩٨م ، لكنه ما لبث أن عاد إلى الترحال فزار صقلية واليونان وبعض المناطق في آسيا الصغرى كأرضورم ثم توجه إلى تبريز ، ودخل مدينة طهران في صيف سنة ١٨١٣م .

بعض المعلومات والتفاصيل التي لم يرد ذكرها عند الرّحالة المغاربة ، فأشار إلى الخراب الذي يعانيه ميناء يافا بسبب ضآلة التجارة المقتصرة على المتاجرة مع مصر، وأشار إلى أن بيوت يافا مبنية من الحجر، ويوجد بها ثلاثة أديرة للأرمن والأرثوذكس والروم الكاثوليك ، كما يوجد فيها بعض اليهود (١) .

وتحدّث بروان عن مدينة نابلس التي أعجب بموقعها المميّز، لكونها عقدة مواصلات هامة بين دمشق ومدن الساحل في فلسطين ، ممّا أكسبها أهمية كبيرة من الناحية التجارية ، وقد أشار بروان إلى ازدهار صناعة الأنسجة القطنية في نابلس ، وأعاد ما ذكره بعض الرّحالة عن وجود عدد من أتباع الطائفة السامرية في نابلس . كما أعجب بموقع مدينة الرملة وتربّتها الخصبة المزروعة بأشجار الزيتون ، وزار بروان مدينة القدس ، ووصف كنيسة القيامة وقارن بينها وبين دير الأرمن الموجود في المدينة ، فذكر أن كنيسة القيامة تعاني من إهمال كبير حيث كان الثلج يتساقط في داخلها بسبب انهيار بعض الجسور الخشبية المصنوعة من خشب الأرز ، كما أن سقفها مهْدَم ، في حين أن دير الأرمن الموجود في المدينة أحسن حالاً حيث يتسّع لألف حاج ، وقد اتفق بروان مع الرّحالة المغاربة حول الحالة الجيدة لأسوار مدينة القدس على خلاف ما ذكره فولني . أمّا من الناحية السياسية ، فأعاد بروان الحديث الذي ذكره جميع الرّحالة الذين زاروا فلسطين في تلك المرحلة والمتعلّق بفشل السلطات العثمانية في فرض الأمن والسيطرة على القبائل البدوية . أمّا من الناحية الاقتصادية ، فأشار بروان مثل فولني إلى رواج صناعة الأدوات الدينية التذكارية ، وقدّر بروان عدد سكان القدس بين ١٨ و ٢٠ ألف نسمة ، ولاحظ كثرة الشحاّذين الموجودين في المدينة (٢) .

أعاد بروان ما ذكره الرّحالة المغاربة عن مدينة عكا الخاضعة لسيطرة أحمد باشا الجزّار الذي قام بإدخال جملة من التحسينات على هذه المدينة ، منها بناؤه جامعاً كبيراً ، إضافة للجوامع الستة الموجودة فيها ، وحمّامات وسوّقيّن وقصرًا وخزّانات مياهٍ وخانات . أمّا من الناحية الاقتصادية فذكر بروان أن تجارة عكا جيدة على الرّغم من طرد الجزّار للتجار الفرنسيين الموجودين فيها ، أمّا زراعتها فذكر أنّها سيئة نتيجة إهمال الفلاحين للزراعة بسبب سياسات الجزّار الظالمة (٣) .

كما تحدّث بروان عن مدينة صور التي سحر بجمالها ، ومدينة صيدا التي أشار إلى وجود عددٍ كبيرٍ من المسيحيين وبعض اليهود فيها ، ومنطقة كسروان التي أشار إلى أنها تُعدّ مع

(١) Browne , *Travels in Africa* , p.p 358 – 360.

(٢) رافق : فلسطين في عهد العثمانيين ، ص ٧٧٦.

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٧٧.

جبل لبنان أفضل المناطق المنتجة للنبذ في سوريا ، وذكر أن معظم سكان هذه المنطقة من المسيحيين^(١) ، ومدينة بيروت^(٢) التي وصفها بأنها صغيرة الحجم ، ولا توجد حولها أسوار ، وذكر أن هذه المدينة كانت تعاني من إهمال كبير ، لكنّ حالها اختلف مع استلام أحمد باشا الجزّار إدارة هذه المدينة حيث قام بتشديد عدّة أبنية فيها كبعض الحمامات والخانات والأسواق وقد تحدّث بروان عن الصراع الدائر بين الجزّار والوالي العثماني في طرابلس ، ممّا أدى إلى فقدان الأمن على الطريق بين بيروت وطرابلس^(٣).

وصف براون طرابلس بأنها مدينة كبيرة ، ومبنية بشكل جيد ومعظم شوارعها مُعبّدة ، وقلعتها كبيرة ومُحصّنة ، وممّا لفت نظر بروان في هذه المدينة وجود أعداد كبيرة من التجار المسلمين فيها حيث تُعدّ تجارة الحرير الطبيعي التجارة الرئيسة في طرابلس الذي يتم تصديره إلى القاهرة ودمشق وحلب وأوروبا ، وفيما يتعلّق بالزراعة ذكر براون أنّ ولاية طرابلس تُعدّ أفضل مكان لإنتاج التبغ في سوريا ، ومن الزراعات الأخرى الرائجة في هذه المدينة زراعة التوت المهمة في إنتاج الحرير الطبيعي ، بالإضافة إلى أشجار الفواكه الأخرى . أمّا أهمّ الصناعات الموجودة في طرابلس فهي صناعة الأدوات الفخارية^(٤) . أما بالنسبة لمدينة اللاذقية فأشار بروان إلى نقطة هامة لم يذكرها أحد من الرّحالة ، وهي الخراب الكبير الذي تعانيه هذه المدينة جراء الزلزال الذي أصابها سنة ١٧٩٦م^(٥) ، كما أشار براون إلى الوباء الذي أصاب بعض المدن الشّامية ، وذهب ضحيته عدد كبير من السكان ، والذي سبق أن أشار إليه الرّحالة المغاربة ، حيث ذكر بروان أن ذلك الوباء أودى بحياة ستة آلاف نسمة من سكان حلب^(٦).

رابعاً – استنتاجات :

تميّزت كتابات الرّحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشّام في القرن الثامن عشر عن نظرائهم من الرّحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشّام في القرن السابع عشر من نواحٍ عدّة ، فرحّلتا القرن الثامن عشر المكناسي والزياني كانا من كبار رجال البلاط المغربي ، ولعبا أدوراً مهمة في الحياة السياسية في المغرب في القرن الثامن عشر ، على عكس رحّالتي القرن

(١) Browne , *Travels in Africa* , p.p 374 -375.

(٢) بيروت : بالفتح ثم السكون وضم الراء وسكون الواو والتاء ، مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الأول ، ص ٥٢٥.

(٣) Ibid , p 379.

(٤) Ibid , p.p 379 -380.

(٥) Ibid , p 381.

(٦) Ibid , pp 384 -386.

السابع عشرَ المقري والعيّاشي ، وإن كان المقري من رجال البلاط المغربي لفترة طويلة ، إلا أنه لم تكن له مشاركة فعّالة في الحياة السياسية ، أضف إلى ذلك أن رحلته إلى المشرق كانت بدافع شخصي ، ولم تكن بمهمة دبلوماسية كما هو الحال مع المكناسي ، ولذلك فإن مكانة الرجلين ومهمتهما الدبلوماسية ساهمت زيادة اطلاعهما على أوضاع بلاد الشام ، ولقاء كبار الحكام والولاة العثمانيين أينما حلّوا.

ولعلّ النقطة الثانية التي تميّزت بها كتابات الرّحالة المغاربة في القرن الثامن عشرَ الرقعة الجغرافية الكبيرة التي شملتها تلك الكتابات حيث زار الرّحالة المغاربة في القرن الثامن عشرَ معظم مدن الإقليم ، مما ساهم في زيادة اطلاعهم على أوضاع بلاد الشام بشكل أكبر. أمّا النقطة الثالثة التي كانت علامة فارقة في كتابات الرّحالة المغاربة في القرن الثامن عشرَ تنوّع وتعدّد اهتمامات الرّحالة المغاربة التي لم تقتصر على الجوانب الثقافية والعمرانية ، كما هو الحال مع رحالة القرن السابع عشرَ ، بل شملت جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية ، وهذا ما نلاحظه بوضوح ، وخاصة في كتابات المكناسي صاحب الباع الكبير في كتابة ووصف الرّحلات التي قام بها . وبشكل عام تميّزت كتابات الرّحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشام في القرن الثامن عشرَ بالغنّى والثراء من جميع النواحي ، فمن الناحية السياسية قدّم الرّحالة المغاربة بعض المعلومات المهمة التي تُظهر مدى ضعف السلطة المركزية العثمانية في بلاد الشام ، وهذا ما نلاحظه بوضوح عند حديث الرّحالة عن أحمد باشا الجزائر وغيره من حُكّام المناطق الذين يمارسون سلطاتهم بشكل شبه مستقل . ومن الناحية الاقتصادية أشار الرّحالة المغاربة إلى الكثير من الأنشطة الاقتصادية في المناطق التي مرّوا بها ، والفوائد الكبيرة التي يجنيها سكان بلاد الشام نتيجة مرور قافلة الحجّ في مناطقهم ، كما وصف الرّحالة بعض العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في بلاد الشام الإيجابية منهم ككرم الضيافة وحُسن الاستقبال ، والسلبية كالفساد المستشري بين القضاة في المشرق عموماً وبلاد الشام خصوصاً ، فضلاً عن ذكرهم لجميع المزارات التي تمكنوا من زيارتها في المناطق التي مروا بها ، ومن الناحية الثقافية تحدّث الرّحالة عن اللقاءات التي جمعتهم مع كبار العلماء والفقهاء في بلاد الشام ، كما قدّم الرّحالة وصفاً دقيقاً من الناحية العمرانية لبعض المدن الشّامية ، فضلاً عن وصفهم لعمارة عدد كبير من المساجد والجوامع الموجودة في بلاد الشام .

الفصل الرابع

بلاد الشام من خلال الرحلات المغاربية في القرن التاسع عشر

زار بلاد الشام في القرن التاسع عشر عدد من الرحالة المغاربة كالأمير عبد القادر الجزائري ومحمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي ، فكانت زيارة الأمير عبد القادر لبلاد الشام في نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما رافق والده في رحلته إلى المشرق سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م ، وسجل الأمير بعض التفاصيل عن تلك الرحلة ضمن مذكراته التي كتبها خلال الفترة التي أمضاها في منفاه في فرنسا (١٨٤٧ - ١٨٥٢م) . أمّا محمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي الذين يُعدّان من كبار الشخصيات السياسية والفكرية في تونس في القرن التاسع عشر، فزارا بلاد الشام في بداية العقد التاسع من القرن التاسع عشر حيث اضطرّ بيرم الخامس إلى مغادرة تونس في سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م ، بسبب ازدياد نفمة السلطات التونسية عليه ، فزار عدّة بلدان ومدن ومنها مدينة بيروت قادماً إليها من الحجاز، وسجل أخبار تلك الزيارة في كتابه صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار. أمّا خروج محمد السنوسي من تونس ، فكان في أعقاب وقوعها تحت الحماية الفرنسية في سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م حيث اضطرّ إلى مغادرة بلاده نتيجة تعرّضه لضغط كبير من السلطات الفرنسية ، فتدرّع برغبته في أداء فريضة الحجّ ، وبعد أدائه شعائر الحجّ رافق قافلة الحجّ الشامي إلى دمشق ، ثم انتقل إلى بيروت ، وسجل تفاصيل تلك الرحلة في كتابه الرحلة الحجازية .

أولاً - الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ / ١٨٠٧ - ١٨٨٣م) " مذكرات الأمير عبد القادر " :

يُعدّ الأمير عبد القادر الجزائري من أشهر الشخصيات الجزائرية في التاريخ الحديث والمعاصر ، فهو المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة ، وقائد المقاومة الجزائرية ضدّ الاستعمار الفرنسي في الفترة الممتدة بين سنتي (١٨٣٢ - ١٨٤٧م) والذي استطاع أن يحقق عدة انتصارات مدوية على القوات الفرنسية ، تلك الانتصارات التي جعلت منه واحد من أشهر قادة الحركات الثورية في العالم ضدّ الاستعمار في القرن التاسع عشر ، كما أنّ مواهب الأمير عبد القادر لم تقتصر على الشؤون العسكرية والسياسية ، بل تعدّدت مواهبه لتشمل الأدب والشعر والتصوّف والدين ، وفوق ذلك كان من أبرز الشخصيات الداعية إلى السلام والتآخي والمحبة بين جميع الأجناس والأعراق والأديان ، ويشهد على ذلك موقفه من الأحداث

التي شهدتها دمشق في سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٦٠م ، حيث قام بحماية الآلاف من المسيحيين ، مما أكسبه شعبيةً كبيرةً على مستوى العالم .

١- المولد والنشأة :

يتصل الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسيني بالإمام الحسين بن علي عليه السلام، وكانت ولادته في يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٢٢٢هـ / ٢٣ أيار سنة ١٨٠٧م في قرية القيطنة الواقعة على وادي الحمام غربي مدينة معسكر^(١) ، وكان والده على خلاف كبير مع حاكم مدينة وهران العثماني ، وأدّى هذا الخلاف إلى إجبار محيي الدين وعائلته على مغادرة معسكر إلى مدينة وهران بأمر من الوالي التركي الذي خشي على الأمن من وجود الأمير محيي الدين في معسكر نظراً لالتفاف الناس حوله وتعلقهم به^(٢).

نشأ الأمير عبد القادر وترعرع على يد والده ، وفي سنّ الرابعة عشر من عمره انتقل مع أفراد عائلته إلى مدينة وهران ، وفي تلك المدينة وجد الأمير عبد القادر المناخ المناسب لإتمام علومه ، فانضمّ إلى حلقات دراسية كان ينظمها علماء وهران ، مما ساعده على زيادة ثقافته وسعة اطلاعه ، فدرس الفلسفة والفقه والحديث كصحيح البخاري ومسلم ، وأتقن علوم القرآن ، وبهذا حصل الأمير عبد القادر على قدرٍ كافٍ من العلم الديني والدنيوي ، جعله يتمتع بمكانة مرموقة بين الناس^(٣) . وبعد مرور خمسة أعوام على إقامة العائلة في مدينة وهران ، قرر محيي الدين القيام برحلة إلى الحجاز بقصد الحج ، بعد أن أخذ موافقة السلطات التركية في وهران ، واصطحب معه في تلك الرحلة الأمير عبد القادر دون سائر أخوته الذين يكبرونه سنّاً ، وهو رابعهم في المرتبة ، نظراً لما يتسم به من ذكاء وفطنة إلى جانب معارفه الواسعة وشجاعته الكبيرة^(٤).

غادر الأمير عبد القادر مدينة وهران برفقة أبيه وعددٍ كبيرٍ من أعيان المدينة إلى الديار المقدسة في الحجاز سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م ، فقادتهم تلك الرحلة إلى كلٍّ من تونس وطرابلس الغرب ومصر، ثم إلى الحجاز، وبعد أدائهم فريضة الحج رافق الجزائريون قافلة الحج الشامي إلى دمشق ، ثم اتجهوا إلى بغداد لزيارة قبر الولي عبد القادر الجيلاني^(٥) ، ليعودوا بعد ذلك

(١) عمر مدني : أعلام الجهاد العربي ، الدار المتحدة ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، ص ١٢ .

(٢) يحيى بوعزيز : بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع المكتبة الشرقية ، (د.م) ، ١٣٧٦هـ ، ص ٣٥ .

(٣) ندى جميل إسماعيل : قادة وأعلام ، المركز الثقافي اللبناني ، بيروت ، (د.ت) ، ص ٨٢ .

(٤) بوعزيز : بطل الكفاح ، ص ٣٦ .

(٥) بسام العسلي : الأمير عبد القادر الجزائري ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ٢٤ .

إلى دمشق مُتَّجِهِينَ مُجَدِّدًا إِلَى الْحِجَاز ، فَقَامُوا بِالْحِجِّ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ، ثُمَّ سَلَكَوا طَرِيقَ الْعُودَةِ إِلَى الْجَزَائِرِ مَارِّينَ بِمِصْرَ وَبَرْقَةَ وَطَرَابُلُسَ الْغَرْبِ وَتُونِسَ ، حَتَّى وَصَلُوهُمْ إِلَى وَهْرَانِ فِي سَنَةِ ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٨م .

لَمْ يَمُضْ وَقْتُ طَوِيلٍ عَلَى عُودَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ إِلَى بِلَدِهِ حَتَّى تَعَرَّضَتْ الْجَزَائِرُ لِلْغَزْوِ الْفَرَنْسِيِّ ، وَسَيْطَرَةُ الْفَرَنْسِيِّينَ عَلَى الْعَاصِمَةِ الْجَزَائِرِ فِي ١٤ مَحْرَمِ ١٢٤٦هـ/ ٥ تَمُوزِ ١٨٣٠م ، بَعْدَ أَنْ اسْتَسْلَمَ حَاكِمُهَا الْعُثْمَانِي الدَّايَ حُسَيْنَ ، تَارِكًا مَسْأَلَةَ التَّصَدِّي لِلْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِلشَّعْبِ الْجَزَائِرِيِّ ^(١) . وَقَدْ شَهِدَتْ وَهْرَانُ بَعْدَ سَقُوطِهَا فِي يَدِ الْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ سَنَةَ ١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م ، فَتْرَةً مِنَ الْفَوْضَى وَالْاضْطِرَابَاتِ ، فَاجْتَمَعَ الْعُلَمَاءُ وَأَعْيَانُ الْمُنَاطِقَةِ فِي وَهْرَانٍ وَتَدَاوَلُوا الْأَمْرَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَى ضَرُورَةِ الْإِتِّفَافِ حَوْلَ زَعِيمٍ يَقُودُهُمْ إِلَى الْكِفَاحِ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ ، فَوَقَعَ الْإِخْتِيَارُ عَلَى الشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ وَالِدِ عَبْدِ الْقَادِرِ ^(٢) ، لِمَا يَتِمَّتُ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ حِكْمَةٍ وَشَجَاعَةٍ ، فَوَافَقَ الْأَمِيرُ مُحْيِي الدِّينِ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى الْقِيَادَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ ، فَأَلَّفَ جَيْشًا كَبِيرًا مِنْ فَرَسَانِ الْقَبَائِلِ ، وَتَمَكَّنَ مِنْ تَحْقِيقِ بَعْضِ الْإِنْتِصَارَاتِ عَلَى الْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ ، وَشَارَكَهُ الْأَمِيرُ عَبْدِ الْقَادِرِ فِي تِلْكَ الْمَعَارِكِ ، وَتَوَلَّى قِيَادَةَ الْقَوَاتِ الْجَزَائِرِيَّةِ فِي مَعْرَكَتَيْ خَنْقِ النَّطَاحِ وَبَرْجِ رَأْسِ الْعَيُونِ حَيْثُ حَقَّقَ إِنْتِصَارًا بَاهِرًا عَلَى الْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ الْأَمْرَ الَّذِي جَعَلَهُ مُحِطًا أَنْظَارِ الْجَزَائِرِيِّينَ الَّذِينَ هَرَعُوا إِلَى وَالِدِهِ مُحْيِي الدِّينِ ، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمَوَافَقَةَ عَلَى مَبَايَعَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ أَمِيرًا عَلَيْهِمُ لِلْجِهَادِ ضِدَّ الْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ ^(٣) .

قَبْلَ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ مُحْيِي الدِّينِ بِالْمَهْمَةِ الْمُسْتَدَّةِ إِلَيْهِ ، وَتَمَّتْ مَبَايَعَتُهُ أَمِيرًا لِلْجِهَادِ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ وَلَقَّبَهُ وَالِدُهُ — الَّذِي تَوَفَّى بَعْدَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَبَايَعَةِ ابْنِهِ ، وَبِالتَّحْدِيدِ فِي ٣ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ١٢٤٩هـ/ ٢٠ تَمُوزِ سَنَةِ ١٨٣٣م ^(٤) — بِـ " نَاصِرِ الدِّينِ " ، وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَعْيَانِ أَنْ يُقَبَّلَ بِالسُّلْطَانِ ، لَكِنَّهُ رَفَضَ ذَلِكَ مَفْضَلًا لِقَبِّ الْأَمِيرِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ٢ رَجَبِ سَنَةِ

(١) إسماعيل : قادة وأعلام ، ص ٨١ .

(٢) كَانَتْ أَسْرَةُ الْأَمِيرِ مُحْيِي الدِّينِ الْحُسَيْنِيِّ تَتِمَّتُ بِمَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ فِي الْجَزَائِرِ ، لِذَلِكَ قَرَّرَ الْعُلَمَاءُ فِي مَدِينَةِ وَهْرَانِ اخْتِيَارَ الْأَمِيرِ مُحْيِي الدِّينِ قَائِدًا عَلَيْهِمُ لِلْجِهَادِ ضِدَّ الْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ ، لَكِنَّ الْأَمِيرَ مُحْيِي الدِّينِ رَفَضَ ذَلِكَ بِسَبَبِ تَقَدُّمِ عَمَرِهِ ، وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ تَشْكِيلَ وَفْدٍ وَإِرسالِهِ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَغْرِبِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هِشَامٍ لِكَيْ يَرْسَلَ مِنْ يَرَاهُ مَنَاسِبًا لَتَوَلَّى إِدَارَةَ شُؤُونِ الْجَزَائِرِ بَعْدَ رَحِيلِ الدَّايِ حُسَيْنَ ، فَوَافَقَ السُّلْطَانُ الْمَغْرِبِيُّ وَكَلَّفَ ابْنَ عَمِّهِ عَلِيَّ بْنَ سُلَيْمَانَ بِهَذِهِ الْمَهْمَةِ ، فَاتَّخَذَ الْأَخِيرُ مِنْ تَلْمِيسَانَ مَقْرَأً لَهُ وَبَدَأَ بِدِيرِ شُؤُونِ الْعِبَادِ ، لَكِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَغْضَبَ السُّلْطَانَ الْفَرَنْسِيَّ ، فَأَوْعَزَتْ إِلَى سَفِيرِهَا فِي طَنْجَةَ بِالضَّغْطِ عَلَى السُّلْطَانِ الْمَغْرِبِيِّ وَتَهْدِيدِهِ بِأَنْ فَرَنْسَا سَوْفَ تَعْلَنُ الْحَرْبَ ضِدَّ الْمَغْرِبِ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبْ ابْنُ عَمِّهِ وَيَخْرُجَ مِنَ الْجَزَائِرِ ، فَأَدَّعَى السُّلْطَانُ الْمَغْرِبِيُّ لِلْمَطَالِبِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَأَخْرَجَ ابْنَ عَمِّهِ مِنَ الْجَزَائِرِ ، مِمَّا دَفَعَ بِالْأَمِيرِ مُحْيِي الدِّينِ لَتَوَلَّى قِيَادَةَ الْعَمَلِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ ، وَاسْتَطَاعَ تَحْقِيقَ بَعْضِ الْإِنْتِصَارَاتِ عَلَى الْقَوَاتِ الْفَرَنْسِيَّةِ . لِلتَّفْصِيلِ يَرْجَى الْعُودَةُ إِلَى مَدَنِي : أعلام الجهاد ، ص ٣ — ١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤ — ١٥ .

(٤) بَدِيعَةُ الْحُسَيْنِيِّ الْجَزَائِرِيِّ : نَاصِرُ الدِّينِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجَزَائِرِيِّ بْنِ مُحْيِي الدِّينِ الْحُسَيْنِيِّ ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ، دَارُ سَلَامٍ لِلتَّرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ ، دِمَشْقُ ، ١٩٩١م ، ص ٥٢ .

١٢٤٨هـ / ٢٤ تشرين الثاني ١٨٣٢م ، وكانت أولى خطوات الأمير عبد القادر الجزائري تجهيز جيش كبير وقوي يكون قادراً على مواجهة الجيش الفرنسي ، ووجد ضالته في ذلك من خلال تجنيد أبناء القبائل الجزائرية وتوحيد كلمتها تحت لوائه بعد القضاء على المنازعات القائمة بين تلك القبائل ، فقام بإصدار بلاغ إلى المواطنين باسمه يطلب فيه بضرورة تجنيد الأجناد وتنظيم العساكر في البلاد كافة ، فاستجابت له قبائل المنطقة الغربية والجهة الوسطى والتف الجميع حوله ، فقسّم جيشه إلى ثلاث فرق وهي المشاة والخيالة والمدفعية ^(١) ، وكان نتيجة ذلك تكوين جيش نظامي كبير استطاع بواسطته أن يُحرز عدّة انتصارات عسكرية على القوات الفرنسية أهمها في معركة المقطع ^(٢) التي أطاحت بالجنرال تريزيل . أمّا من الناحية السياسية ، فاستطاع إجبار الفرنسيين على الاعتراف به ، وقبول التفاوض معه حيث اضطرّ الفرنسيون إلى توقيع اتفاقية هدنة مع الأمير عبد القادر عُرفت تلك الاتفاقية بمعاهدة " دي ميشيل " ^(٣) .

ولكن بعد مرور سنة على توقيع اتفاقية دي ميشيل قام الفرنسيون بنقضها وهاجموا الأمير عبد القادر الذي استطاع التصدي للفرنسيين بمساعدة القبائل الجزائرية ، ممّا دفع بالحكومة الفرنسية إلى تغيير قيادة قواتها المتواجدة في الجزائر حيث قامت بإرسال الجنرال " بيجو " ، لكنّ الأمير عبد القادر تمكّن من تحقيق النصر على القوات التي يقودها بيجو ، وأجبره على توقيع معاهدة جديدة عُرفت باسم معاهدة تافنا في سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م ^(٤) .

(١) العسلي : الأمير عبد القادر ، ص ٤١ .

(٢) للتفصيل حول معركة المقطع يرجى العودة إلى العسلي : الأمير عبد القادر ، ص ١٠٠ .

(٣) نصت هذه المعاهدة " إنّ قاندي الجيش المقيم في وهران الجنرال دي ميشيل والأمير عبد القادر بن محيي الدين اعتمدا واتفقا على ما يأتي ذكره من الأمور : ١- منذ يوم تحرير (الصك) يصير ترك الحروب والخصومات بين الفرنسيين والعرب وكل من الجنرال دي ميشيل والأمير عبد القادر يجتهدان في إلقاء الألفة بين شعبين اقتضت الإرادة الإلهية أن يكونا تحت سلطة واحدة ، ولأجل ذلك بتعيين وكلاء من الأمير عبد القادر بوهران ومستغانم، وأرزيو كي لا تقع الخصومة بين الفرنسيين والعرب ، كما أنه يقام وكلاء عن فرنسا ضابط فرنسي في معسكر ٢٠- يصير احترام ديانة الإسلام وعوائد أهله ٣- يلزم رد الأسرى من الفريقين . ٤- يصير إعطاء الحرية الكاملة للتجارة ٥- تلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من المعسكر الفرنسي ويلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر إليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير في المدن الثلاث ٦- من أراد من الأوربيين أن يسافر إلى أقاليم داخلية يجب أن تكون مصحوباً ببتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الأمير ويصححها الجنرال ، وبذلك يحصل على الحماية في جميع الأقاليم . للتفصيل حول هذه المعاهدة يرجى العودة إلى بوعزيز : **بطل الكفاح** ، ص . ٤٧- ٤٨ . برونو إتيين : الأمير عبد القادر الجزائري ، ترجمة ميشيل خوري ، الطبعة الأولى ، دار عطية للنشر، بيروت ، ١٩٩٧م ، ص ١٧٧ .

(٤) نصّت هذه المعاهدة على بنود عدّة منها : اعتراف الأمير عبد القادر بسلطة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران ، مقابل اعتراف فرنسا بسيطرة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطري ، ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا ، ويُباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير كما أنه يباح للمسلمين أن يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا ، ويحق للعرب القاطنين في أرض الفرنسيين أن تمارس ديانتها بحرية تامة ، ولهم أن يبنوا الجوامع ، حرية تنقل التجار العرب والفرنسيين في الأراضي التابعة للفرنسيين والأمير عبد القادر ، يتعهد الأمير بأن لا يعطي أحداً من الدول الأجنبية قسماً من

قام الجنرال بيجو بنقض معاهدة تافنا سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م ، وبدأ بمهاجمة المناطق التابعة لحكومة الأمير عبد القادر مُتَّبِعاً سياسية الأرض المحروقة حيث قامت قواته بمهاجمة القرى والمدن المؤيدة للأمير بكلّ وحشية وعنف ، ممّا أجبر الأمير على مغادرة الجزائر واللجوء إلى المغرب الأقصى ، لكنّ الفرنسيين لم يكتفوا بإخراج الأمير عبد القادر من الجزائر، بل قاموا بتهديد السلطان المغربي لإخراج الأمير من المغرب الأقصى ، فلم يستجب السلطان المغربي في البداية إلى طلبهم ، وساند الأمير عبد القادر، لكنّ اشتدادَ ضَغْطِ الفرنسيين على السلطان أجبره في النهاية على إخراج الأمير عبد القادر من المغرب ، فعاد مُجَدِّداً إلى الجزائر^(١) .

بدأ الأمير عبد القادر بعد عودته إلى الجزائر بإعادة تنظيم قواته ، فسارع إلى تجميع أنصاره ومؤيديه من القبائل ، وتمكّن من تحقيق بعض الانتصارات على القوات الفرنسية ، لكن ما لبث أن اضطرّ إلى الاستسلام نتيجة نقص السلاح وازدياد ضغط القوات الفرنسية عليه في ٢٨ محرم ١٢٦٤هـ / ٢٣ كانون الأول سنة ١٨٤٧م ، وتمّ ترحيله من الجزائر إلى فرنسا على ظهر إحدى البوارج الفرنسية التي قادته إلى ميناء طولون الفرنسي ، فكان الوصول إليه في صفر ١٢٦٥هـ / كانون الثاني سنة ١٨٤٩م ، فتمّ وضع الأمير عبد القادر في أحد السجون في قلعة طولون إلى أن تمّ نقله إلى مدينة " بو " التي أقام فيها لمدة ستة أشهر ، ثم نُقل إلى سراي " أمبواز " التابع لمقاطعة أورليان حيث قضى هناك أربع سنوات وستة أشهر^(٢).

بعد تسلم نابليون الثالث زمام الحكم في فرنسا قام باستدعاء الأمير عبد القادر من سجنه إلى مدينة باريس التي دخلها الأمير في ١٤ محرم ١٢٦٩هـ / ٢٧ تشرين الأول سنة ١٨٥٢م ، وتمّ استقباله بشكلٍ لائق يتناسب مع المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها ، وقابل كبار رجالات فرنسا من السياسيين والمفكرين ، وتناول معهم الحديث عن الشؤون السياسية والعسكرية والعلمية كافة حيث أثار إعجاب الجميع بذكائه وخبرته ، فوجّهوا له الدعوة للبقاء في فرنسا ، لكنه رفض ذلك مُفضّلاً التوجّه إلى المشرق ، فصدرت الأوامر بالإفراج عنه ، وغادر باريس مُتّجهاً إلى العاصمة العثمانية القسطنطينية عن طريق صقلية ، ووصلها في يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٩هـ / ٨ كانون الثاني سنة ١٨٥٣م ، وخلال إقامته في هذه المدينة قابل السلطان العثماني عبد المجيد خان وكبار الوزراء والأعيان وسفراء الدول الأجنبية ، ثم قرّر

الشاطئ إلا برخصة من فرنسا ، لدولة فرنسا الحق في تعيين وكلاء لها في المدن الخاضعة لسلطة الأمير عبد القادر ويتولى هؤلاء أعمال الرعايا الفرنسيين وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب وكذلك يحق للأمير وضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت إدارة فرنسا . للتفصيل يرجى العودة إلى بوعزيز : **بطل الكفاح** ، ص.ص ٦٠ - ٦٣ .

(١) إسماعيل : **قادة وأعلام** ، ص ٨٤ .

(٢) بوعزيز : **بطل الكفاح** ، ص ٧٩ .

التوجه إلى مدينة دمشق التي اختارها ليستقرّ بها بعد الحصول على موافقة السلطان العثماني ، وكان ذلك سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٦م ، وفيها احتل مكانة بارزة بين أعيان المدينة ووجهائها ، وقام بالتدريس في الجامع الأموي ، كما زار خلال إقامته في مدينة دمشق مدينة القدس (١).

لعب الأمير عبد القادر خلال إقامته في دمشق دوراً مؤثراً في الحياة العامة في هذه المدينة ، وخاصة في حمايته للمسيحيين من القتل إثر الأحداث الدموية التي امتدت من بيروت إلى دمشق في سنة ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م ، حيث قام بحماية أكثر من خمسة عشر ألفاً من المسيحيين الذين استضافهم في المنازل التي كان يملكها في مدينة دمشق (٢) ، وقام الأمير عبد القادر بعد انتهاء تلك الأحداث الدامية بزيارة كلٍّ من حماة وحمص ، ثم قرّر في سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م أداء فريضة الحج للمرة الثالثة في حياته (٣) ، فاتّجه بحراً إلى مدينة الإسكندرية ، وفيها قابل خديوي مصر وعدداً كبيراً من ووجهاء البلاد وأعيانها ، ثم تابع طريقه إلى مكة ماراً بالسويس وجدة ، وبعد أدائه مناسك الحج زار مدينة الطائف ، والمدينة المنورة ، ثم عاد إلى مدينة دمشق ، فكان دخوله إليها في ١٨ ربيع الأول ١٢٨١هـ/ ٢٠ آب سنة ١٨٦٤م ، كما قام بزيارة مدينة بيروت في شهر ذي القعدة ١٢٨١هـ/نيسان ١٨٦٥م ، ومنها اتّجه إلى العاصمة العثمانية القسطنطينية ، فأجرى عدة لقاءات مع رجالات الدولة العثمانية ، وفي مُقدّمَتهم السلطان العثماني ، وقد أسفرت تلك اللقاءات عن إصدار السلطان العثماني فرماناً نص على العفو عن المنفيين المتورّطين في الأحداث الدامية التي شهدتها دمشق سنة ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م (٤) .

اتّجه الأمير عبد القادر إلى فرنسا ، فقابل الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث وكبار الوزراء الفرنسيين ، ثم تابع رحلته إلى العاصمة الإنكليزية لندن التي أقام فيها أربعة أيام ، قبل أن يعود إلى مدينة دمشق ، وفي تشرين الثاني سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م دُعي الأمير عبد القادر لحضور الاحتفال الكبير الذي أقامه الخديوي إسماعيل بمناسبة افتتاح قناة السويس ،

(١) إتيين : الأمير عبد القادر ، ص . ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢) أمضى الأمير عبد القادر في دمشق سبعة وعشرين عاماً (١٢٧٢ - ١٣٠٠هـ / ١٨٥٦ - ١٨٨٣م) في القراءة وحلقات العلم والتأليف والتأمل الصوفي ، والرحلات ، وكان الأمير عبد القادر مركزاً اهتمام العلماء والمتقّين أكثر من غيرهم ، فإليه يرجعون في كثير من الأمور الدينية وعلى آرائه يستندون ، وخلال إقامته في دمشق قام الأمير عبد القادر بتحقيق بعض الكتب العلمية والأدبية ، ومنها كتاب الفتوحات المكيّة ، كما لعب الأمير عبد القادر دوراً كبيراً وفعالاً في حماية المسيحيين في دمشق خلال الأحداث الدامية التي اشتعلت في جبل لبنان وانتقلت شرارتها إلى دمشق في سنة ١٢٧٦هـ/١٨٦٠م . للتفصيل حول حياة الأمير عبد القادر وأعماله في مدينة دمشق يرجى العودة إلى فؤاد السيد صالح : الأمير عبد القادر في دمشق ، مجلة الثقافة ، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر الجزائري الجزائر ، السنة الثالثة عشرة ، العدد ٧٥ ، ١٩٨٣م ، ص.ص ٢٦٣ - ٢٧٧ .

(٣) العسلي : الأمير عبد القادر ، ص ١٦٠ .

(٤) بوعزيز : بطل الكفاح ، ص ٨٧ .

فلَبَّى الأمير تلك الدعوة ، واجتمع هناك بكبار الملوك والوزراء والأعيان الذين قَدِمُوا من شتى أنحاء أوروبا ، ثُمَّ عاد مُجَدِّداً على دمشق (١) .

وفي الفترة الأخيرة من حياته ساءت حالته الصحيَّة ، وعانى من بعض الأمراض ، واستمرَّت صِحَّتُهُ بالتدهور إلى أنْ وافته الأجلُ في منتصف ليلة السبت ١٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ/ ٢٤ أيار سنة ١٨٨٣م ، عن عمر ناهز السادسة والسبعين ، ودُفِنَ بجوار قبر ابن عربي بالصالحية بعد أنْ أقيمتْ له جنازةٌ حاشدةٌ شاركَ فيها عدد كبير من كبار الدولة وأعيانها ووجهائها (٢) .

٢- مؤلفاته :

وضع الأمير عبد القادر مؤلفاتٍ ورسائلَ مُطَوَّلَةً وشروحاً وأجوبةً متعددةً تحدَّثَ فيها عن شتى الأغراض والمسائل ، ولم تقتصر تلك المؤلفات على عِلْمٍ مُحدَّدٍ ، بل شملت علوماً عدَّةً كالفقه والدين وعِلْمَ الكلام والتصوف ، ومن أهم تلك المؤلفات :

— المقراض الحادّ لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد : وهي رسالة مُطَوَّلَةٌ كتبها في منفاه بفرنسا للردِّ على المشكِّكين بمبادئ الدين الإسلامي بقصد النيل من أصوله وقوانينه الحكيمة (٣) .

— ذكرى العاقل وتنبيه الغافل : وهي رسالة مُطَوَّلَةٌ كتبها للأكاديمية الفرنسية عندما تمَّ انتخابه عضواً فيها ، وضمَّنها علوماً متنوعة كالتاريخ والفلسفة والدين والإصلاح الاجتماعي والأخلاق .

— مذكرات الأمير عبد القادر : كتبها في منفاه في فرنسا في سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م .

— المواقف : وهو كتاب في التصوِّف .

— تعليقات على حاشية جدّه " عبد القادر بن خذّة " وهو كتاب في عِلْمِ الكلام .

هذا بالإضافة إلى رسائلٍ وإجاباتٍ على أسئلةٍ في العديد من العلوم والموضوعات والفنون (٤) .

(١) بوعزيز : بطل الكفاح ، ص ٨٧ .

(٢) إسماعيل : قادة وأعلام ، ص ٨٥ .

(٣) بوعزيز : بطل الكفاح ، ص ١٩٢ .

(٤) للتفصيل حول كل ما يتعلَّق بمؤلفات الأمير عبد القادر يرجى العودة على إسماعيل : قادة وأعلام ، ص ٨٥ — ٨٦ .

بوعزيز : بطل الكفاح ، ص ١٩٣ — ١٩٥ .

٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه الأمير عبد القادر الجزائري (١):

على الرغم من أن الأمير عبد القادر الجزائري لم يضمّن مذكراته الكثير من التفاصيل عن رحلته إلى المشرق مع والده محي الدين سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م ، إلا أننا نستطيع تحديد معالم الطريق الجغرافي الذي سلكه الأمير في رحلته في الذهاب والإياب ، وإن لم يذكر الأمير جميع المناطق والنواحي التي مرّوا فيها باستثناء المدن الكبرى .

بدأت رحلة الأمير مع والده في يوم السبت ٢ شعبان سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م من مدينة وهران حيث رافقهم في هذه الرحلة عدد كبير من أعيان ووجهاء هذه المدينة (٢) ، كما ذكر الأمير عبد القادر " فكان سفره من مدينة وهران مع كبائر دولتها يوم السبت ثاني يوم من شهر شعبان سنة آخر ثلاثين ومائتين وألف في ركب مروّق اللباس ومحفة الساج قاصدين ابتغاء مرضاة الله بسلوك الفجاج والانخراط في زمرة الحجاج على حسب رحلات وطننا المعلومة " (٣).

سلكت القافلة طريق الحجّ المعروف إلى الديار المقدّسة في الحجاز ، وقد ذكر الأمير أسماء المواضع والمناطق التي مرّوا فيها حتى وصلوا إلى مدينة تونس ، لكنّه لم يذكر أيّة تفاصيل عن أحوالها مكتفياً بذكر اسمها وهي " من وادي سيق إلى وادي سيدي المقداد إلى جديوية إلى محاجة إلى العطاف إلى جندل إلى المدية ، ثم منها إلى أربعاء مني سليمان إلى برج حمزة إلى قرية بني منصور في مبتدأ الببيان إلى سيدي مبارك إلى الصديف إلى وكالة الباي إلى قسنطينة ، ثم منها إلى الصمعة إلى الوادي الشارف إلى مرجة كحيل إلى ورغة بوادي شراط إلى مدينة الكهف إلى تستور إلى سيدي الحطاب " (٤).

صادف دخول القافلة إلى مدينة تونس — بعد مسير استمر سبعة وعشرين يوماً — حلول شهر رمضان المبارك ، وقد أعجب الأمير بهذه المدينة وما تحتويه من مساجد وأسواق قائلاً " فأعجبنا تأنقها وشغلنا ترنّفها وبعد اطلاعنا على مساجدها البهية وأسواقها الشهية قلنا إنّها

(١) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه الأمير عبد القادر في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٧
(٢) ذكر الأمير عبد القادر في مذكراته أن تاريخ انطلاق قافلة الحجّ كان في يوم السبت الموافق ٢ شعبان ١٢٣٠هـ ، في حين تذكر بعض المراجع أن القافلة انطلقت في شهر شعبان سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م ، ونستطيع هنا تأكيد صحة الرأي الثاني لأن الأمير عبد القادر تحدّث أن عودته مع والده إلى الجزائر كانت بعد سنتين من خروجهم من بلادهم ، وأنه في الصيف الذي أعقب عودته إلى وهران وقعت الحادثة التي اتخذتها فرنسا لاحتلال الجزائر ، وهي إهانة قنصلها دوفال على يد الداوي حسين الذي قام بطم السفير الفرنسي بمروحة كانت بيده . للتفصيل يرجى العودة إلى الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير عبد القادر ، تحقيق محمد الصغير بناني ، محفوظ سماتي ، محمد الصالح ألجون ، دار الأمة ، الجزائر ، ٢٠٠٧م ، ص ١٣٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٦.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٧.

والله لهية ، فلقى أهلها الوارد ^(١) بالتعظيم والتبجيل خصوصاً علماء التدريس فكانت أهلاً لحسن المقيّل " ^(٢) . بقيت القافلة في مدينة تونس أحد عشر يوماً في ضيافة أهل هذه المدينة ، قبل أن يتابع أعضاء القافلة رحلتهم بحراً إلى الإسكندرية ، ولكنهم اضطروا إلى العودة إلى تونس بعد ستة أيام من انطلاقهم نتيجة هيجان البحر واشتداد العواصف ، فأقاموا فيها بعض الوقت ، ثم استأنفوا رحلتهم ، فكان وصولهم إلى مدينة الإسكندرية في أواخر رمضان بعد رحلة شاقة في البحر " فاتفق لنا ظهر البحر بين أيام الرجوع والصعبة والتمسير تسعة عشر يوماً ، فوافق نزولنا لمرسى (مقصد المغاربة والمشاركة) مدينة الإسكندرية آخر يوم من رمضان ، واجتمع لنا بذلك عيدان : عيد الفطر والسرور بالخلاص من البحر بعدما لقينا من طغيان أمواجه وتراكم فرايتين عجابه ما أذهل العقول وأنسانا كثيراً من النقول " ^(٣) .

لم تطل إقامة الأمير وصحبه في مدينة الإسكندرية كثيراً ، فقاموا بشراء ما يحتاجون إليه في سفرهم إلى مدينة القاهرة ، التي وصلوها بعد ستة أيام من نزولهم في الإسكندرية ، ولكنه لم يصف لنا أحوال الطريق ما بين الإسكندرية والقاهرة ، حيث ذكر فقط منطقة كفر الزيات التي زاروا فيها قبر الولي أبي العباس أحمد البدوي ، وكان في استقبالهم خارج مدينة القاهرة السيد محمد سعيد الفندي ، كما ذكر الأمير عبد القادر " وفي اليوم السادس وصلنا القاهرة مصر ، فلقينا خارجها وليّ الله البركة المقتدى به في الشؤون والخدمة السيد محمد الفندي ، وجدناه بعيداً عن المدينة ينتظرنا منذ سمع خبر الوالد وهو وعد سيدنا ومولانا محيي الدين ، فمشى بنا إلى داره . مكثنا بها اثني عشر يوماً نحن وجميع الرفاق ، طعمانا من داره ، غداء وعشاء ورأينا بداره رضي الله عنه من اجتماع العلماء ، ورؤساء الدولة عنده في كل وقت ما فيه معلوم لمن يجهل قدره ، ومغرم لمن يؤمل أجره " ^(٤) .

غادر الأمير وصحبه مدينة القاهرة باتجاه مدينة السويس ^(٥) لركوب البحر منها إلى مدينة جدّة — هنا نلاحظ أن الأمير عبد القادر قد سلك طريقاً جديداً مغايراً للطريق الذي سلكه من قبله المقري والعيّاشيّ اللذان تابعا المسير براً إلى الديار المقدّسة — فوصل الأمير إلى مدينة السويس بعد مسير يومين وليلة ، وهناك استقبلهم حاكم هذه المدينة بغاية الكرم وحسن الضيافة وأمر بتجهيز مركب لهم لنقلهم إلى الضفة الأخرى للبحر الأحمر " فلقينا ضابط مدينتها بإكرام

(١) قصد فيها الأمير عبد القادر الوالد ، لكنها هكذا وردت في النص على هذا الشكل .

(٢) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص . ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٥) السويس : بلد على ساحل بحر القلزم من نواحي مصر ، وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٨٦ .

وتبجيل ، وعيّن لنا مَرَكَباً يقيمنا ورفقتنا رئيسه : الرئيس سعيد يمان ، وخليفته اسمه بخيت ، وركبنا بإذن الله وعونه بعد صلاة الجمعة ، وفي أكثر أيامها نمشي بالنهار ونرسي بالليل لما في البحر من كثرة نوابت الحجر التي تهلك الفلك ، فأرسيّنا على ينبوع البحر في تاسع يوم من سفرنا ومن بعد غد أرسينا على جدة خزانة حرم الله ، ومحلّ مدده بالسلع الهندية واليمنية " (١). وبعد نزولهم في جدّة تابعوا طريقهم إلى مكّة المكرمة ، فقاموا بأداء مناسك الحجّ ، ثم رافق الأمير ومن كان معه قافلة الحجّ الشّامي إلى المدينة المنورة حيث ذكر المواضع التي مروا بها ما بين مكّة والمدينة وهي كما ذكر الأمير عبد القادر " من وادي فاطمة إلى عسفان إلى كريد إلى الحوراء ، إلى ينبوع ، إلى الصفراء ، وبدر وحنين ، والحمراء إلى القباب التي تليها ، إلى بئر علي ، إلى طيبة المدينة المنورة على من بها ألف صلاة وسلام . فأقمنا بها أيام عاشوراء مقدار ما صلينا جمعتين " (٢) .

نستنتج ممّا أورده الأمير أنه بقي في المدينة المنورة مدة أسبوعين زار خلالها الأماكن المباركة جميعها من مساجد وقبور الصالحين والتابعين ، ثم فكر والده محيي الدين في التوجّه مباشرة نحو مدينة بغداد ، لكنّه تردّد في ذلك خوفاً من كثرة اللصوص وقطاع الطرق ، فضلاً عن وجود القبائل البدوية الخارجة عن السلطة ، ولذلك قرّر في النهاية مرافقة قافلة الحجّ الشّامي إلى مدينة دمشق ، لكون طريقها أسهل وأكثر أمناً ، بالإضافة إلى الرغبة في زيارة هذه المدينة ، ومن هناك يتم السفر نحو بغداد ، لكون الطريق بينها وبين دمشق أكثر أمناً أيضاً " ولما تخيرنا الطريق الشّامية لسهولة المسير معها صحبة الركب الشّامي ووجود الرفقاء بدمشق إلى مدينة السلام ، إذ الرّائح والغادي بينهما لا ينقطع في كل وقت ، لكونها عمالة واحدة مشتركين في أمور السلطنة ، واشتغال مواطنها على الأرض المقدسة مأوى الخليل والأنبياء والرسل وقبلة صلاة نبينا صلى الله عليه وسلم ، قبل أن يأمر باستقبال القبلة " (٣).

رافق الأمير عبد القادر ووالده ومن كان معهم من الجزائريين قافلة الحجّ الشّامي إلى دمشق ، فأقاموا فيها شهراً كاملاً ، ثم تابعوا رحلتهم إلى بغداد التي ووصلوها بعد شهرين من سفرهم " سافرنّا مع رفقة مأمونة بالتنبيه من ولّاة الأمر والإيصاء بنا في كل ما ينفع ويضر ، مدة شهرين بين الإقامة والمشي إلى أن حللنا مصرَ بغداد ووردنا فرات دجلته الوارد ودخلنا في أحسن زي وغاية شبع وري " (٤) ، وقد كان الهدف من التوجه إلى بغداد زيارة مقام الولي

(١) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

عبد القادر الجيلاني حيث أبدى الأمير عبد القادر إعجابه الشديد بذلك المقام " فيا له من مقام وضريح ، وتلويع ورمز وصريح . مقام عمّرتّه مذاهب القوم ، وجملّته العبادة المطلقة والصوم وزينته الدنيا والدين ، ورفع الخصاصة عن كل فقير ومدين ، مقام لو رآه المتجبر السكير للأن وأذعن " (١) .

أقام الأمير عبد القادر في بغداد لمدة شهرين ، ثم غادرها عائداً إلى دمشق التي بقي فيها لمدة شهرين ، ثم سافر مرة أخرى إلى الحجاز ، فقام بأداء الحجّ والعمرة ، ثم سلك طريق العودة إلى الجزائر " وقصدنا المغارب عائدين مع درب الحجازي ومناهلها المعلومة كالجوزاء ، والينبوع والوجه ، وآبار السلطان ، ووادي القصب ، ومغائر شعيب ، والشرفة أم الطعام ، وبندر العقبة والنخيل ومنه حللنا في القاهرة مصر في أيام المولد النبوي " (٢) . لم يذكر لنا الأمير عبد القادر الكثير من التفاصيل عن طريق العودة ، فبعد خروجه من القاهرة أشار إلى مرورهم ببرقة " سرنا بببداء برقة من حوش بن عيسى إلى العقبة التي يذكر أهل المحل أنها واسطة بين أيلة ملك مصر ، وباشا طرابلس " (٣) ، ثم مرّ الأمير بقريّة تدعى غزالة قرب درنة ، ومنها إلى الجبل الأخضر ، ثم بنغازي ، ثم مصراته (٤) ، ثم تاجوراء وصولاً إلى مدينة طرابلس " ثم طرابلس فرح بنا أهلها أيضاً ولأهّ وغيرهم ، ووجدنا بها ما نحتاج إليه من الأمتعة " (٥) ، ثم مدينة قابس (٦) فالقيروان (٧) ، ثم الكهف وصولاً إلى الديار " ومن القيروان إلى الكهف ومنه طريق ابتداء سفرنا أولاً حتى وصلنا أوطاننا ولقينا أهلها ، أفواجاً ، على مسيرة عشرة " (٨) .

(١) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص . ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٤) مصراته : تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ١١١ .

(٥) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص ١٣٦ .

(٦) قابس : مدينة في تونس تقع جنوبي شرقي البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بنيت هذه المدينة من قبل الرومان ، وذكر ليون الإفريقي أنها محاطة بأسوار عالية ، ويجري بالقرب منها جدول ماء صغير . للتفصيل الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٩١ .

(٧) القيروان : مدينة في تونس أسسها عقبة بن نافع ، وصفها ياقوت الحموي بالمدينة العظيمة ، وتضم المدينة عدد كبير من المعالم الأثرية حيث ذكر ليون الإفريقي مدينة القيروان محاطة بسور جميل مبني كله من الآجر ، ويوجد بها جامعاً كبيراً وعجيباً وقائماً على أعمدة بهيجة من المرمر . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٤٢٠ .

— الإفريقي : وصف إفريقيا ، الجزء الثاني ، ص ٨٧ .

(٨) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص ١٣٦ .

٤- بلاد الشام في مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري :

لم يُورد الأمير عبد القادر في مذكراته إلا بعض التفاصيل الصغيرة عن زيارته لبلاد الشام التي زار فيها مدينة دمشق مرافقاً قافلة الحجّ الشّامية في طريق عودته من الحجاز بعد انتهاء شعائر الحجّ ، فأقام في هذه المدينة مدة شهراً كاملاً ، ثم تابع رحلته إلى مدينة بغداد التي أقام فيها مدّة شهرين ، ثمّ عادَ مُجدّداً إلى مدينة دمشق التي بقي فيها مدة شهرين في انتظار خروج قافلة الحجّ إلى الديار المقدّسة في الحجاز، ليحجّ للمرة الثانية ، ثم يسلك طريق العودة إلى بلاده.

على الرّغم من إقامة الأمير عبد القادر في مدينة دمشق لمدة ثلاثة أشهر، إلا أنّه لم يضمّن مذكراته الكثير من التفاصيل عن هذه المدينة ، فلم يذكر أيّة معلومات عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ^(١) ، إنما اكتفى بذكر أسباب تسمية هذه المدينة باسم مدينة دمشق " وفي ربيع الأول كان المثنى وطيب الثوى بدمشق الشام المسمّاة باسم بانيها ، غلام لنبي الله الشكور نوح عليه السلام (دمشجشق) " ^(٢). كما أشار الأمير عبد القادر إلى أسباب تسمية المسجد الأقصى بهذا الاسم " سمّي أقصى لارتفاعه بثمانية عشر ميلاً " ^(٣) .

أشار الأمير عبد القادر أيضاً إلى الاستقبال الحار الذي حظي به عند زيارته لمدينة دمشق " وأقمنا بها مدة من شهر ونحن في أحسن إكرام وطيب كلام من الرؤساء والباشوات وغيرهم " ^(٤) ، كما تحدّث عن لقائه بعددٍ من أتباع الطُّرق الصوفيّة الموجودين في مدينة دمشق " ووجدنا من أعيان الصوفية ، بها قوماً لهم شبه بالجُنيد ، والشبلي ، والبسطامي ، وابن عياض ، والمعرّي والعجمي ، وابن أدهم والغزاليّ ، ومن ماثلهم فتبرّكنا بهم وتعلّقنا بشيخهم السالك المسلك الجامع المُحصّل بإذن الله إلى الفتح الرباني بطرق شتّى خصوصاً النقشبندي ^(٥) ، المحقّق المدقّق للأصول والفروع الشيخ خالد رضي الله عنه

(١) يذكر برونو إيتين في كتابه الأمير عبد القادر الجزائري عند حديثه عن زيارة الأمير لمدينة دمشق خلال رحلته إلى المشرق في سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م بعض التفاصيل عن الجوانب الاجتماعية في هذه المدينة فيقول " تبين للأمير أن دمشق منقسمة في الواقع إلى عدّة طبقات متعارضة ... وأتاحت له دروس ابن خلدون أن الطبقة النخبوية التي تضم الأشراف والعلماء وذرية النبي محمد (ص) والمتقنين ، وكذلك أيضاً ملاك الأراضي وكان كبارهم يعيرون عن مزايا طبقتهم مثل آل الكيلاني أو آل حمزة أو آل البكري أو آل العمري ، ومعظمهم أعضاء المجلس البلدي ولم يكن كبار الموظفين الأتراك يتدخلون إلا نادراً في شؤون هذه النخبة مع أن أفرادها يجتمعون غالباً علناً " . للتفصيل يرجى العودة إلى إيتين : الأمير عبد القادر ، ص ١١٨ .

(٢) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص ١٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٥) الطريقة النقشبندية : طريقة صوفية أسسها محمد بن محمد بهاء الدين البخاري في بلاد فارس ، وانتشرت في أنحاء متعدّدة من بلاد فارس وآسيا الصغرى وغيرها من المناطق . للتفصيل العسلي : معاهد العلم ، ص ٣١٥ .

ورحمه ودخلنا حضرته غير مرة ، كسانا من أوار حلقته ، وفضائل جمعه ، من الأشواق وشاهدنا بركته في مقامنا ورحيلنا ولازلنا على التمسك بلطائف من عهده " (١).

ثانياً - محمد بيرم الخامس (١٢٥٦-١٣٠٧هـ/ ١٨٤٠ - ١٨٨٩م) " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " :

يُعدُّ محمد بيرم الخامس من أشهر الشخصيات التونسية التي عرفها القرن التاسع عشر لما تميّز به من علمٍ ومعرفة ، فضلاً عن مشاركته الفعّالة في الحياة السياسية في تونس في تلك المرحلة المهمة من تاريخها التي سبقت فرض الحماية الفرنسية على تونس سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م .

١- المولد والنشأة :

هو السيّد محمد بن مصطفى بن محمد الثالث بن محمد الثاني بن محمد الأول بن حسين بن محمد بن حسين بن بيرم^(٢). وُلِدَ في مُحرم سنة ١٢٥٦ / آذار سنة ١٨٤٠م ، وكان جدّه بيرم قد حضر إلى تونس بوصفه قائداً لإحدى الفرق في الجيش العثماني الذي قَدِمَ لإخراج الإسبان منها^(٣) ، وكان والدّه مصطفى - على عكس معظم أفراد هذه الأسرة - قليلَ الاهتمام بتحصيل العلم والحصول على المناصب الشرعية والتدريسيّة ، فاهتمّ بالزراعة وعملَ على العناية بالمزارع التي ورّثها عن آبائه وأجداده ، وعند وفاته في سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م تركَ لابنه ثروة كبيرةً وأملاكاً واسعة^(٤) . أمّا أمّه فهي ابنةُ الجنرال محمد خوجه وزير البحرية في عهد أحمد باي ، وقد حاول جدّه توجيهه منذ طفولته إلى الاهتمام بالشؤون العسكرية والسياسية والإدارية . لكنّ مُحمداً اتّبع طريق عمّه شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع الذي شجّعهُ على الاهتمام بالعلم والتدريس . وهكذا نشأ محمد في كنف أسرة علميّة قبل أن يلتحق بجامعة الزيتونة حيث تتلمذ على يد كبار الأساتذة والعلماء المعروفين في عصره ، وفي سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م خلفَ محمد بيرم الخامس عمّه محمد بيرم الرابع شيخاً للمدرسة العنقية ، وكانت مشيخة هذه المدرسة من الوظائف التي اختصّ بها أفراد هذه العائلة منذ أيام جدّهم محمد بيرم الأول ، كذلك فقد تمّ تعيينه مدرّساً بجامعة الزيتونة .

(١) الأمير عبد القادر الجزائري : مذكرات الأمير ، ص ١٣١ .

(٢) محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار ، ٥ أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) ، الجزء الخامس ، المقدمة ص أ .

(٣) المصدر السابق ، ص المقدمة أ .

(٤) أحمد عبد السلام : المؤرّخون التونسيون في القرون ١٧ و ١٨ و ١٩م ، نقلها من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام ، عبد الرزاق الحليوي ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة ، تونس ، ١٩٩٣م ، ص ٤٤٥ .

تُوفِّي والده في سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م بعد أن ترك له ثروة كبيرة ، وكان الذَّكرُ الوحيدُ لأبيه ، غيرَ أنه واجه صعوباتٍ كبيرةً في استثمار وإدارة تلك الممتلكات ، ولاسيما بعد الانتفاضة الريفية^(١) التي حصلت سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م بسبب استياء الأهالي من ارتفاع الضريبة الشخصية المعروفة بالمجبي والتي أدت إلى توقيف العمل بعهد الأمان ، وقد تأثر محمد بيرم كثيراً بتلك الأحداث ، ممّا دفعه إلى التفكير ببيع جميع ممتلكاته في تونس والهجرة إلى أوروبا ، لكن الظروف وقفت في وجهه فلم يتقدّم أحدٌ لشراء ممتلكاته حتى كبار أثرياء تونس^(٢). وعندما عُيِّن خير الدين التونسي وزيراً أكبر في سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ، قام باستدعاء صديقه محمد بيرم الخامس وعهدَ إليه رئاسة جمعية الأوقاف سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م التي كانت تعاني من الفوضى ، لذلك قرّر خير الدين جمعها في إدارة واحدة بهدف تنظيمها وجعلها أكثر فائدة . وبعد سنة من ذلك حصل محمد بيرم على منصب آخر وهو إدارة المطبعة الرسمية وإدارة جريدة الرائد التونسي ، وفي تلك الفترة تأسست المدرسة الصادقية ، وكان من بين أعضاء اللجنة المكلفة بوضع مناهج تلك المدرسة^(٣).

عمل محمد بيرم بكلّ جدٍّ وإخلاصٍ لإتمام المهام المُكلّف بها دون أن يلتفت إلى أوضاعه الصحيّة التي أخذت بالتدهور، ممّا اضطرّه للسفر إلى أوروبا سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م للعلاج وفي تلك الفترة ألّف الجزء الأول من كتابه صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار ، وعندما أبعد خير الدين عن مسؤولياته كوزير أكبر سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م ، أراد محمد بيرم الخامس التخلّي عن جميع وظائفه والالتحاق بخير الدين ، لكنّ تدخّل الباي محمد الصادق الذي ضغط على بيرم للبقاء في مناصبه جعله يعدّل عن تنفيذ فكرته ، حيث أسند إليه الإشراف على إدارة المستشفى الذي أُحدث في أواخر عهد وزارة خير الدين ، فعمل بيرم على تنظيم

(١) كانت لهذه الانتفاضة أسبابٌ عديدة أهمّها سياسية الاستنزاف المالي المُتَّبعة من قبل الباي وأعضاء حكومته والتي أدت إلى إفقار الرعية ، وتحكّم المماليك بمقدرات البلاد ، ودفعت الناس إلى التمرد والهجرة ، وترغم هذه الانتفاضة علي بن غدام ، وكان من ميزات هذه الانتفاضة عدم استخدامها العنف بل لجأ زعيمها إلى المطالبة بإنصاف الرعية ، فحضر الأهالي على الامتناع عن دفع الضرائب ، ومنع مؤيديه من القيام بأعمال السلب والنهب والاعتداء على أموال الناس ، الأمر الذي ساعده على جمع عدد كبير من المؤيدين حوله ، ممّا أرعب الدول الأوروبية لئلا تنكسر فرنسا وإيطاليا التي قامت بإرسال بعض القطع البحرية إلى المياه الإقليمية التونسية بحجة حماية رعاياها ، فاضطرّ الباي بسبب تخوفه من التطورات الداخلية ، وزيادة شكوكه من التدخل الأوروبي في بلاده إلى إلغاء قرار مضاعفة الإعانة ، وتعطيل العمل بالدستور ، وأعطى الأمان للثوار بالشروط التي طالّبوها ، فأدى ذلك بالإضافة إلى عدم توحيد كلمة الثوار وقلة تنظيمهم والتدخل الدولي ودسائس الخزندار التي هدفت إلى إثارة الفتنة بين القبائل ، وملل السكان من الفوضى إلى انقراط عقد الثوار وانتهاء ثورتهم ، وهروب علي بن غدام إلى الجزائر ، فاستغل الباي ذلك ونكث بوعوده وأطلق يد رجاله وأعوّاه في البلاد . للتفصيل يرجى العودة إلى فارس : تاريخ المغرب ، ص ٣٥٣ — ٣٥٦.

(٢) عبد السلام : المؤرّخون التونسيون ، ص ٤٤٩.

(٣) الصادق الزملي : أعلام تونسيون ، تقديم وتعريب حمادي الساحلي ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ٨٩ .

المستشفى الصادقي على غرار ما شاهده في المستشفيات الأوروبية ، وخاصةً في فرنسا التي كان قد قصدَها من قَبْلُ للعلاج سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م^(١).

ساعتُ علاقةُ محمد بيرم الخامس بالوزير الجديد مصطفى بن إسماعيل الذي أرادَ إبعاده عن تونس ، فكلفه بمهمة السفر إلى باريس لإقناع الحكومة الفرنسية بتبديل قنصلها في تونس " روستان " ، وتمَّ إحاطة تلك المهمة بسرِّيَّةٍ كبيرةٍ حيث سافر بيرم بقصدِ العلاج ، لكنَّ الوزيرَ أنكر أنه كلفَ بيرم بأية مهمَّةٍ ، وقام باتَّهامه بالتآمر مع خير الدين لعزل الباي محمد الصادق ممَّا اضطرَّ بيرم للبقاء في باريس بعد تضاربِ المعلومات التي كانت تصله من تونس ، فزار لندن وجنوب إنكلترا والجزائر، ثم قرَّرَ العودة إلى تونس في شهر شوال سنة ١٢٩٦هـ الموافق شهر أيلول سنة ١٨٧٩م ، لكنَّه وجد نفسه في موقفٍ صعبٍ بسببِ نقمة الباي ووزيره عليه^(٢)، ولهذا تذرَّعَ برغبته في أداء فريضة الحجِّ ، لكي يتمكَّنَ من مغادرة تونسَ ، لكنَّه واجهَ صعوباتٍ كبيرةً في الحصول على ترخيصٍ من الحكومة للسماح له بالسفر إلى الحجِّ ، ولم يتمَّ له ذلك ، إلَّا بعد تدخلٍ عددٍ من كبار الشخصياتِ التونسية^(٣).

غادر بيرم تونس إلى الديار المقدَّسة ماراً بمالطا والإسكندرية والقاهرة ، فالتقى فيها بالخدوي توفيق ، ثم تابع طريقه إلى الحجاز ، وبعد تأديته لمناسك الحجِّ عاد بحراً ، فزار بيروت حيث التقى فيها ببعض الشخصيات الأدبية والسياسية ، وقد كان راغباً في زيارة دمشق للقاء الأمير عبد القادر الجزائري . لكنَّ سوءَ الأحوال الجوية جعلته يَعدِّلُ عن ذلك ، فتابع طريقه بحراً إلى العاصمة العثمانية استانبول لزيارة صديقه خير الدين ، وهناك قرَّرَ الاستقرار في العاصمة العثمانية ، وعندما وصلت الأخبار إلى تونس باستقرار بيرم في استانبول أرسل مصطفى بن إسماعيل إلى السلطات العليا في استانبول باسم الباي يطالبهم بإعادة بيرم إلى تونس لمحاكمته على إدارته لجمعية الأوقاف ، غير أنَّ هذا الطلب جُوبِهَ بالرفضِ من قِبَلِ السلطات العثمانية^(٤).

وعندما وقعت تونس بيد الفرنسيين سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م سافر بيرم إلى مدينة ليفورنو في إيطاليا ، وأقام فيها لقرْبها من تونس فأشرف عن طريق المراسلة على بيع ممتلكاته في تونس وخروج عائلته منها^(٥) ، وعاد مُجَدِّداً إلى استانبول ، فَحَظِيَ بعناية السلطان العثماني

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص ١ ج .

(٢) عبد السلام : المؤرخون التونسيون ، ص ٤٥٢ .

(٣) الزملي : أعلام تونسيون ، ص ٩٢ .

(٤) عبد السلام : المؤرخون التونسيون ، ص ٤٥٤ .

(٥) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص ١ هـ .

الذي خَصَّصَ له راتباً شهرياً قُدِّرَ بخمسٍ وعشرينَ ليرةً عثمانيةً^(١) ، ولكنه تعرَّضَ في استنبول إلى المؤامرات والدسائس ، فاتَّهمَ بأنَّ وجودَه في إيطاليا خلال ثورة أحمد عرابي في مصر لم يكن مصادفةً ، لكنَّ وقوفَ بعضِ الأصدقاء إلى جانبه كالشيخ محمد ظافر أدَّى إلى تحضُّنِ تلكِ المزاعم^(٢).

في أعقاب ذلك قرَّرَ محمد بيرم الخامس مغادرةَ العاصمةِ العثمانيةِ إلى القاهرة ، فحظيَ فيها باستقبالٍ حارٍّ من قِبَلِ الخديوي توفيق والعلماء المصريين ، واستطاعَ إصدارَ جريدةِ الإعلامِ الأسبوعية التي قال فيها خير الدين بإمكانها أن تصبح " تايمس الشرق " إذا استطاعت التغلَّبَ على الصَّعوباتِ الأولى والنزعة الحزبية^(٣) ، لكنَّ بيرم ما لبثَ أن أوقفَ إصدارَ تلكِ الجريدةِ بسببِ تدهور حالته الصحيَّة . وفي سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م قام بيرم بالسفر مُجدداً إلى أوروبا ، فزار في إيطاليا صديقه خير الدين الذي تدهورت حالته الصحيَّة بشكلٍ كبيرٍ أدَّتْ إلى وفاته ، ومن هناك تابعَ بيرم طريقَه إلى فرنسا لاستشارة الأطباء حول أوضاعه الصحيَّة ، كما زار في تلك الرحلة كلاً من لندن وبرلين وفيينا ، قبل أن يعود إلى القاهرة في الوقت الذي تَوَلَّى فيه رياض باشا الوزارة في مصر ، فتَمَّ تعيينه حاكماً للمحكمة الابتدائية في القاهرة في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٠٦هـ / ١٤ كانون الثاني سنة ١٨٨٩م^(٤)، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته في حلوان في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٠٧هـ / ١٨ كانون الأول سنة ١٨٨٩م، ودُفِنَ في القاهرة بالقرب من ضريح الإمام الشافعي^(٥).

٢- مؤلفاته:

وضع محمد بيرم العديد من الكتب والرسائل العلمية التي شملت علوماً عدّة منها علم العروض والفقهِ والتاريخ والجغرافيا ، ومن أهمِّ مؤلفاته :

— التحقيق في مسألة الرقيق : عالَجَ في هذا الكتاب أسباب نشوء الرِّقِّ والأسباب التي أدَّتْ إلى انتشاره ، كما أظهر كيفية تعامل المسلمين مع الرقيق طَبَقاً لمبادئ الدِّين الإسلامي^(٦).

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص م أ.

(٢) المصدر السابق ، المقدمة ص ل ح.

(٣) الزملي : أعلام تونسيون ، ص ٩٤.

(٤) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص س د.

(٥) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، ٥ أجزاء ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٢م ، الجزء الأول ، ص ١٩٥.

(٦) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص م د.

— تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص : ناقش في هذا الكتاب الجدَل الكبيرَ الحاصل بين الفقهاء في تونس حول حلال أكل الصيد الذي يتمّ بواسطة البنادق من عدمه^(١).

— تجريد السّنان للردّ على الخطيب رونان : وضع هذا الكتاب للردّ على العالم الفرنسي رونان الذي ألقى محاضرةً في باريس بعنوان الإسلام والعلم وهاجم فيها الديانة الإسلامية ووصفها بأنها تمنع انتشار العلوم بين أتباعها ، فردّ عليه بيرم بأدلةٍ مُقنعةٍ مُشيراً إلى العلوم الكثيرة التي أوجدها العرب ، بالإضافة إلى مساهمتهم في تطوير وتقديم علومٍ عدّة^(٢).

— صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار : يُعدّ هذا الكتاب أهمّ مؤلّفات محمد بيرم الخامس ، وهو مؤلّفٌ من خمسة أجزاء ، وهذا الكتاب مُقسّم إلى قسمين المقدّمة التي أفرّد لها صفحاتٍ عديدةً من الجزء الأول ، والمقصد الذي أكمل به الجزء الأول ، بالإضافة إلى الأجزاء الأربعة الأخرى ، وأمّا المقدمة فقد شغلت أكثر من نصف الجزء الأول حيث قسمها إلى ثلاثة أبوابٍ ذكر في الباب الأول أحكام السفر في الإسلام ، وفي الثاني السفر إلى غير البلاد الإسلامية ، أمّا الثالث فقد خصّصه لجغرافية العالم . أمّا المقصدُ فقد تضمّن وصفاً لرحلاته إلى البلدان العشرة التي زارها ، فأكمل الجزء الأول والجزء الثاني بكامله للحديث عن تونس ، وخصّصَ الجزء الثالث للحديث عن إيطاليا وفرنسا ، أمّا الجزء الرابع فقد خصّصه للحديث عن رحلاته لكلّ من الجزائر وإنكلترا ومالطا ومصر والحجاز ، أمّا الجزء الخامس فأكمل فيه الحديث عن الحجاز والدولة العثمانية ، وختم ذلك الجزء بترجمة لحياة محمد بيرم الخامس بقلم ابنه^(٣).

أنجز بيرم الأجزاء الثلاثة الأولى من كتابه أثناء إقامته في العاصمة العثمانية استانبول بين سنتي (١٨٨٠ — ١٨٨٤ م) ، أمّا الجزأين الرابع والخامس فأنجزهما في مصر ويبدو أنه كان راغباً في تضمين الجزء الخامس وصفاً لرحلاته لكلّ من النمسا وسويسرا وألمانيا ورومانيا وبلغاريا واليونان وبلاد الصرب ، لكن وفاته حالت دون ذلك^(٤) . ومن الكتب الأخرى لمحمد بيرم الخامس نذكر: رسالة في أحكام أشرف آل بيت رسول الله ، الروضة السنيّة في الفتاوي البيرمية ، ومختصر في العروض ، وملاحظات حول التنظيمات اللازمة للدولة العليّة^(٥).

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص ط.

(٢) المصدر السابق ، المقدمة ص س ب .

(٣) عبد السلام : المؤرّخون التونسيون ، ص ص ٤٥٦ — ٤٥٨ .

(٤) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، المقدمة ص س ج .

(٥) محفوظ : تراجم المؤلّفين التونسيين ، الجزء الأول ، ص ١٩٦ .

٣- الطريق الجغرافي الذي سلكه محمد بيرم الخامس^(١):

سبق وذكرنا أنَّ العلاقة السيئة التي ربطت محمد بيرم الخامس بالوزير مصطفى بن إسماعيل كانت السبب الرئيس لخروج محمد بيرم من تونس ، ولهذا تذرَّع برغبته في أداء فريضة الحج ، لكي يتمكن من مغادرة تونس^(٢). فغادر رحَّلتنا بلده مُتَّجِهاً إلى جزيرة مالطا التي أقام فيها لمدة ثلاثة أيام ، ثم غادرها إلى مدينة الإسكندرية على متن سفينة إنكليزية مُحمَّلة بالفحم الحجري ، وقد أبدى بيرم إعجابه بهذه السفينة الإنكليزية ، وأشار إلى النظافة الكبيرة التي تتمتع بها السفن الإنكليزية مقارنةً مع نظيراتها من السفن التابعة للدول الأوروبية الأخرى " والحق أن يُقال إنَّ بواخر الانقليز^(٣) مُطلقاً أشدُّ نظافةً ممَّا يماثلها من غيرها ، أعني كلَّ نوعٍ بالنسبة إلى نوعه . وذلك أنَّي رأيت بواخرهم الحربيَّة مجتمعةً مع غيرها من البواخر الحربيَّة للدول الكبيرة عند قدومها إلى تونس سنة ١٢٨٠هـ فإذا بواخر الانقليز أنظفها نظافةً ، وكذلك البواخر البريدية والتجارية ، يليهم في ذلك الفرانساويون " ^(٤).

بعد مرور أربعة أيَّام وصلت السفينةُ إلى مرسى الإسكندرية التي وصفها بيرم بأنَّها " ذات مأمن وذات مرسى صناعية فيها بواخر الحكومة المنحازة إلى جهةٍ خاصَّة ، ثمانية منها كبار ، كُلُّها خشب وفيها من البواخر التجارية الأجنبية أزيد من عشرين ، وفيها بواخر حربيَّة أجنبية " ^(٥) ، فأقام بيرم في الإسكندرية سبعة أيَّام ، ثم غادرها إلى مدينة القاهرة بواسطة القطار، بعدما تزوَّضَ بما يحتاجه من متاعٍ أثناء سفره إلى الحجاز، باستثناء الخيام والقرب التي اشتراها من القاهرة لكونها أرخص ثمناً . وصلَ محمد بيرم الخامس إلى مدينة القاهرة بعد أربع ساعات ونصف الساعة من خروجه من مدينة الإسكندرية ، فأقام في القاهرة عدَّة أيام ، قبل أن يتابع رحلته إلى بلدة السويس ، وقد أفرد بيرم صفحاتٍ عدَّة للحديث عن مدينة القاهرة التي وصفها بقوله " هاته المدينة قاعدة الأقاليم المصرية منذ الفتح الإسلامي ، غير أنَّها اختلفت أسماؤها وبقاعها على حساب اختلاف الدول والأعصار ، وإنَّ كان مركزُ جميعها واحداً ، فبعضها محاذٍ لبعض " ^(٦).

(١) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه بيرم الخامس في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٨.

(٢) الزملي : أعلام تونسويون ، ص ٩٢ .

(٣) هكذا وردت في المصدر .

(٤) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص ٧٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

كما تحدّثَ بيرم عن معظم معالم المدينة كقلعة محمد علي وجامعها وحديقة الأزبكية والجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع السلطان حسن بن قلاوون ، وذكر أهمّ مزاراتها كمقام الحسين عليه السلام ومشهد السيدة زينب ، كما تحدّثَ عن القصور الموجودة في هذه المدينة وعلى رأسها قصر عابدين ، كذلك أشار إلى الأسواق الكثيرة الموجودة في المدينة وطُرُقها التي ذكرَ أنَّ البعضَ منها قديمةٌ وبعضها حديثةٌ ، وهي التي افتتحها الخديوي إسماعيل وهي حديثة تمَّ إنشاؤها على نمطِ الطرق الأوروبية من ناحية الاتّساع والاستقامة ، كما تحدّثَ عن مستشفيات القاهرة وأهرامات مصر ، هذا بالإضافة إلى إشارته للقاءات التي جمعتَه بعددٍ من أعيان المدينة وعلمائها وعلى رأسهم الخديوي توفيق^(١).

غادر بيرم القاهرة إلى بلدة السويس بواسطة القطار أيضاً ، فكان وصوله إليها بعد ثماني ساعاتٍ من خروجه من القاهرة ، فنزل في أحد فنادقها ، ثم تابع بيرم رحلته إلى الديار المقدّسة بعد أن أمضى عدّة أيام في السويس في انتظار انطلاق السفينة المصرية التي قرّرَ أن يسافرَ بها إلى مدينة جدّة وفي الطريق توقفت السفينة في موضع يُقالُ له رابغ^(٢) " ولمّا بلغنا سمّتَ رابغَ أعلمَ الرئيس الحُجّاج بذلك وأحرّموا بنزع ثيابهم أعلمَ بكيفية غسلهم وأدائهم فرضَ الإحرام لأنّ حالة الضيق والوسخ فوق ما أقدرُ أنْ أعبرَ عنه " ^(٣) ، ثم تابعت السفينة رحلتها إلى مدينة جدّة ، وقبل الدخول إلى ميناء هذه المدينة صعد إلى السفينة الدليلُ الذي أرشدَ القبطانَ لدخول الميناء بشكلٍ آمنٍ لتجنب الاصطدام بالشعَبِ المُرجانيّة الموجودة بكثرة بالقرب من ميناء جدّة الذي وصفه بيرم بقوله " فإذا هو حوض وسيع أمين طبيعي وفيه عدّة بواخر أجنبية وباحرة حربية صغيرة للدولة العثمانية وعدّة سفن شراعيّة صغيرة " ^(٤).

أقامَ بيرم في مدينة جدّة ^(٥) ثلاثة أيام ، وقد أبدى إعجابه بهذه المدينة التي وصفها بقوله " وجدّة بلدة على ساحل البحر وهي مرسى الحجاز العظيمة للحُجّاج والتجارة وسائر الجهات ، وسكّانها أغلبهم من العرب والهنود ثم المغاربة حتى الإفرنج ، ولها أسواق رحبية مسقفة وتُكنس البلد وترشّ يومياً ، وتُنوّرُ بزيت النفط ، وبها جوامع حسنة وبها بعض ديار

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص . ٨٣ — ٨٨ .

(٢) رابغ : بعد الألف باء مفتوحة وآخره عين معجمة وإدِ يقطع الحُجّاج في طريقهم إلى مكة ، تقع على ساحل البحر الأحمر ، للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثالث ، ص ١١ .

(٣) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٥) جدة : بالضم والتشديد بلد على ساحل بحر اليمن ، بينها وبين مكة ثلاث أميال . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثاني ، ص ١١٤ .

جميلة المنظر لنواب الدول وبعض التجار ، وأغلب المباني الكبيرة للكراء فيها ملك الأشراف^(١) ، ثم تابع طريقه إلى مكة المكرمة على ظهر الجمل .

توجه بيرم بعد أدائه شعائر الحجّ وزيارته للمدينة المنورة إلى ينبُع^(٢) التي أقام فيها ثلاثة أيام في انتظار وصول إحدى السفن المتّجهة إلى العاصمة العثمانية استانبول ، فوجد في ميناء ينبع سفناً عدّة تنتظر الحُجّاج الراغبين بالعودة إلى بلادهم بحراً ، ممّا يدلّ على ازدهار النقل البحري ، وفي تلك الأثناء وصلت سفينةٌ نمساوية قادمة من الهند في طريقها إلى العاصمة العثمانية ، فتوقفت في جدّة ، ثم ينبُع ، فاستقلّ هذه السفينة عددٌ كبيرٌ من الحُجّاج ، وكان بيرم من بينهم " وكان في المرسى ثلاث أو أربع بواخر تنتظر ازدحام الحُجّاج ، فجاءت باخرة نمساوية قافلة من الهند ومرت على جدّة ثم ينبُع ، فاكتريت بها قاصداً الآستانة " ^(٣).

انطلقت السفينة من ميناء ينبُع ، فتوقفت في طريقها في جبل الطور، قبل أن تجتاز قناة السويس ، وقد تحدّث بيرم عن أهمية هذه القناة والدور الإيجابي الكبير الذي لعبته في تقريب المسافات ما بين الشرق الأقصى والغرب ، لكنه لم يغفل عن ذكر النتائج السلبية^(٤) التي عادت على العرب والمسلمين من فتح هذه القناة " ثم وصلنا إلى خليج السويس المؤصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، هو إحدى مآثر هذا القرن ، لأنّ السفن صارت تصل من شطوط المغرب في إفريقيا إلى شطوط الصين والهند في أيام قليلة لا تتجاوز الشهر إلى أبعدا ، بعد أن كانت يلزمها عدّة شهور لأنها كانت يلزمها الخروج من خليج طارق ، ثم تحيط بجميع قارة إفريقيا بالبحر المحيط ثم بحر الهند ، فلعمري إنها لمأثرة مفيدة للتجارة على العموم ، وإن كانت فيها مضرّات سياسية بالنسبة لكثير من المسلمين " ^(٥) ، وأشار بيرم إلى المدن التي تمّ تأسيسها على ضفاف القناة كمدينة الإسماعيلية ^(٦) " ثم وصلنا إلى مرسى الإسماعيلية التي هي بوسط الخليج ، وبقرها يُنصب جسرٌ يصل بين آسيا وإفريقيا ، ولا يُنصب إلاّ عند وجود

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص ١٣٦ .

(٢) ينبع : بالفتح والسكون والباء الموحدة المضمومة وعين مهملة ، هي عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٣) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص ١٤١ .

(٤) ساهمت قناة السويس منذ حفرها في إدخال مصر بشكل كبير في الصراعات الدولية القائمة للسيطرة على هذه المنطقة حيث سعت جميع الدول لفرض سيطرتها على هذا الممر المائي الهام الذي يربط الشرق بالغرب ، فكانت قناة السويس السبب الرئيس الذي دفع ببريطانيا لفرض سيطرتها على مصر لحماية طريقها إلى الهند . للتفصيل يرجى العودة إلى السيد حسن جلال : قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي ١٨٨٣ — ١٩٠٤ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥ م .

(٥) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٦) الإسماعيلية : تقع على الضفة الغربية لقناة السويس ، سميت بهذا الاسم نسبة إلى الخديوي إسماعيل ، وقد بنيت حول بحيرة التمساح ، لكي تكون مركزا لشركة قناة السويس العالمية للملاحة في عهد الخديوي إسماعيل .

المارين ويدفعون عليه خراجاً للحكومة المصرية " (١) ، ومدينة بور سعيد (٢) التي توقفت السفينة فيها بعض الوقت حيث ذكر بيرم أن الجنود التابعين للحكومة المصرية تشددوا في مراقبة سفينتهم ، لمنع الحجاج الغير مصريين من النزول منها ، وخاصة من المغاربة الذين كان الكثير منهم لا يملكون من المال إلا القليل ، مما قد يحمل الحكومة المصرية تكاليف إعادتهم إلى بلادهم.

تابعت السفينة رحلتها إلى العاصمة العثمانية ، وفي الطريق إليها توقفت في مدينة بيروت حيث طلب مدير السفينة من الأشخاص الذين يرغبون في التوجه إلى القسطنطينية وما حولها النزول في مدينة بيروت في انتظار قدوم سفينة أخرى تابعة للشركة المالكة للسفينة الأولى لتنتقلهم إلى العاصمة العثمانية ، بعد أن تكفل أصحاب السفينة الأولى بدفع تكاليف إقامة الأشخاص الذين نزلوا في مدينة بيروت ريثما تأتي السفينة الثانية ، فاستغل بيرم هذه الفرصة لزيارة أهم معالم هذه المدينة ، كما التقى بعدد كبير من أعيان بيروت وأدبائها وعلمائها (٣).

غادر بيرم مدينة بيروت عند وصول السفينة التي كان قد تم الاتفاق مع الشركة النمساوية على إيصالهم بواسطتها إلى العاصمة العثمانية استانبول ، وفي الطريق إليها توقفت السفينة في مدينة أزمير (٤) ، فنزل بيرم في ميناء هذه المدينة أثناء توقف السفينة ، وقد أبدى بيرم إعجابه بهذا الميناء والأماكن المحيطة به " فإذا هي ذات مرسى جميل صنعه أحد الفرنج برخصة من الدولة وفيه بواخر جمّة وتصل سكة حديد إلى رصيفه وهي ذات فرعين يمتدان إلى داخل الولاية شرقاً وغرباً " (٥) ، ثم استأنفت السفينة رحلتها باتجاه استانبول ، فمرت في موضع يُدعى جناق قلعة التي وصفها بيرم بقوله " وهي باب الخليج القسطنطيني ، والبلدة ليست بشيء يذكر سوى أنها مقام حربي ، إذ حولها وأمامها من الحصون والطوابي والاستحكامات ما يُدهش الناظر، وهي كثيرة ومتعددة على طول مضيق ذلك الخليج على فوهته إلى البحر الأبيض التي هي ضيقة جداً لا تسع أزيد من مرور أربع بواخر جسيمة " (٦) ، وبعد وصول السفينة إلى مدينة استانبول نزل محمد بيرم الخامس في هذه المدينة ، فحلّ ضيفاً على صديقه الوزير خير الدين التونسي ، ثم قام بعد عدة أيام بشراء منزل جميل على المضيق ، وبقي

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص ٣٥.

(٢) بور سعيد : تقع هذه المدينة على قناة السويس ، وسميت بورسعيد أي ميناء سعيد نسبة إلى الخديوي سعيد بن محمد علي .

(٣) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الرابع ، ص ٣٥ - ٣٦.

(٤) أزمير : مدينة تركية تقع على الشاطئ الشرقي لبحر إيجه .

(٥) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٤٠.

(٦) المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص ٤١.

مقيماً في العاصمة العثمانية إلى سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م عندما وقعت تونس فريسة للاحتلال الفرنسي^(١).

٤ - بلاد الشام في " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " :

زار محمد بيرم الخامس من المدن الشامية مدينة بيروت ، مع الإشارة إلى رغباً في زيارة مدينة دمشق ، لكن كثرة الثلوج على الطريق ما بين بيروت ودمشق ، وضيق الوقت المحدد لمتابعة الرحلة إلى القسطنطينية لم تسمح له بتحقيق تلك الرغبة^(٢).

وصل بيرم إلى مدينة بيروت على متن سفينة نمساوية قادماً من الحجاز بعد أدائه فريضة الحج ، وأمضى في هذه المدينة عدة أيام ، قبل أن يتابع رحلته إلى العاصمة العثمانية ، زار خلالها عدداً من معالم بيروت ، كما التقى ببعض أعيانها وأدبائها ، وقدم بعض المعلومات عن هذه المدينة من الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية .

أ - الجوانب السياسية :

أشار بيرم من الناحية السياسية إلى اللقاءات التي جمعت في مدينة بيروت بعدد من الشخصيات السياسية التي شغلت دوراً مهماً في الحياة السياسية للدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ونقصد بذلك الوالي المصلح مدحت باشا^(٣) " وكذلك اجتمعت بالوالي المشار إليه هناك لما لي معه من المعرفة السابقة في باريس ، ولاقيت عنده مرة النصوح رائف باشا متصرف بيروت " ^(٤) ، وأفاض بيرم في مدح مدحت باشا الذي عدّه

(١) أقام محمد بيرم الخامس في العاصمة العثمانية بين سنتي (١٢٩٦-١٢٩٨هـ / ١٨٧٩-١٨٨١م) حين سافر إلى إيطاليا للاتصال بعائلته من أجل الانتقال إلى العاصمة العثمانية وبيع جميع ممتلكاته في تونس ، وفي أثناء ذلك سافر إلى سويسرا وألمانيا النمسا ورومانيا وصربيا وبلغاريا ، ليعود بعدها إلى العاصمة العثمانية التي أقام فيها إلى سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م ، ليغادرها إلى القاهرة ويستقر فيها حتى وفاته في ١٨ كانون الأول سنة ١٨٨٩م .

(٢) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٧.

(٣) مدحت باشا (١٢٣٧-١٣٠١هـ / ١٨٢٢-١٨٨٤م) : ولد مدحت باشا في استانبول سنة ١٨٢٢م ، وتسلم عدة وظائف حكومية في عدة ولايات ، كما شغل منصب وزير العدل ومنصب الوزير الأول ، ولعب دوراً هاماً ومؤثراً في خلع السلطان عبد العزيز ، وفي وضع الدستور الذي صدر في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان للوالي مدحت باشا فضل كبير على ولاية سورية في جميع مجالات الحياة ، وكان له الفضل في بناء المدارس وشق الطرق الجديدة وتوسيع كثير من شوارع دمشق وإنشاء السوق الشهيرة باسمه وتجميل أطراف نهر بردى وتطهير مياهه من الأوساخ المسببة للأمراض ، وتشكيل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت مع فروع لها في طرابلس وصيدا ودمشق ، وباشر في مشروع ترام طرابلس يصل المدينة بالميناء ، وشهد عهده تعاون المسلمين والمسيحيين لتأسيس غرفة للتجارة ومقر للبرصة في بيروت ، وتنشيط الصناعة والزراعة ونشر الحرية الشخصية . للتفصيل حول مدحت باشا يرجى العودة إلى قدرتي قلعي : مدحت باشا ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٤٧م . طربين :

تاريخ المشرق العربي ، ص . ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٤) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٤٠.

واحداً من أفضل رجالات الدولة العثمانية وصاحب أهم الإنجازات في الولايات التي تولّى حكمها " وهذا الرجل وهو مدحت باشا هكذا دأبه في كل ولاية وليها لا بدّ أن يترك فيها مآثرة تذكر ، وإن اعتري كثيراً منها بعده الخلل ، إلا أنها لا تزال قائمة لما فيها من المصلحة المشاهدة ، وهو في الحقيقة من أفراد رجال الدولة الذين يشتمل عليهم تاريخياً نصحاً وتدبيراً وعملاً ، وعمله أكثر من قوله بحيث لا يجد القادح فيه قولاً لولا عجلة فيه كأنه حمله عليها مداومة ما يشاهده في وظائفه من التأنّيات والتسويات الذي يستعمله الرؤساء في وظائف الدولة حتى صار لهم طبيعة والوقت لديهم ليس له اعتبار ، فأداه ذلك إلى انتهازه للفرص التي يجدها لإجرائه المصالح فعلاً وجزأه ذلك لما أوقعه أخيراً فيما أداه إلى الوقوع في حتفه رحمة الله عليه رحمة واسعة " (١). وقد أشار بيرم إلى الدور الكبير الذي لعبه مدحت في إنشاء المدارس في بلاد الشام ، وخاصة في مدينة بيروت من خلال تأسيسه لجمعية المقاصد الخيرية " وقد حصل من تلك الجمعية فائدة لا تُتكر في المعارف لأهل تلك البلاد ، وهي وإن تأسست في جميع البلاد الشامية ، لكنها كانت في بيروت أشد تقدماً في المعارف حتى صارت هي أول البلاد الشامية في المعارف على العموم ، وإن كان لدمشق مزيد من التقدّم في العلوم الشرعية " (٢).

كما التقى بيرم في مدينة بيروت مع حاكمها رستم باشا الذي يتمتع بسمعة جيدة بين أهل هذه المدينة ، كما ذكر بيرم الذي وصف رستم باشا بقوله " وهذا الباشا هو شيخ مسنّ أصله طلياني خدم الدولة العلية بنصح وشاخ في خدمتها وسمعت الثناء عليه في تلك البلد وغيرها من المسلمين وغيرهم غيور على الدولة محافظاً على ناموسها ومصالحها" (٣)، وقد أورد بيرم قصة عن رستم باشا تدلّ على الصفات الحميدة التي تتمتع بها هذا الرجل ، ففي أحد جولاته التقديرية في أنحاء ولايته وصل إلى مدينة طرابلس ، فنزل عند متصرف المدينة ، وكان ذلك في أيام رمضان ، فقدّم ذلك المتصرف بعض المشروبات الباردة لرستم باشا الذي كان ما يزال على نصرانيته بحضور عدد كبير من علماء طرابلس وأعيانها، فاستغرب رستم باشا ذلك وسأل المتصرف " أليس هذا شهر رمضان ، فتبسم المتصرف وقال تملّقاً من غير أن يريد إظهار قصده لمخالفة الدين نعم هو رمضان ، ولكنّ جنابكم مسافر وأنا أيضاً مثلكم وها أنا ابتدئ بذلك وأخذ الكأس وشرب ، فاشتد حنق الباشا عليه وخاطبه بشدة بما معناه إنك أن كنت لم تراع ديانتك ، فأنا يجب علي أن أراعي دولتي ووظيفتي لأنني متوظّف ووزير لخليفة

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦.

المسلمين ، وهذا المقام إنما جاءني منه ، وهاته البلاد مسلمين وهؤلاء الجمع مسلمون جاؤني لأجل وظيفتي ، فهبني نصرانياً فإنّي أدبُ على الشعائر الإسلامية فأخرج من هنا حالاً حيث لم تراخِ سلطانك وإمامك الذي هو خليفة المسلمين ولا أهل البلاد التي أنت عليها ولا أنا الذي تعدّني ضيفاً فخرج المتصرف من المجلس وشكر الحاضرون كلهم عمل ذلك الباشا ، فقال لهم ما فعلت هذا لأشكرَ وإنّما هي واجباتي أدّيتها ، ولعمري إنّ مثل هذا الرجل يحقُّ أن يُستخدَمَ ويا ليت موظفي الدولة كلّهم على نمطه " (١).

ب - الجوانب الاقتصادية والاجتماعية :

لم يذكرْ بيرم أي تفاصيل عن الجوانب الاقتصادية خلال حديثه عن مدينة بيروت . أما فيما يتعلّق بالجوانب الاجتماعية ، فأشاد بيرم بحُسن الضيافة والاستقبال الذي حظيَ به أثناء إقامته في بيروت " ولقد شاهدتُ من هؤلاء الجمع إكراماً يُوجبُ عليّ الثناء عليهم جازاهم الله عنّي كلّ خير " (٢) ، كما أشار بيرم إلى العلاقة الجيدة بين المسلمين والمسيحيين في مدينة بيروت " إنّ أهالي بيروت وإن كانوا قسمين مسلمين ونصارى ، لكنهم جميعاً في غاية الألفة بعضهم مع بعض وعوائدهم جميعاً واحدة حتى في محاسن أخلاقهم " (٣).

ج - الجوانب الثقافية :

أظهر بيرم اهتماماً ملحوظاً بالنشاط العلمي والفكري في مدينة بيروت ، فتحدّثَ عن المدارس القائمة في مدينة بيروت وغيرها من المدن الشّامية ، وخاصةً المدارس التي أسّستها البعثات التبشيرية الأمريكية البروتستانتية والفرنسية الكاثوليكية في لبنان (٤) ، والدور الكبير الذي لعبته تلك المدارس في نشر العلم والمعرفة مشيراً إلى الإقبال الكبير للدراسة في هذه المدارس ، وخاصةً من قبل المسيحيين في مدينة بيروت ، ممّا جعلهم مؤهلين أكثر من غيرهم

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠.

(٤) يرجع نشاط البعثات التبشيرية في بلاد الشام إلى مطلع القرن السابع عشر ، ولكن مجالها كان محدوداً يقتصر على إنشاء عدد قليل من المدارس والمعاهد في أماكن متفرقة ونشر كتب العبادات وكانت هذه البعثات كلها كاثوليكية ، ومعظمها فرنسية ، إلّا أنّ نشاط هذه البعثات ازداد بشكل كبير في القرن التاسع عشر حيث ساهمت البعثات التبشيرية في تأسيس عدد كبير من المدارس في مدينة بيروت سنة ١٨٣٩م ، وغزير سنة ١٨٤٣م ، وزحلة سنة ١٨٤٤م ، ثم وسعوا نشاطهم إلى المناطق المجاورة مثل دمشق سنة ١٨٧٢م ، وحلب سنة ١٨٧٣م ، ومن بين المدارس التي تمّ إنشاؤها في تلك الفترة ، وحازت على شهرة كبيرة مدرسة غزير التي انتقلت إلى بيروت سنة ١٨٧٥م وسميت جامعة القديس يوسف ، كذلك نشطت البعثات الكاثوليكية في مجال الطباعة وأسست أول مطبعة لهم في سنة ١٨٤٧م ، كما شهدت بلاد الشام نشاط البعثات التبشيرية الأمريكية التي أسست عدّة مدارس وخاصةً في مدينة بيروت ، وساهمت في طباعة بعض الكتب باللغة العربية بمساعدة بعض الأدباء والمفكرين العرب كبطرس البستاني وناصيف اليازجي . للتفصيل يرجى العودة إلى أنطونيوس : يقظة العرب ، ص . ص ٩٧ - ١٠٩ .

لتقلّد الوظائف الحكومية " كما توجد مدارس علميّة أسّسها القسوس من البروتستانت الأمريكيين ومن الجزويت الفرنسيين ، وقد أثّرت هاته المدارس تأثيراً واسعاً في المعارف هناك ، فتقدّمت النصارى سكان بيروت في التحصيل على معارف جيدة من اللغة العربية نحواً ولغة وإنشاء ، وفي معرفة بعض اللغات الأجنبية ، وأغلب مبادئ الفنون الرياضية حتى صاروا متاهلين للتقدم ، وتقلّد الوظائف في بلادهم وغيرها " (١) ، وعلى الرّغم من الفوائد الكبيرة لهذه المدارس في نشر العلم والمعرفة ، فإنّ لها بعض الجوانب السلبية " والحق يُقال إنّ فوائدها جليّة لحسن التعليم ، وإنّ أثر بعض تأثيرات سياسية في جلب طباع سهل الطبيعة إلى حُبّ جنسية المعلمين " (٢) .

كما تحدّث بيرم عن المدارس الوطنية التي أسّسها بعض المصلحين المسلمين الذي تنبّهوا إلى خطورة إبقاء التعليم محصوراً بالمدارس المؤسّسة من قبل البعثات التبشيرية الأجنبية ، لذلك عملوا على إنشاء عدد من المدارس الأهلية بمساعدة الوالي مدحت باشا الذي كان له فضلاً كبيراً في هذا المجال ، وقد أبدى بيرم إعجابه بهذه المدارس التي ذكر أنّها لا تقلّ شأنًا عن المدارس التابعة للبعثات التبشيرية " تفتنّ في المدّة الأخيرة بعض المسلمين الغيورين لهذا المدرك ووجدوا والياً يمدّ إليهم المساعدة وهو مدحت باشا ، فعقد لهم جمعية تسمّى جمعية المقاصد الخيرية (٣) ، ومكّنها من الأوقاف التي في البلد ، وكانت استولت عليها أيدي الاغتصاب والمنافع الشخصية ، فاستعانوا بها مع ما يوزعونه على أهل البلد من كلّ ذي حميّة وعلى آباء التلامذة ، وأنشأوا بذلك مدارس على نحو النوع السابق ذكره وكنت دخلت إلى كلا القسمين ، فرأيت من تلامذتها ما يُسرُّ القلب ولعمري إنّها لمأثرة جليّة تحقّق أنّ تذكّر " (٤) ، واجتمع بيرم في مدينة بيروت بعدد من الأدباء والمفكرين كإبراهيم الأحذب (٥) الذي أشار

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣) جمعية المقاصد الخيرية : تأسست هذه الجمعية في سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م في بيروت وكان لها فروع في طرابلس وصيدا ودمشق ، وكان من أهم أهدافها تأسيس المدارس الحديثة وتنقيف العرب لإبعادهم عن المدارس الأجنبية والتبشيرية. وأول من تولى رئاستها عبد القادر القباني . للتفصيل يرجى العودة إلى طربين : تاريخ المشرق العربي ، ص ٣٥٨ .

(٤) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٩ .

(٥) إبراهيم الأحذب (١٢٤٠ - ١٣٠٨هـ / ١٨٢٤ - ١٨٩١م) : هو إبراهيم بن علي الأحذب الطرابلسي ، شاعر وأديب لبناني، ولد في مدينة طرابلس ونشأ فيها ، ثم انتقل إلى مدينة بيروت ، لكنه ما لبث أن عاد إلى طرابلس بسبب اشتعال الأحداث الدموية في سنة ١٨٦٠م ، ثم عاد مجدداً إلى بيروت بعد انتهاء تلك الأحداث ، فعين نائباً في محكمتها الشرعية ، ثم كاتباً أولاً فيها ، كما تولى تحرير جريدة ثمرات الفنون ، ثم انتخب عضواً في مجلس المعارف في بيروت ، ومن أشهر مؤلفاته كشف الأرب عن سر الأدب ، مقامات في الأخلاق ، وله نحو عشرين رواية ، وثلاثة دواوين شعرية ، توفي في مدينة بيروت سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م . الزركلي : الأعلام ، الجزء الأول ، ص ٥٥ .

بيرم إلى أن له ديوان من الشعر ، وحسن بينهم ^(١) ، وفخري بك رئيس الجمعية الخيرية ^(٢) ، عبد القادر القباني ^(٣) صاحب جريدة ثمرات الفنون إحدى أشهر الجرائد العربية التي تصدر من مدينة بيروت " وعبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون إحدى الجرائد العربية المتكاثرة في هاته البلد لما في أهلها من التقدم الذي أشرنا إليه مع بعدها عن مراكز السياسة " ^(٤).

كما التقى بيرم بسليم البستاني ^(٥) صاحب جريدتي الجنة والجنان ، وأشار بيرم إلى أن البستاني من الشخصيات المرموقة في مدينة بيروت وهو مسيحي ، إبراهيم اليازجي ^(٦) ابن ناصيف اليازجي ^(٧) صاحب المقامات الشعرية الشهيرة ، وسليم ثابت ^(٨) وحسن الجابي ^(٩) وهو من مدينة دمشق ، والتقاء بيرم في بيروت لكونه قدّم إلى هذه المدينة مع الوالي مدحت باشا ، وقد ذكر بيرم أن حسن الجابي كان من أشهر كتّاب الولاية لكونه يجيد اللغتين العربية والتركية ، فاختره الوالي مدحت باشا ليكون مستشاراً له " لنصحه ونجابه " ^(١٠).

(١) حسن بينهم (١٢٤٩ - ١٢٩٨ هـ / ١٨٣٣ - ١٨٨١ م) : هو حسين بن عمر بن حسين العيتاني من وجوه بيروت التي شهدت ميلاده ، له عدة دواوين شعرية . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٠ .
(٢) لم أعر على ترجمة له .

(٣) عبد القادر القباني (١٢٦٤ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٤٨ - ١٩٣٥ م) : هو عبد القادر بن مصطفى بن عبد الغني القباني ، من أعيان بيروت ، ولد في هذه المدينة بيروت وتوفي فيها ، أصدر جريدة ثمرات الفنون وهي جريدة أسبوعية استمرت في الصدور لمدة ٣٣ عاماً من (١٨٧٥ - ١٩٠٨ م) ، وهو أحد مؤسسي جمعية المقاصد الخيرية ، كما تولى رئاسة المجلس البلدي في مدينة بيروت وعين مديراً للمعارف ومديراً للأوقاف الإسلامية في هذه المدينة . الزركلي : الأعلام ، الجزء الرابع ، ص ٤٦ .
(٤) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٤٠ .

(٥) سليم البستاني (١٢٦٥ - ١٣٠١ هـ / ١٨٤٨ - ١٨٨٤ م) : هو سليم بن بطرس البستاني ، عمل كترجمان في دار الاعتماد الأمريكية في بيروت ، وساعد أبيه في إنشاء جريدة الجنان ، كما كتب عدة بحوث ونشرها في دائرة المعارف التي أسسها والده . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثالث ، ص ١١٦ .

(٦) إبراهيم اليازجي (١٢٦٣ - ١٣٢٤ هـ / ١٨٤٧ - ١٩٠٦ م) : إبراهيم بن ناصيف اليازجي تعود أصول أسرته إلى حمص ، ولد ونشأ في مدينة بيروت ، تتلمذ على يد والده ناصيف ، وتولى تحرير جريدة النجاح سنة ١٨٧٢ م ، عمل لدى المرسلين اليسوعيين مترجماً ، وسافر إلى مصر ، واستقر بها ، فأصدر مجلتي البيان والضياء ، توفي في القاهرة . الزركلي : الأعلام ، الجزء الأول ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٧) ناصيف اليازجي (١٢١٤ - ١٢٨٨ هـ / ١٨٠٠ - ١٨٧١ م) : ناصيف بن عبد الله بن جنبلاط بن سعد اليازجي هو أديب لبناني ولد عام ١٨٠٠ في قرية كفرشما في لبنان ، لعب دوراً كبيراً في إعادة استخدام اللغة الفصحى بين العرب في القرن التاسع عشر ، وعمل كاتباً لدى الأسرة الشهابية وشارك في أول ترجمة للإنجيل إلى العربية في العصر الحديث. درّس في بيروت ، له عدة مؤلفات منها : قطب الصناعة في أصول المنطق والتذكرة في أصول المنطق ، فاكهة الندماء في مراسلات الأدياء ، رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي، توفي في سنة ١٨٧١ م . الزركلي : الأعلام ، الجزء السابع ، ص ٣٥٠ .

(٨) لم أعر على ترجمة له .

(٩) لم أعر على ترجمة له .

(١٠) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٤٠ .

حَصَلَ محمد بيرم الخامس أثناء زيارته لمدينة بيروت على إجازة في الطريقة القادرية من السيد سلمان القادري " وأجلّ ما حصلت عليه في هاته البلاد أخذي للإجازة في الطريقة القادرية من مولاي وسيدي السيد سلمان القادري ومثله أبقاه الله من يجيز ويحفظ شريعة جدّه الأعلى عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، فإنه عندما أجازني قال لي ما معناه في أمر الأذكار وآداب الطريقة ليست هي إلاّ الشريعة فقّف على ما ورد به الشرع واعمل به ، فهكذا يكون المرشدون وما أجازني بذلك إلاّ بعد مزيد من الإلحاح تواضعاً منه أبقاه الله " (١).

د - الجوانب العمرانية :

بدأ بيرم حديثه عن مدينة بيروت من مينائها الذي عدّه أعظم الموانئ التابعة لولاية دمشق ، لكنّ ما عابه على هذا الميناء بُعد المكان الذي ترسو به السفن عن الشاطئ " فنزلتُ هناك وكان المرسى صعباً جداً لبُعد إرساء الباخرة عن الشطّ وركوبنا في زوارق مع هيجان البحر وبعد أن خلصنا رحلنا من الكمرك الذي لم نرَ من أهله إلاّ خيراً " (٢) ، وتحدّث بيرم عن الموقع المتميّز الذي تشغله مدينة بيروت التي وصفها بأنّها " بلدٌ جميلةٌ الموضع مطلة على البحر وحولها كثيب رمل وجبل لبنان " (٣) ، كما أبدى إعجابه بالأبنية الموجودة في هذه المدينة ، وقارنها بنظيراتها الموجودة في تونس " ديارها محسنة الحيطان من خارج والبناء طينه مخلط بالجير فهو حسن المنظر ويقرب شكل الديار من ديار تونس ، غير أنّهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجاً مكشوفة في البطحات الخاصة بالديار " (٤) ، وأشار بيرم إلى التطور الكبير الذي حصل لهذه المدينة التي بُنيَ حولها الكثير من الأبنية الجميلة ، ومنها قصر جميل تعود ملكيته لأحد المسيحيين الذي عمل سابقاً في خدمة خديوي مصر " البلد الأصلية صغيرة وكثرت حولها البناء المُتقن على أشكالٍ شتّى منها قصر بديع صالح للملوك ، وحوله بستان مؤنق غاية التأنيق فيه من المرمر في البناء والرخام وأنواع المفروشات البديعة والأشجار وتقاسيم المماشى ، وهو لأحد أهالي النصارى ذوي الثروة الكبيرة التي حصلت له من بعض خدمات له عند خديوي مصر السابق ، ثم استحصل على أن يكون قنصلاً لروسيا في بلده " (٥).

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ .

كما تحدّث بيرم عن الطرق الموجودة في هذه المدينة مشيراً إلى الجوانب الإيجابية والسلبية لهذه الطرق " وحسن أكثر طرقها غير أنّ بجانب الطريق مجاري للمياه على عمق شبر مكشوفة ربما أضرت بالمارّين " (١) ، كذلك تحدّث بيرم عن الطريق المخصّص لسير العربات التي تجرّها الخيول والذي يصل ما بين بيروت ودمشق " وجُعِلَ في البلد طريقٌ للعجلات ، وهذا الطريق واصل إلى دمشق الشام جعلته جمعية إفرنجية منتظم السير في أوقات معلومة وكراء معين ، وتُغيّر الخيل في مراكز معينة ليلاً ونهاراً " (٢) ، وتحدّث بيرم عن الجوامع الموجودة في مدينة بيروت مشيراً إلى أنّ جامع النبي يحيى هو أعظم جوامع هذه المدينة " وهو جامع واسع نظيف ، وكذلك بقية جوامعها نظيفة " (٣) ، كما أبدى إعجابه بحمّامات المدينة وأسواقها " وحمّاماتها جميلة نظيفة جداً متقنة التحسين بأنواع المرمم وفوّارات المياه ، وبها أسواق جميلة " (٤) .

ثالثاً - محمد السنوسي (١٢٦٧ - ١٣١٨ هـ / ١٨٥٠ - ١٩٠٠ م) " الرحلة الحجازية " :

يُعدُّ محمد السنوسي من أنجب خريجي جامع الزيتونة ، وهو أحد أبرز العناصر التونسية التي عملت في حكومة خير الدين التونسي التي سعت إلى إقامة سلسلة من الأعمال الإصلاحية بهدف إنقاذ تونس من أزمتها المالية ، وإبعاد النفوذ الأجنبي عنها ، كما كان السنوسي من بين المفكرين العرب الأوائل الذي دَعَا إلى دراسة العلوم الحديثة ، والأخذ بأسباب التقدم من أجل استعادة الأمة العربية والإسلامية مكانتها وعزتها .

١- المولد والنشأة :

وُلِدَ محمد بن عثمان بن محمد بن عثمان بن أحمد بن مهنية السنوسي في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨ أيلول سنة ١٨٥٠ م (٥) ، ونشأ في كنف أسرة مشهورة بـماضيها العلمي ، وتلقّى علومه في جامع الزيتونة على يد عدد من الشيوخ المعروفين كأحمد بن خوجة ، وصالح بن فرحات ، ومحمد الشاهد ، لكنّ الشيخين اللذين لعبا دوراً كبيراً في حياة محمد السنوسي وتفكيره كانا محمود قابادو والشيخ سالم بوحاجب اللذين يعود الفضل

(١) بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار ، الجزء الخامس ، ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٥) محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ، تحقيق علي الشنوفي ، ٣ أجزاء ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٨ م ، الجزء الثالث ، ص ١١ .

إليهما في تعرّقه على آل بيرم وأشهر رجال الإصلاح من الضباط ورجال الإدارة ، وخاصة خير الدين التونسي^(١).

شغل محمد السنوسي عدّة مناصب في تونس ، قبل خضوع تونس للحماية الفرنسية سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م ، فقد اختاره صديقه محمد بيرم الخامس كاتباً أول في جمعية الأوقاف سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، حيث بذل جهداً كبيراً لمساعدة صديقه بيرم في تنظيم أمور جمعية الأوقاف ، كما أُسندت إليه مهمة التدريس في إحدى الزوايا الوقفية وهي سيدي الهياص ، كما عُيّن بمساعدة من صديقه محمد بيرم الخامس مُحَرِّراً في جريدة الرائد التونسية حيث قام بتحرير العديد من المقالات في جريدة الرائد^(٢) .

بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، تمّ إبعاد محمد السنوسي عن تحرير جريدة الرائد سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م ، في الوقت الذي احتفظ فيه بوظيفته في جمعية الأوقاف ، ولذلك قرّر مغادرة البلاد ، وتدرّع برغبته في السفر للحجّ ، ونجح في الحصول على إذن بذلك ، فغادر تونس في جمادى الثانية سنة ١٢٩٩هـ / أيار ١٨٨٢م ، متّجهاً إلى مدينة نابولي الإيطالية حيث التقى فيها بعض الرفاق ، وزار برفقتهم بعض المدن الإيطالية ، ثم اتّجه إلى العاصمة العثمانية استانبول وزار فيها خير الدين التونسي ، كما اتّصل بالشيخ محمد ظافر شيخ الطريقة المدينية والمقرب من السلطان عبد الحميد الثاني الذي عرض على السنوسي البقاء في استانبول والقيام بإصدار جريدة عربية تخدم سياسة السلطان عبد الحميد ، لكنّ السنوسي اعتذر عن ذلك ، وتابع طريقه إلى الحجاز بحراً ، فوصل إلى مدينة جدّة في أيلول من السنة نفسها ، وأدّى فريضة الحجّ^(٣).

انضم السنوسي إلى قافلة الحجّ الشّامي في طريق العودة ، وعند وصول قافلة الحجّ إلى منطقة تُدعى وادي الزرقاء علّم السنوسي أثناء مطالعته بعض الصحف بوفاة باي تونس محمد الصادق ، وتولّى أخيه علي باي أمرَ الحُكم ، فقرّر العودة إلى تونس بعد قضائه عدّة أيام في دمشق زار خلالها الأمير عبد القادر الجزائري وبعض المعالم المعروفة في مدينة دمشق كالجامع الأموي ، ومن دمشق انتقل السنوسي إلى مدينة بيروت التي اجتمع فيها ببعض الشخصيات الأدبية والسياسية ، وقد كان راغباً في زيارة القدس ، لكنّ نصيحة البعض له بالتخلّي عن هذه الفكرة خوفاً من اللصوص وقطاع الطُّرُق ، لأنّ الطريق إلى القدس لم يكن

(١) عبد السلام : المؤرّخون التونسيون ، ص ٤٦٩.

(٢) محمد بن عثمان السنوسي : مسامرات الظريف بحسن التعريف ، تحقيق وتعليق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، (د.ت) ، ص ٣٠.

(٣) عبد السلام : المؤرّخون التونسيون ، ص ٤٧٠ — ٤٧١.

آمناً ، جعلته يَعدُلُ عن تنفيذ مُخطّطه ، فقرّرَ العودة إلى تونس بحراً والتي وصلها في ٢٨ ربيع الأول ١٣٠٠هـ الموافق ٥ شباط سنة ١٨٨٣م^(١). وبعد عودته إلى تونس استأنف محمد السنوسي نشاطه في جمعية الأوقاف حيث انخرط من جديد في أوساط المثقفين من سكان العاصمة تونس الذين قُيِّدَت حركتهم بعد وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية^(٢).

كان محمد السنوسي يهتم كثيراً بمطالعة الصحف القليلة التي كانت تصل إلى تونس ، وخاصةً مجلة العروة الوثقى التي كان يُصدِرُها في باريس جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ / ١٨٣٨-١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٢٦٥-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م) وكانت هناك اتصالات بين السنوسي ومحمد عبده ، وكان السنوسي من مؤسسي الفرع التونسي للجمعية السرية الإسلامية التي كانت تُسمّى جمعية العروة الوثقى^(٣) ، وفي شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٢هـ / آذار سنة ١٨٨٥م اجتاحت تونس حركة احتجاجات كثيفة ، كان سببها الإجراءات التي اتخذتها السلطات الفرنسية التي سعت لتغيير أنماط الحياة في العاصمة حيث عمدت إلى فرض ضرائب جديدة ، واستمرت هذه الحركة شهراً كاملاً ، تعددت خلالها الاجتماعات التي عُقدت في جامع الزيتونة وفي غيره من الأماكن ، وانتظمت المظاهرات أمام قصر الباي ، إلا أنّ السلطات الفرنسية استطاعت السيطرة على هذه الحركة وقامت باتخاذ عدّة إجراءات قمعية ، كان من بينها إبعاد محمد السنوسي عن وظيفته لمشاركته في تلك الأحداث حيث تمّ نفيه إلى مدينة قابس ، لكن إقامته في تلك المدينة لم تطل ، فعاد مُجدداً إلى تونس بعد صدور قرار العفو عنه من الباي ، وقد دوّن محمد السنوسي أحداث تلك المرحلة في كتابه " خلاصة النازلة التونسية " ^(٤).

بعد عودته إلى تونس من منفاه في قابس شغل السنوسي عدّة مناصب كان من بينها تعيينه كاتباً للمجلس العقاري المختلط^(٥)، كما شارك في تأسيس جريدة الحاضرة^(١) بعد أخذ الموافقة

(١) عبد السلام : المؤرخون التونسيون ، ص ٤٧١.

(٢) محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، الجزء الثالث ، ص ٧٦.

(٣) تأسست جمعية العروة الوثقى في مدينة باريس سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م على يد الشيخ جمال الدين الأفغاني ، وانتشرت أفكار هذه الجمعية في مناطق من البلاد العربية ومنها تونس ، ففي سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م قام الشيخ محمد عبده بأول زيارة إلى تونس ، وألقى عدّة محاضرات بجامع الزيتونة ، وأجرى بعض الاتصالات مع الأوساط الثقافية والإصلاحية التونسية ، فانتشرت أفكاره بين شيوخ جامع الزيتونة وطلبتها المنفتحين لمختلف التأثيرات الواردة من المشرق العربي الإسلامي ، كما نالت تلك الأفكار استحسان تلامذة المدرسة الصادقية ، لكن تلك المبادئ الإصلاحية التي عبر عنها جمال الدين الأفغاني وتبناها أتباع جمعية العروة الوثقى بتونس لم ترقُ لسلطات الحماية الفرنسية بتونس ، فانتهزت فرصة مظاهرة المرسى ومطالبة المتظاهرين بإعادة تنظيم المجلس البلدي بالعاصمة لوضع حد لنشاط الجمعية المذكورة بتونس ، وإخماد صوت المصلحين التونسيين . أحمد قصاب : تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١-١٩٦٥م) ، تعريب حمادي الساحلي ، الطبعة الأولى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٨٦م ، ص ٣٦٢.

(٤) عبد السلام : المؤرخون التونسيون ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣.

(٥) السنوسي : مسامرات الظريف ، ص ٣٤.

من السلطات الفرنسية ، وهكذا ظهرت في تونس جريدة أخرى إلى جانب الرائد ، وفي سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م سافر السنوسي إلى فرنسا لزيارة المعرض الدولي ^(٢)، ووصف تلك الرحلة في كتابه " الاستطلاعات الباريسية " حيث أظهر إعجابه بالحضارة الغربية وقارن بين حال الغرب من تقدم وغنى وحالة العرب والمسلمين من تخلف وفقر ، وأرجع ذلك إلى ما شاهده في فرنسا من اهتمام كبير بالعلم والثقافة ، وبعد عودته من فرنسا تعرض لمرض عضال أدى إلى وفاته في ١٤ رجب سنة ١٣١٨/ ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩٠٠م ^(٣).

٢ — مؤلفاته :

وضع محمد السنوسي العديد من المؤلفات التي شملت ميادين عدة كالأدب والتاريخ والدين والقانون ، وبلغت مؤلفاته بالإضافة إلى الرحلة الحجازية التي هي موضوع دراستنا حوالي العشرين كتاباً ^(٤) وهي :

— **مجمع الدواوين التونسية** : جمع فيه تراجم أكثر من ثمانين شاعراً من الشعراء التونسيين المعروفين في ذلك العهد ، وانتهى من تأليفه سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ، فكان يبدأ بعرض ترجمة بسيطة عن حياة كل شاعر يُقدّم فيها معلومات تتعلق بميلاد الشاعر ، وأهم الأحداث التي عاشها في حياته ، ثم يورد عدداً من المقاطع الشعرية المختارة المترجم له .

— **مسامرات الظريف بحسن التعريف** : يُعدّ هذا الكتاب من أهم كتب السنوسي، ويقع في ثلاثة أجزاء ، وتطرق فيه لتاريخ فقهاء الدولة الحسينية وقضاتها .

— **خلاصة النازلة التونسية** : تعرض فيه إلى الأحداث التي ألمّت بتونس في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٢هـ/ آذار سنة ١٨٨٥م ، وكانت عبارة عن حركات احتجاجية ظهرت في

(١) جريدة الحاضرة : هي أول جريدة غير رسمية تصدر في تونس بعد الاحتلال الفرنسي حيث صدرت سنة ١٨٨٨م ، واستمرت بالصدور حتى عام ١٩١١م ، وهي جريدة أسبوعية أدبية ، وكان من أشهر مؤسسيها ومحرريها الشيخ سالم بوحاجب وعلي بوشوشة ومحمد السنوسي ، وكان أسلوبها يشبه أسلوب جريدة الرائد التونسي قبل انتصاب الحماية الفرنسية ، فافتتاحيات الشيخ محمد السنوسي كانت تكتسب طابعاً أخلاقياً واضحاً ، وقد انتشرت هذه الجريدة انتشاراً واسعاً بين الأوساط التونسية بشكل كبير ، وذلك بفضل رعاية الشيخ سالم بوحاجب ، كما أن إدارة الحماية الفرنسية لم تناهضها نظراً لما كانت تتميز به من لهجة معتدلة .

قصاب : تاريخ تونس المعاصر ، ص ٣٢٧.

(٢) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص ١٢.

(٣) محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، الجزء الثالث ، ص ٧٨.

(٤) للتفصيل حول مؤلفات محمد السنوسي يرجى العودة إلى السنوسي : مسامرات الظريف ، ص ٥٥ — ٦٩ . عبد السلام : المؤرخون التونسيون ، ص ٤٧٥ — ٥١١.

العاصمة تونس عَقَبَ الإعلان عن فَرَضِ ضرائبَ جديدةٍ ، غير أنَّ السلطاتَ الفرنسيةَ عمدت إلى قمع تلك الحركة ، وفرضتْ بعض الإجراءات العقابية بحق المتورّطين في تلك الأحداث .

— الاستطلاعية الباريسية : وَصَفَ فيه ما شاهده في العاصمة الفرنسية باريس أثناء زيارته لفرنسا لزيارة المعرض الدولي الذي أقيم بها في سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م ، وتكمن أهميّة هذا الكتاب في المقارنة بين الأوضاع الراهنة في كلٍّ من أوروبا والعالم الإسلامي .

— تفتُّق الأكمام : وهي رسالة تتحدّث عن المرأة يوضح فيه ما للمرأة المسلمة من حقوق وواجبات .

— الروض الزاهر في إسناد الحبس للإسلام الزاهر : ويقصد بالحبس الأوقاف ، وتحدّث في هذا الكتاب عن دور الأوقاف في تونس مبرزاً دورها في مكافحة الفقر ونشر الثقافة .

ومن المؤلفات الأخرى لمحمد السنوسي : تحفة الأخبار بمولد المختار ، الجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادة الأشراف وهي قصيدة في المدح تشتمل على مئتين وواحد وخمسين بيتاً نظّمها في سلسلة الأشراف بتونس، النبذة التاريخية في منشأ وزارة مصطفى بن إسماعيل ، المورد العين الذي قام بتأليفه سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م ، رسالة المجبي ، نشر البساط في نازلة الفسطاط ، نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد ، تحفة الأخيار بمولد المختار صلى الله عليه وسلم الذي وضعه في سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م ، مطلع الداري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري .

٣ — الطريق الجغرافي الذي سلكه محمد السنوسي^(١):

بدأ محمد السنوسي رحلته من مدينة تونس التي خرج منها في ٨ رجب سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، متّجهاً إلى إيطاليا حيث زار فيها مدن عدّة ، وكانت مدينة نابولي^(٢) أولى تلك المدن التي وصل إليها في يوم السبت ١٠ رجب ١٢٩٩هـ / ٢٧ أيار ١٨٨٢م ، فوصف ميناء نابولي بقوله " ذات ميناء أمينة تحيط بها جزر نابلي وجبل فيسوفيو، وهي في غاية الإحكام والسلامة ، من أعظم مراسي إيطاليا تختلف إليها السفن في كل آن " ^(٣) ، وعند نزولهم في ميناء المدينة تلقاهم مندوبو الفنادق ، فاختر السنوسي فندق " دي جنيف " للنزول به ، وقد تحدّث السنوسي كثيراً عن جمال مدينة نابولي والنظافة التي تتمتع بها ، ومن جملة

(١) للإطلاع على مسار الطريق الجغرافي الذي سلكه محمد السنوسي في رحلته إلى المشرق يرجى العودة إلى الملاحق ص ٢٨٩ .

(٢) نابولي : مدينة إيطالية تقع جنوب إيطاليا على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

(٣) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الأول ، ص ٧٩ .

ما قاله في وصف هذه المدينة " أبنيتها مختلفة الألوان ، جميلة الإتقان ، مرتفعة بما بعضه سبع طبقات وثمان ، واسعة الطرق مبلطة جميعها بالرخام من نوع البلاط الغليظ المربع يمنع زلق الحافر تتخللها سكة الحديد لمرور التراموي " (١).

كما أبدى السنوسي إعجابه بالتراموي ذو الخط الحديدي الذي يخترق المدينة في سككها الرئيسة من الصباح إلى العاشرة ليلاً متردداً في أوقاتٍ محدّدة (٢) ، وتحدّث السنوسي عن بعض معالم المدينة ، كسوق تولدو أكبر أسواق نابولي ، والمنتزه العام الجميل المطل على البحر المجاور لميدان سباق الخيل ، والمتحف القومي الإيطالي الرائع ، والمسرح الذي حضر فيه بعض الحفلات ، وأشار إلى انتشار صناعة المرجان بكثرة في هذه المدينة .

غادر السنوسي مدينة نابولي متّجهاً إلى مدينة روما (٣) بواسطة القطار، فكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء ٢٠ شعبان ١٢٩٩هـ / ٤ تموز ١٨٨٢م ، وقد أفاض السنوسي في مدح هذه المدينة ، وخاصةً من ناحية جمالها ونظافتها واتساعها ، ومن جملة ما قاله فيها " وهي مدينة متمدّنة أهلها في غاية الحضرية وحُسنِ المعاملة وأمّا أبنية البلد فإنّها جميلة وطرقها مُتسّعة مبلّطة في غاية النظافة " (٤) ، وزار السنوسي في روما كنيسة سان بطرس التي يوجد فيها مقر البابا حيث عدّها أعظم كنائس الدنيا .

كما زار السنوسي مدينة ليفورنو " قرنه " (٥) التي أقام فيها حوالي العشرين يوماً وأشار إلى أنّها من أشهر الموانئ الإيطالية ، وترتبط بعلاقات تجارية قوية مع غالب سواحل البحر المتوسط ، ومن جملة ما قاله في وصف هذه المدينة " فإذا هي بلدٌ ذاتُ ميناءٍ أمينة مُحكّمة الوضع تتوارد عليها الفواوير في كلّ آنٍ ، وفيها مراكز شركات كثيرة وأكثرها شركة : روباتينو الطليانية وشركة المساجري الفرنسية ، وبها بوسطةٌ منظّمة ومركزٌ للتلغراف والتيلفون وسكة الحديد بحيث أنّ جميع المواصلات فيها متيسّرة ، ولمرساها خليجٌ مُحكّم البناء على طول البلد تجري فيه الزوارق إلى سائر جهاتها ولها طرقٌ مُتسّعةٌ جميعها مبلّط وأسواقها مُنظّمةٌ حازت أعلى رتبةً في النظافة " (٦). وأشار السنوسي إلى وجود عدد كبير من اليهود في مدينة ليفورنو حيث يُشكّلون عشر سكان هذه المدينة ، ويلعبون دوراً مؤثراً في

(١) السنوسي : الرّحلة الحجازية ، الجزء الأول ، ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦.

(٣) روما : عاصمة إيطاليا وأكبر مدنها ، تقع في وسط إيطاليا ، كانت في العصور القديمة عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، وأصبحت عاصمة للجمهورية الإيطالية الحديثة في سنة ١٨٧١م.

(٤) السنوسي : الرّحلة الحجازية ، الجزء الأول ، ص ١٨٣.

(٥) ليفورنو : مدينة إيطالية ، تقع على ساحل البحر ، وهي عاصمة إقليم توسكانا .

(٦) السنوسي : الرّحلة الحجازية ، الجزء الأول ، ص . ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

النشاط التجاري والعلمي لمدينة ليفورنو " ولليهود هنالك مكتبة ومدارس كثيرة ويقال إنَّ بها أعظم مدارس لهم بأوروبا " (١).

ومن المدن الإيطالية الأخرى التي زارها السنوسي مدينة بيزا (٢) التي تحدّث عن أبرز معالمها كالكنيسة الكبيرة والمقبرة البرج المائل الذي اشتهرت به ، إضافةً إلى المكان الذي يُوضع فيه المواليد المجهولو النسب الذي يمكن أن نطلقَ عليه ملجأ الأيتام ، كما زار في بيزا المكتب الطبي الذي يحتوي قسمَ التشريح وتطوُّر الأجنَّة . كذلك زار السنوسي قرية مونتيكيني التي وصفها بقوله " قريةٌ مُعدَّةٌ للاستجمام بمياهها المعدنية وبسُفح سلسلة من الجبال المتواصلة واسمها مركب من كلمتين مونتِي وكِتيني ومعنى الأول جبال والثاني سلسلة " (٣).

غادر محمد السنوسي إيطاليا بعد انتهاء زيارته لها متابعاً رحلته إلى الحجاز ، فركب إحدى السفن التابعة لشركة المساجري الفرنسية والمتَّجهة إلى العاصمة العثمانية القسطنطينية من ميناء نابولي في الأول من رمضان سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، وفي اليوم التالي بدأت السفينة رحلتها إلى القسطنطينية ، وقد أشار السنوسي إلى ضخامة وقوَّة السفينة التي سافر بها إلى العاصمة العثمانية " واكتريت مع شركة المساجري ، فكان الركوب في أضخم البوابير البحرية التي اختصت بتلك الشركة لسفرها في البحور الكبرى ، وسافرنا في باكرة ثاني رمضان وكان الجوُّ في غاية الصفر ، فكانت أيام السفر كلها رائقة " (٤).

لم يذكر السنوسي أيَّة تفاصيل عن رحلته البحرية إلى القسطنطينية باستثناء إشارته إلى مرور السفينة ببعض المدن والجزر كمدينة مسينا وأثينا وجزيرة قبرص " وقد مررنا في طريقنا على جزيرة قبرص وهي افتتحها الإسلام ودخلت في حوزة آل عثمان إلى أن تسلَّمها الإنكليز إثر الحرب الأخيرة ، ومررنا على بلد مسيئة المشتهرة بمعامل الحرير واجتزنا بحر اليونان ووقفنا في مرسى أثينا قاعدة مملكة اليونان واجتزنا بين جزر اليونان إلى جناح قلعة وقطعنا الدردنيل " (٥).

وصل السنوسي إلى مدينة القسطنطينية في ٦ رمضان سنة ١٢٩٩هـ / الموافق ٢٢ تموز ١٨٨٢م ، وبقي فيها حتى ١٢ ذي القعدة ١٢٩٩هـ / ٢٤ أيلول ١٨٨٢م ، فكانت مدَّة إقامته

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الأول ، ص ٢٢٧.

(٢) بيزا : مدينة إيطالية ، تقع في إقليم توسكانا.

(٣) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الأول ، ص ٢٧٣.

(٤) المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٥٧.

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٨.

في العاصمة العثمانية أكثر من شهرين زار خلالها معظم معالم المدينة كجوامعها وأبرزها أياصوفيا ، ومتحف الإنكشارية ، والمسارح الموجودة فيها ، ومنتزهاتها ، وخاناتها ، وبعض القصور كقصر الصدر الأعظم وساحة آت ميدان ، وجسر كوبري الواصل بين ضفتي البوسفور ، وبعض مزاراتها وأبرزها مزار أبي أيوب الأنصاري ، وقد أفاض السنوسي في الحديث عن هذه المدينة ، فأفرد صفحات عديدة للحديث عنها.

تابع السنوسي رحلته البحرية متجهاً إلى مدينة إزمير التي وصلها في صبيحة يوم الاثنين ١٣ ذي القعدة ١٢٩٩هـ / ٢٦ أيلول ١٨٨٢م ، بعد رحلة استمرت إحدى عشرة ساعة ، ثم تابعت السفينة رحلتها إلى الحجاز بعد أن تزوّدت بما تحتاجه من مياه ومؤن ، فتوقفت في مدينة بور سعيد في صبيحة يوم الجمعة ١٧ ذي القعدة ١٢٩٩هـ / ٣٠ أيلول ١٨٨٢م ، وقد أشار السنوسي إلى أن هذه المدينة مبنية على النمط الأوربي ، خاصة في المساكن والأسواق ، وتكثر فيها الفنادق ، إضافة إلى المباني المخصصة لإقامة القناصل التابعة للدول الأجنبية ، كما ذكر أن معظم سكان بور سعيد من الأوربيين ، وأن معظمهم يعملون كملاحين " وجميع سكان هذا البلد من الإفرنج عدا سوق الخضر ، فأكثر أهلهم من المسلمين وأكثر أهل البلد ملاحون إذ ذلك أروج صناعة عندهم " (١) .

كانت مدينة الإسماعيلية المدينة الثانية من المدن المصرية التي تم تشييدها على ضفاف قناة السويس حيث كان الوصول إليها في ١٩ ذي القعدة ١٢٩٩هـ / ١٩ أيلول ١٨٨٢م ، وليس ١٩ ذي الحجة من السنة نفسها ، كما ورد في نص الرحلة (٢) ، ومن الإسماعيلية تابعت السفينة رحلتها ، فكانت مدينة السويس آخر المدن التي توقفت بها ، قبل دخولها إلى البحر الأحمر حيث أقامت السفينة في مرسى السويس ليلة واحدة وهي ليلة الثلاثاء ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ، وقد ذكر السنوسي أن هذه المدينة من أعظم موانئ البحر وهي "منتظمة البناء على النسق الجديد ، كثيرة الحقائق زاد عمرانها بسبب فتح الخليج وانتظامها ،

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ١٣٨ .

(٢) ذكر السنوسي في الصفحة ١٣٧ من الجزء الثاني أن الوصول إلى بور سعيد كان صبيحة يوم الجمعة ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ ، وفي الصفحة ١٣٨ من الجزء نفسه ذكر أنه أقام في بور سعيد يومي الجمعة والسبت ، قبل أن تتابع سفينته رحلتها " وحيث أن فابورنا أقام يومي الجمعة والسبت لوسق البضائع " لتصل سفينته إلى مدينة الإسماعيلية في ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٩هـ ، وبناء على ذلك تكون مدة إقامته في بورسعيد حوالي الشهرين ويومين ، هذا غير صحيح ، لأن السنوسي نفسه يذكر في الصفحة ١٥٧ من الجزء نفسه أن سفينته بدأت رحلتها في البحر الأحمر صباح يوم الثلاثاء ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ ، ولذلك يمكن القول إن الوصول إلى مدينة الإسماعيلية كان في ١٩ ذي القعدة ، وليس في ١٩ ذي الحجة ، لكن السنوسي أو محقق الرحلة أخطأ في تحديد الشهر بدقة .

واحتلتها قنصلُ الدولِ وفيها بوسطةٌ منتظمةٌ ومركزٌ تلغرافيٌّ يمتدُّ على عموم جهات الأرض^(١).

غادرت سفينةُ السنوسي ميناء السويس باتجاه مدينة جدّة الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، وفي اليوم الرابع تمّ الوصولُ إلى رابغ ، فقام الحُجَّاجُ بالإحرام ، ثم تابعت السفينةُ رحلتها إلى جدّة حيث كان الوصولُ في ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ/٦ تشرين الأول ١٨٨٢م ، فرست السفينة بعيداً عن الشاطئ بأكثر من ميل نظراً لكثرة الصخور والشعب المرجانية ، ممّا اضطرّ بركاب السفينة إلى ركوب سُفُنٍ شراعيةٍ صغيرة تُدعى السَّنايك ، وهي مُخصّصةٌ لنقل الركّاب والبضائع إلى شاطئ المدينة^(٢) .

قام السنوسي في مدينة جدّة بشراء الإبل التي استخدمها للانتقال براً إلى مكّة المكرمة التي كان الوصول إليها في يوم الثلاثاء ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ/١٠ تشرين الأول ١٨٨٢م، وبعد انتهاء شعائر الحجّ غادر السنوسي مكّة المكرمة إلى المدينة المنورة في يوم السبت ٢٢ ذي الحجة ١٢٩٩هـ /٣ تشرين الثاني ١٨٨٢م ، وقد ذكر لنا السنوسي المناطق والمحطات التي مر بها بدءاً من خروجه من مكّة المكرمة إلى المدينة المنورة وهي " فهد - وادي فاطمة - عسّاف - قطيفة - رابغ - مستورة - بئر بلحسن - بئر خراص - بئر قريش " ، ثم الوصول إلى المدينة المنورة حيث قام بأداء العمرة ، وبعد الانتهاء من ذلك رافق قافلة الحجّ إلى دمشق ، ثم اتّجه إلى مدينة بيروت التي أقام فيها أيام عدّة .

غادر السنوسي مدينة بيروت في يوم الأربعاء ١٤ ربيع الأول ١٣٠٠هـ/٢٢ كانون الثاني ١٨٨٣م ، مُتّجهاً إلى مالطا ، فتوقفت سفينته في يوم الخميس بموانئ عكا وحيفا ويافا، قبل وصولها إلى ميناء بور سعيد في يوم السبت ١٧ ربيع الأول / ٢٥ كانون الثاني من السنة نفسها حيث توقفت في هذا الميناء بعض الوقت ، ثم أكملت طريقها باتجاه الإسكندرية ، وكان يوجد سفينة إنكليزية في ميناء بور سعيد تستعدّ للانطلاق مباشرة إلى مالطا دون المرور بميناء الإسكندرية ، فقرر السنوسي الانتقال إلى المركب الإنكليزي على الرغم من دَفْعِهِ جميع تكاليف الرحلة إلى مالطا للمركب السابق الذي كان على متنه^(٣).

وقد تعرّضت السفينة الإنكليزية التي كان السنوسي على متنها للعواصف والزوابع البحرية ، قبل أن تصلَ إلى مالطا في صباح يوم الخميس ٢٢ ربيع الأول / ٣٠ كانون الثاني

(١) السنوسي : الرّحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠١ .

"بعد مُضيّ الليل هاجَ البحرُ وماج وتوالتِ العواصفُ واضطربتِ الأهويةُ وتغيرتِ الأنواءُ ولاقيت من البحر أشدَّ ما يذكره المسافرون في أخبارهم وتوالى ذلك علينا يومين لم ينقطع فيها الموجُ ولا المطرُ عن وسط الفابور " (١) .

أقام السنوسي في جزيرة مالطا ثلاثة أيام منتظراً قدوم إحدى السفن المتجهة إلى تونس ، ممّا أتاح له التعرفُ على هذه الجزيرة بوضوح فوصفها بقوله " جميلة المنظر ، حسنة التقسيم ومرساها من أنقى المراسي ، فينزل فيه الراكب على الرصيف المنضد ، وبما أنّ الجزيرة في ارتفاعٍ كان كثيراً من طُرُقها به أدراج مستريحة يُصعدُ بها للطُّرُق التي حولها ، وتوجد بها المخازن الكبيرة المُعدّة لأحسن المبيعات وفيها من حُسْن المواصلات التجارية ما اقتضاه موقعها البحري " (٢) . غادر السنوسي جزيرة مالطا في يوم السبت ٢٤ ربيع الأول مُتجهاً إلى مدينة تونس التي وصل إليها في يوم الاثنين ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ / ٣ شباط سنة ١٨٨٣م (٣) .

٤ - بلاد الشام في الرحلة الحجازية :

قام محمد السنوسي بعد أدائه شعائر الحجّ والعمرة بمرافقة قافلة الحجّ الشامي في طريق عودتها إلى دمشق مشيراً إلى الأسباب التي دفعته إلى ذلك قائلاً " وبما رأيت عليه انتظام الركب الشامي مع فشو المرض وخطر طريق البدو اخترت مصاحبة الركب الشامي للإياب" (٤) . تجمع الحُجّاج في مَوْضِع يُقالُ له بئر عثمان بالقرب من المدينة المنورة ، وكان وصول السنوسي إليه في عشية يوم الاثنين ١٦ محرم سنة ١٣٠٠هـ / ٢٦ تشرين الثاني ١٨٨٣م ، فوجد الخيام مُعدّةً لإستقبال الحُجّاج ، وكان أميرُ الركب الشامي يُدعى سعيد باشا الذي وصفه السنوسي بقوله " وهو رجلٌ شهّم حازم يُحسِنُ اللسان العربي بسبب كثرة إمرته على الحجّ في نحو العشرين سنة ، وهو صاحبُ الإمارة العسكرية " (٥) . أمّا أمير الصرة فكان يُدعى آصف باشا ، وشرح السنوسي مصطلح الصرة (٦) بقوله " واسم الصرة

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٦) تتوّعت المصادر المالية التي مولّت قافلة الحجّ الشامي ، وكان القسم الأكبر منها يحصل من الضرائب التي كانت تُسمّى مال الميري ، أو من الرسوم التي فرضتها الدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشام بصورة رئيسة وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب إلى حدّ ما ، وكان يتمّ تعيين أمير الحجّ من بين حكام صناعج نابلس ، وعجلون ، واللجون ، وغزة ، وصفد ، والقدس في الفترة التي سبقت تعيين ولاية الشام أمراء للحج في سنة ١٢٢٠هـ / ١٧٠٨م حيث كان الهدف من ذلك جمع أموال الميري من هذه

عبارةً عن المال الخارج من دار الخلافة لإقامة شعائر الحرمين الشريفين من شموع وزيت وقناديل ولوازم الإيقاد والفرش وجراية المستحقين من أهلها وعوائد جميع أهل الأراضي الحجازية في أثناء مرور الركب " (١).

اهتم السنوسي بوصف تفاصيل قافلة الحج الشامي التي ذكر أنها كانت تتكون من حراسة مؤلفة من ٤٠٠ عسكري و ١٠٠ جندرمة و ٥٠ طوبجية معهم مدفعان ، وبوسطجي يُدعى أحمد باشا يتولى إمرة الرسائل الواردة والصادرة ، وخوجة دار يُدعى إبراهيم أفندي ، ونائب للقضاء يدعى محمود أفندي ، وطبيب يدعى ذنب أفندي ، وكانت القافلة تضم ألفي جمل ، وقدّر السنوسي عددَ الحجاج المرافقين لقافلة الحج الشامي في تلك السنة بحوالي خمسة آلاف حاج ، وهؤلاء الحجاج مقسمون إلى عدة جماعات كل جماعة تتبّع شخصاً يُدعى المقوم ، وهو مسؤول عن تأمين حاجات جماعته من الإبل والخيام والطعام لقاء مبلغ من المال ، لكن باستطاعة الحجاج إعداد الطعام بأنفسهم ، ويتولّى المقوم إحضار الماء والحطب اللازم لإعدادهم لقاء أجرٍ مُحدّد ، كما أشار السنوسي إلى وجود عدة أشخاص مسؤولين عن تزويد الركب بالمياه ، ويدعون السقائين ، ويوجد أيضاً أشخاص مسؤولون عن قيادة الجمال أثناء المسير ويدعون العكّامين (٢).

وتحدّث السنوسي عن بعض العادات والطقوس المتبعة في ركب الحجيج خلال المسير والتوقف والإيدان بالصلاة ، فمثلاً عند بلوغ الركب نصف الطريق بين مرحلتين من المراحل المُعدّة لنزول الحجاج يتقدم المهاترية ، وهم الأشخاص المسؤولون عن إعداد الخيام على بقية الركب إلى المكان المحدّد لنزول الحجاج ، ويقومون بضرب الخيام وتجهيزها قبل وصول الحجاج . ومن الطقوس الأخرى تأخير مجموعة من الأشخاص وبحوزتهم مائة جمل عن الركب عند انطلاقه من كل مرحلة بحوالي الساعة للتأكد من عدم تخلف أحد الحجاج عن اللحاق بالركب ، وأيضاً لإحضار الأمتعة المتساقطة من الركب ، ومن العادات أيضاً إطلاق المدفع عند نزول الركب في كل مرحلة ، وعند أوقات الصلاة . أما عند انطلاق الركب في كل مرحلة يتم إطلاق المدفع مرتين الأولى من أجل استعداد الحجاج لبدأ الانطلاق والثانية من أجل الانطلاق . أمّا فيما يتعلّق بطريقة سير القافلة فقد وصف السنوسي ذلك بقوله " وسير

المناطق لتمويل قافلة الحج ، وعندما عُيّن والي دمشق أميراً للحج أصبح يخرج بنفسه كل سنة ، فبيل خروج القافلة ليدور على الصناجق التابعة لولايته ، ويجمع منها مال الميري المخصّص للقافلة . رافق : قافلة الحج الشامي ، ص ١١ .

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢١٨ .

(٢) للتفصيل حول هذه المعلومات يرجى العودة إلى السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٤ - ٢٢٨ .

الإبل يكون قطارات كالسموط المنظمة لبنها محجة للراجلين ، وفي بعض المسالك يكون الراكب كله قطاراً واحداً " (١).

قدّم السنوسي وصفاً تفصيلياً لجميع مراحل طريق الحجّ الشّامي ابتداءً من المدينة المنورة إلى أن بلغ الركب الشّامي مدينة دمشق ، فبعد تجمع الحُجّاج في بئر عثمان عشية يوم الاثنين ١٦ محرم سنة ١٣٠٠هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٨٣م ، انطلق الركب في صباح اليوم التالي ، ليتوقفوا في مواضع عدّة وهي : بئر جابر - آبار نصيف - اصطبر عنتر - الفحلّتين - هدية التي أشار إلى وجود قلعة كبيرة فيها - بزاقة " وهي أرض محجرة لا ماء فيها (٢) - البئر الجديد - الزمردة التي ذكر أنها موضع كثيرة الحجارة قليلة الماء ، ويوجد فيها قلعة كبيرة - المربع - قلعة المدائن - جبل الطاقة - ظهر الحمراء - بركة المعظم - جنائن القاضي - الأخضر - دار الغير - تبوك - قاع الصغير التي ذكر السنوسي أنها أول المراحل التي تقع في الأراضي الشّامية - ذات حج وأشار السنوسي إلى وجود قلعة فيها ، ويوجد في تلك القلعة عين ماء يجري إلى بركة تمّ إنشاؤها من قِبل السلطان سليمان ، ثم قلعة المدورة - بطن الغول - ظهر العقبة التي وصفها السنوسي بقوله " هذه عقبة عظيمة في جزيرة العرب حتى أن اسم عقبة إذا أطلق انصرف إليها لعظمتها وامتدادها وشدة ارتفاعها وصعوبة رصيفها" (٣).

بدأت رحلة السنوسي في الأراضي الشّامية عند وصول قافلة الحجّ الشّامي إلى موضع يُقال له معان حيث ذكر السنوسي أنّ معان قرية في الصحراء ، ويوجد بالقرب منها قرية أخرى تحمل نفس الاسم ، لكنّ إحداهما تابعة للأراضي الشّامية والثانية تابعة للأراضي الحجازية ، ثم غادرت قافلة الحجّ معان في صباح يوم الأربعاء ٩ صفر سنة ١٣٠٠هـ/ ١٩ كانون الأول ١٨٨٣م ، لتصل إلى محطة الاستراحة التالية في عنيزة التي عدّها السنوسي من المراحل الصعبة نظراً لوعورتها وكثرة حجارته ، ثم كان التوقف التالي في موضع يُقال له قلعة الحصا التي وصفها السنوسي بأنها " قلعة حسنة البناء في بطن وادٍ بأرض جيدة واسعة" (٤) .

كانت قلعة القطرانة هي المحطة التالية التي توقفت فيها قافلة الحجّ الشّامي ، قبل أن يتابع الحُجّاج رحلتهم مارين بمناطق عدّة كبطن الثمن والبلاطة والقلايات التي عدّها السنوسي من المراحل الصعبة نظراً لوعورتها وصعوبة مسلكها ، وممّا زاد الأمر سوءاً في تلك السنة

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣١.

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٧.

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٦.

سقوط الأمطار واشتداد الرياح ، ثم وصل الحُجَّاج إلى وادي الزرقاء وهو " أحسن المواقع سيما بعد طول السفر في يابس الصحراء " (١) ، ثم تابعت قافلة الحُجَّاج رحلتها فكان الوصول إلى قرية الرمثة في يوم الأحد ٢٧ صفر ١٣٠٠هـ/ ٦ كانون الثاني ١٨٨٣م ، ثم قلعة المزريب ، ثم كان مرور القافلة في قرية طفس ، وهي من قرى حوران ، ثم غادر الحُجَّاج قرية طفس متابعين رحلتهم إلى مدينة دمشق مارين بعدة قرى منها قريتي الخربتين ، وقرية الشمسكين ، ومن ثم عبر الحُجَّاج جسر الصنمين الذي وصفه السنوسي بأنه من أحسن الجسور، لكنه أشار إلى أن قرية الصنمين كانت مُدَمَّرَةً " والبلد كله خراب لا تظهر سلامة بنائه إلا في بعض الأديار التي هي أكثر ما بقي من البلد وتوجد بها أنواع من الطيور ومياهها كثيرة العلق الذي يتولد من الخزن المتكون من الماء " (٢) .

ومن ثم تجاوزت القافلة بعد قرية الصنمين قرية أخرى تدعى غباغب ، لتصل إلى قرية الكسوة حيث نزل السنوسي ضيفاً في منزل أحد أعيان القرية ، ويدعى السيد أبو الفضل الذي أكرمه غاية الكرم (٣). وفي يوم الأربعاء ١٠ صفر سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م دخل السنوسي إلى مدينة دمشق ، فأسر بجمالها وبياض بيوتها وكثرة منازلها ، فأنشد عدة أبيات في مدح هذه المدينة نذكر منها :

بَدَتْ تِلْكَ الْبِلَادُ لَنَا عُرُوساً وَحُسْنُ بِيَاضِهَا فَاقَ الْحَلِيَّ
وَلَا قُتْنَا بِسَاتِنِهَا بِبِشْرٍ بِهِ قَدْ لَاحَ لِي طَلْقُ الْمُحَيَّا

أقام السنوسي خمسة أيام في مدينة دمشق ، ثم غادرها متجهاً إلى مدينة بيروت " وكانت مدة إقامتي في دمشق خمسة أيام استوفيت فيها المرام ، وخرجت من غير رضى أهلها بذلك الفراق ، ورأيت من حُسْنِ مشايعتهم ما ننتظرُ به حُسْنَ التلاقي " (٤) ، فكان دخوله إلى مدينة بيروت عشية يوم الاثنين ٥ من ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ/ ١٣ كانون الثاني ١٨٨٣م ، بعد رحلة استمرت اثنتي عشرة ساعة حيث أشار إلى توفر المواصلات ما بين دمشق وبيروت قائلاً " وتواصلتُ بدمشق بكرُوسَةٍ تُسمَّى ديليجانس تسير يومياً وتصلُ في مدة اثنتي عشرة

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١٨ .

ساعة ، وكان ركوبي بها باكراً يوم الاثنين الخامس من ربيع الأول ودخلتُ مدينة بيروت عشية ذلك اليوم ^(١).

نزل السنوسي ورفيقه عبد الباقي باي في أحد الفنادق المطلّة على البحر والقريبة من ميناء يُدعى أوتيل بولس ، وقد كان رحّالتنا راغباً في التوجّه إلى مدينة القدس بعد انتهاء زيارته لمدينة بيروت ، لكنّ نصيحة بعض أصدقائه في بيروت بالعدول عن تنفيذ تلك الفكرة نظراً لسوء الأوضاع الأمنية على الطريق جعلته يغيّر رأيه ويقرّر العودة إلى تونس بحراً ، فغادر مدينة بيروت عشية يوم الأربعاء ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ / ٢٢ كانون الثاني ١٨٨٣م ، ماراً بمراسي عكا وحيفا ويافا التي حمل منها المركب الذي كان على متنه كميات من برتقالها الذي صنّفه السنوسي من أجود أنواع البرتقال الذي شاهده . وقد قدّم السنوسي في رحلته بعض التفاصيل والمعلومات عن أوضاع بلاد الشّام في نهاية القرن التاسع عشر من الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية .

أ - الجوانب السياسية :

عرض السنوسي صورة واضحة عن أوضاع بلاد الشّام في ظلّ الحُكم العثماني والذي كان من أبرز سماته ازدياد النفوذ المحليّ في بعض المناطق مُقابل تراجع سلطة الدولة المركزية ، واضطراب الأوضاع الأمنية ، وفقدان الأمن نتيجة كثرة اللصوص وقطّاع الطُّرُق فضلاً عن اعتداءات البدو ، وكثرة المظالم التي يتعرض لها السكان على أيدي الولاة العثمانيين ، فعند توقف قافلة الحجّ في قلعة الحصا التقى السنوسي بأحد الرجال المسيحيين ، وهو من سكان ناحية الكراد التي تقع على ساحل البحر ، وتبعد عن قلعة الحصا مسيرة نصف يوم حيث أخبر هذا الرجل السنوسي أنّ منطقة الكراد تُحكّم من قِبَل أحد الأعيان ، ويُدعى محمد مجلي " وذكر لي أنّ بلدهم مستقلّ وحاكمهم شيخ من بيت أُصيل في الحكم واسمه محمد مجلي مستبد بالسياسة والقضاء والفتوى مع العدل وحسن التصرف ، والبلد به نحو الخمسة عشر ألف نفس الثلثان منهم مسلمون وباقيهم نصارى جميعهم تحت طاعة الأمير وحكمه ^(٢) ، فأبدى السنوسي استغرابه من هذا الكلام ، لكنّ الرجل واجهه بالحجج المقنعة " ترى هاته البراري الواسعة والأراضي الطيبة التي مررت عليها كيف تركتها الدولة العلية لحكم الدمار وقهر البدو مع أن هاته الأراضي من أخصب الأرض ولو ساعدتها رجال الدولة لأصبح عمرانها أعظم مما عليه أراضي أوروبا والحاصل فلا تعجب إذا كان السيد مجلي يدير

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٣٢٠.

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

أحسن تدبير بلدًا بعيداً عن مواقع عمران البلاد الشامية ، فاستعصم بعيداً عن مظالم ولاية الشام وحمى بلده من ذلك الظلم الفظيع فتعلّق به أهل بلده وقام بحقوق مدينتهم ، فصار إلى هذا الاستقلال ، وعلاقته مع الدولة العلية لم تزل متواصلة حيث أنه أرسل إليه كل سنة مع أمير الركب مدّين من القهوة وخمسة عشر ألف قرش عادةً عليها ولا شيء لها غير ذلك العطاء^(١).

ب - الجوانب الاقتصادية :

أشار السنوسي إلى الفوائد الاقتصادية الكبيرة التي يجنيها سكان بلاد الشام من خلال مرور قافلة الحجّ في مدّنتهم وقراهم على الرّغم من تناقص أعداد الحجاج الأتراك^(٢) حيث يقومون ببيع الحجاج مختلف أنواع الفواكه والخضار وغيرها من البضائع ، كما تحدّث السنوسي عن النشاط الاقتصادي في مدينة دمشق ، فأشار إلى خصوبة تربة مدينة دمشق والتي تساعد على إنتاج أجود المحاصيل الزراعية ، إضافة إلى توافر المياه بكميات كبيرة ، كما تحدّث عن رواج التجارة والصناعة في هذه المدينة قائلاً " وأما حُسنُ تربةِ البلد وحسن نباتها ورواج تجارتها ووفور صناعتها فهو من أحسن ما عليه البلاد العربية مع انخفاض سعر المحصولات ومياها كثيرة وأنهارها تجري من تحت جميع بيوتها ذات البرك وتسقي جميع حدائقها وبساتينها حتى كانت فواكهها وثمارها من أشهر الغشال جودةً ويُقال إنها تُسقى من سبعة أنهر وهي : بردى ، ويزيد ، والديرات ، وثورا ، ومتوات ، و بانياس ، وعقرباء^(٣). كما وصف السنوسي أسواق دمشق التي يختص كل سوق منها ببيع بضاعة معينة " فجّلنا في كثير من أسواقها التي يختص كل سوق منها بصناعة ، وكانت جملة أسواقها ثلاثين سوقاً تحوي نحو سبعة آلاف حانوت " (٤) .

وقد أشار السنوسي إلى بعض الضرائب التي تفرضها الدولة العثمانية ، كالضريبة التي فُرضت على الحجاج لتغطية نفقات إقامتهم طيلة أيام الحجز الصحي حيث أطلق السنوسي على تلك الضريبة اسم ضريبة النظافة الصحية " وفي صباح الجمعة ورد الأذن بإجابة مطلب الباشا في إتمام مدّة الحجز الصحي ، وفي يوم السبت طاف الطبيب لتقييد الحجاج ، وفي يوم

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٦٧ .

(٢) في منتصف القرن التاسع عشر تحول معظم الحجاج الأتراك إلى الطريق البحري ، عبر قناة السويس بدلاً من الطريق البري عبر بلاد الشام وصولاً إلى الحجاز ، ممّا أدّى إلى خسارة التجارة الشامية الداخلية بين المدن الكبرى (دمشق، حلب، حمص، القدس) فخسرت دمشق تجارتها مع الروم والآستانة وبرّ الأناضول ، وتحول ذلك إلى الموانئ البحرية . للتفصيل يرجى العودة على نعمان القساطلي: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، الطبعة الثانية ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ١٣٤ .

(٣) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٣١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

الأحد الموفى عشرين حرّر الطبيب تقييده وتعاطى استخلاص معلوم النظافة الصحية بحساب ثلاث مجيديات إلا ربع على راكب المحفّة ، ومجيدّين ونصف عن راكب الشبرية ، ومجيدي واحد عن راكب ذروة الجمل" (١) .

ج - الجوانب الاجتماعية :

تحدّث السنوسي عن بعض العادات السائدة في منطقة بلاد الشام كغلاء المهر في بعض المناطق كجبل حوران والكسوة فيقول " أمّا أهالي قرى حوران فلم نحلاتّ وعوائد متباينة مثلاً حالة التزويج عندهم في أكثر البلاد الوالد يعطي ابنته بشبه البيع بثمن باهظ ربما يأخذ فيه جميع كسب زوجها من الدواب والأرض والأثاث والحبوب والمال ويسلّمها له مصحوباً ببلدين للنوم فقط بحيث أنّ أبا البنات عنده عرضة للغنى من بناته وفي بلد مثل الكسوة (٢) التي هي ممرّاً للركب كل سنة مرتين فينزل بها المصاحبون له واللاحقون به والسابقون عنه ويحتاج لكثرة الفرش والأغطية ، فإنّ مهر البنات يضيف إليه والدهن ما يساويه للتجهيز، ويجعل جميع ذلك في شراء الفرش والأغطية خاصّة بحيث إنّ كل بيت فيه عدد غير قليل من الفرش والأغطية، ويتباهى النسوة والرجال بكميّة ذلك " (٣) .

أشاد السنوسي بكرم وحسن ضيافة أهل مدينة دمشق " ورأيت من لطف أهلها وكرم نفوسهم وحضارتهم ما كدت أنّ أعجّب منه لولا أنّني على يقين من أنهم أهل بلد كانت دار ملك لخلافة الإسلام ، وفيها ضربت الأخلاق العربية تلك الخيام إلى غير ذلك ممّا قلبتها فيها الأيام مع حسن أرضها وهوائها ومائها المشهور بين الأناس " (٤) ، وتحدّث السنوسي عن تأثر الدمشقيين بالعادات التركية في مناحي الحياة كافّة " ورأيت من لطف آداب الدمشقيين ولطافة خطابهم ورنّة كلامهم وذكاء أحلامهم ما جمعوا به من الفضائل العربية والتركية بل أنّي رأيت أهل دمشق جمعوا بين العربي والتركي في معاملاتهم وألسنتهم وطعامهم وحلاوتهم ولباسهم وسائر أحوالهم فزادهم ذلك كملاً على كمالهم " (٥). كما أبدى رحالتنا إعجابه بالجمال الكبير الذي تتمتع به نساء قرى منطقة حوران حيث أشار إلى ذلك عند مرورهم في قرية الرمثة " وقطعنا جسر الرمثة ورأينا نسوة تلك البلد الذي هو أول بلد حوران وهنّ في غاية

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٠.

(٢) الكسوة : قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر . للتفصيل الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٤٦١.

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الخامس ، ص ٣٣ — ٣٤.

(٣) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٥.

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٨.

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٧.

الجمال " ، ثم أعاد الحديث عن ذلك عند مرور القافلة في قرية طفس ، لكنه عاب على نساء حوران استخدامهم الوشوم على الوجه " وأصبح يوم الاثنين ٢٨ شديد المطر ولكن في هذا اليوم تواردت نساء طفس يبعن الدجاج والبيض والحليب ، وكلهنّ جميلات الجمال البارع لولا أنّهن يستعملن وشماً في عوارضهن وذقونهن على نحو اللحية للرجال " (١).

تحدّث السنوسي عن اهتمام الدولة العثمانية بالنواحي الصحية للسكان ، وتجلّى ذلك بفرض نوعاً من الرقابة الصحية على الحجاج منعاً لانتقال الأوبئة والأمراض أثناء تنقل الحجاج من منطقة إلى أخرى ، فأشار السنوسي إلى اختيار السلطات العثمانية لمنطقة وادي الزرقاء لتكون مكاناً لإقامة الحجاج لمدة عشرة أيام لخضوعهم للحجز الصحي ، وذلك من أجل التأكد من سلامتهم من الأمراض والأوبئة المنتشرة في الحجاز في تلك السنة ، قبل دخولهم إلى المدن الرئيسية في بلاد الشام " ولحسن موقع هاته المنزلة كانت المحل الذي عيّنته الدولة العلية للحجز الصحي المسمّى بالكرنينة لمدة عشرة أيام " (٢). ولكن في تلك السنة ونتيجة سوء الأحوال الجوية قرّر الباشا العثماني المسؤول عن تنفيذ الحجز الصحي السماح للحجاج بمتابعة المسير قبل انتهاء مدّة الحجز ، لكن مع استمرار خضوع الحجاج للحجز الصحي ، ولذلك عمد إلى تشديد الحراسة على قافلة الحجّ ، لمنع أهل المناطق التي سوف يمرّون فيها الحجاج من الاختلاط بالقافلة حتى انتهاء مدّة العشرة أيام التي يخضع فيها للحجاج للحجز الصحي" (٣).

أشار السنوسي إلى بعض المزارات التي قام بزيارتها أثناء تنقله في بلاد الشام حيث زار مقام الشيخ حامد العطار الواقع بالقرب من قلعة القطرانة ، وفي مدينة دمشق قام السنوسي بزيارة بعض مزاراتها ورافقه في تلك الزيارات كلاً من الأمير أحمد بن الأمير عبد القادر الجزائري والسيد محي الدين ببن مصطفى والسيد محمد الطالب ، فتحدّث السنوسي عن المزارات الموجودة في المقبرة المعروفة بباب الصغير وزار هنالك عدداً من المزارات المشهورة فيها ، لكنه أشار إلى وجود عدّة قبور نسبت إلى شخصيات تمّ إثبات أنها مدفونة خارج بلاد الشام كـ ثلاث من زوجات الرسول وهنّ السيدة حفصة والسيدة أمّ سلمة والسيدة أمّ حبيبة . أمّا بالنسبة للمزارات التي زارها في تلك المقبرة فهي قبور بلال بن رباح ، أسماء بنت أبي بكر ، سكينه أخت الحسين ، أم القاسم بنت علي المرتضى ، عبد الله بن جعفر الصادق ، عبد الله بن علي زين العابدين ، عبد الله بن جعفر الطيار وأخوه علي ، سعيد بن خالد بن الوليد ، حبيب بن مظاهر، هاني بن عروة ، حرّ بن زيد ، الأخوة محمد وإبراهيم

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

وعباس بن مسلم بن عقيل ، القاسم بن الحسن المجتبى ، الشيخ أبو الخطاب حماد ، مقبرة أهل الصفة ^(١) ، وزار السنوسي قبر نور الدين شهيد ومدرسته ، وذكر أن شيخ المدرسة في ذلك الحين المدرّس سليم الطيبي ، كما قام رحلتنا بالتوجّه إلى الصالحية لزيارة مزاراتها كقبر نبي الله ذي الكفل ، ومغارة أصحاب الكهف ، ومغارة الأربعين ، ومقام الشيخ محي الدين بن عربي، وقبر الإمام ابن مالك صاحب الألفية النحوية وبجواره قبر ابنه ، مقام السيد صالح أيوب والسيد محمد أيوب ، ومقام الشيخ عبد الغني النابلسي ^(٢).

د - الجوانب الثقافية :

اهتم السنوسي اهتماماً ملحوظاً بالنواحي الثقافية والعلمية ، فكان شديد الحرص أثناء زيارته لكل من دمشق وبيروت على الاطلاع على النشاط العلمي الحاصل في كل مدينة ، ففي دمشق زار السنوسي مكتبتها ومطبعة الكتب الابتدائية وبعض مدارسها الابتدائية والرشدية برفقة السيد طاهر بن صالح الجزائري ^(٣) مفتش المعارف في دمشق ، فناقش أساتذتها وامتنح تلاميذها حيث أبدى إعجابه بمستوى الطلاب ، وأشار إلى أن المدارس في دمشق قسمين " منها ما يختص بالذكور المسلمين وهي خمس وسبعون مدرسة ، ومنها ما يختص بالبنات المسلمات وهي ثلاثون مدرسة ، وقد أقامت الحكومة بها أربع مدارس رشدية ومكتباً حربياً استعداداً " ^(٤) ، كما تحدّث السنوسي عن الحكواتي الذي يجتمع الدمشقيون حوله كل مساءً في المقاهي ، وأبدى إعجابه بالقصص التاريخية التي يرويها ذلك الشخص " وقد حضرت ليلاً في تشخيص تياترو باللسان العربي في وقائع تاريخية صاحبه أبو خليل القباني ، وكان إنشاء روايته في غاية الفصاحة وشعر أناشيده في غاية الرقة وأغانيه في غاية الانتظام ، فلم أر أوقع منها فيما رأيت بأوروبا والبلاد العثمانية " ^(٥) .

ووصف السنوسي أحوال العلماء والمدرّسين في بلاد الشام عموماً ودمشق خصوصاً ، فاستغرب عدم تخصيص راتب أو معاش للمدرّسين والمعلّمين وعدم اهتمام الدولة بنشر العلم "

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٢) ورد في الرحلة الحجازية باسم مقام عبد الغني النابلي

(٣) طاهر الجزائري (١٢٦٨ - ١٣٣٨هـ / ١٨٥٢ - ١٩٢٠م) : طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب الجزائري السمعوني الجزائري ، من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره ، أصله من الجزائر ، مولده ووفاته في دمشق ، كان مولعاً باقتناء المخطوطات والبحث عنها ، فساعد في إنشاء دار الكتب الظاهرية في دمشق ، كما ساعد في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس ، وكان أيضاً من أعضاء المجمع العلمي العربي ، كما سمّي مديراً لدار الكتب الظاهرية ، كان يتقن الشيخ طاهر عدة لغات شرقية كالعربية والسريانية والعبرية والتركية والفارسية ، له عشرين مصنفاً منها الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية ، وتسهيل المجاز إلى فن العمى والألغاز . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثالث ، ص . ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٣١٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

وخلاصة ما أقواله في شأن المعارف الإسلامية إنها ليست على ما يجب لمثل ذلك البلد الذي سكّانه في أعلى درجات التهذيب وليس للعلماء هنالك معاش منتظم ولا لتعليمهم اهتمام من جهة الدولة ، فالعالم يقرئ في بيته أو في أحد المساجد أو في الجامع الأموي احتساباً والمتعلم يأخذ عنه ما تدعوه إليه رغبته وحاجته ^(١) .

وفي مدينة بيروت قام السنوسي بزيارة معظم المطابع والمجلات والمدارس الموجودة فيها ، ومنها مطبعة مجلة ثمرات الفنون ، والمطبعة الأمريكية ، والمدرسة العربية ، ومجمع دائرة المعارف ، وأشاد بالدور الكبير التي تلعبه المدارس والمطابع والمجلات في نشر المعارف العربية " وقد اطلعتُ هنالك على جميع طُرُق نشر المعارف العربية بما زادني سروراً في الاعتناء بشأنها " ^(٢) ، كما أشار إلى العناية الكبيرة التي تلقاها اللغة والآداب العربية في بلاد الشام عموماً وبيروت خصوصاً " وهنا أذكر ما وجدت عليه البلاد الشامية عموماً وبيروت خصوصاً من الاعتناء باللغة العربية والآداب العربية والتوسع في فنون الإنشاء من الإرسال والنشر والنظم بما تقتضيه المكاتبات والمراسلات والمحاضرات " ^(٣) .

أمّا بالنسبة للعلماء الذين اجتمع بهم السنوسي نذكر منهم في دمشق الأمير عبد القادر الجزائري ، والشيخ محمود حمزة ^(٤) ، والشيخ سليم العطار ^(٥) ، والشيخ سليم الطيبي ^(٦) ، والشيخ أبي بكر العطار ^(٧) ، والشيخ محمد بن يوسف بدر الدين ^(٨) ، والشيخ محمد

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص ٣١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) سليم العطار (١٢٣١هـ / ١٨١٥م — لا يوجد تاريخ دقيق لوفاته) : هو الشيخ أبو محمد بن حامد بن أحمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر العطار ، ولد في دمشق في سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م ، ونشأ في بيت جده ووالده وتتلّمذ على يد أشهر علماء دمشق ومشايخها كالشيخ عبد الرحمن الطيبي والشيخ سعيد الحلبي ، وبرع في العلوم الفقهية والحديث . للتفصيل السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٧ — ٢٤٤ .

(٦) سليم الطيبي (لا يوجد تاريخ دقيق لولادته — ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م) : ولد في مدينة دمشق ، ونشأ فيها ، وتتلّمذ على يد مشاهير علمائها وفقهائها ، له عدة مؤلفات من أشهرها الفيوضات الرحمانية في الأحكام القرآنية ، توفي في دمشق في سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م . للتفصيل عبد الرزاق البيطار : حلبة البشر في أعيان القرن الثالث عشر ، حققه ونسقه وعلّق عليه حفيده محمد بهجت البيطار ، ٣ أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩١م ، الجزء الثاني ، ص ٩٧ .

(٧) أبي بكر العطار (١٢٥١هـ / ١٨٣٥م / لا يوجد تاريخ دقيق لوفاته) : هو الشيخ أبو بكر بن حامد بن أحمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر العطار ، ولد في سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م ، ونشأ بين يدي والده وآل بيته العلماء ، وتتلّمذ على يد بعض علماء دمشق كالشيخ حسن البيطار وعبد الرحمن بايزيد بالإضافة إلى والده ، وسافر إلى مصر فأكمل تحصيله هناك ، ثم انتقل إلى الحجاز ، قبل أن يعود إلى دمشق . للتفصيل السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص ٢٤٩ — ٢٥٢ .

(٨) لم أعثر له على ترجمة .

الطنطاوي^(١). وفي مدينة بيروت التقى السنوسي بعدد من علمائها وأدبائها المشهورين كعبد القادر القبانى^(٢)، وإبراهيم الأحذب^(٣) مؤسس جريدة ثمرات الفنون ، وبطرس البستاني وولده سليم^(٤) ، والأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري^(٥)، والشيخ يوسف الأسير^(٦).

هـ - الجوانب العمرانية :

قدّم السنوسي في رحلته وصفاً لبعض المنشآت العمرانية في مدينة دمشق كالحمامات التي عدّها " من أفخر الحمامات ، يبلغ عددها نحو الستين حماماً ، ودخلت منها إلى حمام الخياطين فإذا هو قد جمع النمط التركي والنمط العربي مع الاتساع وحسن مخادع مبلط بالمرمر والرخام " ^(٧)، والخانات والقهواوي التي ذكر أن عدد كل منها يصل إلى أكثر من مائة وهي

(١) محمد الطنطاوي (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م/ لا يوجد تاريخ دقيق لوفاته) : هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن مصطفى بن علي الشتوالي المشهور بالطنطاوي ، ولد في طنطا بمصر سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م ، ثم ارتحل إلى الشام ، فزار كل من دمشق وحلب ، وتلمذ على يد بعض علماء الشام ومشايخها إبراهيم الباجوري والشيخ علي القوسي ، ثم عاد إلى موطنه ، لكنه عاد مجدداً إلى بلاد الشام سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م ، كما زار كل من الحجاز وقونية . للتفصيل السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ، ص . ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) للإطلاع على ترجمته يرجى العودة إلى الصفحة ٢٢٣ من البحث.

(٣) للإطلاع على ترجمته يرجى العودة إلى الصفحة ٢٢٢ من البحث.

(٤) بطرس البستاني (١٢٣٤ - ١٣٠٠هـ / ١٨١٩ - ١٨٨٣م) : هو بطرس بن بولس البستاني صاحب دائرة المعارف العربية ، وهو عالم واسع الإطلاع ، ولد ونشأ في الديببة من قرى لبنان وتعلم بها قبل أن ينتقل إلى بيروت التي درس فيها آداب العربية واللغات السريانية والإيطالية واللاتينية والعبرية واليونانية . عمل أستاذاً في مدرسة عبيه سنة ١٨٦٠م ، كما عين ترجماناً في القنصلية الأمريكية في بيروت ، واستعان به المراسلون الأميركيون على إدارة الأعمال في مطبعتهم وعلى ترجمة التوراة من العبرية إلى العربية ، واشتغل بالتأليف فصنف كتاب محيط المحيط ، ثم قام باختصاره إلى قطر المحيط ، وله أيضاً كشف الحجاب في علم الحساب ومسك الدفاتر وتاريخ نابليون ومفتاح المصباح في النحو ، وأنشأ مستعیناً بابنه الأكبر سليم أربعة صحف وهي نفيير سوريا والجنان والجنة والجنينية ، وأعظم آثاره كما ذكرنا سابقاً دائرة المعارف التي أكمل منها ستة مجلدات قبل وفاته ، ثم أكمل ابنه سليم عمل أبيه فأضاف الجزأين السابع والثامن . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثاني ، ص ٥٨ .

(٥) الأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٥٦ - ١٣٣١هـ / ١٨٤٠ - ١٩١٣م) : هو محمد بن محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري ، نشأ وعاش في مدينة دمشق ، عكف على سيرة أبيه ، فجمع ما تفرق منها وسماها تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر ، وله أيضاً عقد الأجياد في الصافنات الجياد . الزركلي : الأعلام ، الجزء السادس ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٦) يوسف الأسير (١٢٣٢ - ١٣٠٧هـ / ١٨١٧ - ١٨٨٩م) : هو يوسف بن عبد القادر الحسيني الأزهرى من بني الأسير ، ولد يوسف في صيدا ، ثم انتقل إلى دمشق قبل أن يعود مجدداً إلى صيدا ويتعاطى التجارة ، ثم توجه إلى القاهرة فدرس في الأزهر لمدة سبع سنين ، ليرجع بعد ذلك إلى بلده ، ثم توجه إلى طرابلس حيث أقام فيها ثلاث سنوات تولى خلالها رئاسة كتاب محكمتها الشرعية ، ثم تولى منصب الإفتاء في عكا ، كما عُيِّن مدعيّاً عاماً لمدة أربع سنوات في جبل لبنان ، كما سافر إلى الأستانة وتولى فيها رئاسة تصحيح الكتاب في نظارة المعارف وتدريس العربية في دار المعلمين ، ثم عاد مجدداً إلى بيروت فُعِين معاوناً لقاضيتها ومدرساً في بعض مدارسها كمدرسة الحكمة والكلية الأمريكية ، وتولى رئاسة تحرير جريدتي ثمرات الفنون ولسان الحال ، ومن أشهر كتبه رائص الفرائض وشرح أطواق الذهب وإرشاد الورى . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثامن ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٧) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ص ٣١٤ - ٣١٥ .

مختلفة في الحسن والانتساع " (١) ، كما أبدى السنوسي إعجابه بالطرق الموجودة في مدينة دمشق والتي ذكر أنها في غاية الانتساع . أمّا بالنسبة للبيوت الدمشقية فوصفها رحّالتنا بأنّها في " غاية من الانتظام والتحسين ، ولبعضها قاعات في وسطها بركة ماء " (٢) .

وتحدّث السنوسي عن الجامع الأموي الذي عدّه من أعظم جوامع بلاد الشّام ، وقدم لمحةً مختصرةً عن تاريخ هذا المسجد والمراحل التي مرّ بها قبل أن يقوم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ببنائه على الشكل الحالي ، وتحدّث عن مساحة هذا الجامع وأروقته وزخارفه وأبوابه وقبته ومآذنه حيث يقول " فكان طوله من الشرق إلى الغرب مائتي خطوة وعرضه من الشمال إلى الجنوب نحو مائة وخمسين خطوة ، وله رواق يحيط بجهاته الأربع وأرضه مفروشة بالرخام الملون وبصحنه بركتان على كل واحدة قبة قائمة على أعمدة وفي وسط السقف قبة شاهقة مغطاة بالرصاص وتُسمّى قبة النسر لكون الرواقين عن يمينها وشمالها كجناحين لها ، وفي وسط بيت الصلاة قبة تُسمّى قبة النبي يحيى ، وبجائطه القبلي أربعة محاريب لأصحاب المذاهب الأربعة ، وبه مشهد الإمام علي والحسين وعائشة رضي الله عنهم وله ثلاث مآذن وله ثلاث أبواب ، ففي جهة القبلة باب العبرانية، ويُسمّى باب الساعات ، وباب الزيادة ، وفي جهة الغرب باب البريد ، وفي جهة الشرق باب جيرون ، وفي جهة الشمال باب الفراديس ، وباب السلسلة أو باب الكاملة ، وباب آخر صغير، وبه عدد عظيم من المؤذنين ، وله أئمة من المذاهب الأربعة يصلّون به يومياً ويتناوبون الجمعة " (٣) ، وقد أشار السنوسي إلى تعرّض المسجد الأموي إلى عدّة حرائق ، وختم رحالتنا حديثه عن المسجد الأموي بالإشارة إلى أنّ عدد مساجد دمشق تتجاوز المائة والخمسين مسجداً (٤) .

رابعاً — مقارنة بين كتابات الرحّالة المغاربة وكتابات بعض الرحّالة العرب المشاركة والأوربيين الذين زاروا بلاد الشّام في القرن التاسع عشر:

زار بلاد الشّام في القرن التاسع عشر عدداً من الرحّالة العرب المشاركة والأوربيين ، الذين ساهموا من خلال كتاباتهم في زيادة اطلاعنا على أوضاع هذه المنطقة في تلك المرحلة الحساسة والهامة من تاريخها ، وقد زار بلاد الشّام عدد من الرحّالة العرب منهم محمد بن

(١) السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثاني ، ص . ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ٣١٤ — ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١١ .

عبد الجواد القاياتي ^(١) صاحب كتاب " نفحة البشام في رحلة الشام " الذي يُعدُّ من أهم كتب الرّحلات التي تتحدّث عن بلاد الشام في القرن التاسع عشر نظراً لما أورده القاياتي من معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعمرانية عن بلاد الشام في تلك المرحلة . وقد شغلت مدينة بيروت الحيز الأكبر في رحلة القاياتي ، فساهمت كتاباته مع ما ذكره بيرم الخامس والسنوسي في زيادة اطلاعنا على أوضاع هذه المدينة في تلك المرحلة الهامة ، والتي اتفق فيها القاياتي مع أقرانه المغاربة على التطور الكبير الذي كانت تشهده هذه المدينة في تلك المرحلة " أما البناء الجديد في خارجه فهو على طراز جديد وإتقان وتشديد موضوع على أعلاه القرميد وفي أطواقه الشبابيك من الحديد ولشدة حرص أهالي بيروت على الاعتناء بمبانيهم ، فإنهم يحضرون لها الأعمدة والبلاط من الرخام ويضعونه في أرضها وحيطانها بغاية الإحكام ، ويتغالون في النقش والفرش من ذهب وحرير وبالجمله في بيروت مدينة إسلامية ديناً أوروبابوة نظاماً وبناءً وحرية " ^(٢).

كما أشار القاياتي إلى النشاط التجاري الكبير في ميناء مدينة بيروت والذي أغفل الرّحالة المغاربة الحديث عنه ، نتيجة المبادلات التجارية مع أوروبا ، كذلك وصف القاياتي بعض العادات السائدة عند أهل بيروت كزيارة بعضهم البعض في الأعياد بعد الصلاة ، والقيام بدعوة بعض الوجوه والأعيان لحضور كتّاب الكتاب " العقد " في الأفراح ، كما وصف القاياتي لباس أهل بيروت ، فذكر أنّ معظم الرجال يلبس الطربوش الإفرنجي ، والسترة والبنطلون ، وقسم قليل يلبس القنباز " القفطان " وفوقه الجبة أو السترة الطويلة ، وقسم يلبس البذلة العثمانية القديمة وهو الشروال الكبير الواسع وعلى رأسه الطربوش الاسكندراني بالزر الكبير. أمّا النساء فقسم يلبس الإزار الأبيض الناصع أو الملاء الحريري الحمراء أو المناویش أو الخضراء أو الصفراء أو الزرقاء ، وعلى وجوههنّ المناديل الرقيقة الإسلامية ، وقسم يلبس الفساتين الواسعة ، وعلى رؤوسهنّ الطرّح الرقيقة أو المناديل فقط ، وهنّ مكشوفات الوجوه (وربما الزنود) ، وتحديث القاياتي عن تأثر نساء مدينة بيروت بالعادات والتقاليد والأوربية " فلا يرين

(١) محمد عبد الجواد القاياتي (١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٣٨ - ١٩٠٢ م) : هو محمد بن عبد الجواد بن الشيخ عبد اللطيف بن الحاج الشيخ عطية بن الشيخ عبد الجواد القاياتي ، ولد في قرية القايات التابعة لمنطقة المنية بصعيد مصر ، وتنسب أسرته إلى الصحابي أبي هريرة ، ونشأ في حجر والده إلى أن بلغ مرحلة الشباب ، ثم انتقل إلى الأزهر الشريف وتلقى تعليمه هناك . نفى من مصر في أعقاب ثورة أحمد عرابي إلى مدينة بيروت ، ف قضى أربع سنوات خارج مصر قبل أن يعود إليها مجدداً ، توفي في مسقط رأسه في قرية القايات ، من أشهر مؤلفاته نفح البشام في رحلة الشام . الزركلي : الأعلام ، الجزء السادس ، ص ١٨٥ .

(٢) محمد عبد الجواد القاياتي : نفحة البشام في رحلة الشام ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٣٢ - ٣٤ .

بأساً في المرور بالأسواق والشوارع والحارات ومحاذة الرجال الأجانب في الطرقات والبيوت ، وهُنَّ كثيرات من نساء النصارى اللاتي يُقَلَّدن الأوروبيات حق التقليد " (١).

ذكر القاياتي أسماء عدداً من أعيان هذه المدينة ووجهائها وعلمائها وتجارها (٢) ومنهم " بيت السادات بيهم فإنَّ لهم تجارات عظيمة، وثروة جسيمة، وقصوراً مشيدةً ومن العائلات البيروتية وعائلة رمضان ذات المجد والشأن ومن أعيان أهل التجارة الحاج إبراهيم أفندي طbare ومنهم السيد مصطفى نجا من أهل التجارة والعلم والذكاء والفهم ، وأبو خضر العيتاني أحد المشاهير بالثروة قديماً ، ومنهم بيت العريس وبيت قريطم " (٣) ، كما أشار القاياتي إلى بعض العائلات المسيحية الغنية " أما العائلات النصرانية فهم كثير، وأمرهم في الغنى والثروة شهير، ومنهم السراسقة والتويني وبسترس. وغيرهم ممن ظهر حديثاً في مظهر الغنى المفرط بواسطة التجارة والمعاملات الأوروبية " (٤).

تميّزت كتابات القاياتي عن مدينة دمشق بالغنى خاصةً في الجوانب الاجتماعية ، فأعاد ما ذكره السنوسي عن الدمشقيين من كرم الضيافة وحسن استقبال الضيوف بقوله " وأما أخلاق أهلها وطباعهم وعوائدهم وأوضاعهم ، فهي من أجمل ما يكون في أخلاق العالم من سهولة العريكة ولين الجانب مع الأقارب والأجانب يلاقون الشخص بالطلاقة والبشر والهشاشة إلا أنهم يبالغون في التحية فوق اللازم ويزيدون في كثرة التمني والانحناء على عادة الأتراك عند مقابلة العظيم منهم " (٥) ، وتحدث القاياتي عن نساء مدينة دمشق المسلمات والمسيحيات منهن وقارن بينهن وبين نساء مدينة بيروت فيقول " وأما أحوال النساء من أهل الإسلام فإنهن في غاية السكينة والاحتشام فيبرزن غير متبرجات ولو كن متنزّهات ومتفرجات وعلى وجوههن المناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل ، وأما نساء النصارى في الشّام فهن قليلات

(١) القاياتي : نفحة البشّام ، ص ٥١.

(٢) من أشهر العائلات الإسلامية في بيروت في العهد العثماني الأزهري ، الأسطة ، الأحذب ، الأسير ، بيضون ، بيهم ، إدريس ، الجمال ، الجندي ، حبّال ، حمد ، طربيّه ، خضر ، الخطاب ، الحصّ ، حلاق ، الحلواني ، الحوت ، حوري ، خالد ، رمضان ، الخياط ، الراعي ، الرفاعي ، الرفاعي ، عساف ، القضماني ، ميرزا ، ميقاتي ، النحاس ، قدورة ، قرنفل ، قباني ، القصاب ، مغربي ومن أشهر العائلات الدرزية البيروتية جابر ، حلبي ، رضوان ، علاء الدين ، شنتوف ، العريضي ، عساف ، غضبان ، منذر ، نعمان ومن أشهر العائلات المسيحية البيروتية الأرقش ، تويني ، اليان ، زهار ، طربيّه ، سرقس ، فرعون ، داغر ، سابا ، طراد ، للتفصيل يرجى العودة إلى حسان الحلاق : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر ، الدار الجامعية ، (د.م) ، ١٩٨٧م ، ص.ص ١٥ — ١٧.

(٣) للتفصيل حول الوجهاء والأعيان والعلماء والأدباء الذين قابلهم القاياتي في مدينة بيروت يرجى العودة إلى القاياتي : نفح

البشّام، ص. ص ١٢ — ٣١.

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٠.

جداً لا يُعرفن فيها ولا يتبرجن ، كما في بيروت فأنهن كنساء الإفرنج وإن كنَّ في الأصل من جبل لبنان ، إلا أنهن قلدن الأوروبويات الآن وزدن من هذا الشأن بكل ما في الإمكان " (١).

وكان الرحالة الثاني الذي تحدّث عن أحوال بعض المناطق في بلاد الشام ، ووصف بعض مدنها نعمان القساطلي (٢) في كتابين الأول " الروضة الغناء في دمشق الفيحاء " وخصّصه للحديث عن مدينة دمشق وجوامعها وكنائسها وأسواقها ومقاهيها وخاناتها ومدارسها وأبوابها وعادات السكان وتقاليدهم ، والكتاب الثاني " الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية " الذي خصّصه للحديث عن رحلته إلى فلسطين برفقة لجنة إنكليزية لتخطيط فلسطين سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م ، وتميّزت كتابات القساطلي عن بلاد الشام بغناها بالمعلومات من النواحي كافة ، فلم يقتصر اهتمامه كما هو الحال مع معظم الرحالة العرب على الجوانب الدينية والعلمية ، بل ضمّن كتاباته الكثير من المعلومات التي تتحدّث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية فضلاً عن الجوانب العلمية .

فخصّ القساطلي — كما ذكرنا سابقاً — مدينة دمشق بكتاب وصف فيه أوضاع هذه المدينة حيث قدّم الكثير من التفاصيل والمعلومات التي سبق وأشار إليها بعض الرحالة المغاربة ، فوصف أبنية هذه المدينة بالشاهقة " الملتصقة بعضها ببعض لا فسحة بين الدار والأخرى حتى كأن المدينة بناء واحد فهي دُورٌ فسيحةٌ مزخرفة بأنواع الزخارف والنقوش وفي صحنها بُركٌ محفوفةٌ بالليمون وغيره من الأشجار مع كثير من النباتات العطرية ذوات الأزهار الجميلة والروائح الذكية " (٣) ، وقدّر عدد دُور دمشق حسب التقدير الرسمي سنة ١٣٨٨هـ / ١٨٧١م بحوالي ١٤٦٩٦ داراً (٤).

كما تحدّث القساطلي عن النشاطات الاقتصادية في هذه المدينة ، فذكر أشهر الصناعات الموجودة في دمشق كصناعة النسيج والدباغة والصياغة والحدادة والبناء (٥) ، كما أشار إلى

(١) القاياتي : نفحة البشام ، ص ١٤١ .

(٢) نعمان القساطلي (١٢٧٢-١٣٣٨هـ / ١٨٥٥-١٩٢٠م) : هو نعمان بن يوسف بن عبده القساطلي ، ولد في مدينة دمشق ، وقد واجه الكثير من الصعوبات في بداية حياته حيث كاد أن يذهب ضحية الفتنة الطائفية التي حدثت في دمشق في سنة ١٨٦٠م ، لكنّه تمكن من النجاة ثم غادر دمشق مع أسرته ، ولم يعد إليها إلا بعدما استقرت الأحوال ، تتلمذ على يد بعض أساتذة دمشق ومنهم سليم كساب الدمشقي ، وعندما قدمت اللجنة الإنكليزية لتخطيط فلسطين سنة ١٨٧٤م ، تم اختيار نعمان القساطلي لمرافقة هذه اللجنة في عملها ، كتب في مجلة الجنان ومجلة لسان العرب قبل الحرب العالمية الأولى ، توفي في دمشق في شباط سنة ١٩٢٠م ، ومن مؤلفاته الروضة الغناء في دمشق الفيحاء والروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية . الزركلي : الأعلام ، الجزء الثامن ، ص ٣٧ .

(٣) القساطلي : الروضة الغناء ، ص ٩٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

تجارة دمشق المزدهرة نتيجة موقعها المميز ما بين الخليج العربي وفارس والعراق وأرمينيا والحجاز ومصر وأوروبا عبر الموانئ الموجودة على الساحل السوري ^(١) ، وتحدث عن أسواق دمشق فوصفها بأنها " كثيرة العدد وهي على نوعين مجموعة ومنفرقة ، وكلها تحتوي على ٦٩٠٠ دكان . أما الأسواق المجموعة فيطلق عليها اسم المدينة وفيها أصحاب التجارة وأرباب البيع والشراء ومنها سوق العلبية يعملون بها العلب الخشبية وما شابهها ، وسوق الدقاقين وبها يدقون الأقمشة الحريرية ، وسوق البزورية ، سوق باب الجابية وفيه تباع العطور ، وسوق الصاغة ، وسوق الحرير وغيرها من الأسواق الأخرى ^(٢) .

وعدد القساطلي حمامات دمشق البالغ عددها ثمان وخمسين حماماً " وأشهرها حمام الخياطين ، وحمام القيشاني ، وحمام النوفرة ، وحمام المسك ، وحمام القيمرية ، وغير ذلك من الحمامات المنتشرة في جميع الأنحاء " ^(٣) . أما بالنسبة للقهواوي فقد ذكر القساطلي أن في دمشق ما ينوف على مئة وعشر قهواً بين كبيرة وصغيرة ، ومن أشهرها قهوة السكرية في باب الجابية ، وقهوة القماحين ، وقهوة العسرونية ^(٤) ، كما تحدث القساطلي عن خانات دمشق فذكر أن عددها يبلغ مئة وتسع وثلاثون خاناً ، وهي نوعين نوع يختص بأصحاب التجارة ، ونوع آخر للدواب وبعض الفقراء ، وأشهر خانات التجار خان أسعد باشا العظم ، وخان سليمان باشا في الحبالين ، أما النوع الثاني فأشهر خاناته بسوق الخيل وباب مصلى والشاغور ^(٥) .

وتحدث القساطلي عن المباني الدينية الموجودة في دمشق ، فأشار إلى وجود عدد كبير من الجوامع والمزارات في شتى أنحاء المدينة " إن معابد الإسلام في دمشق كثيرة

(١) احتلت دمشق مركز الصدارة بالنسبة لتجارة بلاد الشام ، وكانت دمشق وحلب من أعظم المراكز التجارية في الدولة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر ، ولدمشق تاريخ عريق في التجارة بفضل موقعها ، فإليها تأتي القوافل التجارية من بلاد الشام وبلاد فارس والهند حاملة السجاد واللؤلؤ والتوابل والأحجار الكريمة ، وتحمل هذه القوافل أثناء عودتها مصنوعات دمشق المشهورة كالأجواخ والثياب والألبسة الحريرية والمصنوعات الخشبية والصدفية والنحاسية ، وكانت التجارة بيد أبناء دمشق إلى أن سمح إبراهيم باشا بدخول التجار الأجانب إليها سنة ١٨٣٤م ، ولعب هؤلاء دوراً كبيراً في ازدهار التجارة في هذه المدينة حيث أصبحوا همزة الوصل بين التجار الدمشقيين والمؤسسات التجارية والصناعية في الخارج ، فساهم التجار الأوربيون في دفع عجلة التجارة الخارجية في دمشق إلى أعلى درجة ، وكانت التجارة سبباً في ازدهار الأحوال الاقتصادية في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت أحوال الأشخاص الذين يعملون بالتجارة وفروعها أفضل حالاً من غيرهم بدرجات كثيرة . للتفصيل عن تجارة دمشق في القرن التاسع عشر يرجى العودة إلى نايف صياغة : الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٥م ، ص . ص ١٤٥ - ١٨١ .

(٢) القساطلي : الروضة الغناء ، ص ٩٧-٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص . ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

جداً جوامعُ لأكثرها مناراتٍ شاهقةً ١٥٣، مساجد ٧١ ، تكات ١٤ ، ترب أولياء ومحلات زيارات مشهورة ١٩٤ ، مدارس ٣٩ ، ومجموع ذلك ٤٧١ " (١) . أمّا بالنسبة للأبنية الدينية المسيحية ، فذكر القساطلي أنّ لكل طائفةٍ من الطوائف المسيحية في دمشق كنيسة أو أكثر فطائفة الروم الأرثوذكس ثلاث كنائس ، وللكاثوليك ثلاث كنائس ، وللسريان الكاثوليك ، كنيسة وللسريان اليقوبيين كنيسة ، وكنيسة للأرمن الكاثوليك ، وللطائفة البروتستانتية كنيسة ، كما يوجد في دمشق عدد كبير من الأديرة (٢) ، وفيما يتعلّق بالأبنية الدينية لليهود ذكر القساطلي أنّها " كثيرةٌ جداً حتى يكاد يوجد في بيت كل غني حجرة كبيرة مفرزة للعبادة العمومية ، وأمّا الكنائس العامة فعشرة أشهرها كنيس سوق الجمعة " (٣) .

وأشار القساطلي إلى مدارس دمشق ، فذكر أنّ مدارس المسلمين في هذه المدينة كثيرة وهي نوعين " منها ما هو لدرس العلوم الدينية واللغة والفقه ، ومنها ما هو لدراسة مبادئ القراءة " (٤) ، وقدّر عدد طلاب النوع الأول بحوالي ٧٠٠ طالباً ويدرسون إمّا في البيوت أو الجوامع ، أمّا النوع الثاني فقدّر عددها القساطلي طبقاً للإحصاءات الحكومة في سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م ، بـ ٧٤ مدرسة للذكور تضم حوالي ١٢٠٠ تلميذ ، و ٢٨ مدرسة للإناث وتضم حوالي ٢٤٩ بنتاً ، وأمّا المدارس الحكومية فهي أربع مدارس تضم حوالي ٢٥٠ تلميذ ، وقد أشار القساطلي إلى ازدياد عدد المدارس المؤسّسة من قبل الحكومة بفضل جهود الوالي مدحت باشا . أمّا بالنسبة لمدارس النصارى ، فقد ذكر القساطلي أنّ عددها تسعة للذكور وهي مدرسة الروم الأرثوذكس والمدرسة الإنجيلية والمدرسة البطريركية الكاثوليكية والمدرسة الكاثوليكية السريانية ومدرسة الأرمن والمدرسة العازرية ومدرسة الفرنسيين والمدرسة الإنكليزية اليهودية ، ويوجد للإناث سبع مدارس وهي مدرسة الروم والمدرسة اليسوعية والمدرسة الإنكليزية والمدرسة الإنكليزية الإسلامية ومدرسة الكاثوليك في الميدان والمدرسة الإنكليزية في الميدان ، ويبلغ مجموع الطالبات في الجميع ١٠٧٠ والمعلمات ٢٢ معلمة (٥) .

أمّا كتابُ الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية ، فقد خصّصه القساطلي ، كما ذكر سابقاً لوصف رحلته إلى فلسطين برفقة اللجنة الإنكليزية التي قدّمت لتخطيط فلسطين سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م ، واستغرقت تلك الرحلة حوالي عشرة شهور ، وما

(١) القساطلي : الروضة الغناء ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

ميّز هذا الكتاب قيام القساطلي بوضع مُخطّطاتٍ ورسومٍ لفلسطين ، ودراسته العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدةً فيها في تلك المرحلة.

زار القساطلي في تلك الرحلة معظم المدن الفلسطينية ومنها بيت لحم التي قال فيها " وهذه المدينة قديمة جداً بها ولد السيد المسيح من مريم العذراء وهي مُحاطةٌ بوديانٍ عميقةٍ من كلّ جهاتها خلا بعض الغربية وجانب من الشمالية الغربية ، فإنّ الأرضَ هناك مرتفعةٌ وعاليةٌ ويحيط بها بساتين من كل جهاتها " ^(١) ، والقدس " مبنية على أربعة جبال وهي صهيون ومريا وأكزا وبزيشا ، فالجانب الجنوبي مبنيٌّ على صهيون والشرقي على مريا والجنوبي على أكزا والغربي على بزيشا " ، وغزة " وهذه البلاد ذات تربةٍ جيدة جداً ومُخصبةٍ وكلّ أراضيها مستوية وذات إقبال عجيب عندما تكثر الأمطار " ^(٢) ، ونابلس " وهذه المدينة ذات موقع حسن جداً وموقعها في وادٍ جميلٍ بين الجبلين المذكورين هما جزريم وعيبال ، وبها بساتين جميلة تُسقى بمياهٍ عذبةٍ وجيدةٍ تتحدّرُ من أسفل الجبلين ، وهذه المدينة ذاتُ أثمارٍ كثيرةٍ كدمشق الفحاء ، وينبت فيها أنواعُ الخُضرِ والنبات التي تُستخدمُ في دمشق الشام " ^(٣)

قدّم القساطلي في تلك الرحلة الكثير من التفاصيل عن أوضاع فلسطين في تلك المرحلة فأشار من الناحية السياسية إلى اضطراب الأمن وانتشار الفوضى في بعض المناطق في فلسطين كمنطقة الخليل التي تحدّث عن وجود صراعٍ فيها بين بعض البدو وفلاحيّ قرية البرج، كما أشار إلى ازدياد أعداد اليهود في فلسطين نتيجة تدفّق أعدادٍ كبيرةٍ من اليهود على فلسطين من شتى دول العالم ، وتحدّث القساطلي أيضاً عن الصراعات القائمة في كنيسة القيامة بين الطوائف المسيحية اللاتين والأرمن والروم ، وتخلّ الدولة العثمانية لحلّ تلك الصراعات " ولا يخفى بأنّ هذه المغارة قد أُمست في أوقاتٍ مختلفةٍ موضوعاً لخصوماتٍ كثيرةٍ بين الروم والإفرنج والأرمن حتى أنه في السنة الماضية قد اتصلت بها الشرور بين الروم والإفرنج وكانت أسبابه تعليق أيقونات قديمة فاعل بها السوس وتعليق ثوبٍ على جدران المغارة وتلك الإيقونات البالية فوق ذلك الثوب من الروم ، ومن جرى تلك القلاقل

(١) القساطلي : الروضة الغناء في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية ، جزءان ، مخطوط بمكتبة الأسد ، دمشق ، رقم ٤٩١٩ ، الجزء الأول ، ص ٨٥ .

(٢) القساطلي : الروضة الغناء في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية ، جزءان ، مخطوط بمكتبة الأسد ، دمشق ، رقم ٤٩٢٠ ، الجزء الثاني ، ص ١٢ .

(٣) المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٧٨ .

والشرور ألزمت الدولة أن تبني هناك مَسْـكناً للعساكر لأجل قَطْعِ النزاع وحِفْظِ الراحة العمومية ، وأن تجعل بيت لحم قيمقامية متعلّقة في القدس الشريف " (١).

أمّا من الناحية الاقتصادية ، فقد ذكر القساطلي انتشار بعض الزراعات في فلسطين كزراعة الزيتون في معظم المناطق والعنب في جبال الخليل وعلى الساحل والبرتقال في المناطق الساحلية والحبوب والرمّان والتفاح والتبغ في غزة والمناطق المحيطة بها ، كما أشار إلى وجود مراعي واسعة في فلسطين ساعدت السكان على تربية المواشي . أمّا بالنسبة للصناعات الموجودة في فلسطين ، فأشار القساطلي إلى رواج صناعة الزّجاج وعصر الزبيب وخاصة في الخليل ، وصناعة الصابون والأحذية في القدس ، والفخار والنسيج في غزة . أمّا فيما يتعلّق بالنشاطات التجارية في بعض المدن الفلسطينية كالقدس ، فقد وصفها القساطلي بالضعيفة واعتمادها على الحجّ إلى القدس بصورة رئيسية " وتجارة هذه المدينة ضعيفة وأكثرها من الصابون وبعض الصور ومساح وأهل هذه المدينة ينتظرون وفود الزوار ليُرزقون عليهم ويعيشون " (٢).

أظهر القساطلي اهتماماً ملحوظاً بالأوضاع الاجتماعية في فلسطين ، خصوصاً من ناحية عدد سكان كل منطقة وعاداتهم ودينهم ولباسهم وأعيادهم ، فقدّر عدد سكان القدس بأربعين ألف نسمة أكثر من نصفهم من اليهود حيث لاحظ القساطلي ازدياد أعداد اليهود في هذه المدينة بشكل كبير نتيجة تدفق أعداد كبيرة منهم من مختلف دول العالم " وعدد سكانها الآن نحو أربعين ألفاً أكثرهم من اليهود والسكناج المغتربين منهم ٦٠٠٠ مسلمين و ١٢٠٠٠ مسيحيين والباقي هم يهود وطنيين وسكناج ، وربما بعد وقت قصير سيزداد عدد سكان هذه المدينة كثيراً لكثرة المهاجرين إليها من اليهود الذين يوافونها من أقطار العالم " (٣) ، وقدّر عدد سكان مدينة الخليل بـ ١٢٠٠٠ نسمة من المسلمين و ٢٠٠٠ من اليهود ، وغزة بـ ٦٠٠٠ نسمة من المسلمين و ٨٠٠٠ مسيحيون من طائفة الروم ، ونابلس بـ ١٢٠٠٠ نسمة مسلمين ونصارى ورم بروتستانت ويهود السامرة ، وتحدّث القساطلي عن وضع المرأة الفلسطينية ، فأشار إلى قيامها بأعمال المنزل والحقول ممّا جعلها تتحمل أعباء كثيرة ، وخاصة في مشاركتها في الأعمال الزراعية " والنساء هي تشتغل في الفلاحة والزراعة وشاغل ذلك ، وقد سمعت

(١) القساطلي : الروضة الغناء في سياحة فلسطين ، الجزء الأول ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، الجزء الثاني ، القسم الغير مرقم .

(٣) المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٥ .

البعض منهم بأنهم يحرثون على نسايتهم إذا ما كان عندهم بقراً والنتيجة أن نساءهم عندهم في منزلة العبيد والبقر والحمير" (١).

واهتم القساطلي بالحديث عن الآثار الموجودة في فلسطين فوصفها وصفاً دقيقاً ، كما اهتم بوصف المنشآت العمرانية القائمة ، وخاصةً الدينية منها ككنيسة القيامة في بيت لحم التي وصفها بقوله " وهي كنيسةٌ كبيرةٌ بنيت في أيام الملك قسطنطين أول ملوك المسيحية ، وهذه الكنيسة الكبيرة يبلغ طولها نحو خمسين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثين ، وهي قائمة على أربع وأربعين عموداً مربعة من أربعة صفوف ولم يزل فوق تلك الأعمدة نحو السقف بعض صور قديمة مركبة من قطع صغيرة ذهبية كالسيفسة ودائرة هيكلها الآن أمسكت الكنيسة بذاتها ويوجد قاطع من حائط بينهما وبين فسحة الكنيسة ودائرة الهيكل مقسومة بين الروم والأرمن والسريان والقبط " (٢).

كما زار بلاد الشام في القرن التاسع عشر عدداً من الرحالة الأجانب كان من أشهرهم الرحالة جون لويس بيركهارت (John Lewis Burekhart) الذي يُعدُّ من أشهر الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر فهو أول رحالة أوروبي تمكّن من الوصول إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، كما أنه قدّم الكثير من المعلومات عن بلاد الشام ومصر والحجاز وبلاد النوبة (٣).

تجوّل بيركهارت في بلاد الشام لمدة سنتين ، فبعد أن أقام في حلب مدةً من الزمن غادرها متّجهاً إلى مدينة دمشق ، ومنها قام بيركهارت بعدة رحلاتٍ إلى داخل بلاد الشام فاتّجه إلى لبنان والجلال الغربية ، كما زار منطقة حوران في صيف ١٨١٠م ، ثم عاد مجدداً إلى زيارة منطقة حوران ، ومنها اتّجه إلى المرتفعات الشرقية والشمالية الشرقية لبحيرة طبرية ، ليغادر بعد ذلك رحالته مدينة دمشق متابعاً رحلته إلى القاهرة في صيف ١٨١٢م .

(١) القساطلي : الروضة الغناء في سياحة فلسطين ، الجزء الأول ، ص ٨٦.

(٢) المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص . ص ٨٨ — ٨٩.

(٣) جون لويس بيركهارت (١٧٨٤ — ١٨١٧م) : رحالة سويسري ، زار عدة مناطق في بلاد الشام بدءاً من مدينة حلب حيث أمضى في بلاد الشام سنتين (١٨١٠ — ١٨١٢م) يتعلم فيها اللغة العربية ويتجول في أنحاء الإقليم ، وفي شباط سنة ١٨١٢م غادر بيركهارت حلب متّجهاً إلى القاهرة ، فقام بجولة في الأراضي المصرية وخاصةً في بلاد النوبة ، ثم عبر البحر الأحمر إلى مدينة جدة التي فيها أقام قرابة الشهر حيث وصف أوضاع المدينة وسكانها وتجارتها ، ثم توجه إلى مكة المكرمة ، ثم المدينة المنورة ، ثم القاهرة حيث تدهورت فيها حالته الصحية ، وبقي فيها حتى توفي في ١٥ تشرين الأول ١٨١٧م . للتفصيل يرجى العودة إلى جون لويس بيركهارت : رحلات في سوريا والأراضي المقدسة ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة الجديدة ، دمشق ، ٢٠٠٧م ، ص . ص ٥ — ٦.

وصف بيركهات جميع أسفاره ورحلاته التي قام بها في بلاد الشام بشكل دقيق ومفصّل، فقدم في كتابه " رحلات في سوريا والأراضي المقدسة " الكثير من التفاصيل عن أوضاع المدن والقرى وعدد السكان ونشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، فأبدى بيركهات اهتماماً ملحوظاً بالآثار فوصف المَدُن والقلاع والكنائس وغيرها من المنشآت العمرانية التي صادفها أثناء تجوله في بلاد الشام ، وباختصار شديد تُعدُّ رحلة بيركهات من أهمّ المصادر التي تتحدّث عن بلاد الشام في بداية القرن التاسع عشر نظراً لغزارة وتنوّع المعلومات التي قدّمها بيركهات في كتابه من النواحي كافّة ، ولذلك سوف نكتفي بالإشارة إلى بعض المعلومات التي ذكرها بيركهات عن بعض المناطق التي لم يزرها الرحالة العرب والأوربيين في القرن التاسع عشر.

يُعدُّ القسم الثالث من كتاب بيركهات الذي خصّصه للحديث عن رحلته من حلب إلى منطقة الجبال الشرقية ، ثم دمشق أهمّ الأقسام بسبب ما أورده رحّالتنا من معلومات هامة عن أوضاع المناطق الواقعة في وسط سوريا ، فوصف بيركهات مدينة حماه الواقعة على ضفتي نهر العاصي بأنها حسنة البناء على الرغم من أنّ معظم جدرانها مبنية من الطين باستثناء القصور ، وقدّر بيركهات عدد سكان هذه المدينة بثلاثين ألفاً من بينهم حوالي ثلاثمائة عائلة مسيحية يونانية ، كما أخبره أحد المطرانة . أمّا من الناحية الاقتصادية ، فقد أشار بيركهات إلى أنّ تجارة حماه قائمة على البدو الذين يشترون ملابسهم وأمتعتهم منها ، كما ذكر أنّ حماه تُعدُّ مقراً لعدد كبير من الأثرياء الأتراك الذين اختاروا السكن فيها نظراً لمزايا المدينة ورفاهيتها ، إضافة إلى تهربهم من دفع الضرائب الحكومية الكبيرة ، ومن أشهرهم أحمد ناصيف باشا الذي يُقدّر دخله السنوي بنحو ثمانية آلاف جنيه^(١).

أمّا مدينة طرابلس فذكر بيركهات أنّها مدينة جيدة البناء تزينها عدّة حدائق ملحقة بالمنازل والبساتين ، وقدّر عدد سكان طرابلس بحوالي ١٥ ألف تُلثم من المسيحيين ، وفيما يتعلّق بالأوضاع الاقتصادية في مدينة طرابلس فقد أشار بيركهات إلى تراجع التجارة في طرابلس في الفترة الأخيرة ، كما تحدّث عن وجود بعض المؤسسات الفرنسية وبعض الأجانب في هذه المدينة يعملون في التجارة ، وأهمّ البضائع التي تُصدّر من ميناء هذه المدينة الحرير ، ومن البضائع الأخرى التي يُتاجر بها في طرابلس الإسفنج الذي يجهز في منطقة الساحل ، كما تُصدّر كميات من الصابون عبر طرطوس إلى بلاد الأناضول والجزر اليونانية إضافة إلى بعض الملونات الصبغية والتبغ^(٢) ، ووصف بيركهات عدداً من القلاع التي تمكّن من

(١) بيركهات : رحلات في سوريا ، ص . ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص . ص ٩٦ - ٩٨ .

زيارتها كقلعة مصيف ^(١) التي ذكر أنها قائمة على أحد المرتفعات الجبلية في مكان استراتيجي ، وبالقرب من القلعة تقع بلدة مصيف التي أشار إلى أن بيوتها مُهدّمة رغم كثرة الحجارة ، وذكر رحالتنا أن قلعة مصيف تعتبر مقر الطائفة الإسماعيلية ويعيش في البلدة حوالي ٢٠٠ عائلة إسماعيلية و ٣٠ عائلة مسيحية ، وأهم منتجات المنطقة خيطان الحرير حيث تنتشر مزارع التوت لتربية دودة القز ^(٢) ، كما تحدّث بيركهات عن العائلات القوية المسيطرة على جبل لبنان ، وخاصة الدرزية وهي آل جنبلاط وآل يزبك وآل نكد الذين كانوا متساويين في النفوذ ، لكن آل جنبلاط تمكنوا من زيادة قوتهم ، فكان لهم الغلبة على منافسيهم ^(٣).

وتحدّث بيركهات عن منطقة حوران ، والتي سبق أن قدّم السنوسي بعض التفاصيل عنها، فأشار بيركهات إلى أن سكان المنطقة يتألّفون من خليطٍ متنوّعٍ من المسلمين والمسيحيين ، وقدّر بيركهات سكان حوران ما بين ٥٠ إلى ٦٠ ألف . أمّا من الناحية السياسية فقد ذكر بيركهات أن هذه المنطقة تخضع لسلطة باشا دمشق الذي يُرسل حاكماً إلى المزريب يسمّى آغا حوران ، ويقوم ذلك الآغا بتعيين شيخ لكل قرية يتولى جمع الميري من المسلمين والمسيحيين ، أما الدروز فلا يخضعون لسلطة أغوات حوران ، بل يتصلون مباشرة بالباشا ويتزعمهم أحد مشايخهم وزعامته وراثية منذ زمن بعيد وهي الآن في آل حمدان ، ويقوم ذلك الشيخ بتعيين شيخ لكل قرية من قراه ويكون ذلك الزعيم إما من أقربائه أو من أحد أبناء العائلات المعروفة ، وعدّد بيركهات الضرائب التي يدفعها الفلاحون في حوران وهي ضريبة الميرى ، ونفقة إطعام العساكر خلال زحفهم ، وضريبة تدفع للبدو فضلاً عن بعض الضرائب الاستثنائية ، وأشار إلى الآثار السلبية لتلك الضرائب على أوضاع الفلاحين ^(٤). أمّا من الناحية الاجتماعية فقد أشار بيركهات إلى تشابه عادات وتقاليده المسلمين والمسيحيين في حوران ، على عكس الدروز الذين يختلفون عنهم في مناحي غدة كاللباس ^(٥) ، لكنّه أكّد على تشابه الجميع في بعض العادات وخاصة كرم الضيافة وحُسن الاستقبال ، كما تحدّث رحالتنا عن غلاء المهرّ في هذه المناطق ، ومن الناحية الاقتصادية أشار بيركهات إلى اعتماد

(١) مصياف : أو مصياب كما أطلق عليها ياقوت الحموي ، حصن شهير بالقرب من طرابلس. الحموي : معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص ٢٤٤.

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، المجلد الخامس ، ص . ص ٢٨٢—٢٤٨ .

(٢) بيركهات : رحلات في سوريا ، ص ٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص . ص ١٦٢—١٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

السكان على الزراعة كمصدر رئيسٍ لحياتهم ، وذكر انتشارَ بعض الزراعة المروية في منطقة حوران في المناطق التي تتوافر فيها المياه ^(١).

كما قدّم بيركهات بعض المعلومات عن بعض المدن في فلسطين ، وتكمن أهمية هذه المعلومات التي ذكرها بيركهات في حديثه عن اليهود الموجودين في تلك المدن ، فأشار إلى أنه يقطن في بلدة طبرية ٤٠٠ شخص ربعهم من اليهود ، ويوجد فيها بعض العائلات المسيحية ^(٢) ، وتحدّث بيركهات عن اليهود الذين يعيشون في طبرية في حيٍّ على شاطئ البحيرة ، وكانوا قد اشتروا مؤخراً أرضاً أخرى ووسّعوا منطقة وجودهم في عدّة شوارع ، وذكر أنه يوجد هناك حوالي مئة وستين أسرة أو ربما ما بين ٢٤٠ إلى ٢٥٠ منهم من أصول بولندية والبقية من أصول إسبانية ^(٣) . أما فيما يتعلّق ببلدة صفد فذكر بيركهات أنها قائمة على مجموعة تلالٍ صغيرة تقسمها إلى عدّة أحياء يسكن أكثرها اليهود ، ويبلغ مجموع سكانها حوالي ٦٠٠ عائلة ربعهم من اليهود ^(٤) ، وأشار بيركهات إلى الحرية الدينية التي يتمتع بها اليهود هنا ، فقد كانوا يدفعون في عهد أحمد باشا الجزار ضرائب كبيرةً ، أما الآن فلا يدفعون إلا الخراج ، وهم أغنياء جداً ويشهدُ على ذلك الأعراس التي يقيمونها ^(٥) ، ولكن على الرغم من ذلك فقد تحدّث بيركهات عن شعور معظم اليهود الموجودين هنا بأنهم خدعوا بأقوال المبشرين الذين وعدوهم بالعيش الرغيد في أرض المعيد كما يسمّونها ، فهربَ بعض الشباب من آبائهم من بولندا إلى فلسطين ، ولكن ما إن وصلوا إلى هنا حتى اكتشفوا أنهم تعرّضوا للخديعة ، وقد تمكّن بعض هؤلاء من العودة إلى بلادهم ^(٦) ، ووصف بيركهات مدينة نابلس بالمدينة القوية القادرة والتي لم يُفْلِح أحمد باشا الجزار بفرض سيطرته المطلقة عليها ^(٧) . أما مدينة بيسان فأشار رحّالتنا إلى الحياة البائسة التي يعيشها أهلها بسبب غارات البدو في منطقة الغور حيث يُجبرون على دفع الأتاوات لهم ^(٨).

(١) بيركهات : رحلات في سوريا ، ص ١٦٠.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٦.

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧٢.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٨.

(٦) المصدر السابق ، ص ١٧٩.

(٧) المصدر السابق ، ص ١٨٦.

(٨) المصدر السابق ، ص ١٨٩.

كما زار بلاد الشام من الرحالة الأجانب الدكتور الفرنسي لويس لورتيت (Louis lortet)^(١) عميد كلية الطب في جامعة ليون حيث يُعدُّ كتابه من الكتب الهامة التي تتحدث عن هذه المنطقة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، نظراً لأنه ضمّن كتابه الكثير من المعلومات الغنية عن أحوال بلاد الشام في تلك الفترة ، وما ميز هذه الرحلة عن غيرها من الرحلات الأخرى الصور والرسوم الكثيرة التي تجسّد أحوال بلاد الشام من نواحي عمرانية واجتماعية، فلورتيت لم يَقمْ بعد عودته إلى فرنسا بوضع الصور الفوتوغرافية الكثيرة التي التقطها أثناء تجواله بين المدن الشامية في كتابه ، بل استعان بعدد كبير من الرسّامين المَهرة الذين قاموا برسم تلك الصور، ممّا جعل كتابه أشبه بمَعْرِضِ صورٍ ورسومات تتحدّث عن أحوال بلاد الشام في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

استغرقت رحلة الدكتور لورتيت خمسة سنواتٍ حيث بدأ رحلته من ميناء مرسيليا سنة ١٨٧٥م ، وزار خلالها الكثير من المدن الشّامية ، وكان من أبرز المعلومات التي سجّلها عن بلاد الشام النشاط التجاري الكبير للموانئ الشّامية ، لكنّه عابَ على تلك الموانئ صِغَرَ مساحتها ، وعدم قدرتها على حماية السفن في فصل الشتاء مثل ميناء مدينة يافا الذي تُحيط به سلسلة من الصخور البحرية ، وتُصدرُ من خلاله الكثير من المحاصيل كالقمح والسمسم ، إضافةً إلى القطن والصوف والجلود والبرتقال والرمّان والعنب المُجفّف والفاكهة المختلفة وهي تُرسَلُ إلى مرافئ بور سعيد والإسكندرية ، ويُستورد من خلاله الأقمشة القطنية الإنكليزية والأميركية والحرير والعطور الفرنسية والأرز المصري إضافةً إلى النفط الأميركي " (٢) ، كما أشار إلى الأمر نفسه عند حديثه عن مدينة صيدا حيث شادَ بحجم البضائع المُصدّرة من ميناء هذه المدينة قياساً بصغر حجمها ، وتأتي في طليعة الصادرات العنب إضافةً إلى الحبوب والقطن وأنواع الجوز والفسق ومادة الأشنان.

أما فيما يتعلّق بمدينة بيروت فأعاد لورتيت ما ذكره الرحالة المغاربة عن التطور الذي تشهده هذه المدينة " عمران بيروت مختلف اليوم عما كان عليه منذ سنوات ، فوسطها حدائقٌ جميلةٌ وفوق التلال المحيطة قامت أحياء حديثة ذات مبان ضخمة وجميلة أنشأها

(١) لويس لورتيت (١٨٣٦ - ١٩٠٩م) : طبيب فرنسي ، قام برحلة طويلة على الشرق ، وزار خلالها بعض المناطق في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر ومصر ما بين سنتي (١٨٧٥ - ١٨٨٠م) . للتفصيل يرجى العودة إلى لورتيت : أرض الذكريات : ٣٠٠ لوحة رائعة من القرن الماضي - سوريا - لبنان - فلسطين - الأردن - رحلة الدكتور لورتيت عميد كلية الطب في ليون (فرنسا) ، ترجمة حميد شلق ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص ٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٥.

المقيمون الأجانب من شركات ومؤسسات دينية فرنسية وإنكليزية وأميركية وألمانية " (١) ، ولعل أهم المعلومات التي سجلها رحّلتنا من الناحية السياسية الصراع الدائر بين الموارنة والدروز ، وكيف استغلت الدول الأوروبية ذلك لصالحها ، وقدّر لورتييت عدد سكان مدينة بيروت بحوالي ٨٠ ألف نسمة نصفهم من المسلمين ونصفهم الآخر من المسيحيين بمختلف طوائفهم ، ولكل طائفة من المسلمين والمسيحيين مساجدها وكنائسها ومدارسها يضاف إليها المدارس والمؤسسات التي أنشأتها الإرساليات الأجنبية (٢) .

كما تحدّث لورتييت عن مدينة دمشق التي أعجب بموقعها الرائع وسط غابة خضراء وخصّصَ صفحاتٍ كثيرةٍ للحديث عن مشاهداته في هذه المدينة ، فوصفَ عدداً كبيراً من أحيائها وجوامعها وأسواقها وبيوتها وخاناتها وقلعتها وأسوارها وأبوابها وحدائقها مُبدياً إعجابه بكل ما شاهده في هذه المدينة العريقة موافقاً على الكلام الذي يقول بأنّ دمشق من أقدم المدن المأهولة في العالم " تاريخ مدينة دمشق قديم جداً ويتصل بأعمق الحقبات القديمة التي عرفتتها الإنسانية والعرب محقّون حين يقولون إنّها من أقدم مدن الدنيا ذلك أنّ موقعها في تلك الواحة الخضراء وسط الصحاري الممتدة والجال الوعرة جعل منها مقصداً للبشر منذ أقدم حقبات التاريخ " (٣) ، وقدّم لورتييت بعض المعلومات عن عدد كبير من المدن الفلسطينية ، والتي لم يشير إليها أيّ من الرحالة الذين زاروا فلسطين في تلك المرحلة كوجود عدّة جالياتٍ أوروبية قامت بالاستقرار في مدينة حيفا " وفي طليعة هؤلاء الألمان الذين أقاموا مدينة جديدة لهم عند أقدام جبل الكرمل في الجهة الشمالية الشرقية من حيفا " (٤) ، كما أشار لورتييت إلى اهتمام العثمانيين الكبير بإعادة تحصين مدينة عكا وترميم أسوارها وإصلاح مينائها ، والسبب في ذلك الموقع الاستراتيجي والهام لهذه المدينة المتحكم بطرق المواصلات في مناطق سوريا الجنوبية ، وخاصةً بعد افتتاح قناة السويس حيث أصبحت هذه المدينة محطّ اهتمام الإنكليز والألمان الساعيين إلى فرض سيطرتهم عليها (٥).

وقد حطّيت مدينة القدس بقسطٍ كبيرٍ من اهتمام لورتييت ، فخصّصَ صفحاتٍ عديدةٍ للحديث عن هذه المدينة وخاصةً جوامعها وكنائسها حيث لم يأتِ بجديد عمّا ذكره الرحّالة الذي زاروا القدس قبله ، لكنّ ما ميّز كتابات لورتييت عن القدس عن سبّقه من الرحّالة المعلومات التي تحدّث فيها عن اليهود في القدس قائلاً " حارة اليهود في القدس كثيفة السكان ، يبلغ عدد

(١) لورتييت : أرض الذكريات ، ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

سكانها عشرة آلاف نسمة تقريباً ، وهي تقع ما بين الحرم وجبل صهيون . هؤلاء اليهود مختلفو المذاهب والمشارب والعادات باختلاف البلدان التي جاؤوا منها إلى فلسطين منهم من جاء من الغرب من ألمانيا وروسيا وبولونيا وإسبانيا ، ومنهم من جاء من الشرق من تركيا ومصر وشمال إفريقيا ، وهم عموماً يكرهون الأعمال اليدوية ويعيشون دون ممارسة المهن المنتجة كثيرون منهم يمارسون مهنة الصيارفة ، كما هو حالهم في معظم مدن الشرق الأحياء والبيوت التي يعيش فيها اليهود تتل على فقرهم وظروفهم الاجتماعية السيئة ، لذلك ومنذ سنوات تُبذل جهودٌ كبيرة لتحسين هذه الأوضاع وذلك عبر تخصيص مبالغ كبيرة تصرفها شركات مالية قائمة في باريس ولندن وفيينا لتمويل مشاريع مختلفة منها إقامة مستوطنات جديدة لليهود لاسيما في المناطق التي لا يسكنها سوى البدو الرُّحَّل والسلطات العثمانية ستكسب بضعة ملايين لقاء التعاون والتغاضي " (١).

خامساً – استنتاجات :

طُبعت كتابات الرحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشَّام في القرن التاسع عشر بالطابع العلمي ، وهذا ما لاحظناه بوضوح كبير تجلَّى في حرص كلٍّ من محمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي على الاطلاع على النشاط العلمي في دمشق وبيروت حيث زار كلُّ منهما عدداً من المدارس والمطابع والمجلات والجرائد الموجودة في تلك المدن ، كما التقيا بعدد كبير من المفكرين والأدباء ، كذلك قدَّم رحَّالة هذا القرن بعض التفاصيل المهمة عن الجوانب الاجتماعية ككرم أهل بلاد الشَّام عموماً ودمشق خصوصاً ، وغلاء المَهْر في بعض المناطق، إضافةً إلى الإشارة إلى المزارات الموجودة في المدن التي زارها هؤلاء الرحَّالة .

أمَّا فيما يتعلَّق بالنواحي السياسية والاقتصادية ، والتي لم يتطرَّق إليها رحَّالة هذا القرن إلا ما ندر، فإنَّ معظم المعلومات التي تمَّ تسجيلها سبق أن ذكرها الرحَّالة الذين زاروا بلاد الشَّام في القرون السابقة ، كضعف السلطة المركزية في بعض المناطق — وإن لم تكن بالقدر الذي كانت عليه في القرنين السابع عشر والثامن عشر — وفقدان الأمن على الطرق ، وخاصة في فلسطين . أما من الناحية الاقتصادية ، فقد أعاد السنوسي ما ذكره الرحَّالة السابقين عن الفوائد الكبيرة التي يجنيها سكان بلاد الشَّام من خلال مرور قافلة الحج في مُدُنهم وقُراهم .

(١) لورتيت : أرض الذكريات ، ص ١٤٣ .

الـخـاتـمـة

لقد قمنا بدراسة كتابات عدد من الرحالة المغاربة الذين زاروا بلاد الشام في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، كما تطرقنا إلى كتابات بعض الرحالة العرب المشاركة والأوربيين الذين زاروا بلاد الشام في فترات قريبة من زيارة الرحالة المغاربة لهذه المنطقة بهدف مقارنة المعلومات وإغناء البحث ، خاصة في الجوانب التي أغفل الرحالة المغاربة الحديث عنها لأسباب تتعلق باهتماماتهم كالجوانب الاقتصادية ، أو أوضاع بعض المناطق التي لم يتمكن الرحالة المغاربة من زيارتها . ومن خلال دراسة ما دونه الرحالة المغاربة من معلومات عن بلاد الشام أثناء زيارتهم لهذا الإقليم ، ومقارنة تلك المعلومات ببعضها نستطيع الوصول إلى صورة واضحة عن أوضاع بلاد الشام في العهد العثماني من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، وإن كانت بدرجات متفاوتة بين ناحية وأخرى بما يتناسب مع اهتمام الرحالة والمعلومات التي تمكن من الحصول عليها ، كما أن وصف هؤلاء الرحالة للطريق الذي سلكوه في رحلتهم إلى المشرق مكننا من معرفة التطورات والتغيرات التي طرأت على طرق المواصلات بين المشرق العربي ومغربه .

— الطرق الجغرافية التي سلكها الرحالة المغاربة إلى المشرق :

اختلفت الطرق الجغرافية التي سلكها الرحالة المغاربة في رحلتهم إلى المشرق العربي ، باختلاف غاياتهم من تلك الرحلة ، وباختلاف مكانتهم الاجتماعية ، وأوضاعهم المادية وأحوال الطرق من النواحي الأمنية ، والتطورات التي شهدها العالم فيما يتعلق بوسائل النقل ، ولهذا نجد أن البعض اختار أن يسلك الطرق البرية المعروفة بين المشرق العربي ومغربه والتي كانت تسلكها القوافل منذ القديم كالعياشي الذي سلك تلك الطرق عبر المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وبلاد الشام والحجاز ذهاباً وإياباً ، والبعض الآخر سلك الطرق البرية والبحرية في آن واحد في رحلتهم إلى المشرق بما يؤمن لهم قدراً أكبر من الراحة كالمقري والمكناسي والزياني والأمير عبد القادر الجزائري حيث نلاحظ من خلال ما ذكره الرحالة رواج التنقل براً بين المشرق العربي ومغربه في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لكونه أكثر أمناً من السفر بحراً .

لكن هذا الأمر تغير في القرن التاسع عشر حيث نجد أن معظم الطريق الجغرافي الذي سلكه كلاً من محمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي كان طريقاً بحرياً ، ومرد هذا الأمر إلى

التطورات الكبيرة التي طرأت على وسائل النقل في القرن التاسع عشر، كتحسن صناعة السفن التي أصبحت توفر قُدراً أكبر من الراحة والأمن، كما ساهم افتتاح قناة السويس في رواج السفر بحراً بشكل عام، وإلى الأماكن المقدسة في الحجاز بشكل خاص.

— النواحي السياسية التي رصدها الرحالة المغاربة في بلاد الشام :

على الرغم من عدم الاهتمام الكبير من قبل الرحالة المغاربة بالحديث عن الأوضاع السياسية في بلاد الشام أثناء زيارتهم لهذه المنطقة، فإن كتاباتهم لم تخل من بعض الإشارات عن تلك الأوضاع، وتجلّى ذلك بنقاط عدّة الأولى تتعلق بالأوضاع الأمنية في بلاد الشام حيث تحدّث معظم الرحالة عن فقدان الأمن وانتشار اللصوص وقطاع الطرق وكثرة اعتداءات البدو على المدن والقرى القريبة منهم، وخاصة في فلسطين، وكانت النقطة الثانية التي أجمع عليها معظم الرحالة المغاربة ضعف السلطة المركزية للدولة العثمانية في بعض المناطق، مقابل ازدياد النفوذ المحلي فيها. أمّا النقطة الثالثة، فكانت تعريفنا بأسماء بعض الولاة والحكام والمفتين والقضاة الذين كانوا يتولّون إدارة أمور الحكم في بعض المناطق من بلاد الشام كوالي عكا أحمد باشا الجزار، ووالي دمشق مدحت باشا، وكانت النقطة الرابعة التي اتفق عليها الرحالة المغاربة الظلم الكبير الذي يتعرّض له السكان المحليون على أيدي حكامهم بسبب كثرة الضرائب المفروضة عليهم. أمّا النقطة الأخيرة التي أشار إليها بعض الرحالة المغاربة، وهي الفساد المستشري بكثرة بين الحكام والقضاة في بلاد الشام حيث قدّم بعضهم كالمكناسي والزياني أمثلة عدّة على ذلك.

— النواحي الاقتصادية التي رصدها الرحالة المغاربة في بلاد الشام :

يمكن القول إنّ الجوانب الاقتصادية في بلاد الشام كانت أقلّ النواحي التي حظيت باهتمام الرحالة المغاربة، ولكن على الرغم من ضلالة المعلومات التي قدّمها الرحالة المغاربة في هذا المجال، فإننا استطعنا التعرف على بعض الزراعات الموجودة في بعض المناطق الشامية كانتشار زراعة الزيتون بكثرة في منطقتي جسر الشغور، وقرية الرّمة في فلسطين، وزراعة القطن والمشمش الحموي في حماه، وانتشار زراعة الحبوب في القدس، كما ساهمت تلك الكتابات بتعريفنا بأهم الصناعات المنتشرة في بعض المناطق، كشهرة مدينة حمص بنسج الحرير الطبيعي، يضاف ذلك إلى المعلومات الهامة التي قدّمها الرحالة المغاربة عن الفوائد المادية الكبيرة التي يجنيها سكان بلاد الشام من خلال مرور قوافل الحج في أراضيهم، فيعمد سكان بلاد الشام إلى بيع الحجاج جميع ما يحتاجونه من البضائع.

— النواحي الاجتماعية والثقافية التي رصدها الرحالة المغاربة في بلاد الشام :

شغلت النواحي الاجتماعية والثقافية حيزاً كبيراً من اهتمام الرحالة المغاربة الذين أمدونا بكثير من المعلومات المتعلقة بتلك الجوانب ، وخاصة فيما يتعلق بالمزارات الموجودة في مختلف المدن الشامية ، والتي كانت محط اهتمام جميع هؤلاء الرحالة الذين كانوا شديدي الحرص على زيارة جميع قبور الصحابة والأولياء والصالحين الموجودة في القرى والمدن التي مروا بها ، كما يمكن تشبيه بعض الرحلات بكتب التراجم حيث ساهمت بعضها بتعريفنا بأسماء عدد من العلماء والفقهاء الذين اجتمعوا بهم خلال تنقلاتهم بين القرى والمدن الشامية ، إضافة إلى رصد الرحالة المغاربة لبعض العادات والتقاليد السائدة في بلاد الشام ، الإيجابية منها كالكرم وحسن استقبال أهل هذه المنطقة للضيوف والغرباء ، والسلبية منها كغلاء المهر في بعض المناطق كمطقة حوران .

— النواحي العمرانية التي رصدها الرحالة المغاربة في بلاد الشام :

انصبَّ اهتمام الرحالة المغاربة بشكل عام للحديث عن عمارة المساجد والجوامع ، وخاصة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والجامع الأموي ، فتحدثوا عن مساحة تلك المساجد ، ووصفوا زخارفها وأبوابها ومآذنها ، لكن ذلك لم يمنع البعض من الحديث عن عمارة بعض المدن كدمشق وأنطاكية والقدس وبيروت ، فاستطعنا من خلال ما دونه هؤلاء الرحالة التعرف على أوضاع بعض المدن الشامية من الناحية العمرانية سواء من حيث التطور والتقدم الذي شهدته بعض تلك المدن كالتطور الذي شهدته مدينة بيروت في القرن التاسع عشر ، أم من ناحية الخراب والدمار الذي تعانيه بعض المدن كمدينة أنطاكية .

الملاحق

الملحق الأول

**وقفية حي المغاربة بالقدس من لدن الملك الأفضل، المتوفى عام 622هـ/1225م
سجلت بعد وفاته بنحو أربع وأربعين سنة
وأعيد تأكيدها سنة 1400م**

شرط وقف محلة المغاربة قيد بلذن مولانا شجاع الدين أفندي قاضي القدس الشريف، وهذا الكتاب متصل الثبوت والتنفيذ بحكم الشريعة إلى يومنا هذا. وقيد في اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وأربعمائة.

بسم الله الرحمن الرحيم، يشهد من أثبت اسمه وشهادته آخر هذا المحضر، وهم يومئذ من الشهود الأمناء الأحرار العقلاء المسلمين الذكور الأخيار من أهل علم وخبرة بما يشهدون به شهادة عرفوا صحتها وتحققوا معرفتها ... لا يشكون فيها ولا يرتابون ... ويلقون الله بآدائها أنهم يعرفون جميع الحارة المعروفة المسماة بحارة المغاربة الكائنة بمدينة القدس الشريف ... الحد الأول وهو القبلي ينتهي إلى سور مدينة القدس الشريف وإلى الطريق المسلوكة إلى عين سلوان، والحد الثاني وهو الشرقي ينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الثالث وهو الشمالي ينتهي إلى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الرابع وهو الغربي ينتهي إلى دار الإمام، شمس الدين قاضي القدس، ثم إلى دار الأمير عماد الدين بن موسكي، ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايمان.

ويشهد شهوده أن هذه الحارة المعينة، أوقفها السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، رحمهما الله تعالى، على جميع طائفة المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم ذكورهم وإناثهم كبيرهم وصغيرهم، فاضلهم ومفضولهم، ليسكنوا فيها من ترتيب ذلك وتفضيل من يفضلهم وتقدير من يقدمه، بحيث لا يتخذ شيء من المساكن ملكا ولا احتجازا ولا بيعا، وقفا مؤبدا شرعيا، ماضيا جاريا على هذه الطائفة المغاربة.

ويشهد شهوده أن النظر في ذلك، وفي كل جزء منه، وفي ترتيب أحواله ووظائفه وأموره راجع إلى من يكون شيخا قدوة من المغاربة المقيمين في كل عصر وأوان بالقدس الشريف، يتولى ذلك بنفسه وله أن يولي من اختار وآثر، ويستنيب عنه من يقوم مقامه، وله عزله إذا أراد.

ويشهدون به وبذلك كتبوا شهاداتهم في اليوم الرابع والعشرين من شهر الله رجب الفرد سنة (666هـ).

الملحق الثاني

نص وثيقة المصمودي، بتاريخ 703هـ/1303م⁽¹⁾

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المنان والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد ولد
عدنان وعلى آله وأصحابه سلم تسليماً وبعد، فقد أشهد على نفسه الشيخ الصالح الناسك
العابد الخاشع الزاهد المجاهد عمر المجدد المغربي المالكي بن شيخ الشيوخ القدوة الزاهد
عبد الله المغربي ابن الرجل الصالح عبد النبي المغربي المصمودي المجدد أنه وقف وحبس
وسبل وتصدق وحرم جميع الثلاثة الدور الموجودين كذا بحارة المغاربة مع جميع ما يعرف
بهم وينسب إليهم خارجاً عنهم أو داخلهم فيهم وشهرتهم كافيّة عن ذكر أربع حدودهم وجميع
الزاوية التي أنشأها الواقف بأعلى حارة المغاربة من جهة الغرب وقدر عدة الحجرات التي
بداخلها عشر حجرات بجميع حقوقها ومرافقها داخلها فيها وخارجاً عنها وقفاً صحيحاً من
جنس المغاربة وعلى الواردين من المغاربة لبيت المقدس الشريف فمن ذلك أمد الزاوية التي
هي بأعلى الحارة للواردين من المغاربة وسكننا إليهم وأعد غلة الثلاثة دور المذكورين على
مصالح الزاوية المذكورة وعلى إطعامية العيدين والمولد الشريف، وإن فاض شيء يشتري به
خبزاً ويفرق في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان على المغاربة الموجودين بالقدس. وقد
جعل التولية والنظر من بعده إلى الأتقى من جنس المغاربة المقيمين بالقدس الشريف وإنه
يتقيد المتولي والناظر على الوقف لخدمة الزاوية ولإصلاحها على حسب ما هو مشروط وإن
هذا الوقف لا يرهن ولا يوهب، ولا يسلب ولا يحل لمؤمن بالله أن يبطل هذا الوقف فمن بدله
بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدون لونه أن الله سميع عليم، في اليوم الثالث المبارك من
شهر ربيع سنة ثلاث وسبعمائة والحمد لله رب العالمين.

قاضي القدس الشرعي

(1) أصل هذه الوثائق محفوظ في سجل أوقاف المغاربة الموجود بالمحكمة الشرعية بالقدس الشريف، وقد زودنا بنسخ طبق
الأصل زميلنا سعادة السيد كمال الحمود سفير المملكة الأردنية الهاشمية ببغداد سابقاً، بمساعدة سعادة رئيس بلدية القدس
السيد روجي الخطيب، وقد كان أول من تحدث عن هذه الوثائق عام (1931م) في جريدة الكلية ببيروت عدد 4، 3 الأستاذ عبد
الله مخلص أمين المجلس الإسلامي الأعلى وعضو المجمع العلمي بدمشق آنذاك، وقد كان ممن اهتم بهذه الوثائق زميلنا د.
عبد اللطيف الطيباوي في بحثه بالإنجليزية عن المؤسسات الإسلامية الخيرية في القدس، لندن (1978م)، وبالعربية في مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق، أكتوبر (1979م).

الملحق الثالث

نص وثيقة وقف أبي مدين عام 720هـ/1320م

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد، فهذا كتاب وقف صحيح شرعي، وحبس صريح مرعي، اكتبته الفقير إلى الله سبحانه، الراجي عفوه وغفرانه الشيخ الإمام العالم الفاضل الورع الزاهد الخاشع السالف العارف القدوة أبو مدين شعيب بن سيدنا الشيخ الصالح العالم العامل المجاهد أبي عبد الله محمد بن الشيخ الإمام بركة المسلمين حجة الله ببقية السلف الصالحين أبي مدين شعيب المغربي العثماني المالكي نفع الله ببركته وفسح بمدته، وأشهد على نفسه الزكية وهو في صحته أنه وقف وحبس وسبل وأيد وتصدق وحرم وحرر وأكد جميع المكائين الآتي ذكرهما ووصفهما وتحديدتهما فيه الجاريين في يد الوقف المذكور وملكه وتصرفه وحيازته إلى حين هذا الوقف، يشهد بذلك من يعينه في رسم شهادته بآخر هذا الكتاب المبارك واحد المكائين المذكورين وهو قرية تعرف بقرية عين كارم من قرى مدينة القدس الشريف وتشتمل على أراضي معتمل ومعطل وعامر ودائر وأوعار وسهل وصخور ساد الأتراب عليها ولا ينتفع بها بزرع وتشتمل على آثار دور برسم سكنى فلاحها وبنيان بأراضيها وبستان صغير وأشجار رمان وغير ذلك يستقى من عين مائها، وأشجار زيتون رومي وخروب وتين وبلوط وقيقب، ولها حدود أربعة تجمعها وتحصرها وتحيط بها : الحد القبلي منها ينتهي إلى المالحة الكبرى، والحد الشمالي ينتهي إلى بعض أراضي عين كاوت وقلونية وحاراش وصاطاف وزاوية البختياري، والحد الغربي ينتهي إلى عين الشرقي، والحد الشرقي ينتهي إلى بعض أراضي المالحة الكبرى وبيت موميل، بجميع حقوقها ومرافقها ومزرعها ومفلحها وأندرها ودمنها والعين الموجودة بها والنزاعات والأشجار الثابتة بها والآبار الخربة وقرامي العنب العتيقة الرومية وما ينسب للقرية المذكورة وبكل حق هو من حقوقها داخلة فيها وخارجا عنها منسوب إليها خلا ما في ذلك من مسجد الله تعالى وطريق المسلمين ومقبرة لهم فإن ذلك خارج عن هذا الوقف وغير داخل فيه. وأما المكان الثاني الموقوف فيه فإنه بالقدس الشريف بخط يعرف بقنطرة أم البنات، باب السلسلة، المشتمل على إيوان وبيتين وساحة ومرتفع خاص، وسفلى ذلك مخزن وقبر، ولذلك حدود أربعة معلومة، وقفاً صحيحاً شرعياً قاطعاً ماضياً صريحاً مرعياً وحسباً دائماً سرمداً وصدقة جارية ومعروفاً مؤكداً وسبيلاً خالصاً لأهله مؤبداً والمستحقين على الدوام وقفاً عليهم ولهم مرصداً محرماً بحرمة الله العظيم ابتغاء لوجه الكريم وطلباً لثوابه العميم يوم يجزي الله المتصدقين لا يباع ذلك ولا شيء منه ولا من حقوقه ولا من حدوده ولا يملك ولا يناقض ولا يحل عقد من عقود.

ولا يرجع هذا الوقف لغير أهله ولا يعرض على غيرهم ولا يتبدل محفوظاً على شروطه المبينة لا يبطله تقادم دهر ولا يوهنه اختلاف عصر، كلما مر عليه زمان أكده وكلما أتى عليه أوان بينه وسدده أبد الأبدين ودهر الدهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، إنشاء الوقف المذكور أعظم الله له الأجور وقفه هذا على السادات المغاربة المقيمين بالقدس الشريف والقادمين إليها من السادات المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم ذكورهم وإنائهم كبيرهم وصغيرهم فأصلهم ومفضلهم لا يمتازهم فيه منازع ولا يشاركهم فيه مشارك ينتفعون بذلك السكن والإيجار وسائر الانتفاعات والمقاسمة. والمزارعة على الضيع المذكورة، ويقدم في ذلك الواردين على المقيمين والأحوج فالأحوج والأدين فالأدين، فإذا انقرضت المغاربة ولم يوجد منهم أحد مقيماً بالقدس الشريف سواء كان ذكراً أو أنثى فيرجع وقفاً على من يوجد من المغاربة في مكة المشرفة زادها الله شرفاً وعلى من يوجد منهم بالمدينة المنورة، فإذا لم يجد أحد بالحرمين الشريفين فيرجع وقفاً على الحرمين الشريفين بشرط الوقف النظر والتولية بالقدس الشريف ويشهد له بالرشد والتقوى، وقد أعد المكان الثاني المندرج في هذا الكتاب زاوية سكناً للواردين الذكور من المغاربة وليس إناث المغاربة الواردات ولا للذكور المغاربة المقيمين ولا لأبائهم السكن في المكان المذكور، وعلى كل من يتولى هذا الوقف أن يبدأ بعمارته وإصلاحه وترميمه وما فيه بقاء عينه ومزيد فعله وريعه وعلى ألا تواجر القرية مع أماكن استغلالها والمقاسمة عليها أكثر من سنتين ولا يستأنف عقد حتى ينقضي العقد الأول، وقد شرط الوقف أن بعد الفايض من التعميرات أن يعمل المتولي في الثلاثة أشهر وهم رجب وشعبان ورمضان خبزاً ويفرقه في الزاوية على المغاربة لكل قادم من المغرب ومقيم من المغاربة بالقدس الشريف جوازياً؟ رغبان ذكوراً وإنثاً عند تفريق الخبز بعد صلاة العصر يقرأ الحاضرون سبع فواتح والإخلاص والعمودتين ثلاثاً ويهدي ثواب ذلك إلى حضرة النبي ﷺ لأصحابه وأتباعه ولروح الوقف ولجميع ما ينسب بالخير في هذا الوقف وبشرط الوقف إطعامه في عيد الفطر وفي عيد الأضحى وفي المولد الشريف لفقراء المغاربة وبشرط الوقف أن يدفع المتولي لكل قادم من الغرب محتاجاً ومقيماً بالزاوية ثمن الكسوة تقيه من البرد وإذا مات مغربي ولم يكن عنده شيء فيصرف تجهيزه وتكفينه من غلة الوقف، فقد تم هذا الوقف المبارك بتمام شروطه وأركانه وفق قواعده وصحة بنيانه ونفذ حكمه وانبرام لوقوعه من أهله في محله على الوجه المرضي لجوازه وحله ولخلوه عما يؤدي إلى نقضه وحده لكونه صار وقفاً مؤكداً وحبساً دائماً محرراً مسدداً لا يملك ولا يتصدق به ولا يرهن ولا يناقذ به ولا يتعوض عنه ولا يسلب ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه العظيم صاير : من أمير أو مأمور ذي سلطان جابر، أن يبطل هذا الوقف لا شيء منه ولا بغيره، ولا يشس منه ولا يقدر فيه، ولا في شيء منه ولا يسعى في إبطاله، ولا في إبطال شيء منه جاهر ولا بايماً ؟ ولا بفتوى، ولا بمشورة ولا بتدقيق حيلة يعلم بها الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فمن فعل ذلك وأعان عليه فالله تعالى طليبه وحسيبه ومؤاخذه بعمله ومجازيه بفعله ويلق الله وهو غضبان عليه غير راضي عنه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو

أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد، ومن خالف ذلك فقد عدل عن أمر ربه وتمرد عليه واستبان وعيده واستحق لعنته ولعنة الله لعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين فالويل ثم الويل لمن خالفه وتعداه لقوله تعالى ﴿فمن بدلته بعدما سمعها فإنما إثمها على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ وقد وقع أجر هذا الوقف على الله رب العالمين الذي لا يضيع أجر المحسنين وأشهد عليه أحسن الله إليه وأجرى الخيرات على يده بجميع ما نسب إليه في هذا الكتاب بعد أن قرئ عليه من أوله إلى آخره وتلفظ بوقف ما عين وقفه فيه على الحكم المشروح فيه في الحال والحال ولشروط الشروط والنظر كما عاينه وبين بأعاليه وذلك في اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة عشرين وسبعمائة أحسن الله تنظيمها في خير وعافية والحمد لله رب العالمين وصلى الله عليه سيدنا محمد وآله وصحبه وعترته الطيبين الطاهرين.

قاضي القدس الشرعي

الملحق الرابع

أمر حاكم الشام بعدم تغيير وقفية أبي مدين عام 1256هـ/1840م

افتخار الأماجد الكرام ذوي الاحترام أخيئنا السيد أحمد اغايداردان متسلم القدس الشريف حالا.

إنه ورد لنا أمر سامي سر عسكري مضمينه صورة اراده شريفه خديويه صادرة لدولته يعرب مضمونها العالي أنه قد اتضح من صورة مذاكرة مجلس شوري القدس الشريف بأن المحل المستدعى بتبليطه لليهود هو ملاصق إلى حايط الحرم الشريف وإلى محل ربط البراق، وهو كاين داخل وقفية حضرة أبو مدين، وما سبق لليهود تعمير هكذا اشيا بالمحل المرقوم، ووجد أنه غير جائز شرعيا فمن ثم لا تحصل المساعدة لليهود بتبليطه وأن يتحذروا اليهود من رفع الأصوات وإظهار المقالات ويمنعوا عنها، فقط يعطى لهم الرخصة بزياراتهم على الوجه القديم، وصادر لنا الأمر السامي السر عسكري بأجرا العمل بمقتضى الإرادة المشار إليها فيحسب ذلك اقتضى إفادتكم بمنطوقها السامي لكي بوصوله تبادروا لأجرا العمل بمقتضاها المنيف يكون معلومكم.

في 24 ربيع الأول 1256هـ/28 ماي 1840م.

الختم
محمد شريف باشا

الملحق الخامس

قرار متولي أوقاف المغاربة بعدم الخضوع لتغيير الوضع القائم عام 1328هـ/1911م

إن متولي أوقاف أبي مدين الغوث شعيب قدس الله سره قد رفع استدعاء يبين فيه أن أفراد الطائفة اليهودية الذين جرت عادتهم بالذهاب إلى الحائط المعروف بالبراق الكائن خارج الحرم الشريف في القدس الشريف لجهته على أن يبقوا في أثناء زيارتهم واقفين على أقدامهم، أخذوا أخيراً خلافاً للعادة يجلبون كراسي للجلوس عليها أثناء زيارتهم، وبما أن البراق من أملاك الوقف المذكور أعلاه ويؤدي إلى زقاق غير نافذ فقد طلب المتولي المشار إليه توقيف هذه الحالة حالاً تجنباً لادعاء اليهود في المستقبل بملكية المكان.

وعند تقديم الاستدعاء السابق الذكر بين فضيلة المفتي ودائرة الأوقاف والمحكمة الشرعية في مطالعتهم على الاستدعاء المشار إليه بأن الوقف المذكور كائن داخل المسقفات المجاورة لحائط المسجد الأقصى الشريف من جهة الغربية وهو عبارة عن زقاق غير نافذ عائد للوقف المذكور وأنه محظور بموجب الشرع من جمع الوجوه وضع كراسي أو ستار أو أشياء أخرى من هذا القبيل أو إحداث أي بدعة مما يدل على الملكية، وأنه ليس لأحد الحق في وضع أشياء كهذه أو إحداث أية بدعة مما يؤول إلى احتلال موقع حائط المسجد الأقصى الشريف وأنه يجب اتخاذ التدابير لمنعهم.

وبعد المذاكرة في الأمر قرر المجلس عدم السماح بوضع أشياء تعتبر بأنها من دلائل الملكية سواء في الوقف المذكور أو عند حائط الحرم الشريف وأنه يجب أن لا تعطى فرصة لأحد بوضع أشياء كهذه ومن الضروري المحافظة على العادة القديمة. وعليه نرفع هذا الاستدعاء المذكور مع ملحقاته إلى سعادة المتصرف لإجراء الإيجاب.

الختم
مديرية أوقاف القدس

الإمضاء
عارف حكمت

الملحق السادس

المسار التفصيلي لرحلة المكناسي

جدول بمراحل سفر ركب الحج العثماني من أسكدار إلى مكة

ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة السير	نقطة الوصول	رقم الرحلة
تاريخ الخروج من عدوة إستانبول 25 رجب / 18 ماي 1787	1	قرطل	1 بقية اليوم	4
غالباً ما يستريح الركب بقية اليوم الذي يصل فيه ليغادر ليلاً أو في الصباح الباكر	2	كبزة	1	5
سي	3	2 س. + 2 س. ونصف مدة العبور	خارسك كوى بعد عبور خليج ديل سقال	1
1	5 س.	كاور كو	4	1
1	6 س	جنزنك	5	1
1	5 س	لفك	6	1
1	4 س	خان الوزير	7	1
1	7 س	مدينة السكوت	8	1
أول محطة استراحة للركب بين إستانبول والشام	9	2 يومان ونصف 10 س	أسكشهير	1
1	9 س	سيدي الغازي	10	1
1	8 س	خضرم باشا	11	1
1	5 س	بياض كوى	12	1
1	8 س	بلودم	13	1
1	12 س	مدينة أخ شهير	14	1

15	إلغين	9 س	0	الرحيل بعد منتصف الليل
16			اللاذق	9 س
17	قونية	10 س	2	ثاني منزلة للاستراحة
18	إسمل	11 س	القيلولة	منطقة صحراوية كثيرة الرياح
19			قربنار	9 س و30د
20			أركلة (كتك شام)	11 س
21			وادي قشلة	9 س
22			شفت خان	6 س
23			أوابل	8 س
24			الشاقط	8 س
25	مدينة أذنة	8 س	1	ثالث محطة للاستراحة
26				الخروج ليلة يوم الوصول كما هو دأب الركب في كل المراحل
27			قرطقراط	7 س
28			بياس	10 س
29			بيلان	8 س
30	أنطاكية	12 س	2	رابع منزلة للاستراحة على طريق الشام
31			الزنبق	11 س
32			جسر الشجر	6 س
33			قلعة المضيق	10 س
34	حماة	10 س	2	خامس محطة للاستراحة
35			رستن	؟
36				من شروق الشمس إلى عشيبة نفس اليوم، والغريب أن ابن عثمان يروي عن قيامه بزيارات كثيرة. بحيث يتساءل المرء كيف تسنى له ذلك وهو متعب.
				محمص

		37	ضبعة الحسية	8 س	1
		38	النبق (قرية)	10 س	1
		39	القطيفة (قرية)	8 س	1
40	دمشق	8 س	38	غادر الركب دمشق بتاريخ 19 شوال	
		41	ذو النون (قرية)	5 س	1
		42	الصنمين (قرية)	6 س	1
10		6	محطة للقيام بإجراءات كراء الدواب والتعاقد مع القيمين على خدمة الحجاج		
		43	مزيرب	س	
		44	الرمثا	8 س	1
		45	المفرق	8-10 س	نصف يوم
		46	وادي الزرقا	12 س	1
		47	خان الزبيب	5 س	1
		48	البلقا	17 س	1
		49	وادي النسور	~ 12 س	؟
		50	قطرانة (قرية)	18 س	1
		51	بوغاز الحسا	18 س	1
		52	قلعة عنزة	؟	1
53	معان	7 س	3	المنزلة الثانية بين الشام ومكة	
		54	العقبة (مضايق)	18 س	1
		55	قلعة المدورة	12 س	1
		56	قلعة ذات حج	10 س	1
	57	القاع	~ 12 س	1	
		58	تبوك	12 س	1
	59	ظهر مغر	~ 12 س	1	
60	الأخضر (قلعة)	10 س	1	التزود بالماء ما يكفي مسافة 3 أيام	
		61	مكان غير معلوم للتزول بين جبال	15 س	نصف يوم
		62	قلعة الحمراء	16 س	نصف يوم

			63	مدائن صالح	23 س	1
			64	سهل المطران	؟	1
			65	البئر الجديد	21 س	1
			66	هدية	20 س	1
			67	الفحلتين	12 س	1
			68	آبار ناصف	15 س	1
69				جبل سلع بظاهر المدينة	؟	3
70				ذا الحليفة (بيار علي)	2 س	1
			71	الشهداء	16 س	نصف يوم
			72	قرية الجديدة	15 س	نصف يوم
بدر	15 س		1	التقاء الركب الشامي والركبين المصري والمغربي.		73
				القاع		15 س
رايع	20 س		2	مقات الركب الشامي بالقرب من ساحل البحر الأحمر.		74
						75
			76	قديد	؟	1
			77	خليص	8 س	1
			78	سبيل الجواحي	13 س	1
12 ~	20 يوما			وصل الركب إلى مكة بتاريخ 7 ذي الحجة 1201 الموافق لـ 20 شتنبر 1787		س
				مكة		79
				مراحل الرحلة بين دمشق وعكا وجولته في فلسطين		
				ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة الرحلة
				الخروج من دمشق 9 ربيع 2- 1202	1 يوم	نقطة الوصول
				رقم المرحلة	1 س ونصف	قرية المزرة
1						
			2	قصبة سعسع	10 س	1
			3	خان الأرنب	5 س	1
			4	خان الجسر	9 س	1
			5	خان بجانب بئر يوسف	5 س	1
			6	قرية الرمة	5 س	1
			7	عكا	6 س	9

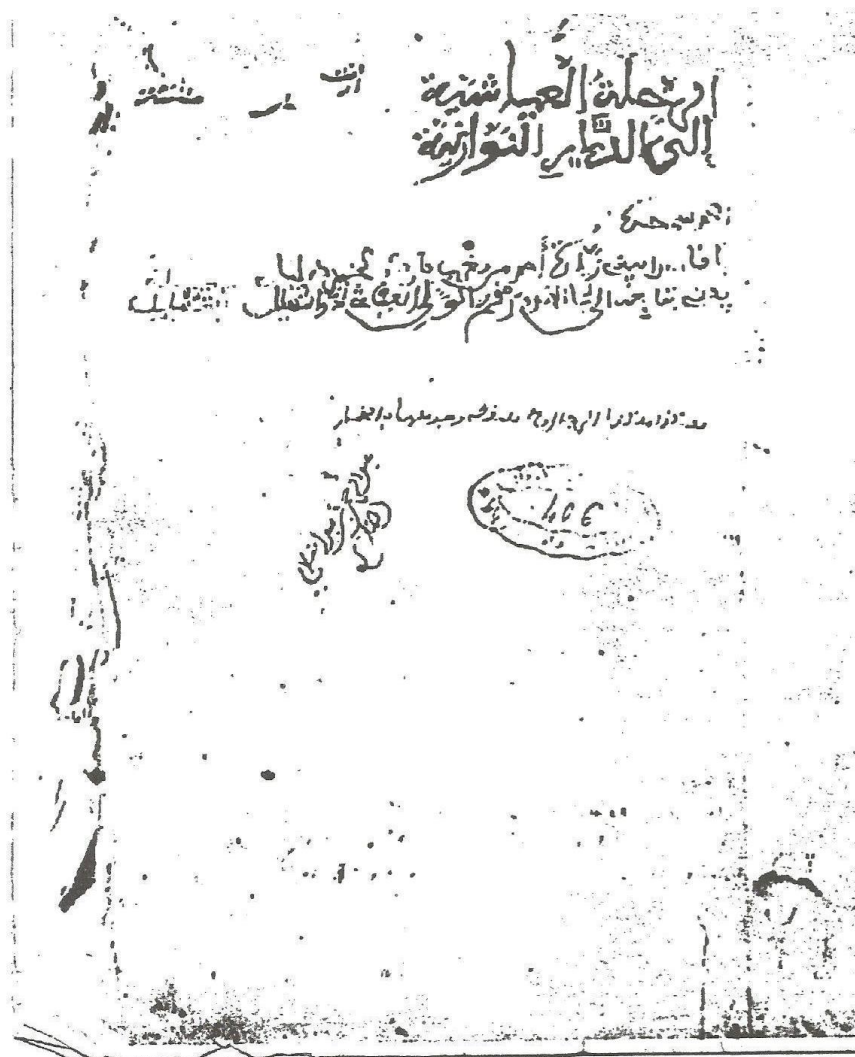
1	6 س	مضارب بدو قرب ضريح الشيخ إبراهيم الزعبي	8
1	7 س	قلعة سنور	9
1	4 س و 1/2	نابلس	10
1	10 س	البيرة	11
2	2 س و 1/2	القدس الشريف	12
13	1	الخليل	6 س
2	6 س	القدس	14
1 (المبيت)	؟	قرية سنجيل	15
1 (المبيت)	؟	قلعة سنور	16
الإقامة في عكا إلى غاية 27 ربيع الثاني بقصد الإبحار نحو المغرب عبر مرسيليا.			
؟	عكا	17	
مراحل الرحلة البرية من تونس إلى فاس			
ملاحظات	مدة الاستراحة	مدة الرحلة	نقطة الوصول
الخروج من تونس في 3 رجب 1202	1 يوم	5 س	بلدة تبربة
1	6 س	مجاز الباب	2
1	4 س	بلدة تستر	3
1	4 س	قرية تبرسق	4
1	7 س	القنطرة موضع على وادي	5
بلدة	4 س	يشير ابن عثمان إلى أن هذه البلدة هي حد إفريقية	1
	6	الكاف	
1	8 س	عين الزرقا	7
1	7 س	تفش (موضع)	8
1	8 س	مرج كحيل (موضع)	9
9 س	مهيرز (موضع)	10	
7	4 س	قسنطينة	11
اللافت أنه بعد الخروج من قسنطينة لم يعد ابن عثمان يفصل في مراحل الطريق			
11 يوما	الجزائر	12	2

المبيت بوجدة 12 يوما تلمسان ؟
1 وجدة (قرية) 13
الظاهر أن ابن عثمان استعجل الوصول بحيث أغفل ذكر مراحل الطريق، وكان دخوله فاس في آخر
يوم من شعبان من سنة اثنتين ومائتين وألف .
فاس ؟
15

صور من المخطوطات

[illegible]

صور من مخطوطة الرحلة الحجازية للسنوسي : الصفحة الأولى من الجزء الأول

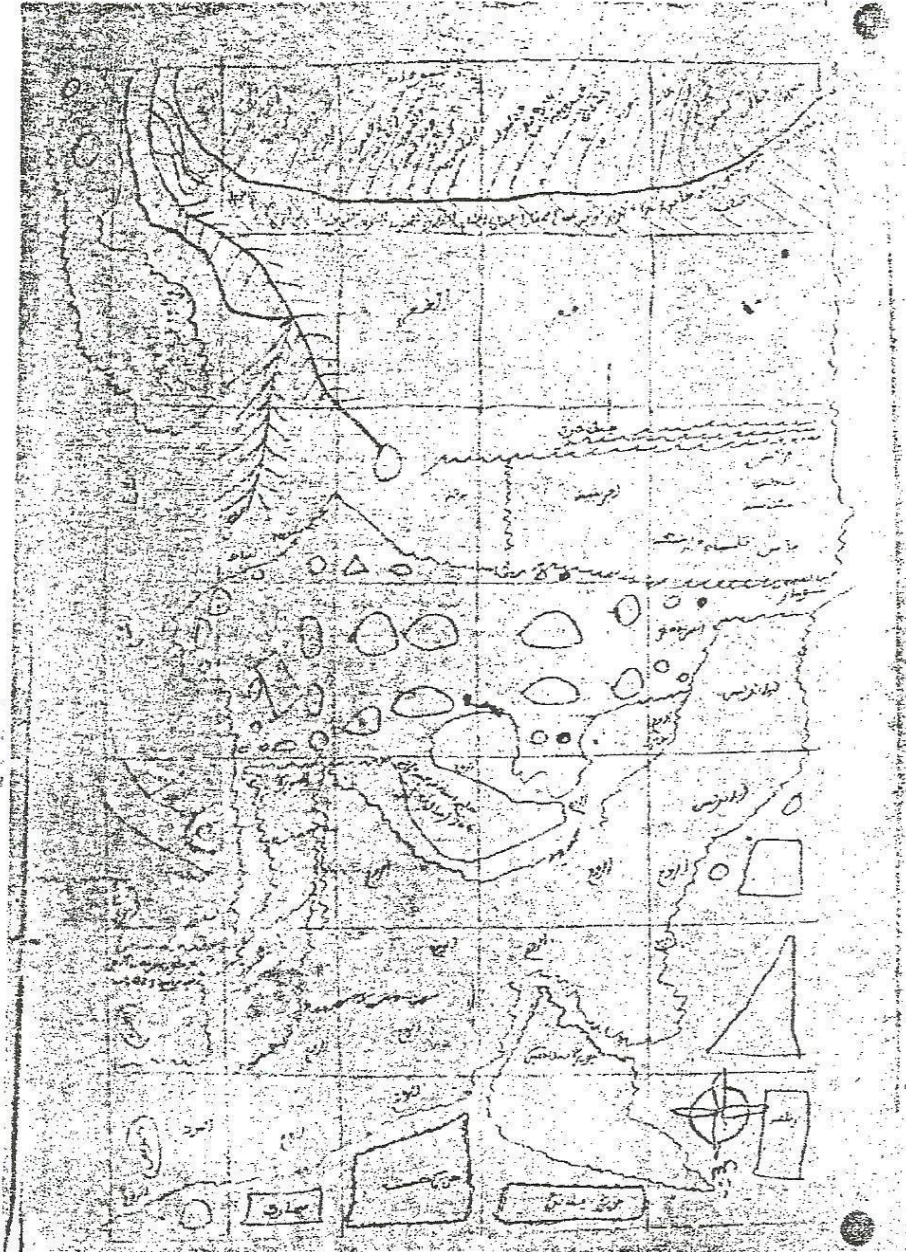


الصفحة الأولى من النسخة الخطية للرحلة العياشية

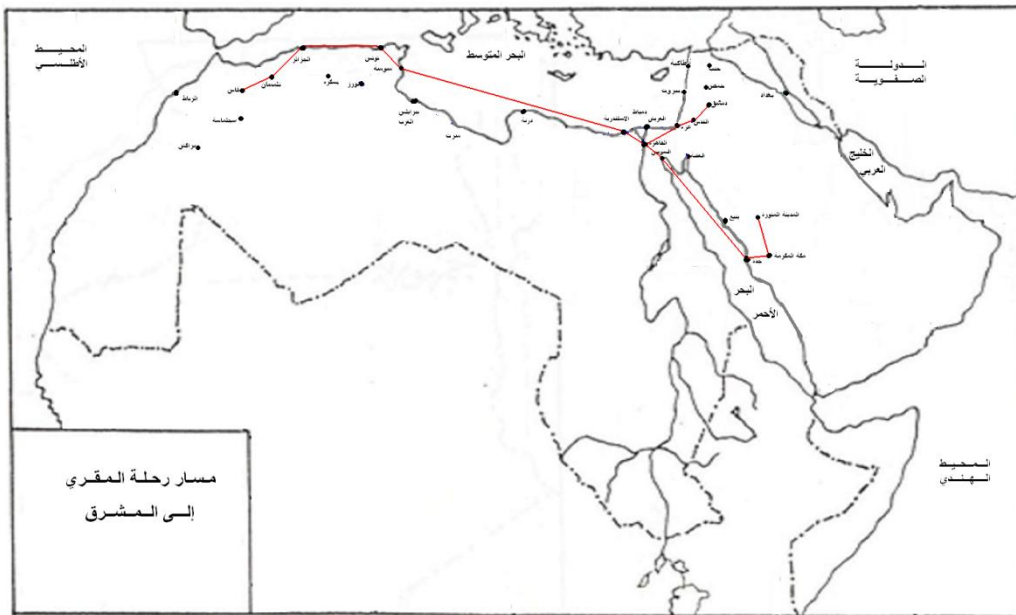
باب الزحمة والقرية **والسابع** باب حطة جحمة اشمل
وهو انه في ام الله تعالى في ان يرايه غلوانه فجلوا حطة
بعدوا وخالوا ما اموا به لعنهم الله **والخامس** باب في رايها
في جهة الشمال ايضا ويررانه انه في حطه ثم من الحجاب رضى
الله عنه يوم اخرج **والسادس** باب الغرابة والسابع
باب القصور في حطه من ام الله المعطي عيسى من ابن
في حطه السنية ويخرج في باب ميكائيل **والثامن** باب الخبير
والثامع باب الفخاير منه يخرج السر والفخاير والعاني
والعاش رستم باب السلسلة وباب التينة ومناجاة ربي
المغاربة في حطه الخاور **باب جامع المغاربة** انه في حطه
او لا في حطه يلقى في حطه المغاربة وهذه الابواب في حطه
من الحجة الثانية ويسمى باب الشرح عليه السلام وزر
ايضا في حطه الموضع الذي فيه حطه نبي الله صلى الله عليه وآله
فهو كسب عليه السلام ومن الحطه في حطه اربع ونعت في حطه
في حطه صاحبها وشرها من هذا المدار على البصا الحمر عليه السلام
في حطه كله من حطه الحمر في حطه الحجة من حطه الحجة
عمر في حطه في حطه الحطه في حطه الحطه في حطه الحطه
الحطه في حطه الحطه في حطه الحطه في حطه الحطه

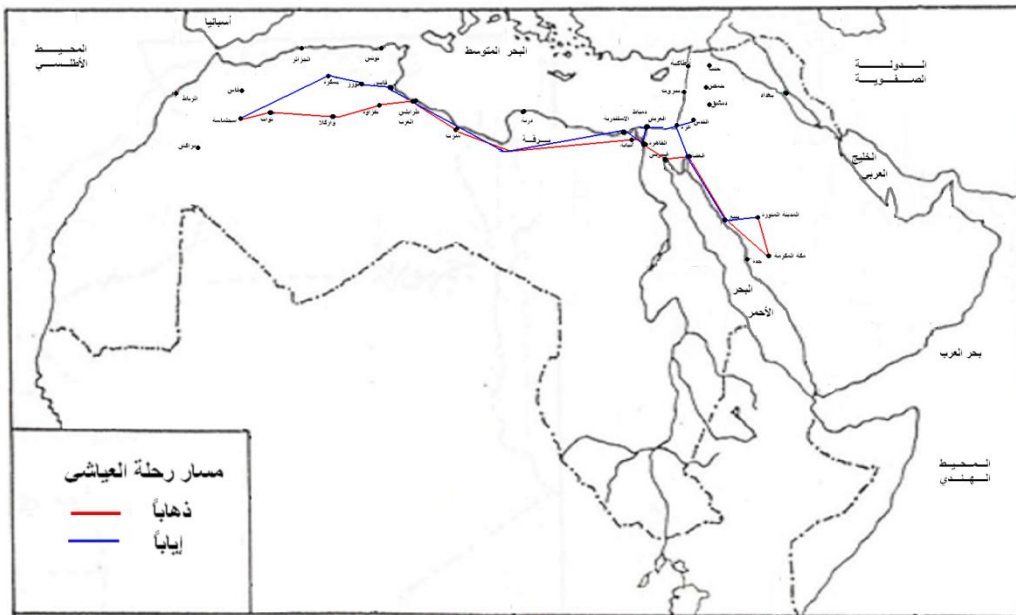
رحلة ابن عثمان إلى القدس والخليل، المخطوطة توجد بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط.
إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب.
الحديث عن حارة المغاربة المخطوطة رقم : 12307

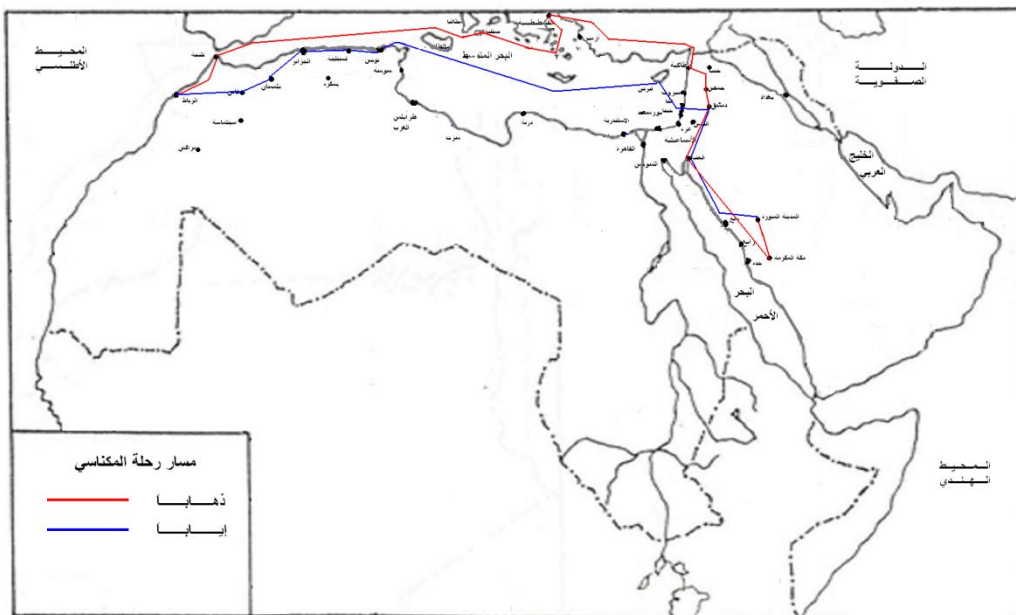
الملحق الثامن

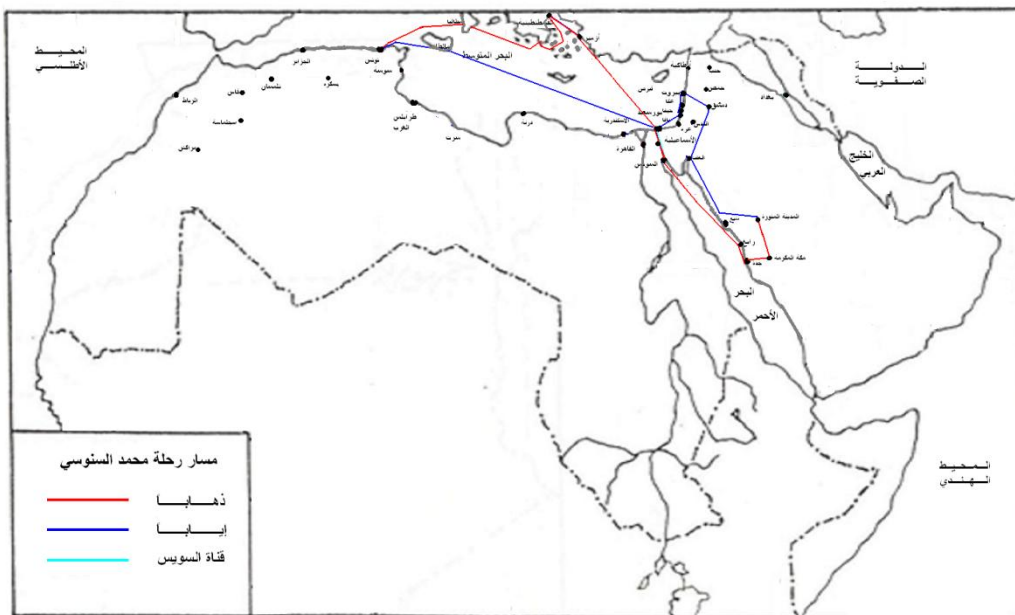


جانب من خريطة ابي القاسم الزياتي كما وضعها بالترجمة ونحن ننشرها على علاتها
وان كان فيما يبدو لم يقصد الوضع الحقيقي للكرة الارضية بل التقريب فقط
وقد اشرنا الى الشمال الذي عكسه المؤرخ باشارة تبين الاتجاه









— قائمة المصادر والمراجع :

أولاً — المصادر المخطوطة :

- الصديقي ، مصطفى البكري : **الخمرة الحسية في الرحلة القدسية** ، مكتبة الأسد ، دمشق ، برقم م ف/م/ ١٩٩ ، م ش /م/ ٦٤٨ .
- القساطلي ، نعمان أفندي : **الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية** ، جزءان ، مكتبة الأسد ، دمشق ، الجزء الأول برقم ٤٩١٩ ، الجزء الثاني برقم ٤٩٢٠ .
- اللقيمي ، مصطفى أسعد بن أحمد : **موانح الإيس برحلتني لوادي القدس** ، مكتبة الأسد ، دمشق ، برقم ٩٢٩٧ .

ثانياً — المصادر المطبوعة :

- ابن بطوطة : **رحلة ابن بطوطة** ، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .
- ابن أبي ضياف : **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الاجتماعية ، ٥ مجلدات ، تنفيذ الدار العربية للكتاب ، (د.م) ، ١٩٩٩م .
- ابن الصديق ، حسن : **غرائب البدائع وعجائب الوقائع** ، دراسة وتحقيق يوسف نعيمة ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، دمشق ، ١٩٨٨م .
- ابن طولون : **أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى** ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٤م .
- = = = = : **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** ، تحقيق محمد مصطفى ، جزءان ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- ابن غلبون : **تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ولي ملك طرابلس ومن كان بها من الأخبار** ، نشره وعلق عليه الطاهر الزاوي ، (د.ن) ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ .
- ابن إياس : **بدائع الزهور ووقائع الدهور** ، تحقيق محمد مصطفى ، ٥ أجزاء ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .
- أبو العباس ، أحمد المقري : **رحلة المقري إلى المغرب والمشرق** ، تحقيق محمد بن معمر ، الطبعة الأولى ، مكتبة الرشاد ، الجزائر ، ٢٠٠٤م .
- = = = = : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، ٨ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .

- = = = : روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس ، الطبعة الثانية ، (د.ن) ، (د.م) ، ١٩٨٣م.
- = = = : أزهار الرياض في أخبار عياض ، ضبطه وحققه وعلّق عليه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شبلي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩م.
- الإدريسي ، الشريف : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مجلدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، (د.ت) .
- الإفريقي ، ليون : وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، محمد الأخضر، جزاءن ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٣م.
- البلوي ، خالد بن عيسى : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، جزاءن ، صندوق الإحياء الإسلامي ، الرباط ، ١٩٨٠م.
- البيطار، عبد الرزاق : حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر ، حققه ونسقه وعلّق عليه حفيده محمد بهجت البيطار ، ٣ أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩١م.
- التونسي ، محمد بيرم الخامس : صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار ، ٥ أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، (د.ت) .
- الجبرتي ، عبد الرحمن : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ضبطه إبراهيم شمس الدين ، ٣ أجزاء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧م.
- الحلاق ، أحمد البديري : حوادث دمشق اليومية ، تحقيق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٩م.
- الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، ٥ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧م.
- الخياري ، إبراهيم بن عبد الرحمن : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، ٣ أجزاء ، (د.ن) ، بغداد ، ١٩٨١م.
- الدمشقي ، ميخائيل بريك : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢م ، تقديم وتحقيق أحمد سبانو ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٢م.
- الزباني ، أبو القاسم : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً ، حققه وعلّق عليه عبد الكريم الفيلاي ، (د.ن)، الرباط ، ١٩٩١م.
- = = = : البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف ، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، الطبعة الأولى ، مركز الدراسات والبحوث العلوية ، المغرب ، ١٩٩٢م.

- السنوسي ، محمد : **الرحلة الحجازية** ، تحقيق علي الشنوفي ، ٣ أجزاء ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٨م.
- = = = : **مسامرات الظريف بحسن التعريف** ، تحقيق وتعليق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، (د.ت) .
- الشدياق ، طنوس : **أخبار الأعيان في جبل لبنان** ، تحقيق مارون رعد ، جزءان ، دار نظير عبود ، (د.م) ، ١٩٩٥م.
- الشهابي ، أحمد حيدر : **قصة أحمد باشا الجزائر** ، تحقيق وإعداد عبد العزيز جمال الدين ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٨م.
- الصباغ ، ميخائيل : **تاريخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد** ، نشره وعلق عليه قسطنطين باشا المخلصي ، مطبعة القديس بولس ، حريصا ، (د.ت) .
- الصفدي ، أحمد الخالدي : **لبنان في عهد فخر الدين المعني الثاني** ، تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٦٩م.
- العبدري ، أبو عبد الله محمد : **رحلة العبدري** ، تحقيق وتقديم علي إبراهيم كردي ، الطبعة الأولى ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- العياشي ، عبد الله بن محمد : **الرحلة العياشية (١٦٦١ - ١٦٦٣)** ، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ، جزءان ، الطبعة الأولى ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، الإمارات العربية ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٦م.
- فريد ، محمد بك : **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، تحقيق إحسان حقي ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨١م.
- القادري ، محمد بن الحبيب : **نشر المئاتي لأهل القرن الحادي عشر والثاني** ، تحقيق محمد حجي . أحمد التوفيق ، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى ، مكتبة الطالب ، الرباط ، ١٩٨٢م.
- القاياتي ، محمد عبد الجواد : **نفحة البشام في رحلة الشام** ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١م.
- القساطلي ، نعمان : **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء** ، الطبعة الثانية ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٢م.
- المحبي ، محمد الأمين : **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** ، ٤ أجزاء ، (د.ن) ، القاهرة ، ١٨٦٥م.

— المرادي ، محمد خليل بن علي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، ٤ أجزاء ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، (د.ت) .

— المكناسي ، محمد بن الوهاب : الإكسير في فكك الأسير، حققه وعلّق عليه محمد الفاسي ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ١٩٦٥م.

— = = = = : رحلة المكناسي " إحرار المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب " ، تحقيق محمد بوكبوت ، الطبعة الأولى ، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ، الإمارات العربية ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ٢٠٠٣م.

— عبد الغني النابلسي ، رمضان بن موسى العطيبي : رحلتان إلى لبنان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، اسطفان فيلد ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت ، بيروت ١٩٧٩م.

— النابلسي ، عبد الغني : التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية ، حققه وقدم له هربرت بوسه ، مكتبة الثقافة الدينية ، (دم) ، (د.ت).

— = = = : الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ، تحقيق ودارسة أكرم حسن العلبي ، الطبعة الأولى ، دار المصادر ، بيروت ، ١٩٩٠م.

— الناصري ، أبو العباس خالد : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٨ أجزاء ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م.

ثالثاً — المذكرات :

— الجزائري ، الأمير عبد القادر : مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني ومحفوظ سماتي ومحمد الصالح أّجون ، دار الأمة ، الجزائر ، ٢٠٠٧م.

رابعاً — المراجع العربية :

— ابن سودة ، عبد السلام بن عبد القادر: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٧م.

— أبّيش ، أحمد : وصف دمشق في القرن السابع عشر من مذكرات الرحالة الفرنسي الفارس دارفيو ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٨٢م.

- أحمد ، رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي ، جدة ، (د.ت) .
- الأرقش ، عبد الحميد الأرقش وآخرون : المغرب العربي الحديث من خلال مصادره ، مركز النشر الجامعي ميدياكوم ، (د.م) ، ٢٠٠٣م.
- إسماعيل ، عمر علي : انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا ١٧٩٥ — ١٨٣٥ ، الطبعة الأولى ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ١٩٦٦م.
- إسماعيل ، ندى جميل : قادة وأعلام ، المركز الثقافي اللبناني ، بيروت ، (د.ت) .
- الأيوبي ، إلياس : محمد علي سيرته وأعماله وآثاره ، دار الهلال ، مصر ، ١٩٢٣م.
- بوعزيز ، يحيى : بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ، الطبعة الأولى ، نشر وتوزيع المكتبة الشرقية ، (د.م) ، ١٣٧٦هـ .
- بيات ، فاضل : دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء المصادر والوثائق العثمانية ، الطبعة الأولى ، دار المدى الإسلامي ، بيروت ، ٢٠٠٣م.
- التازي ، عبد الهادي : القدس والخليل في الرحلات المغربية رحلة ابن عثمان نموذجاً ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة — إيسيسكو — ، الرباط ، ١٩٩٧م.
- = = = : التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم ، ١٠ مجلدات ، (د.ن) ، (د.م) ، (د.ت).
- الجزائري ، بديعة الحسني : ناصر الدين الأمير عبد القادر الجزائري بن محيي الدين الحسيني ، الطبعة الأولى ، دار سلام للترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٩١م .
- جلال ، حسن : قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوربي ١٨٨٣ — ١٩٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥م.
- الجبلاي ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام ، ٥ أجزاء ، الطبعة السادسة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣م.
- حجي ، محمد : موسوعة أعلام المغرب ، ١٠ أجزاء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٠م.
- حسن ، محمد عبد الغني : المقرري صاحب نفح الطيب ، (د.ن) ، (د.م) ، (د.ت) .
- حسني ، محمود حسين : أدب الرحلة عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣م.
- حسون ، علي : العرب والدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، دار الرؤية ، دمشق ، ٢٠٠٥م.
- الحلاق ، حسان : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر ، الدار الجامعية ، (د.م) ، ١٩٨٧م.

- الدوري ، عبد العزيز : التكوين التاريخي للأمة العربية ، الطبعة الأولى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م.
- رافق ، عبد الكريم : العرب والعثمانيون ١٥١٦ — ١٩١٦ ، الطبعة الثانية ، (د.ن) ، دمشق ، ١٩٩٣م.
- = = = : المشرق العربي في العهد العثماني ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، ٢٠٠٢ — ٢٠٠٣م.
- = = = : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ — ١٧٩٨م) ، الطبعة الثانية ، (د.ن) ، دمشق ، ١٩٦٨م.
- الزركلي ، خير الدين : الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء ، ٨ أجزاء ، الطبعة السادسة عشرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ٢٠٠٥م.
- زكي ، محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، شركة نوابغ الفكر ، القاهرة ، ٢٠٠٨م.
- السيد ، سيد محمد : مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٧م.
- السيوفي ، حبيب : سوريا وفلسطين ولبنان كما وصفها أحد مشاهير الغربيين ، جزءان ، دير المخلص ، صيدا ، لبنان ، ١٩٤٨م.
- شراب ، محمد محمد : معجم بلدان فلسطين ، الطبعة الأولى ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، ١٩٨٧م.
- الشلق ، أحمد زكريا وآخرون : محمد علي وعصره ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٥م.
- الشيخ ، رأفت : تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، (د.م) ، ١٩٩٤م.
- الصباغ ، ليلي : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٩٨٢م.
- = = = : فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو ، الطبعة الأولى ، دار المصادر ، بيروت ، ١٩٩٦م.
- الصليبي ، كمال سليمان : تاريخ لبنان الحديث ، الطبعة السادسة ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٨٤م.

- صياغة ، نايف : الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٥م .
- طربين ، أحمد : تاريخ المشرق العربي المعاصر ، المطبعة الجديدة ، دمشق ، ١٩٨٥—١٩٨٦م .
- عبد الكريم ، أحمد عزت : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠م .
- عبد الوهاب ، حسن حسني : خلاصة تاريخ تونس ، الدار الوطنية للنشر ، تونس ، ١٩٨٦م .
- العزاوي ، عباس : موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ مجلدات ، الدار العربية للموسوعات ، (د.م) ، (د.ت) .
- العسلي ، بسام : الأمير عبد القادر الجزائري ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٠م .
- العسلي ، كامل جميل : معاهد العلم في بيت المقدس ، الطبعة الثانية ، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان ، ١٩٨٤م .
- = = = : القدس في التاريخ ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٢م .
- عمر ، عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ١٥١٦—١٩٢٢م ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) .
- عنان ، محمد عبد الله : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- فارس ، محمد خير : تاريخ المغرب الحديث والمعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، (د.ت) .
- قصاب ، أحمد : تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١—١٩٦٥م) ، تعريب حمادي الساحلي ، الطبعة الأولى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٨٦م .
- قلعي ، قدری : مدحت باشا ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٤٧م .
- قنديل ، فؤاد : أدب الرحلة في التراث العربي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الدراسات العربية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .
- الكتاني ، عبد الرحمن : فهرس الفهارس ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات ، اعتناء إحسان عباس ، ٣ أجزاء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، (د.ت) .
- كحالة ، عمر رضا : معجم المؤلفين تراجم مصنفی الكتب العربية ، ١٥ جزءاً ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .
- كرد ، علي محمد : خطط الشام ، ٦ أجزاء ، (د.ن) ، دمشق ، ١٩٣٥م .

- محافظة ، علي : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٥م.
- محفوظ ، محمد : تراجم المؤلفين التونسيين ، ٥ أجزاء ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٢م.
- مخلوف ، محمد بن محمد : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ومكتباتها ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ .
- مدني ، عمر : أعلام الجهاد العربي ، الدار المتحدة ، بيروت ، ٢٠٠٠م.
- مؤنس ، حسين : الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٣٨م.
- الميلي ، مبارك بن محمد الهلالي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ٣ أجزاء ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، (د.ت) .
- الوافي ، محمد عبد الكريم : يوسف باشا القرماني والحملة الفرنسية على مصر ، الطبعة الأولى ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ١٩٨٤م.
- ياغي ، إسماعيل أحمد : العالم العربي في التاريخ الحديث ، الطبعة الأولى ، مكتبة العبيكات ، الرياض ، ١٩٩٧م.
- يحيى ، جلال : المغرب الكبير ، ٣ أجزاء ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م.
- = = = : العالم العربي الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، المكتب الجامعي الحديث ، (د.م) ، ٢٠٠١م.

خامساً — المصادر والمراجع المعربة :

- أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، الطبعة الثامنة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م.
- إيتين ، برونو : الأمير عبد القادر الجزائري ، ترجمة ميشيل خوري ، الطبعة الأولى ، دار عطية للنشر ، بيروت ، ١٩٩٧م.
- إيفانوف ، نيقولاوي : الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ — ١٥٧٤ ، نقله إلى العربية يوسف عطا الله ، الطبعة الثانية ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٤م.
- بازيل ، قسطنطين : سوريا وفلسطين تحت الحكم العثماني ، ترجمة طارق معصراني ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٩م.

— بروشين ، نيكولاي إيلتش : تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين ، ترجمة وتقديم عماد حاتم ، الطبعة الثانية ، (د.ن) ، بيروت ، ١٩٩٩م.

— بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومدير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨م.

— بيركهارت ، جون لويس : رحلات في سوريا والأراضي المقدسة ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة الجديدة ، دمشق ، ٢٠٠٧م.

— حتّي ، فيليب . جرجي ، إدورد . جبور ، جبرائيل : تاريخ العرب ، الطبعة الثانية عشرة ، دار الكشف ، بيروت ، (د.ت) .

— روسي ، أنوري : ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ ، ترجمة وتقديم خليفة محمد التبليسي ، الطبعة الثانية ، الدار العربية للكتاب ، (د.م) ، ١٩٩١م.

— الزمرلي ، الصادق : أعلام تونسيين ، تقديم وتعريب حمادي الساحلي ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦م.

— سامح التز ، عزيز : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة محمود عامر ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٩م.

— الشريف ، محمد الهادي : تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، تعريب محمد الشادش ومحمد عجينة ، الطبعة الثالثة ، دار سراس للنشر ، تونس ، ١٩٩٣م.

— شيلشر ، لنذا : دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ترجمة عمرو الفلاح ودينا الملاح ، مراجعة عطايف مارديني ، الطبعة الأولى ، دار الجمهورية ، دمشق ، ١٩٩٨م.

— عبد السلام ، أحمد : المؤرخون التونسيون في القرون ١٧ و ١٨ و ١٩م ، نقلها من الفرنسية إلى العربية أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة ، تونس ، ١٩٩٣م.

— فارجيت ، جي : محمد علي مؤسس مصر الحديثة ، ترجمة محمد رفعت عواد ، الطبعة الأولى ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م.

— فيرو ، شارل : الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، نقلها وحققها محمد عبد الكريم الوافي ، الطبعة الثانية ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ١٩٨٣م.

— كراتشكوفسكي ، أغناطيوس : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان ، جزءان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

— لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، الطبعة الثامنة ، (د.ن.) ، بيروت ، ١٩٨٥م.

— لورتيت : أرض الذكريات : ٣٠٠ لوحة رائعة من القرن الماضي — سوريا — لبنان — فلسطين — الأردن — رحلة الدكتور لورتيت عميد كلية الطب في ليون (فرنسا) ، ترجمة حميد شلق ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤م.

— لونكريك ، ستيفن هيمسلي : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله إلى العربية جعفر الخياط ، الطبعة الخامسة ، دار الرافدين ، بيروت ، ٢٠٠٤م.

— مانتران ، لوبير : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، جزءان ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٩٣م.

— المحجوبي ، علي : انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، تعريب عمر بن ضو وحليمة فرفوري ، الطبعة الثانية ، دار سراس للنشر ، تونس ، ١٩٩٣م.

سادساً — المجلات والدوريات :

— التاريخ العربي : إصدار جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، العدد ١٠ ، ١٩٩٩م.
— = = = = = العدد ١٤ ، ٢٠٠٠م.
— = = = = = العدد ٢٠ ، ٢٠٠١م.
— = = = = = العدد ٤٦ ، ٢٠٠٨م.
— التراث العربي : إصدار اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد ٩٨ ، حزيران ٢٠٠٥م.
— = = = = = العدد ١١٠ ، حزيران ٢٠٠٨م.
— دراسات تاريخية : مجلة علمية فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب تصدرها جامعة دمشق ، لجنة تاريخ العرب ، العدد السادس ، ١٩٨١م.

— الفكر العربي : إصدار معهد الإنماء العرب ، بيروت ، العدد ٥١ ، ١٩٨٨م.
— مجلة الثقافة ، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر الجزائري ، الجزائر ، العدد ٧٥ ، ١٩٨٣.

— مجلة الحوليات الأثرية السورية ، إصدار مديرية الآثار العامة ، دمشق ، ١٩٦٥م.
— مجلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ١٣٨ ، ١٩٨٩م.

— مجلة قضايا عربية ، بيروت ، العدد الثالث ، تموز ١٩٧٩م.

سابعاً — الموسوعات :

— المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري : بإشراف العماد مصطفى طلاس ، ٥ مجلدات ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م.

— الموسوعة الفلسطينية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٩٠م.

ثامناً — المصادر والمراجع الأجنبية:

- Anderson , R.C, **Naval Wars in the Levant 1559 –853**, Liverpool, 1952.
- Browne , W, G, **Travels in Africa ,Egypt, and Syria from years 1792 to 1798** , London , T . Cadell Junior and W. Davies, 1799 .
- Cook ,M . A, **A History of the Ottoman Empire to 1730** , London , New York , Melbourne , 1976.
- Inalcik , Halil , **The Ottoman Empire the Classical age 1300-1600**, Weldenfeld and Nicoloson , London , 1973.
- Maundrell , Henry , **A Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697**, Beirut, Khayats , 1963 .
- Rafeq , Abdul Karim , **The Province of Damascus 1723- 1783** , Beirut Khayats, 1966.
- Shaw , Stanford , **History of The Ottoman Empire and Modern Turkey**, London , New York , Melbourne , 1978.
- volney . M.C. F. **Travels though Syria , Egypt in the years 1783 – 1784 and 1785**, two Volumes, London , 1972.
- Wolf, John, **The Barbary Coast- Algeria under The Turks** , New York, London , 1979.